

إلياس يسينيرلين



الثلثية

الجزء الثاني
إلياس

Ілияс Есенберлин

«Көшпенділер» трилогиясының араб тіліндегі басылымы

БІРІНШІ КІТАП

«Алмас қылыш»

Қазақ жазушысы Ілияс
Есенберлиннің «Көшпенділер»
трилогиясының араб тіліне
аудармасы мен басылымы
Қазақстан Республикасының
Мысыр Араб Республикасындағы
Төтенше және Өкілетті Елшісі
Берік Арынның бастамасымен
және Қазақстан Сыртқы істер
министрлігінің көмегімен жүзеге
асырылды.

تم ترجمة وإصدار ثلاثية الأديب الكازاخي الشهير
«الرحل» بمبادرة من سعادة سفير جمهورية
كازاخستان في جمهورية مصر العربية
«بيريك آرين» وبدعم من وزارة الخارجية
بجمهورية كازاخستان .

رئيس مجلس إدارة ورئيس تحرير
دار النشر
د. حسين الشافعي

المراسلات

القاهرة - مدينة العبور

44971 مكتب بريد جمعية أحمد عربي

ص. ب. 72

Tel. & Fax: + (202) 24698170 & 8071

E-mail: secertary_ert@yahoo.com

ترجمة
د. محمد رياض

الإخراج الفني
أحمد عثمان

تصميم الغلاف / مي مجدي

التصحيح والمراجعة
أ / خالد بيومي

الطباعة
دار الطباعة المتميزة
مدينة العبور - القاهرة
Tel. & Fax: (+2) 0100 6 44 00 11

الطبعة الأولى 2016
جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة للناشر.
لا يحق إعادة طبع أو نسخ محتويات هذا الكتاب
إلكترونياً أو صوتياً
دونما إذن كتابي من الناشر.

رقم الإيداع
23655 / 2016

الرحل الثالثة

الجزء الثاني

اليأس

إلياس يسينبيرلين



مقدمة

ولد مؤلف ثلاثية الرخل والتي نقدم ترجمة الجزء الثاني منها تحت عنوان : "اليأس" الكاتب الكازاخي الشهير "إلياس يسينبيرلين" عام 1915م في مدينة "أبباسار" بمحافظة "كمولينسكايا"، وتزامنت طفولته وصباه مع أحداث مؤسفة للغاية عانى منها الشعب بأكمله من تحولات اجتماعية ومجاعات وفقر مدقع ، والتي جرت في العشرينات والثلاثينات من القرن الماضي ، وقد تضاعف شعور إلياس بهذه الأزمات بعد أن صار يتيماً وهو في الخامسة من عمره، فتم إيداعه في دار للأطفال، وبعد أن أنهى مدرسته الابتدائية سافر إلى كيزيل - أوردا وأكمل تعليمه بها. وفيما بعد التحق بوظيفة في مدينة "كارساكباي"، وتقدم بطلب للالتحاق بالدورات الخاصة للإعداد لمعهد التعدين والمعادن في آلماتا وصار طالباً في معهد التعدين.

في عام 1940م أنهى إلياس دراسته في معهد التعدين والمعادن الكازاخي وأرسل للعمل في "جيزكازغان"، إلا أنه تم استدعاؤه من قبل الجيش الأحمر في الخريف من نفس العام وقد أكمل دراسته في مدرسة ريجا العسكرية السياسية وخرج إلى الجبهة ، وفي عام 1942م أصيب بجروح خطيرة في ساقه ، وقضى عاماً في المستشفى العسكري، وفي عام 1943م عجز عن العمل وعاد إلى كازاخستان، وتم منحه ميداليتان - الأولى «للخدمات القتالية» والثانية «للدفاع عن ليننجراد»، عمل إلياس كمعلم في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي في كازاخستان ، وفي نهاية الحرب تزوج إلياس من ابنة مفوض الشعب الحقوقي حمزة جوسوبيكوف الذي كان قد حكم عليه بالاعدام رمياً بالرصاص عام 1937م. قبض على إلياس عام 1949م ، وحُكم عليه بالسجن لمدة 10 سنوات، وأمضى نصف مدة عقوبته كمهندس تعدين . وعندما فك أسرهِ عمل في وزارة الجيولوجيا بكازاخستان - و بعد ذلك عمل كمدير إدارة في مناجم بيرسوجير. قبل إلقاء القبض عليه كان إلياس قد كتب مجموعة من الأشعار من ضمنها قصيدة «عائشة» و«سلطان» عام 1945م ومجموعة «أغانى الشرف» عام 1949م وانتقل فيما بعد للكتابة السردية ، ومن ضمن أعماله «رواية عن الإنسان» عام 1957 ، «على ضفة النهر» عام 1960. منذ عام 1958م عمل



كمحرر في هيئة التحرير وكاتب سيناريو للاستديو السينمائي «كازاخفيلم»، ومنذ عام 1962 م - عمل كمحرر بدار نشر كازاخستان الحكومية الأدبية ثم عمل كسكرتير اتحاد الكتاب بكازاخستان (1971 - 1975) ، ومنذ عام 1975م تفرغ للعمل الإبداعي والذي كان ثمرته 15 رواية خلال 16 عام بمعدل رواية كل عام .

مسيرة الإبداع في حياة يسينبرلين :

بدأ يسينبرلين في عام 1945 م نشر مجموعات من القصائد والأشعار ، واختبر نفسه في الدراما وكتب مسرحية «الصراع في الجبال» ، وتم تقديم هذه المسرحية على مسرح الدولة للشباب ، ولاقت إقبالاً مبهرًا، وصارت منذ ذلك الحين مكوناً مهماً في الموروث الثقافي الكازاخي .

كما كتب إلياس عدداً من الروايات الاجتماعية الواقعية ومن ضمنها «المعركة» عام 1966 م - عن المهندسين الكازاخين (وحصل على جائزة الدولة بجمهورية كازاخستان السوفيتية الاشتراكية عن هذه الرواية عام 1968 م) ، « العبور المحفوف بالمخاطر» عام 1967م - عن إقامة السلطة السوفيتية في كازاخستان ، و« العشاق » عام 1968 م.

اتجه الكاتب فيما بعد إلى الأعمال التاريخية مثل : الثلاثية الملحمية الزحل: «خان كيني» عام 1969م ، «السيف المسحور» عام 1971 م و « اليأس » عام 1973 م، وقد شكلت هذه الروايات الثلاثية الشهيرة «الزحل» والتي تتضمن الأحداث في البرية الكازاخية منذ القرن الخامس عشر حتى منتصف القرن التاسع عشر ، وتتناول مكونات الشعب الكازاخي والعلاقات المتبادلة المتشابكة مع جونغاريا والصين وخوارزم وبخارى والإمبراطورية الروسية.

إلى جانب ذلك ... كانت هناك روايات أخرى فيما بعد من بينها : «الدروع» عام 1947، « الجياد الذهبية تغفو» عام 1976 م ، « جبهة مانجيستاو» و « الوصية» وصدرت عام «1978» و «الجزر النائبة» عام 1983 ، و «عيد الحب» و « غبطة الأوز الأبيض» وصدر كلاهما عام 1984 م . وكتاب يتكون من ثلاث روايات تحت مسمى « الزورق العابر للمحيط»، والتي يحكي فيها عن أخلاق المفكرين الكازاخين ، ولم يتم نشر هذا الكتاب لمدة طويلة ، إلا أنه تم نشره ومجموعة أخرى من الأعمال بعد وفاة الكاتب .

منذ عام 1979 حتى عام 1983 م نشر الكاتب ثلاثية : « القبيلة الذهبية»، والتي تتكون من روايات : « رأس أيداخار السادس» ، «ست عقول لأيداخار» ، «أيداخار والتنين الكازاخي» و « هلاك أيداخار» والتي يحكى فيها عن أصول الشعب الكازاخي .



ترجمت أعمال الكاتب إلى لغات عدة، وتم إصدار الملايين من النسخ منها (ما يزيد عن 8 ملايين نسخة)، وتعد الروايات التاريخية لإلياس من الأعمال العظيمة في ثقافة كازاخستان.

ثلاثية «الرُحُل»

لا يوجد فعلياً في الأدب الكازاخي قبل إلياس يسينبيرلين من كتب عن تاريخ الشعب الكازاخي مثلما كتب هو، وقد وصفت ثنائية مختار أوزوف «طريق أباي» حياة المجتمع الكازاخي في القرن التاسع عشر، أما ثلاثية الرُحُل فقد وصفت البرية العظمية قبل العصر المنغولي و عصر جنكيزخان و القبيلة الذهبية، وسردت تاريخ تكوين الخانية الكازاخية في القرن الخامس والسادس عشر، ونضالها لعدة سنوات مع جونغاريا، وعن فترة ضم البراري الكازاخية إلى روسيا.

يحكى لنا إلياس يسينبيرلين في ثلاثيته قصة الدولة الكازاخية وقبيلتها الذهبية في سرد روائي أدبي فريد، وهو تاريخ نظام الدولة في كازاخستان الذي يعود إلى نحو ثلاثة آلاف سنة. أما الدولة بمفهومها الحديث فقد جُسدت بإنشاء أول مملكة كازاخية منذ 550 عام. كان السلطان كيري والسلطان جانيبك أول حاكمين للكازاخ قاما برسم معالم الدولة الكازاخية في منتصف القرن الخامس عشر، وذلك بعد أن انفصلا عن الخان أبو الخير الحاكم لأقوى دولة في العصور الوسطى، وهما القبيلة الذهبية. كان الشعب الكازاخي دوماً جزءاً مهماً من هذه القبيلة الذهبية.

الشعب الكازاخي بطبعه شعب محب للحرية، رسم له معالم هذه الحرية شخصيات بارزة على امتداد تاريخه منها: خان حكنزار، وخان تاوكي وخان أبيلاي، وخان أبو الخير، وغيرهم. وساهمت هذه الشخصيات في بلورة معالم الدولة، وتكوين ثقافة وتقاليد الشعب الكازاخي. شهدت الخانية الكازاخية مداً وجزراً على مر العصور، وتفككت إلى خانات صغيرة نتيجة صراعات داخلية وهجمات عدوانية فظيعة لعل أكثرها دموية ما تعرضت له في ثلاثينات القرن الثامن عشر.

وهكذا... كانت نهاية الخانية الكازاخية كدولة مستقلة موحدة في منتصف القرن الثامن عشر، حيث بدأت علاقات اندماج لتاريخ كازاخستان مع الامبراطورية الروسية.

يتناول الكاتب - في حوار له حول هذه الثلاثية - ملاحظات ميلاد هذا العمل فيقول: «فكرت طويلاً في ثلاثية الرُحُل» في عام 1945 م، وفي عام 1960م إتجهت للعمل على



ثلاث روايات هي ثلاثيتنا التي نحن بصددھا- ويرجع السبب في طول فترة الاعداد لهذه الثلاثية ببساطة إلى أن المادة التاريخية تتطلب المثابرة والدقة المتناهية من المؤلف.

في عام 1969 م صدر الجزء الأول من الرواية تحت عنوان «قاهر» («خان كيني» مترجمة إلى الروسية) عن الخان الكازاخي الأخير خان كينيسار ، وبعد عامين صدر الجزء الثاني ويضم : «الماس كيليش» و«السيف المسحور» ، وبعد عامين آخرين - صدر الجزء الثالث «سكرة الموت» ، «اليأس» . وقد شكلت هذه الأجزاء الثلاثة سوياً الثلاثية التاريخية الشهيرة «الزُحُل» التي تصدر طبعها العربية - لأول مرة - بجهد دؤوب ، عمل الدكتور محمد رياض على إنجاز الجزء الأول والثاني من هذه الملحمة بترجمتها للغة العربية ، راجعت الجزء الأول منها الأستاذة نورا عبده والجزء الثاني الأستاذ خالد بيومي فلهم الشكر الجزيل والتقدير العميق لجهدهم.

تقدمت الثلاثية لنيل جائزة الدولة باتحاد الجمهوريات السوفياتية الاشتراكية عام 1980 م ، إلا أن مجموعة من إتحاد كتاب كازاخستان قاموا بكتابة خطاب تنبيه عن الكاتب للجنة وتم تحييه الكتاب جانبا.

صدرت رواية «الزُحُل» في البداية كثلاثية عام 1976 م ، وصدرت فيما بعد باللغة الروسية 12 مرة بإجمالي عدد من النسخ وصل إلى أكثر من ثلاثة ملايين نسخة ، وصدرت مترجمة إلى 30 لغة من لغات العالم لـ 50 مرة بإجمالي عدد نسخ وصل حوالى خمسة ملايين نسخة (طبقاً لاحصائيات عام 2010 م).

هذا وقد قال رئيس دولة كازاخستان نور سلطان نازارباييف معقباً على الرواية «إحتلت ثلاثية «الزُحُل» الشهيرة مكانة خاصة في إبداع إلياس يسينبيرلين ، وتتميز بالأبعاد الملحمية وديناميكية الأحداث، والنماذج الحية والفريدة للشخصيات البارزة في تاريخ كازاخستان، وأيضاً بلغتها الدقيقة والمعبرة» .
في عام 2005 م تم إنتاج الفيلم التاريخي «الزُحُل».

الجزء الأول من الثلاثية : «السيف المسحور» بين أيديكم يحكى قصة وتاريخ شعب عظيم...متفرد... يستدعي إلى الذاكرة العراقية... والأصول... والموروثات الثقافية لهذا الشعب ، والأن بين أيديكم الجزء الثاني من ثلاثية الرحل «اليأس» إستكمالا لهذا العمل الموسوعي ، فهيا إليه...

د. حسين الشافعى

لهز (رف)

الجزء الأول



من الجنوب الشرقى تحيط بالسهوب الكازاخية أعلى الجبال في العالم ، على هيئة حدود حصان عملاقة تمتد لمسافة ألف كيلومتر . وتمثل هذه الجبال الحدود الطبيعية لتلك الجهة المفتوحة لكل الرياح الطيبة والسيئة . وأنه لمن الصعوبة بمكان اجتياز هذه الجبال . غير أنه في أحد الأماكن ، حيث تنخفض ، وتنزوي في الأرض السلسلة الجبلية «تيان شان» تبرز فقط في الدخان الضبابي جبال «ألتاي» وهي مثل البوابات التي شكلتها الطبيعة ، ومن هناك مع الرياح الجليدية العاتية ، قرنا بعد قرن ، شنت الآلاف من الغزوات الدموية المتوالية على السهول الأوراسية الشاسعة . ومن هناك تدفقت موجة بعد موجة من جحافل «أتيلا» ، و «تومينات» جنكيز خان (التومين- وحدة عسكرية تتكون من عشرة آلاف جندي، والتومين- جزء من النظام العشري الذي استخدمته شعوب الترك والمنغول لتنظيم جيوشهم- المترجم) ، والكتائب الفنجفورية مجهولة الهوية . واجتاحت الأعاصير الكبيرة ، والصغيرة ذلك الشعب القديم ، الذي كان لقرون يرعى القطعان ، ويبني المدن ، ويزرع الأراضي بالقرب من الجبال ، ثم مضوا قدما عبر السهوب الكازاخية ، مخلفين ورائهم الرفات والعظام . لذلك منذ القدم بمجرد أن تشتعل النيران الدلالية على التلال ، كان يهرع كل قادر على حمل السلاح في السهوب إلى هنا ، ليقطعوا الطريق على العدو بأجسادهم ...

عند البوابات الجونغارية دارت لمدة أسبوع كامل رحى معركة ساخنة بين الميليشيات الكازاخية والقوات الصينية النظامية . قام الصينيون مثل الذئاب ، بتقطيع الناس إربا فنمت هناك بين الجبال زهور دموية . زحف الجنود الصينيون بصعوبة بالغة فوق جبال من الجثث ، غير أن القائد غير المبال ذي الوجه المتجمد استمر ، كالعادة ، يدفعهم إلى الأمام غير عابئ بشيء . ساروا خلفه ككتلة زرقاء مجهولة المعالم ، واقتربوا من المحاربين الكازاخ ، وتساقطوا على الأرض كعشب الشتاء الغث . في اليوم الثامن جاء البوجد يخان (الإمبراطور الصيني المترجم) «كانسي» إلى مكان المعركة في محفة من الحرير الأخضر يحملها أربعون من العبيد .

سأل البوجد يخان قائد جيشه على الرغم من أنه يعرف من أفراد الاستطلاع العديدين طبيعة الأمور :

كيف تدور المعركة ؟

إنحنى قائده الذي يشبه وجه المرأة العجوز ، حيث لاشارب له ولاحية ، حتى قارب الأرض ثم قال :



تدور المعركة يا سيدي «البوجد يخان» تحت شعار الكلب ...
كان هذا يعني أن المعركة تجري بنجاح متذبذب مثل الكلاب المتصارعة على
عظمة.

كانت عينا «البوجد يخان» غير مكترثتين مثلما لدى قائد جيشه ، وقال له : إنك
أحمق . إن المعركة تدور تحت شعار المياه . فمهما قطعتها بالسيف فإن الأمواج تتدفق
على أية حال ... ثلاثة مائة سنة و سلالة «تان» تغرس السيف في السهوب ثم اضطرت أن
تتحمى بسور حول نفسها ! ..

جثم القائد أكثر على الأرض ، وباعد بين يديه المنتفختين . وكان هذا يعني طلباً
منه للسؤال ، وطاعة كاملة.

تكلم البوجد يخان بهدوء ، وبكلام منغم ، وكان لكلماته حفيف مثل ريش
المروحة فقال :

يقاتلون النمر بالرأس ، وليس باليدين ... النمر أمامك ... وهل ترى بجورك نمر آخر ؟
زأغت عينا القائد على قوائم المحفة .

قال البوجد يخان :

- هذا النمر الآن خلف ظهرك ... إن «الأويرات» المتوحشين ، العصاة يرهبون وسط
العالم ، حيث مستقر عرشنا . والجدار القديم لا يمثل لهم أي عائق . فلماذا لا نطلقهم عبر
هذه البوابات إلى نمر آخر ؟ ..

صنع «البوجد يخان» علامة بيده ، ورفع القائد عيناه .

قال «البوجد يخان» :

- ألقى للنمر الأويراتى قطعة لحم أخرى خلف هذه الجبال . ثم أقدم بعد أن يمزق بعضها
البعض ، وتكون دمائها كافية فقط ليصلا إلينا زحفا ، ويلعقا أيدينا ..

قال القائد :

- من الممكن أن يهرع نمر لنجدة نمر آخر ، ويكون أكبر حجما . إنني أتحدث عن
«لوسيا» أيها البوجد يخان العظيم .

نظر البوجد يخان إلى الغرب من خلال بعض رؤوس المتقاتلين بعيدا في مكان ما وقال :



- نعم، أتذكر «لوسيا». ولكن حين تأتي، سيتحول هذا النمر السهبي إلى ثور. والثور لديه جلد كبير. ويمكن التضحية بجزء منه للقادم متأخراً ..

قال القائد سمعا وطاعة يا سيدي!

كان هذا إشارة للتراجع إلى الخلف.

في اليوم التالي أرسلت سفارة كثيرة العدد محملة بالهدايا إلى الحاكم الأويراتي.....



I

كانت بلد الكازاخ مثل ذبيحة طازجة معدة لاحتفال الكوكبر (الاحتفال القديم بتخاطف وتمزيق الماعز). لقد استعد الأعداء من جميع الجهات المختلفة لهذه اللعبة الدموية، وكذلك في داخل البلاد لم تأخذ الكثير من السلاطين - اللاعبين - سنة من النوم. فمن سيكون الأقوى مع الصياح والصفير سينتزع من الآخر الذبيحة النازفة ويقبض عليها بساقه في السرج، وينطلق إلى النار المشتعلة؟ ولكن طوال الطريق سيحاولون إنتزاع الذبيحة من تحت قدميه، وتمزيق قطع اللحم والساقين والرأس ...

وتحسبا لكل هذه البلبلة الدموية كان يجب على شخص ما أن ينظر، ويتدبر، ويحدد كيف ينقذ شعباً بأكمله في الرياح الأربعة للتاريخ. كان ينبغي السماح للخبرة، والحكمة، والثبات الشعبي أن يقولوا كلمتهم الصعبة والمسموعة. ولم يكن هناك شك في أن من ينقض أولاً يكون هو أكثر اللاعبين قسوة ...

منذ مئتي عام، لم يعد هناك وجود للخانية التي أنشأها جنكيز خان المغولي. ومع نقل العاصمة من قبل قوبلاي خان، ومن «قرة قورم» إلى بكين لم تعد في حقيقة الأمر منغولية. ولكن السلالات البوجد يخانية، والإمبراطورية اللاحقة إستغلت ذلك الأمر، وصارت تطالب من قرن لقرن ليس فقط بالأراضي المنغولية القديمة، ولكن تقريبا بكل البلاد التي غزاها في زمن ما ذو اللحية الحمراء «مزلزل الكون» ولم يجدوا في أنفسهم حرجا في أن «بكين» كانت تحت قدم المحتل، الذي فكر في وقت ما أن يحول الإمبراطورية السماوية كلها إلى مراع مهجورة للماشية.

لم يكن الأمر سهلا على العديد من القبائل والعشائر التي كانت جزءاً من الاتحاد القبلي المنغولي العظيم، عندما انهارت دولة جنكيز خان. وكان الأمر أكثر صعوبة على العشائر الغربية مثل الأويرات، وتشوراس، وتورجوات، وتوليوت، وتوليجوت التي انضمت فيما بعد جزئياً إلى الدولة الجونغارية المرتحلة، ثم إلى دولة الكاميك الترحالية. وتحت الضغوط المستمرة - بلا كلل ولا ملل - فقدوا مراعيهم القديمة «دجايلياو»،



واضطروا في بحثهم عن مراعى جديدة إلى التحرك للغرب . وهذا الأمر قد أسعد البوجد يخانات الصينيين تماما (بغض النظر عن السلالة التي ينتمون إليها) والذين رأوا في هذه القبائل الحربية كما لو كانت رأس الحربة لتوسعهم في السهوب الكازاخية ، وسيبيريا ، وآسيا الوسطى . وعندما خرج بعض الحكام الجونغاريين من ربة هذة السياسة الماكرة ، ووجهوا أسلحتهم ضد الصينيين ، ثم القوات المنشورية ، قاموا بتدميرهم بشكل ممنهج ، وبلا رحمة . وأبادوا قرى كاملة من الزحل بشيوخها ونسائها وأطفالها .

وقد رحلت العديد من العشائر إلى سيبيريا ، وإلى إيرتيش ، وجبال ترياغاتاي ، وزاحموا السكان الأصليين . وذهب آخرون إلى أبعد من ذلك ، وعبروا السهوب الكازاخية ، وأسسوا ما وراء نهر الفولجا ، عند أستراخان دولة الكالميك .

منذ ثلاثينيات القرن السادس عشر ، كان الحكام الأويرات الذين استقروا في جبال «ترياجاتاي» ، وفي السهول الفيضية للنهر ، أعلى ضفاف بحيرة «زايسان» ، يشنون سنويا غارات دموية على المراعي الكازاخية ، والقرغيزية . وقد تدهور الوضع تدهورا كبيرا ، عندما قامت هنا الخانية الجونغارية الكبيرة ، التي وحدت حولها القبائل والعشائر غير الموحدة من قبل . وكان على رأس الخانية الحاكم «الأعلى» «باتور بن حارا حولا» . وقد اتخذ مقره شمال بحيرة «زايسان» في الروافد العليا لنهر «إيرتيش» . واستطاع أن يبسط نفوذه على العديد من القبائل المنغولية الغربية ، وأصبحت الخانة الجونغارية قوة تقض مضاجع السياسيين الصينيين .

بعد وفاة «باتور» الذي واجه «تاوكي خان» مرارا وتكرارا ، ثم واجه «الخان يسيم» أصبح يحكم جونغاريا في البداية أحد أبنائه «سايجا» ، ثم ابن آخر «جالدين» . بناء على أوامر الإمبراطور الصيني عاقب القبائل المنغولية الشرقية الثائرة ذات القرابة بقسوة بالغة . ولقد خلت منغوليا من الناس بعد غاراته الانتقامية الدموية . لكن بعد ذلك كشر الكونتائيتشى (الحاكم الجونغاري - المترجم) «جالدين» عن أنيابه تجاه الصين . ونقل مقره إلى الحدود الصينية ، وأراد إستعادة الأرض المنغولية التي استولى عليها الصينيون . ولكن بعد أن تلقى الكونتائيتشى «جالدين» ضربات موجعة على رأسه بوحشية لأكثر من مرة من قبل قوات الإمبراطورية السماوية القوية أقدم على الانتحار ...



ولم يكن ابن أخيه «سيبان رابتان» الذي استولى على السلطة في جونغاريا بأقل منه عناداً . فلم يترك الأضي الكازاخية، وأراضي تركستان الشرقية تنعم بالهدوء، الأمر الذي ساعده فيه الساسة المانشو والصينيون بأريحية بالغة، وأغار مراراً على الصينيين الذين لم يسكنوا الأراضي المنغولية السابقة. وفي عام ١٧١٤م قام بالتعاون مع ابنه «جالدين تسيارين» بنهب المدينة الصينية هالي». حينئذ أصدر الإمبراطور «كانسى» من الأسرة المنشورية الجديدة «تشيونغ» فالين (مرسوماً) يقضي بنزع كافة الأراضي المتاخمة للصين، وعضواً عن ذلك يطلق يد «الكونتياشي» في آسيا الوسطى، وكازاخستان. بناءً على طلب الإمبراطور الصيني تقرر انعقاد القورتلاي (مجلس الحكم) الجونغاري الخاص. وفي حالة الرفض هدد الإمبراطور الجونغاريين بالإبادة الجماعية. ولم يعد أمام الكونتياشي من خيار سوى السير في الطريق، الذي رسمه البوجد يخان. ونقل «سيبان رابتان» مقره للخلف، وغمرت قواته الغفيرة الأنهار السبعة، والسهوب الكازاخية....

بمجرد أن خف الضغط الجونغاري على حدود الصين، تحولت الغارات المكثفة صوب كازاخستان، وآسيا الوسطى، تم فتحت الترسانات الصينية مرة أخرى للكونتياشي. وظهر من جديد بين قواته المتنافرة، المستشارون العسكريون المانشو، والصينيون الذين كانوا في نفس الوقت يراقبون بعناية هل يفكر «سيبان رابتان» المخادع في أن يوجه سلاح فرسانه مرة أخرى ضد الإمبراطورية. وقد ساهم المواطن الروسي السويدي المولد الرقيب «رينات»، الذي وقع في الأسر خلال إبادة الحملة الروسية «بوخجولز» علي أيدي الجونغاريين قرب «أوست كامن» مساهمة كبيرة في تنظيم القوات الجونغارية.

في ذلك الوقت كانت بلاد الكازاخ مثل المراعي الصيفية الضخمة حيث كانت قطعان الخيول تتجول بدون راع ذي خبرة، وكان كل فحل سيد علي قطيعه، ويقوم على حمايته بغيرة شديدة. وكلما كان هذا الفحل -الزعيم- أكثر قوة، وشراسة كان القطيع يشعر بالأمان نسبياً، ويرعى بحرية حتى دون وجود أي مدافعين عنه. وكانت الذئاب السهبية تتجنب هذا القطيع لعلمهم أن الفحل لن يدعهم يعيشون في هذا المكان. فالفحل الأشهب عادة لا يدع قطع الذئاب يقترب من قطيعه، فبمجرد إن يراهم حتى يسهل بوحشية، ويدق الأرض بحوافره الصلبة، ويعض، ويضغط بصدرة القوى ...

منذ العصور الغابرة كان بايات، وفرسان العشائر أسياداً مسيطرون على السهوب. كانوا يقررون إلى أين ترحل العشيرة في الربيع أو أين تقضي فصل الشتاء، ويتولون



أمور العدالة، وإصدار العقوبات . وقد قام العديد من المحاربين من القبائل والعشائر المجاورة بالتصدي لمن يسرقون الماشية. وفي بعض الأحيان كانوا يذهبون لمساعدة الجار المرتحل، وليس أكثر من ذلك . وأمام الغزوات الكبيرة ، كان زعماء القبائل المتباينة لاحول لهم ولاقوة ...

في ذلك الوقت أصبح «بولات» الابن الثالث للخان «تاوكي» ، وحفيد «يسيم خان» الخان للأجزاء الثلاثة - المسماة بالقبيلة الكبيرة - ، لكنه كان ضعيف الإرادة، ذو مرض مزمن ، ولم يحظ بالهيبة اللازمة في السهوب .

كان الخان «ساميكي» شقيقه الأصغر الحاكم الفعلي للجزء الأوسط . علاوة على ذلك لم ينصاع خان الجزء الأصغر «أبو الخير» للخان «بولات» . وكان يحكم الجزء الأقدم ، أو الأكبر في ذلك الوقت أيضا شقيق أبي الخير الأكبر السلطان «جولباريس» ، الذي لم يكن أيضا صاحب نفوذ كبير . وقد عاشت الفروع العديدة لعشيرة «نايمان» على الرغم من دخولهم في الجزء الأوسط بشكل منفصل على حدود السهوب الكازاخية مع جونغاريا ، وكانوا يشعرون أنهم خانية منفصلة . وقد كان يحكمهم حينذاك أحفاد «شاجاي» «سلطان باراك» و «سلطان كوتشك» .

لم يكن أمرا سيئا أن القبيلة البيضاء ما زالت على قيد الحياة ، وإن كانت في مثل هذا الشكل المنقسم . وكان الفضل في ذلك يعود تحديدا للخان السابق «تاوكي» ، الذي كان يلقبه الشعب ، وليس من قبيل المصادفة ، «أز تاوكي» أي «تاوكي الحكيم» ربما أن «تاوكي خان» أول من أدرك خطورة التهديد الجونغاري ، ومكر السياسة المانشو الصينيين . وكان هو الذي أدرك تحديدا فوائد تقارب روسيا وكازاخستان ، حيث تجلت في هذا الوقت عبقرية بطرس الأكبر بكل أبعادها . وبالفعل في عام ١٧٠٢ م بعث سفير بلاده إلى القلعة الروسية على ضفاف بحيرة «ياميش» ، ولكنه وقع في كمين نصبه الأويرات ، ثم لقي حتفه . وفي عام ١٧١٥ في شهر «كوزتوكسان» أي في نهاية فصل الصيف وصلت بعثة كبيرة من قبل «الخان تاوكي» برئاسة «تاخمور بك» إلى مدينة «أوفا» . ونيابة عن القيصر الروسي أرسل نائبه على مدينة «أوفا» رسالة سلام ردأ على هذا البعثة . لكنها لم تجد «خان تاوكي» على قيد الحياة .



على الرغم من أن الخان «تاوكي» لم يكن ذا سطوة مثل أسلافه ، ولم يبسط سلطانه على جميع الأراضي الكازاخية ، لكنه في السنوات الصعبة من الانهيار والتفتت للأراضي الكازاخية فعل كل ما بوسعه . وقد خاض العديد من المعارك ، وتصدى للنزعات العدوانية لحكام «بخارى» ، و«خيوة» ، و«كوكاند» . غير أن الفضل الأساسي له تمثل في التصدي الدائم بالتحالف مع العشائر القيرغيزية لاعتداءات الحكام الجونغاريين ...

في عهده أعطيت دفعة تاريخية طبيعية للتقارب مع روسيا . وعندما توفي «أزتاوكي خان» واصل ورثته بطريقة تقليدية إتباع نفس السياسة . وقد رد على الفور عمه «كايب» ، الذي حل محله على رسالة حاكم مدينة «أوفا» ، وسرعان ما أرسل رسل لحاكم سيبيريا الأمير «جاجارين» في مدينة «توبولسك» . وترأس البعثة أكثر الناس احتراماً من الجزء الأوسط «يكيش أولى بك» ، و«بوري أولى بايدواليت أسكال» . وفي الخطاب الموجه إلى «القيصر الأبيض» تطرق الحديث عن التحالف الفعلي وهذا نصه : «نحن جميعاً نريد بصدق أن نكون معكم في سلام أبدي، ووفاء، ومن أجل العمل المشترك ضد الكونتاتيتشي، يمكن على الفور تخصيص كتيبة قوامها عشرين أو ثلاثين ألف رجل ...»

بالفعل كان الشعب بأكمله ، وليس بعض الحكماء فقط ، يدرك أنه لمواجهة هذا التهديد المرعب من جهة الشرق يمكن لبلد الكازاخ أن يجد دعماً حقيقياً من جانب روسيا . وبدورهم أكد سفراء الخان «كايب» للحاكم أن قادة العشائر الكازاخية وبعض الفرسان ، الذين سيهاجمون المدن والقوافل الروسية سوف يعاقبون بالقتل ، أو سيرسلون للمحاكمة في «توبولسك» . و يجب أن يسود سلام طويل ودائم على خط الحدود .

وقد أرسلت رسائل مماثلة إلى «قازان» ، و«أوفا» .

أرسل الأمير «جاجارين» على الفور رسالة الخان الكازاخى إلى سانت بطرسبرج . وأبدي مجلس الشيوخ رضاه عنها ، ووافق عليها القيصر بطرس شخصياً . ولكن لأنه يعلم من الذي يدفع الحكام الجونغاريين إلى الصدام مع الحكام الكازاخ ، ومن الذي تنساب المياه أثناء ذلك في طاحونته دعا الخان الكازاخى إلى الحذر . وفي الوقت نفسه قام



المبعوثون الروس بجس التربة عند «الكونتاييتشى» نفسه ، عازمين على منع الاستفزاز الوشيك . وأبلغوه بتعليمات القيصر بطرس التي تقضى بأن «القبيلة القيرغيزية - الكايساتسكية يجب أن تعيش في وئام ليس معنا فقط ، ولكن عليها أيضا أن تتجنب المواجهات العسكرية مع الدول الصديقة أو التابعة لنا» ...

لكن في الحقيقة ، لا أحد يشك أنه عاجلا أم آجلا ينبغي لنا أن نتوقع هجوما وشيكاً من قبل جونغاريا . وأرسل الأمير «جاجارين» إلى خان تركستان بعثة بقيادة ابنه النبل «نيكيتا بيلا أوسوف» . وكانت مهمته التعرف على دولة الكازاخ ، ودراسة اقتصادها ، واحتياجاتها في حال اندلاع حرب وشيكة . أمضى «نيكيتا بيلا أوسوف» سنة كاملة في مقر الخان ، وفي مضارب الرحل الكازاخية . وفي رسائله اقترح بقوة دعم الخان الكازاخ في صراعه ضد الحاكم الجونغاري .

أصبح التقارب الحتمي مع روسيا - تاريخيا ووصولاً إلى الحصول على المواطنة الروسية - سياسة «كايب خان» ، والخان «أبو الخير» بشكل طبيعي . وكما لو كان لتأكيد صحة هذه السياسة فقد نشب في عام ١٧١٧ م صراع دموي قرب منطقة «أيجوز» مقابل البوابات الجونغارية ، عندما كانت طليعة قوات «سيبان رابتان» تهاجم القوات الكازاخية الموحدة . وأدرك الجميع أن هذا هو نفس الاستطلاع للمعركة الذي عادة ما يقوم به قبل الغزو الكبير جنكيز خان ، الذي يتذكر أتباعه وصيايه في القبائل المختلفة من قرن إلى قرن ...

في نهاية عام ١٧١٧ م بناء على أوامر القيصر بطرس تم تجهيز سفارة مفوضة خاصة إلى السهوب الكازاخية برئاسة «بوريس بيرانتسيف» . وفي يوم الحادي والعشرين من الشهر الثاني من «كوزتوكسان» ، أوفي عام ١٧١٨ م وفقا للتقويم الروسي دخلت البعثة الأراضي الكازاخية ، وفي الخامس من شهر «كوكيك» الموافق تقريبا لشهر مايو الروسي كان هناك لقاء رسمي مع خان الجزء الأصغر «أبو الخير» . وبعد أن تلقى الدعم العسكري منه ، توغلت السفارة في عمق السهوب ، ووصلت تركستان إلى مقر «كايب خان» في يوم الخامس والعشرين من شهر «كوزتوكسان» .



اقتنعت السفارة بالإمكانات غير المحدودة للتجارة ، وتطوير العلاقات مع السهوب الكازاخية . كانت هناك طرق رائعة تؤدي لآسيا ، وخاصة إلى الهند التي اجتذبت روح بطرس الأكبر الحساسة . كان الوصول الواسع إلى الأسواق الآسيوية التقليدية يجعل الإمبراطورية الروسية على الفور قوة أوروبية عظمى ، وكانت الإزاحات السلمية الجارية في اتجاه واحد أو آخر ، تنعكس على العديد من البلاد والشعوب المتخلفة في تلك الحركة . وبطريقة أو بأخرى ، ساعد تألق روسيا - مع كل ويلات ، ومظالم التوسع الاستعماري - الشعب الكازاخ ، وشعوب آسيا الوسطى في البقاء على قيد الحياة ، والبقاء في التاريخ .

وقد أوضحت حقيقة أن البعثة وصلت تركستان دون أي صعوبات إلى أي مدى ذهبت بعيدا علاقات الصداقة بين روسيا والخانات الكازاخية . إذ أنه قبيل ذلك بقليل بضعة أشهر في «خيوة» المجاورة بناء على أوامر الخان تم عن طريق المكر قتل كتيبة روسية قوامها ٥٠٠ جندي بقيادة الأمير «دالفيت كيزدين مورزا» أو «ألكسندر بيكوفيتش تشيركاسكي» كما كان يسمى في الجيش الروسي .

غير أنه بعد وقت قصير من رحيل بعثة «بيريانتي سيف» أبدت يد مجهولة «كايب خان» . وحتى الآن غير معلوم ملابسات وفاته ، ولكن وفقا للأحداث التالية يصبح من الواضح من استفاد من ذلك . وقد غرق الخان «بولات» خائر العزم ، وضيق الأفق في النزاعات بين عشائر الجزء الأوسط . والآن لا تخضع له الأجزاء الأخرى حتى اسميا . والآن لم يعد أحد يتحدث مع روسيا نيابة عن بلد الكازاخ . وفي البوابات الجونغارية كانت يقف على استعداد للقتال ٧٠٠٠٠ من فرسان «سيبان رابتان» مع بعض المدافع ، وقد لاحت في الأفق بوضوح أشباح التنين الصيني الإمبراطوري ...

في كثير من الأحيان كانت السهوب الكازاخية تقدم المحاربين الشجعان ، والبواسل ، ولكن من الذي سوف يجمعهم معا ، ومن الذي سيقودهم في المعركة من أجل المصالح المشتركة؟ وكقطع لراع كانوا لا يفترون عن بايات ، وشيوخ ، وفرسان عشائريهم . وهؤلاء بدورهم لم يكونوا يرغبون في أن يخضعوا لأحد . لم يكن في وعيهم السياسة الكبرى . ولم يوجد من بين هؤلاء السلاطين الكثر شخص يجرؤ على المطالبة بالسلطة الكلية . وكان يروق لزعماء القبائل خانات أجزاءهم المطيعين ، ضعيفي الإرادة . وكان هذا هو المنطق الطبيعي للنظام القبلي .



لكن الحكومة القيصريّة كانت تتعامل بحذر غير عادي ، وحصافة مع شؤون آسيا الوسطى على افتراض أنه عاجلاً أم آجلاً ستضطر إلى إقامة علاقات مع جميع المشاركين في المأساة الوشيكة. وفي نفس الوقت الذي توجهت فيه السفارات إلى السهوب الكازاخية، وأرسلت السفارات إلى جونغاريا ، وبعد وفاة الخان «كايب» غير المتوقعة اتخذت وضعية الانتظار على أمل الحصول على أكبر قدر من الفائدة من الوضع الراهن .

تكتيك قطع الذئب المتحفزة لصيد الغزلان دائما ما كان يتواجد في مثل هذه الحروب التي كان يستعد لها الكونتيايتشى «سيبان رابتان» . وقد تولى قيادة الجيش الجونغارى البجادور (الفارس - البطل - الشجاع - المترجم) «شونودابو» الشقيق الأصغر للكونتيايتشى . ومن المفترض أن الغزو سيجيء من الشرق على جناحين . أحد الجناحين يسير عبر جبال «كاراتاو» ، والسهول الفيضية لنهرى «تشو» و «تالاس» . أما الجناح الآخر فيسير عبر منطقة نهر «تشيرتشيك» . من أجل ذلك تم تقسيم الجيش إلى سبعة أجزاء ، وسوف يقوم كل جزء بتنفيذ مهامه الخاصة . أحدهما سيقوم بتخويق ضحيته ، والآخر سيدفعها للكمين المعد لها ، والثالث سيطاردها حتى الأنهاك ، والرابع سيطبق على حلقتها ...

اتخذت فرق الكونتيايتشى المقسمة إلى سبع فرق - قوام كل فرقة منها عشرة آلاف من الجنود - بقيادة شقيقه «شونودابو» مواقف الاستعداد لغزو الأراضي الكازاخية عند منابع الأنهار ، وعلى المنحدرات الجبلية . وقد دكت في الأرض بجانب كل مقر ، رايات رسم عليها صورة التنين . اتخذ التومين الأول (فرقة مكونة من عشرة الاف جندي - المترجم) موقعا على سفوح جبل «آلاتاو» ، قرب بحيرة «بالكاش» . وكان على رأسه «جالدين تسيرين» ابن الكونتيايتشى . واحتشد التومين الثاني بين نهري «كوكتال» و «كوتيريك» شمال نهر «إيلي» بين جبال «ألتين إيميل» ، و «كوبين» وكان يقوده الباتير (البطل) «خورين» أخ الكونتيايتشى . والتومين الثالث ، الذي وطد أقدامه على الضفة الشرقية لنهر «نارين» ، كان تحت قيادة حفيد الكونتيايتشى ذا السابعة عشر عاما «أمورسام» . وكان يقود التومين الرابع «سيبان دورجي» ذو الثمانية عشرة من عمره ابن «جالدين تسيرين» عند منابع نهر «تشيليك» . وعلى شاطئ بحيرة إيسيك كول ، وبين نهري «أكسو» و «كويسو» رفع علمه ابن «جالدين تسيرين» الثاني «لاما دورجي» قائد التومين الخامس . وعند التقاء نهر «كيبين» الكبير مع نهر «تسو» تمرکز التومين



السادس للنيون (الأمير) «دودا دورجي» من عشيرة ميركيت. أما التومين السابع فكان تحت إمرة الكونتياتشي «سيبان رابتان» نفسه، والراية الأهم كانت ترفرف فوق خيمته المذهبة بالقرب من أسوار مدينة «كولدج» ...

اختار الكونتياتشي الجونغاري فصل الربيع الأكثر ملاءمة للقيام بالغزو. كان يعلم أنه في تلك الأثناء كان رعاة الماشية الكازاخ يقضون الوقت في خصاء الخيل البالغة من العمر عامين، ولن تستطع نصف القطعان المشى لمسافات طويلة لمدة أسبوعين. وكان من الصعب على قطعان الأغنام التي وضعت حملها للتو التحرك في هذا الوقت. إلى جانب ذلك تتضخم خلال فصل الربيع أثناء الفيضانات العديد من أنهار السهوب، والتي لن تشكل عقبة خطيرة لسلاح الفرسان، ولكنها ستعوق مسيرة القطعان الأليفة.

هذا هو أول أيام الربيع الدافئة. وتماماً مثل الأغنام، والأبقار، والكلاب وغيرها من الحيوانات قبيل وقوع الزلزال شعر الناس في السهوب بذلك في هذا اليوم. خيم الهاجس المخيف، بوقوع البلاء على السهوب. وحملت الرياح من جهة جبال «ألأتاو» روائح حارة من الزهور التي أزهرت في أوانها. وعلى ما يبدو أيضاً تفوح برائحة دماء طازجة في السهوب ... ويعد ذلك في أحد الأيام انتشرت شائعة عبر السهوب عن مذبحة وحشية في تركستان. وكان هذا ينذر بشيء فظيع ...

كانت «نوربيكي» واحدة من زوجات الخان «تاوكي» من عشيرة «ألتين خان» العريقة والجليلة. ذات مرة منذ زمن بعيد توجهت مع ابنها «أبلاي» البالغ من العمر عامين لزيارة أقاربها البعيدين، وتوفيت هناك. فكتب والداها إلى خان تركستان خطاباً جاء فيه «لقد فقدنا ابنتنا الوحيدة. ونضب نهرنا المقدس، الذي كان يروى عطشنا، وخبا الشعاع الوحيد، الذي كان ينير طريقنا في ظلمة الحياة. ولتكن بذرتها على الأقل السلوى لنا في الكبر، فدع ابنك «أبلاي» يبقى معنا حتى سن البلوغ. فلديك أطفال آخريين، وسوف نحافظ عليه كقرة أعيننا. وعندما يكبر سوف يجد بنفسه منزل والده ...

لم يرد الخان «تاوكي» أن يغضبهما، ووافق على ترك «أبلاي» البالغ من العمر عامين ليقوما بتربيته. من الواضح أن الحب المفرط أسوأ من الكره الحصيف. فعندما ظهر السلطان «أبلاي» في منزل والده بعد خمسة عشر عاماً ارتجف الخان «تاوكي» بطريقة



لا إرادية . كان ابنه أسمر، وعظامه بارزة ، وذو عينين واسعتين جاحظتين ، ومنتفختين كعيون الأغنام ، والتي يقرأ فيهما بوضوح شيء ما غير إنساني . كانتا لا تومضان ، وتنظران بذبول مثل عيون الميت . وفاحت مثل رائحة القبر على والده . وتذكر أنه وفقا للحكايات كان لدى «شاجاي خان» نفسه تلك النظرة الغريبة ...

مع ذلك لم يعط الخان «تاوكي» أهمية كبيرة لانطباعاته ، وسرعان ما زوج ابنه من فتاة جميلة في الخامسة عشر من عمرها تدعى «زرين» وهى الابنة الصغرى لصديقه القديم حاكم قيرغيزستان صاحب السطوة «تيس» . وخصص لابنه قطعان لا تحصى من الخيول ، وأقام له بالقرب منه خيمة بيضاء كالثلج الأبيض مع قرية كاملة من العبيد . وبعد مرور عام أنجبت الجميلة «زرين» ولدين توأمين رائعين . وتسميا بأسماء والى وبلخي .

في يوم الوليمة احتفالا بميلاد أحفاده شهد الخان «تاوكي» قسوة ابنه غير المفهومة . كان أي رجل من الكازاخ الرجل قادر بدون أي إنفعالات لاداعى لها ذبح الأغنام أو ذبح فرس على العيد . ولكن لا أحد يقدم على ذلك محبة في القتل خاصة ابن الخان ، الذي لا يليق به فعل ذلك مطلقا .

لكن ابنه «أبلاي» أقدم على ذلك من تلقاء نفسه . فلقد أنتزع بشيء من القوة سكيننا من أحد التولينجوت ، وذبح بنفسه عددا لا يعد ولا يحصى من الماشية . وسال الدم من كلتا يديه ، واتقدت العيون الناعسة ، واشتعلت ببعض اللهب الحارق . نظر الناس إليه برعب ، وتمتم كبار السن من الرجال بالدعوات .

في البداية أرجع الخان «تاوكي» طبيعة ابنه هذه إلى الصفات الوراثية للجنكيزين الذين كان الدم البشرى بالنسبة إليهم أرخص من الماء . ولكن ليس الأمر كذلك ، فقد كان الأكثر قسوة منهم غير مبالين ببساطة لسفك الدماء ، ولم يجدوا في ذلك متعه . بعضهم كان يحب الأغاني ، والبعض يحب المطاردة ، والبعض يحب النساء ، ولكن هاهم يحبون سفك الدم ...

أخذ الخان «تاوكي» يفكر على انفراد :



«لكن لماذا هو هكذا؟ ربما يكون «الألتينخانسى» قد مكروا بي بدلا من ابني هذا الفتى المتعطش للدماء؟ أم أنه عقاب من الله لذنوبي؟.. ثم تذكر الخان التعيس قصصاً عن الوقواق التي تضع بيضها في أعشاش الآخرين، أيقن أن الطبيعة عاقبتة بطريقتها، وبطريقة غير معروفة له. وحتى وفاته كان يخاف أن يبقى «أبلاي» مع أولاده الآخرين، وإذا اضطر إلى أن يسمح له بدخول القصر كان يصاب بالقلق أن يبقى هذا إلى الليل.

لكن الحكيم «أزتاوكي» لم يكن يعرف أن أحفاد هذا الابن المتعطش للدماء سيقدر لهم أن يرفعوا شأن عائلته. لقد قاد حفيد هذا «الأبلاي» «أبو المنصور» ابن «والي» القوات الكازاخية في سن الثامنة عشرة في إحدى المعارك مع الجونغارين مع صيحة «أبلاي»، وقد خلعوا عليه اسم جده المتعطش للدماء. وأصبح فيما بعد الخان الأسطوري «أبلاي». حدث هذا بعد مضي ما يقرب من ستين عاما، ولا يزال ابن الخان «أزتاوكي» يشتهر فقط بالقسوة...

بعد وفاة أبيه لم يلبث أن حقق جميع مخاوفه. وخوفا من هذا الوحش فر أحد أشقائه إلى «سيرام» والبعض إلى طشقند، وغيرهم سار على غير هدى. فإذا عشش في المنزل شعبان، فمن ذا الذي يمكنه أن يبقى مطمئناً؟

أصبحت تركستان تقريبا خالية من الناس. وخوفا من أبلاي، نقل الخان بولات مقره إلى العشائر الشمالية بالجزء الأوسط، ولم يبق أحد بالعاصمة السابقة للخانية. كانت معظم المنازل فارغة، وتجنبت القوافل الاقتراب من المدينة حيث عاش هذا الوحش. وأطلق عليه حتى أقرب الناس إليه «أبلاي السفاح».

وقد كان واحداً من أولئك الناس الذين بقوا في تركستان هو حاكم المدينة البجادور «كوذايبيردى» الذي يجعله الجميع. في هذه الليلة قام حراس «أبلاي» الشخصيين من المجرمين المختارين خصيصاً من السجون المختلفة بالتسلل جنباً إلى جنب مع سيدهم إلى قصر الحاكم المبجل كي يقتلوه، لكنهم لم يجدوا له أثراً. لقد قام أحد الأشخاص الطيبين بتحذير الحاكم بشأن القتل الذي يدبره، ففر قبيل المساء إلى «سايرام». ظلت بالقصر فقط «سولوأييم بيكي» زوجة الحاكم مع طفل رضيع. ولم يرد في الحكايات السهبية أي ذكر تقريبا عن حالات قتل النساء مع الأطفال حتى في حالات الانتقام من العدو. ولكن هذه المرة حدث ما لم يسمع به من قبل. لقد رأى أولئك الذين جاءوا



في الصباح من الخدم إلى سيدتهم ، جسد الأم وطفلها مقطعين قطعاً صغيرة . وتناثرت أشلاء أجسادهما في جميع أرجاء القصر . وتحدث الناس همساً أن الدماء سالت في هذا الصباح على أحجار ضريح الولي خودجا أحمد ياسافي...

تظاهر السلطان «أبلاي» في الصباح ، بعد أن شرب الشاي ، وتجول في القصر بعيون صافية بأنه لا يعرف شيئاً عما حدث . وبعد أن أمر بعدم السماح لأي شخص بالدخول إلى القصر جلس في مكان الحاكم ، وثني ساقيه ، ونثر الدم الذي لم يجف بعد بيده اليسرى على السجاد المغطى بالوبر ، ثم قال بتجهم :

- إبتداءً من اليوم أنا هنا الخان ، والإله .

صاح مساعدوه وحراسه من جميع الجهات :

- نعم أنت خاننا ، وإلهنا !

- وأنتم ... أنتم - رفقائي المخلصين !

- نعم .. نعم نحن رفقائك المخلصين ... أرسلنا حتى لقتال الأبالسة ، فسندهب خلفك ،

ياسيدنا الخان ..

- وإذا أردت أن أقتلكم ؟

- لتقل موتوا ، وسنموت ياسيدنا الخان !

- إذا فلتسمعوا أول طلب من الخان !

- سمعنا وطاعة ياخاننا العظيم !

ابتسم «أبلاي» ، وأضاء في عينيه لهب شيطاني حقيقي وقال :

- اليوم سنقيم وليمة عظيمة ... ولكن أي وليمة ستكون لنا دون رائحة دم العدو .

إن الوغد البجادور «كودايبيردى» لم يرغب في البقاء معنا ، ولذا فإننا سوف نتبل غداءنا اليوم بدماء شعبه ! ..

صاح الجلادون ، وصرخوا :

- الموت لهم !

لكن لم تقم وليمة دموية في ذلك اليوم ؛ لأن الباب فتح بركلة قوية ، واقتحم القصر

باتير(بطل) ضخماً مع أربعة من الحراس متشبسين به :



- العدو قادم ياسلطان «أبلاي» ..
لم تهتز أي عضلة في وجه «أبلاي» السفاح .
وسأل بصوت غير مبال :
- أي عدو؟
- الكونتيايتشي الجونغاري «سيبان رابتان» ... من الجهات السبع مع سبعين ألف محارب

تنهد «أبلاي» بتصنع ، وباعد بين يديه وقال :
- كثير جداً .
- إنني لدي فقط سبعين من الأتباع . فماذا يمكنني أن أصنع بهم ضد «سيبان رابتان»
الشهير؟
صاح البطل :
- لكن في جميع الأوقات تقدم ، تركستان المجيدة عشرة آلاف فارس في يوم واحد !
ابتسم «أبلاي» إبتسامة عريضة وقال :
- ليس لدينا شعب . لم يبق أحد ... يا للهول ستزهق الكثير من الدماء قريباً على الأرض
. وسيبقى على قيد الحياة قليل من الناس ! .. ستسفك الكثير من الدماء ... الكثير! ..

نظر البطل «كارا كيري كابان بك» من عشيرة «نايمان» بدهشة إلى السلطان
«أبلاي». وتلمظت شفاته ، ثم إسودت ، وصار فمه الكبير مضرجاً بالدماء . اتقدت عيون
السلطان بنار الجنون . قبض البطل الشهير لا إرادياً على مقبض السيف ؛ كى يقطع
بحركة واحدة رأس هذا الغول . لكنه تذكر جحافل الكونتيايتشي الجونغارية
الراكضة عبر السهوب ، والدخان فوق القرى فخفض يده . هذا الرجل الرهيب الجالس أمامه
من سلالة التوري الجنكيزيين ، وتحديداً ينبغي على هؤلاء التوري ، وفقاً للقواعد ، أن
يتولوا التصدي للعدو . فلقد نالوا هذا الشرف عبر القرون ...



صاح البطل «كابانباي»:

- وكيف تفكر، ياسلطان، في الدفاع عن المدينة المجيدة تركستان؟

- ومن قال لك إنني سوف أدافع عن هذا الكومة من الأنقاض المهجورة.. إنك قلت، أيها البطل، إن لدى الكونتاييتشى الجونغاري سبعة تومين من القوات...؟

- وما برأيك أن نفعل برأيك.. ماذا نفعل؟

- سأذهب إلى مكان ما مع الأشخاص المخلصين. ولیدافع الشعب الخسيس عن نفسه!.. أمسك البطل الذي لا ينتمي إلى طبقة «التورى» الحاكمة، وليس لديه الحق في التصرف في تركستان رأسه بين يديه... نعم، إن هؤلاء دائماً لا يهتمون بالآخرين. وكم من مرة كان على عامة الناس أن تدفع ثمن ثقتها العمياء في التورى! كلا، لن يقوم التورى بإنقاذ المدينة والبلاد. ولكن هناك في كل قرية رجال شجعان من الشعب، وفرسان من عامة الشعب. وإن الرعاة البسطاء يصبحون أسوداً عندما يهبون للدفاع عن مضارب ترحالهم!.. ينبغي على الفور دق ناقوس الخطر عبر السهوب، وقبل كل شيء يجب إرسال رسل إلى «الأجزاء» الأخرى، وإخطار «أبوالخير»، و«ساميكي خان»...

نهض «أبلاي» ببطء عن الوسائد، ووقف منتصباً.

سأل البطل:

- ولمن تتركون المدينة؟

- لابني «والى»...

ظهر في صوت «أبلاي» التعب، واللامبالاة. وخبت عيناه، واتخذت شكل النعاس مثل ضبع شبع من أكل الجيف.

قال «أبلاي»:

- إنني أعهد لحفيدي «أبو المنصور» بالدفاع عن المدينة! ثم توجه إلى الباب.

نظر المحارب في إثره بإندهاش. إن أبو المنصور حفيد الخان يبلغ بالكاد أربعة عشر عاماً...



كان البطل «كابانباى» ذاهبا عبر السهوب مع بعض محاربيه ، عندما وصل إليه خبر الغزو. وكانت تركستان المدينة الكازاخية الكبيرة الأقرب إليه ، فتوجه إليها مع بعض محاربيه ، راكبا الخيول البديلة . لم يفكر ، ولم يخمن أن المدينة توجد في هذا الوضع ، وأنه لا يوجد من يتولى الدفاع عنها ...

اندفع البطل «كابانباى» نحو الميدان وهو عبارة عن ساحة كبيرة أمام ضريح «خودجا أحمد ياسافي». وهناك عادة يتجمع الناس ، وتعلن المراسيم الخائبة ، وتقام المشانق للمحكوم عليهم بالإعدام ...

اتضح أنه وبدونه ، ولا يدري كيف أن الناس يعرفون بالفعل كل شيء عن الكارثة الوشيكة. ركب البطل ثلاثة خيول تباعاً من أجل أن يبلغهم الخبر، ولكن لم يتمكن أحد من معرفته. كان ، من الواضح ، أنه الحس الوطني . فكرفي ذلك البطل عندما شاهد المواطنين يقفون في صمت. وتعجب أيضا من تركستان المأهولة بالناس . في البداية فقط بدا أن المدينة مهجورة. وبمجرد أن سمعوا عن غزو العدو جاءوا جميعا إلى هنا ، أهل المدينة القادمين من الأهوار ، ومن القرى السهبية ، ومن الضواحي ، والمدن الأخرى المجاورة ، التي فرت من فظائع السلطان «أبلاي» وجلاديه . كان الجميع هنا ، فلقد جاء كبار السن من الرجال والنساء ، والسيدات ، والأطفال . كان القادرون على حمل السلاح يعتلون ظهور الخيل ممسكين بالرمح والهاويات ، والفؤوس القديمة . وكان هناك العديد من الرجال المترجلين مع مقاليع بسيطة . وتسليح العديد من الدراويش ، والعلماء ، والمريدين ، والطلاب ، والخدام الدينيين البسطاء أيضا بالسكاكين الطويلة بدلا من الإعتماد فقط على عون الله . كان الثلاثون ألف القاطنون تركستان واقفين هنا.

سأل البطل « كابانباى» الشيخ الواقف في مقدمة الناس أمام المسجد :

- أين الحاكم الجادور «كودايبيردى» ؟

- لقد هرب !

- من الجونغار؟

- لا، بل من أخيه المتعطش للدم البشري ...

تنحى البطل جانبا عن قصر الحاكم ، الذي غادره للتو :

- وأين «أبلاي» ؟



- لقد غادر أيضا !

طأطأ البطل رأسه ، وأخذ يفكر فيما يجب القيام به . وتنامى إلى سمعه مقتطفات من أحاديث الناس :

- يقولون إن السلطان «أبلاي» الذي يتغذى على الدم قد خلف وراءه ابنه السلطان «والى»...

- إن «والى» يستطيع أن يصلي فقط ، ولا يستطيع قتال الشورشوتيين !

- لقد تغلبنا على هؤلاء الشورشوتيين أكثر من مرة !

- الآن هناك سبعة تومينات (٧٠٠٠٠ ألف) قادمة إلينا . سبعة جبال تتنفس النار مغطاة بغيوم دامية ...

- أعداد الشورشوتيين لا تعد ولا تحصى . من الواضح أن نهاية بلاد الكازاخ المجيدة قد حانت ...

الشورشوتيون هو المصطلح الساخر للمحاربين الصينيين الذين قاموا بغزو هذه المناطق أكثر من مرة . وفي كل مره كانوا يلوذون بالفرار . والآن يطلق الشعب على «الجونغار» الشورشوتيين مدركين من يدفع الحاكم الجونغاري من الخلف .

ألقى «كابانباي» عنان فرسه إلى أحد محاربيه ، وصعد بخطوة حازمة على المنصة أمام المسجد وقال :

- يا شعبي ! ثم باعد بين يديه بشكل واسع تماما كما لو كان يريد أن يحتضن بهما الميدان كله والسهوب كلها حتى الأفق نفسه . - إننى لست من بلدكم ، ولكننا إلى نفس الجذر ننتمى جميعنا ، كبيرنا ، وصغيرنا ، أحمرنا وأسودنا ، والزحل منا ، والذين يحرثون الأرض .

- إنني المحارب «كابانباي» من عشيرة «كارا كيرى» ، فهل سمعتم عنى ..؟

- نعم سمعنا عنك ... نحن نعرفك أيها البطل المجيد «كابانباي»

- فلتقدنا ضد هؤلاء الشورشوتيين الملائعين !



- المجد للبطل «كابانباى» !

أرعى البطل «كابانباى» يده اليمنى بشكل حاد وقال :

- خطر رهيب لم يسبق له مثيل قادم إلينا . لقد هبت رياح الحرب من الشرق . ولم تجلب تلك الرياح الفرحة أبداً لمدننا وقرانا . إن الكونتيتاتشى الجونغاري ماهو إلا خادم لإمبراطور الشورشوتيين وهو قادم إلينا ليمحو بلد الكازاخ من على وجه الأرض . إن قوتنا في وحدتنا وصلابتنا . ولكن من أجل التصدي بنجاح لهذا العدو الغاشم ينبغي أن يكون لدينا قائد . أنهم ينتظروننى في مكان آخر ؛ لأن التنين الشورشوتى زحف في سهوبنا برؤوسه النارية السبعة . لكنني أشرح لكم بإخلاص أحد المحاربين الذي رأيته بالفعل في إحدى المعارك ، على الرغم من أنه ليس من عائلة نبيلة ، وصغير في السن . إن نبل المحارب الحقيقي يمتحن في المعركة والشباب هو مفتاح النجاح !

صاح الميدان بأكمله في حماس جماعى :

- قل لنا اسمه أيها البطل !

- نحن نستمع إليك أيها البطل «كابانباى» !

رفع البطل «كابانباى» يده ، وأشار إلى بطل آخر ضخم يقف بعيدا عن الناس :

- ها هو ذا «يلتشيببىك» الذي كنا نطلق عليه في وقت ما «بالا بالوان» ..

بالفعل كانوا يعرفونه في المدينة على الرغم من أنه كان يجيء من «تشيرتشيك» إلى هنا من وقت لآخر . كان البطل «يلتشيببىك» مثل النمر القوى فهو طويل القامة ، ومشدود ، و متمنطق بحزام عريض . وقد شارك في جميع المسابقات منذ أن كان في الخامسة عشر من عمره ، وكان دائما في مقدمة الفرسان . لهذا حصل على لقب «الصبى البطل» . وعلى الرغم من أنه كان قد تخطى العشرين من عمرة بقليل ، إلا أنه قد شارك عدة مرات في المعارك ضد الجونغاريين ، وحصل على رتبة قائد منه . وأدرك الجميع أن أصله غير النبيل فقط قد منعه من أن يصبح قائد تومين (عشرة الآلاف) في جيش الخان . وتناقلت الألسن حكايات عن أنه هو ومائتي فارس قد هزموا فرقة مكونة من خمسمائة محارب من الجونغاريين ، والخونخوزين ، وانتزعوا منهم كل الغنائم التي سلبوها من القرى المسالمة ...



- فلتقدنا أيها البطل «يلتشيبك» !
- شكرا لك على النصيحة المخلصة أيها البطل «كابانباي»...

تقدم البطل «يلتشيبك» إلى الأمام ، وانحنى للشعب بصمت . كان من غير الممكن أن تقرأ أي شيء على وجهه الصارم . وكان الجميع يدرك مدى صعوبة تلك المهمة المتمثلة في الدفاع عن هذه المدينة التي هجرها كل قادتها ؛ خوفا من الكونتاييتشي الجونغاري المرعب . لقد كان دفاعا بدون قوات نظامية ، وبدون ذخائر ، وبدون أي أمل في الدعم من قبل أي شخص .

في الجزء الخلفي من الميدان سمعت صرخات :
- أيها الناس أفسحوا الطريق ..
- أفسحوا الطريق للسلطان «والى» حامينا ..
- إلى هنا يا سلطاني ..

صعد إلى مكان مرتفع رجل في حوالى الثلاثين من عمره ذو وجه شاحب جداً برز شاربته الأسود من الجانبين . كان يرتدي معطفا من الديباج ، وقبعة عالية من السمور . لمحت عيناه السوداوان الذكيتان جموع الناس ، وارتعدت قليلاً يده التي تحمل كتاباً ذا غلاف أسود .

قال بهدوء :

- يا أهل مدينة تركستان ! - وعلى الفور خيم الصمت على الميدان . - لقد تركنى والدى مع ابني «أبو المنصور» البالغ من العمر أربعة عشر عاماً لتتولى الدفاع عن المدينة . ولكنكم تعرفون جميعاً أنني لم أمسك حربة في يدي من قبل . لقد كان لدى شغف آخر وهو العلم . لقد استمعت بسعادة بالغة حديث البطل المجيد «كابانباي» عن أن صديقى «يلتشيبك أوجلان» سيقود الميليشيات في هذه الساعة الصعبة . وعلى قدر قواي المتواضعة أعد بأن أكون مساعده الوفي ...

ومد السلطان «والى» المعروف بعلمه ، يده للفارس البسيط الذي صادقه منذ فترة طويلة . ودوى رعد التحيات في كل الميدان . لكن على الجانب الأيمن من المنطقة المرتفعة حيث كان يقف النبلاء والأغنياء صاح شخص ما يملؤه الغضب بشكل غاضب :



- لا يليق بالتورى أن يتنازل لأحد من البالاون ذوي الأصول الوضيعة ..

ردوا عليه الحشد الواقف بطريقتة ساخرة :

- عندما يرفع الشورشوتيون على حربتهم جسمك المفصول عن رأسك الغبي ، فإنك

ستصرخ حينئذ : المجد لجميع التورى الذين تركونا دون مساعدة !

أمر البطل يلتشيبك بصوت عال :

ليبق أولئك الذين يريدون، ويستطيعون محاربة العدو . أما الآخرون فليغادروا الميدان! وتقارب الناس ، وبدأوا في تقسيم أنفسهم إلى محاربين ، وأولئك الذين سيلعبون دوراً مساعداً أثناء الدفاع ، ذلك أنه لم يوجد أحد من البسطاء في مدينة تركستان إلا وقد فر منها في لحظة الخطر.

في صباح اليوم التالي غادر البطل المجيد «كابانباي» «تركستان» مع محاربيه . وعندما اقترب من مربيط الخيل أمسكوه من كفه برفق . التفت فرأى فتاة نحيلة ذات صفائر شقراء طويلة . لا يمكن أن نقول أنها جميلة ، ولكن كان هناك شيء ما ساحر بشكل غير عادى في أنفها الدقيق ، وعينيها البنية المتوحشة . وكانت تناسبها قبعة السمور التي كانت تحجب جبهتها العالية الصافية .

قالت الفتاة :

- اسمحوالي أن أودعكم حسب التقليديا باتيرنا ! وأمسكت بجراة زمام الحصان المحارب المشهور ، والذي يدعى «كوك داو» أي «العاصفة الزرقاء» . وأنه حقا ذولون أزرق ذلك الحصان الذي تغنى به في مئات الأغاني ، ويبدو أنه بضربة واحدة فقط من حافره يمكن أن يحول الفتاة إلى غبار . ولكن الحصان كان مذعناً ومطيعاً في يديها الأمر الذي أدهش البطل . ثم قالت الفتاة :

- خذ الزمام أيها البطل .

أخذ البطل منها الزمام ، وأمسكت الفتاة الركاب له حين كان يجلس فوق السرج .

سأل الفتاة وهو ينظر في عينيها :

- ما اسمك أيتها الفتاة؟



- اسمي «جوهر» أي «اللؤلؤة». إنني أخت المحارب مالياساري من عائلة باسينتين. مدت للبطل يديها البيضاء الدقيقة وقالت :

- صحبتك السلامة ... وليحفظك الله في المعارك.... ول...وليساعدنا أن نلتقي مرة أخرى ! ...

قال «كابانباي» بجديّة :

- فلتتحقق رغبتنا ! ثم ضرب المهاميز على الجانبين ؛ لتحفيز الجواد على السير . اندفعت الخيول المحاربة كالعاصفة مغادرة تركستان ، ودقت بحوافرها الثقيلة الجسر الخشبي فوق الخندق . التفت البطل «كابانباي» عندما صعد على التل . كانت الفتاة الصغيرة لاتزال واقفة عند مربيط خيل القصر الواضح جدا من هنا . رفعت يدها ممسكة بمنديل أبيض . ورفع البطل يده المحاطة بدرع أسود ثقيل .

صاح بكل ما أوتي من قوة :

- إلى اللقاء يا جوهر ! يا لؤلؤة ! . لكن الرياح أمسكت بكلماته ، وألقتها في مكان ما في السهوب .

كانت «جوهر» لاتزال واقفة ، وتنظر إلى السهوب الخاوية ...

في غضون ثلاثة أو أربعة أيام علمت بلاد الكازاخ كلها من الأنهار السبعة ، وجبال ألتاي إلى جايك ، وويسيل بنبا الغزو الغاشم . ولكن ماذا يمكنها أن تفعل وليس لديها جيش نظامي موحد ! دخلت رؤوس التنين السبعة في جسد البلاد مثل السكين في الزبد . وحرقوا على حين غرة مدن ، وقرى الأنهار السبعة ، وبلخاش ، وتركستان . ونقرت الغربان الجثث في الأنقاض بدون أية عوائق . منذ ذلك الحين سرت مقوله عن الأرض الملطخة بالدم البشرى ...

تمكنت بعض قرى الكازاخ ، والقيرغيز من النجاة بعد أن تركت ماشيتها الرئيسية ، وفرت إلى الجبال حيث لم تستطع خيالة الجونغار أن تصل إليهم . ولحق بغالبية السكان مصير مفزع . إقتاد الجونغار الشابات إلى معسكرهم ، وربطوا ضفائر كل فتاتين في



بعضهما البعض كي لا تهربا . وقاموا بقتل كل من كان قادراً على حمل السلاح في الحال ، واقتادوا الشيوخ ، والنساء ، والأطفال الذين لا حول لهم ولا قوة وهم يضربونهم بالسياط إلى الأماكن الجافة التي لا يوجد بها ماء ، حيث ماتوا من العطش . خلال الغارة على أي قرية كان العقاب يبدأ بأن يرفع « الجونغار » الأطفال دون سن السابعة على أسنة الرماح وهم يضحكون ضحكات وحشية . ثم يبدءون القتل على مرأى من الأقارب . ويقوم الآباء والأمهات بتمزيق شعورهم ، ويصابون بالجنون ، وهذا وحده هو الذي طوق النجاة حيث لم يكن جنود الكونتاي تشى الجونغاري يقتلون المجانين . أنهم هم الذين ميزهم الله ، ومن ثم فلا يمكن المساس بهم حسب التقاليد المنغولية القديمة . وقد جاب آلاف من هؤلاء المجانين السهوب ، وبدت كأنها امتلأت بصيحات وحشية وأنين ...

وفي غضون شهر اجتازت فرق الكونتاي تشى الجونغاري بالأسلوب القديم للغارات نصف السهوب ، ووصلوا إلى مدن تركستان الشمالية . وماذا يمكن أن يفعل المدافعون المسلحون تسليحاً ضعيفاً والذين تركوا بدون قيادة موحدة ؟ إستخدمت الآلات الكاسرة للأسوار التي صممت طبقاً للنماذج الصينية في ضرب الجدران المتداعية ، وعندما لم يفلح ذلك بدأوا الضرب بالمدافع .

إمتدت قوافل الهاربين في سلاسل لانهاية لها مثل طيور مهاجرة تخلفت عن أسرابها . وفر الناجون بأعجوبة من الأنهار السبعة ، ومن سواحل نهر تشو ، وتالاس ، ومن سفوح جبال كازيجروت ، و كاراسبان و كاراتاو ، على غير هدى . ورحل سكان مدن تركستان الشمالية الذين لم تدركهم خيالة الكونتاي تشى الجونغاري إلى الروافد العليا لنهر سيحون داريا ، وبحر آرال . وقد توجه اللاجئون من الجزء الكبير ، و من الجزء الأوسط ، بعد أن قاموا بالالتفاف حول مدينة « ساوران » ، وعبر السهول الفيضية لبحيرة ألاكول إلى فرغانة ، وأنديجان ، وسمرقند ، أما اللاجئون من الجزء الأصغر فقد توجهوا إلى خوارزم ، وبخارى .

تصف قصيدة « كالكامان مامير » الشهيرة الحب المأساوي للشباب « كالكامان » والفتاة مامير من عشيرة توبيكتا . يتهم زعيم الأرجين العجوز أنيت البالغ من العمر خمسة وتسعين عاماً ، وهو الجد ، والمعلم العادل ، وقاضي الجزء الأوسط المحارب الشاب كالكامان أنه وقع في حب قريبتة الجميلة مامير . ويتعين على كالكامان وفقاً لحكم أنيت العادل أن ينطلق على فرسه عبر صفوف من الرماة والذين سيرمونه بسهام



قاتلة. فإذا لم يصبه أي سهم فهذا يعني أنه غير مذنب، وستتم تبرئته. وبعبارة أخرى لن يعده أحد من رجال هذه العشيرة مذنباً. أما مسألة موته وحياته فيقررهما الناس ...

يندفع كالكامان خلال صفوف الرماة، وتنطلق نحوه سحب من السهام، غير أنه لم يلمسه أي واحد منها. ومع ذلك فإن المحارب الشجاع المستاء من حكم أنيت بابا لم يقلص من خطوات حصانه، وولى هاربا إلى الأنهار السبعة البعيدة. وتعد عشيرة توبيكاتا أفضل الخيول لتنطلق خلف فارسها. وفي هذا العام تحديداً يقع غزو الكونتياتشى الجونغاري. وتحكى الأغنية التاريخية عن ذلك في العبارات التالية:

في نفس العام غير الموفق
وقعت المعركة مع الجونغاريين ...
سيبان رابتان العاذق في الشؤون العسكرية
كان قائدهم .
ووقف الكازاخ والجونغاريين كالحائط
ليتحققوا كم من الجبناء في كل جيش
خمسة أبناء للجد أنيت قتلوا من ضرب السهام .
وارتعد الكازاخ ...
ثلاثة من كل خمسة
فقدوا في هذا المعركة الرهيبة !
ثم ركضوا إلى مدينة سارى أركا
وتركوا المراعي الساحلية الغنية ...
ولم يتم العثور من قبل ذويه
على كالكامان
لأن الوقت كان متأخرا للبحث عنه .
وبقى على طريق الهروب العجوز أني تبابا
وبقى ليموت وحيدا على التلال العارية ! ..



وجاء في قصيدة «الكامان - مامير» أن الجونغاريين قتلوا ثلاثة أخماس الشعب الكازاخي، وهذا أقرب إلى الحقيقة. مثل هذه الكارثة لم يشهدها الشعب الكازاخي من قبل. حتى جوجى في حملاته الشهيرة على مدينة سارى أركا، والسهول الفيضية لنهر سيحون داريا لم يقتل سوى ثلث السكان من الزحل المحليين. حقيقة الأمر أن جوجي كان في حاجة إلى حلفاء محاربين من أجل حروبه، أما الحكام الجونغاريين، والقوات المانشو - الصينية المساندة لهم كانوا في حاجة فقط إلى المراعي، والماشية. وفي ذلك كان يكمن دائماً مصدر كل رعب الغزوات الشورشوتية من الشرق على أراضي كازاخستان وآسيا الوسطى.

وقدر مسؤولون صينيون في وقت سابق أن عدد الكازاخ يبلغ نحو مليوني شخص. وهذا يعني أن أكثر من مليون شخص قتلوا في الغزو. وإذا كانوا قد تركوا النبيل أنيت بابا ليموت وحيداً في السهوب فما بالك بعامّة الناس والبسطاء! وحتى الآن يعثرون في السهوب على أعداد كبيرة من الهياكل العظمية البشرية في طرق الهروب. وحكم على الزحل الذين بقوا بدون ماشيتهم بالموت. لقد أكلوا العشب، وشربوا عصير شجرات التولا الربيعة، وبحثوا عن الفطر السهبي، وفي النهاية تجمعوا عند أحد التلال، وماتوا جميعاً. وهكذا أستمرت هذه المأساة الشعبية لربع قرن، والمعروفة شعبياً باسم أكتابان شوبيريندى وألكا كول سولامه، أي العصر الذي رقد فيه كل الشعب ببطون أقدام مهترأة من الفرار بلا حول ولا قوة حول بحيرة الحزن. وتحديدًا في هذه السنوات ظهرت الأغنية العظيمة التي لامثيل في حزنها الإنساني «إيليم آي» - «أيها الشعب كثير المعاناة»:

قوافل الحزن تهبط من جبال كاراتاو

وبجانب كل قافلة يمشى ببطء بصورة حزينة

جمل يتييم.

أواه كم من الصعب أن تحرم من الوطن

وتعوق الدموع الضخمة النظر على العالم ...

أواه ما هذا الزمن الذي حل بنا - زمن المعاناة!

لقد غادر طائر السعادة سهوبنا المريرة.

ويهرب الناس من منازلهم مثل طيور فرقتها العواصف



وأكثر برودة من العواصف الشتوية شديدة البرودة أثار أقدامهم البيضاء .
أواه ماهذا الزمن الذي حل بنا - زمن الحزن العظيم!
ليس هناك شعاع في الأزمان التي لاحدود لها ...
مثل شجرة وحيدة بقيت من الغابة الأم
أبلل فروعى في بحيرة الدموع المريرة .
أواه كم صلبة هي الأرض السوداء عندما تنام عليها بجسدك العاري!
من أين هذا التيار غير المحدود من الحزن والمعاناة ؟
من الصعب السير على هذه الأرض ...
أين خيولنا السريعه يا إلهي؟!
أواه ماهذا الزمن الذي حل بنا أنه زمن الفراق
ترك الأطفال دون الآباء
ليس هناك أصعب من الوداع
عندما لانعرف هل سنلتقي من جديد ! ..

تدحرجت القوات الجونغارية ذات الرؤوس السبعة كموجة عريضة عبر السهوب .
وتماما مثل موجة في المحيط دارت ، وأحاطت بتركستان كأنها اصطدمت بصخرة
حجرية . قامت المدينة بالدفاع عن نفسها عدة أيام . وكان الكونتياتشى الجونغاري
الغاضب يرسل خياله عدة مرات في اليوم من أجل اقتحام السور المنخفض الذي كان
يحيط في ذلك الوقت بتركستان . وكانت الخيالة تنطلق مع عواء وحشي من أجل
اقتحامه ، لكنها كانت تتراجع بعد أن تصطم بمقاومة شرسة من أهالى البلدة . وقبل
يوم من وصول «الجونغار» تم إخراج أسرى المدافعين من المدينة ، وكان كل يوم تأخير
للكونتياتشى الجونغاري تحت أسوار المدينة يباع بينهم وبينه ...

وقبيل سقوط المدينة بدأت عاصفة رملية عنيفة . وغطت الرمال جميع الآبار في المدينة .
وعلى مسافة خطوتين فقط كان من غير الممكن رؤية أى شيء . فقامت مجموعة صغيرة
من الفرسان بقيادة البطل «يليتشيك» بالخروج من المدينة ، والانطلاق إلى السهوب .



في اليوم التالي أشرقت الشمس أكثر من المعتاد . وهو ما يحدث دائما بعد العاصفة . ولم ير جنود الكونتاييتشى الجونغاري الذين اقتحموا المدينة غير جثث الموتى في المنازل ، وعلى الأسوار . أمر «سييان رابتان» الغاضب بمحو المدينة من على وجه الأرض . وقد تعاملوا مع المدينة تماما كما تعامل معها من قبل خمسمائة سنة جد الكونتاييتشى الجونغاري العجوز أحمر اللحية . وقد تطايرت لأيام كثيرة في شكل دومات رفات الموتى فوق تركستان الميتة .



II

«كيف يمكن أن تحدث لنا مثل هذه الكارثة؟ أين ذهبت قوتنا التي كانت لدينا قبل مائتي سنة؟»

من يجيب على هذا السؤال؟ ..

امتدت تجعيدة الشك عبر الجبهة المفلطحة والكبيرة لحكيم السهوب الشاعر «بوخار». وكانت لحيته التي تشبه الودد تتجه من حين لآخر نحوفتى جالس لم يبلغ الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره. وكان من الممكن تحديد عمر الفتى فقط من خلال وجهه الشاحب الذي لم يعرف شفرة الحلاقة بعد. وكانت كتفاه عريضان ورجولية، ولكن طوله على الأرجح كان يوازي عجز حصان تيكى أصيل. وقد جذبت عيناه الكبيرتين الرماديتين والتي لاتطرفان أبداً الأنظار إليهما. وكان في مظهر الفتى وتحركاته شيء ما فخور وأبني لا يتناسب مع راعٍ بسيط. ومن الواضح أنه لم يولد في هذا الكوخ الأسود حيث كانوا جالسين. ولم يعد شيء بالفعل يخدع عيني الشاعر...

وقد دخل المغنى العراف الشاعر «بوخار» مع «أبو الخير» خان الجزء الأوسط بمحض الصدفة اليورت (المنزل) الأسود المدخن الخاص بالرعاة. في خلال الحملة ضد الجونغار قرر الخان الذي قام بدعوة الشاعر «بوخار» أن يذهب للإستطلاع بنفسه. وكان كلاهما فارسان رائعان، وقد انفصلا عن فرسان الخان، وظلا يبحثان لمدة يومين عن الطريق إلى المستنقعات المالحة حتى وجدا مخيم الرعاة في مراعي سيحوان داريا وتحديدأ على الحدود مع الجزء الأكبر. لم ينظر أبو الخير طويل القامة رشيق الجسم والذي يبلغ حوالي الثلاثين من عمره ذى الوجه الجميل المتناسق، والشارب الأسود المهندم ولولمة واحدة إلى الرعاة ...

لم يكن هناك سوى اثنان من الرعاة في هذا اليورت. كان الثانى عملاقاً متقدماً في السن منحني الكتفين ذى لحية كثيفة ووجه صلب بفعل الشمس والرياح ومن الواضح أنه كان من عامة الناس. فكر الشاعر بوخار طوال الوقت ماهو الشيء الذي حول



هذا الفتى ذى الأصل النبيل إلى عبد بسيط . وقد لمحت نظرة الشاعر العادة علامة الرق على ذراع الرجل العملاق منذ فترة طويلة ...

لم يخطئ الشاعر . كان الفتى ذى العينين الرماديتين هو نجل حاكم تركستان السلطان والى ، وكان العملاق هو «أوراز» عبد الفتى . وقد وقع كلاهما في الأسر أثناء حصار تركستان . وأخفي «أبو المنصور» ذو الرابعة عشرة عاماً نجل السلطان الذي ترك له جده «أبلاي» مصاص الدماء تركستان لتجنب أسوأ كارثة حقيقية ، وقد جلبوهما مقيدتين بسلسلة واحدة للبيع في سوق الرقيق بخوارزم . ومن هناك هربا معاً بفضل مهارة وخبرة العبد العجوز ، وتمكنا من الاختباء في مخيمات «سيحون داريا» . وهما ينتظران للشهر الثاني على التوالي الحصول على فرصة موثوقة ليذهبا إلى أقارب السلطان ، وقد تظاهرا بأنهما راعيان بسيطان ، وقاما برعي إبل تولي باي الجزء الأكبر .

كان سلوكهما يشي بشخصية كل منهما . كان الأصغر والذي لا يزال صبياً يجلس بلا حراك ، بينما يقوم الرجل العجوز بجميع الأعمال . حتى قدوم أولئك الضيوف رفيعي الشأن لم يريك الفتى . وقد قام الشاعر «بوخار» كفرد من عامة الشعب أيضاً بترك سيده الخان ، وتبع العبد العجوز كما لو أنه يريد مساعدته . ثم عاداً معاً ، وجلبا لبن إبل في وعاء ، ومرجل مليء بلحم الضأن . وجلس الأربعة لتناول الطعام .

أبلغ أبو المنصور الضيوف أنه يرعي الأبل منذ مدة طويلة ، ثم استبدل الحديث على الفور بحديث آخر . وواجهت نظرته التي لا تطرف أبداً مرتين نظرة الشاعر الثاقبة . وأدرك الشاعر «بوخار» أن الفتى قد خمن كل شيء . نعم لقد حدث هذا بالفعل ، فعندما خرجا معاً من منزل اليورت حكى له العبد «أوراز» عن كل شيء بعد أن عرف أن ضيفه الذي تحدث معه هو المغني الشعبي الشهير . كان السلطان الشاب مديناً بحياته لخادمه المخلص . والآن انتاب الشاعر الخوف لسبب مجهول حول مصير هذا الرجل العجوز . فلقد كان لدى الفتى نظرة غير عادية ...

أشار السلطان الصغير فجأة إلى أوراز الجالس عند مدخل اليورت وقال :

- إن هذا الرجل مثل والدي تقريباً فبدونه لم يكن لى بقاء على قيد الحياة !

ولقد قال ذلك بإخلاص حتى الشاعر ذا الخبرة الواسعة قد صدق مشاعر الفتى الطيبة

فقال :



- أعلم ذلك !

هز رأسه ، وقد أدرك في تلك اللحظة أنه قد حكم على عبده بالموت بطريقة لا إراديه . فلقد رأى بالفعل تلك النظرة التي لا تطرف عند الجنكيزيين . لقد كان يعرف أيضا أبلاي مصاص الدماء . كيف وقع في سنارة هذا الفتى الصغير !

نظر أبو المنصور بتمعن إلى الرجل العجوز المطمئن الجالس عند المدخل ، ثم حول نظريه عنه . وكان من الضروري إنقاذ الوضع فلمس الشاعر كم الرداء الممزق الملقى على كتفي أبو المنصور وقال :

- نعم يا فتى ، لقد حكى لي العبد عن كل ما تجشماه من المعاناة والمحن في الأسر . أن يكون لديك مثل هذا الشخص المخلص لهي سعادة كبيرة في أيامنا هذه . هؤلاء الناس مخلصون في السراء والضراء ، ولا تجد أمثالهم إلا نادرا ! ..

تحدث الشاعر العراف ، ومع كل كلمة كان على قناعة أكثر وأكثر أن ذلك بلا جدوى ، وأن مصير العبد البائس قد حسم .

نظر الراعي الصغير مباشرة في وجهه بعينيه اللتان لا تطرفان . وسرى البرد في ظهر الشاعر رغما عنه . ولقد تفكر الشاعر : « إن لديه عينين مثل عيني الأفعى ! وعيناه تلمعان ، ولكنهما باردتان وخاليتان من المشاعر . من أين له ذلك ؟ على الأرجح ، من الخفاش جده الذين يطلقون عليه « أبلاي » مصاص الدماء . وبالطبع فلن يفشل في لدغ هذا الرجل الطيب الذي أنقذ حياته . وكانت واحدة من حكم «جينكيزخان» تقضي بعدم ترك شهود العار أو الخزي الشخصي ، أو ببساطة أولئك الناس الذين يعرفون الكثير عن ذلك . يا إلهي كيف يمكن إنقاذ هذا الرجل البائس ؟ .. »

قطع الخان أبو الخير حبل أفكاره . ووجه هذا السؤال الذي لم يترك أحداً ينعم بالهدوء في السهوب إلى الشاعر قائلاً :

- كيف حدث ذلك يا شاعرنا ؛ وكيف وصلنا إلى مثل هذه الكارثة ؟ ماذا ركضت قبائلنا وعشائرتنا مثل الطلاب أمام الجونغاريين ؟ أين قوتنا الغابرة ؟ ..



كان سؤالاً صعباً ، وهز الشاعر رأسه فقط بتجهم . لكن أبا الخير خان واصل كلامه :

- أنهم يطلقون عليك حارس ماضيها أيها الشاعر . وقد طبقت شهرة حكمتك أفاق السهوب . قل لي لماذا يحدث هذا؟ هل حقاً لم يولد في شعبنا بعد قاسم خان شخص يمكن أن يتوقع مثل هذه الكارثة ، ويحث الناس على الاستعداد لصد العدو! ..

لوح الشاعر بيده وقال :

- لماذا؟ لقد كان يوجد بالفعل مثل هؤلاء الناس! .. ولكن الرغبة شيء والقدرة على حكم الناس في السهوب شيء آخر . نحن قوم زحل ، وكل من لا يعجبه أمر يركب حصانه ويتوجه إلى الجوانب الأربعة . حتى قاسم خان نفسه كان غير قادر على التعامل بشكل كامل مع تعنت وعناد شيوخ القبائل . ألم يقتل هو نفسه على أيدي بايات النوجاي الذي أراد أن يوحدهم في خانية واحدة؟ والمدن التركستانية التي حارب طوال حياته من أجلها ألم تنتقل بعد ذلك من يد إلى يد؟ طالما أن الشعب لا يفهم أن نجاته في وحدته لن ينجح أحد! ..

- هل هذا صحيح؟!

التفت خان أبو الخير الذي لم ينتبه حتى الآن إلى أصحاب اليورت باندهاش . فقد سأل الراعي الصغير هذا السؤال بصوت هادئ وثابت . حينئذ تكلم الشاعر بسرعة لصرف الإنتباه عنه فقال :

- نعم هو ذلك . وكدليل على ذلك إذا سمح لي سيدي الخان فسأحكي لكم قصة «خاك نزار» الذي سار على نهج والده قاسم ، ولكنه تعثر ، وقتل في نهاية الطريق ...

قال أبو الخير :

- نعم بالطبع حدثنا عن ذلك أيها الشاعر!

ثم حول ناظريه عن هذا الفتى الراعي الغريب الذي تجرأ على التحدث على قدم المساواة مع الضيوف رفيعي الشأن .

- إذن فلتسمعوا!



وضع الشاعر «بوخار» يديه على ركبتيه، وأغمض عينيه، وتجمد كما لو كان يحاول أن يرى شيئاً ما من خلال حُجُب الغيب . وعندما بدأ في الحديث تباعدت على الفور جدران منزل الرعاة الفقراء المغطى بالسخام، ورأى جميع الحاضرين أيضاً صوراً حية من الماضي ...

بدأ الشاعر «بوخار» حديثه فقال :

- ماهو الشيء الأشد من الندم في عالمنا هذا ؟ أنه مثل الموت تماماً حين لاتدرك القوة الفائقة للعدو فتدوق مرارة الهزيمة . هذا شعور لا يتحملة القلب . - ولكن الشيء الأكثر مرارة والذي لا يطاق أبداً عندما يعميك إدراكك بقوتك فترضخ للحقير بسخاء، وتعيد للعدو حرّيته . وهذا العدو الذي أحسنت إليه يطعنك بسكين في ظهره، وحينئذ لن تبكى من الألم بل من عار الوداعة في غير محلها ! ..

ولم تستطع النكات أو المزاح أو الضحك الرنان الذي ملأ جنبات منزل اليورت الهائل ذا الإثني عشر جناحاً تبديد أفكار خان «خاك نزار» الكئيبة . لقد اجتمع عنده أجمل الفتيات ، وأكثر الفرسان ظرفاً ومرحاً . وكان ذلك يساعد دائماً في مثل هذه الحالات حيث إن صغر السن عادة ما يتشرب كل شيء حوله ، وينسى المصيبة بسرعة . ولكن هذه المرة كان الجرح عميقاً جداً .

كان يصمت بتجهم ، لكنه في بعض الأحيان فقط ، كان ينظر وهو مشتت الفكر إلى جرة ضخمة أطول من قامته الرجل ، كتب عليها باللغة التركية القديمة :

يجب ملء هذه الجرة بالذهب .

أو بالفضة الخالصة الرنانة .

أو بالنبيذ السميكة حلو المذاق .

فإذا لم يكن هناك مثل ذلك ، فبدموع الرجال العريزة .

وظل الخان على حاله حتى مع الهمس الرقيق من أخت زوجته الجميلة «أقبالا» المدللة من الجميع والتي مالت بلطف على ركبته اليمنى ، وهمست في أذنه بانتقادات لاذعة غير جارحة فقالت :



- يازوج أختي الحاكم ! - وقرصته مع ضحكة رنانة قرصته مؤلمة في فخذة عبر سراويله المخملية المطرزة بالذهب. ثم قالت : على الأقل ابتسم ياخاننا العظيم ، أو إهدنا على الأقل كلمتين فقط . والإجمعا لك الضيوف ، وستجلس مثل «كوليس خان» الذي لم يبتسم أبداً للناس طوال حياته !

طبقا لجميع القوانين السهبية ، فإن القريبة الهزلية الشقية لها الحق في ذلك ، ولكنه ينبغي عليه أن يجيب بنفس الروح ؛ كى لا يفسد احتفالات الزفاف القائمة في الوقت الحالى . فجذب إليه بلطف خصر أخت زوجته ، ولكن الليل كان ساكناً في عينيه ، وفي صدره تناثرت جمرات حمراء مشتعلة . وعادت الأفكار بعناد إلى الأخبار التي أتى به الرسول شابارمان . وكان الوقت يساوى مقدار حلب فرس في ذلك الحين ...

ومرة أخرى في مكان ما بالقرب من أذنه ، ضحكت «أقبالا» الصاخبة التي لا تهدأ ضحكة رنانة ، وجذبتة من كفه وقالت :

- يقولون عنك إنك أشرس من النمر في القتال ، ولكنك تخاف فتيات «سرايتشك» ،
إننا لا نأكل الحكام المكتئبين !

هنا فقط تذكر الخان «خاك نزار» أين هو الآن ، وكيف يجب أن يتصرف ... نعم أنه في سرايتشك !

على أنقاض القبيلة الذهبية ارتفعت ثلاث خانات هي قازان ، والقرم ، وأستراخان . وأصبحت مدينة «سراي» العظيمة الواقعة على نهر «إديل» حيث تتلاقى جميع الطرق التجارية ، وحيث تنطلق من جميع الجهات القوافل البرية حاملة ثروات لا توصف ، وحيث كان نصف العالم ينتظر منها أوامر الخان خاوية على عروشها . وحلت محلها الآن مدينة «سرايتشك» الصغيرة الواقعة على ضفاف نهر «جايك» . وتبدو البنايات المصنوعة من الحجر الأبيض خاوية ، وتلاشت ، وتصعدت القباب الزرقاء للمساجد ، والقصور حيث يسكن بها الآن البايات والميرزات من «أستراخان» ، و «نوجاي» . وتصعدت جدران الحصون حول المدينة ، وأنهارت الأبراج . ولكن الحياة لم تتوقف هنا . فلا تزال القوافل تمر عبر المدينة ،



وتعج المساجد بالمصلين ، وتتألق الأهله الذهبية عندما تشرق الشمس ، وفي ضوء القمر .
فماذا ينقص هذه المدينة لكي تستعيد قوتها السابقة؟ ..

بعد سقوط القبيلة الذهبية اتخذ بايات «نوجاي» وهم من القبيلة الحاكمة «مانجيت» من مدينة «سرايتشك» عاصمة لهم . وبعد ذلك انضم إلى خانية «نوجاي» العديد من القبائل والعشائر الكازاخية ، التي كانت ترتحل على ضفاف نهر «إديل» ، و«جايك» وأصبحت مدينة «سرايتشك» مركزاً لبلد كبير متعدد الأعراق . وقد تفرق قادة «النوجاي» و التابعين لهم الذين كانوا على خلاف مع بعضهم البعض إلى أماكن شتى ، فذهب بعضهم إلى قازان ، والبعض الآخر إلى أستراخان ، وذهب بعضهم إلى القبيلة الزرقاء ، ولكن بقي الكثيرون ، واختلطوا مع الكازاخ في القبيلة البيضاء الموحدة ، ولم يبق من خانية «النوجاي» التي كانت قوية في زمن ما سوى الاسم القديم لهذه المدينة سرايتشك . وذلك هو الحال الآن عندما وصل إليها «خاك نزار» خان القبيلة البيضاء الكازاخية من عاصمته الشرقية «سيجنك» على رأس جيش كبير ، لديه هدف سرى ليعرفه أحد غيره ...

لقد انتزع والده الخان «قاسم» من خلفاء «أبو الخير» ، و«تيمور» الأعرج الأراضي الكازاخية القديمة على طول المجرى الأسفل لنهر «سيجون داريا» ، والسهول الفيضية الخضراء لأنهار «كاراتال» ، و«تالاس» و«تشو» ، واستولى في طريقه على جزء من الممتلكات القيرغيزية ، والكاراكالباقية ، والنوجالية التي تركت بدون حماية قوية . وعلى الرغم من أن الخان «قاسم» قد استقر عند نهر «كاراتال» الملوث إلا أن خيالاته كانت تستطيع في وقت قصير عبور السهوب الكازاخية في أي اتجاه ، والانقضاض على المتمردين أو أولئك الذين يرغبون في الإستيلاء على المناطق الخاضعة له . وعلى غرار سلفه جنكيز خان فإنه قد وزع الأرض على أبنائه ، وأقاربه ، والمقربين منه ، ولم يسمح طوال حياته لأحد مهما كان شأنه أن يعصى الإرادة الخانية . ومع ذلك قتل الخان «قاسم» أثناء الصراع الداخلي عندما وصل على رأس جيش كبير إلى هنا على الحدود النوجالينية لإخضاع المتمردين الذين كانوا يريدون الخروج من تحت عباءة الخان القاسي ، إلى عباءة حاكم أستراخان .

بعد ذلك في عام ١٥٣٧ م اتحد كل من الخان الأوزبكي «عبد الله» ، و خان مغولستان «عبد الرشيد» ، وقاما يغزو الأراضي الكازاخية ، واقتسما فيما بينهما جزءاً كبيراً منها .



وارتحل معظم الكازاخ إلى أراضي «سارى أركا» التي كانت لاتزال مستقلة .

ولكن الشعب عريق مثل السيف الماسى الأسطوري ، ولكن لايمكن أن تضعه في حقيبة الظهر .

لم يمض سوى عام واحد على الغزو والإقامت القبائل والعشائر المتبقية في أعماق السهوب الكازاخية عند سفح الجبل القديم «أوليتاو» برفع «خاك نزار» البالغ من العمر ثلاثين عاماً ، والابن الاصغر للخان قاسم على سجادة اللباد البيضاء ...

لم يستطع عبد الله خان أن يفعل شيئاً . وكان السخط يمور في قواته الخاصة فأصبح من الخطورة بمكان إرسال الميلشيات الأوزبكية في عمق السهوب لمحاربة الشعب الشقيق . وظل فقط جزء من الأنهار السبعة الذي تقطنه القبائل القيرغيزية والكازاخية تحت سلطة عبد الله خان حتى قلعة «جادان» . وأخذ الخان المغولي «عبدالرشيد» الجزء المتبقي لنفسه كغنيمة .

ولم يكن الأمر يتم دون خيانة والتي تظهر بوضوح أن المصالح الإقطاعية الضيقة للحكام تصبح فوق مصالح الدولة العامة ، والمصالح الوطنية . وفي الوقت الذي كانت فيه العشائر ، والقبائل الكازاخية على وشك الدمار قام السلطان «شاجاي» ابن «جاديك» الابن البكر لقاسم خان بإقامة علاقات وثيقة مع الغزاة ، وفصل عن الخانية التي تركها له أبوه جزءاً من تركستان ، وأعلن نفسه حاكماً مستقلاً . وكان واضحاً للجميع أن الإستقلال كان صورياً فقط ...

نعم ، لقد مرت سنوات عديدة منذ ذلك الحين . ولكنها بدت الآن للخان «خاك نزار» مثل يوم واحد طويل وشاق . وذلك الذي حدث خلال تلك العقود الثلاثة مع الخانية السهبية غير المحمية بأية حدود كان يمكن أن يحدث مع كثيرين آخرين احتضنتهم الجبال ، وحمتهم البحار ، ودول أخرى خلال ثلاثمائة سنة . شرع الخان الشاب على الفور مثل والده ، وجدّه ، ومثل جميع حكام السهبين الآخرين قبله بإصرار في توحيد القبائل ، والعشائر الكازاخية المتفرقة . وبدأ أنه بعد الهزيمة المروعة كان عليه أن يبدأ كل شيء من



البداية . لكنه كان سعيداً أن الأعداء التقليديين وهم الأباطرة الصينيون مشتغلون بالاختلال الداخلي، وتركوا الشعب الكازاخي ينعم بالهدوء لبعض الوقت . ولكن لا شيء في التاريخ يمضى دون أن يترك أثراً . لم يذهب عبثاً ذلك العمل الذي إستغرق قرناً من الزمان لتوحيد الشعب ، والذي قام به قبله رجال ثاقبو النظر . وقد بقيت في الذاكرة الشعبية الأغاني الداعية إلى الوحدة ، والتي تغنى بها المطربون الشعبيون الكبار . وهم من قاموا بغرس البذرة . وعلى الرغم من أن الأرض التي سقطت فيها البذرة كانت قاسية ، وتربة كازاخية بكر سميكة ، فقد نمت البذرة الجيدة بمجرد أن هطلت أمطار جديدة فوق السهوب ! ..

على أية حال فقد كان عليه أن يجمع مرة أخرى العشائر والقبائل الكازاخية وذويهم من العشائر ، والقبائل القيرغيزية ، والكاراكالباكية تحت راية واحدة . ولقد خاض قتالاً عنيفاً ضد السلاطين المستبدين ، وقام بمناوشات دامية لا تعد ولا تحصى ، وشن حروباً كبرى لتحقيق الهدف المنشود . وقد تطلب النضال لتحرير المدن الكازاخية القديمة الواقعة على نهر سيحون داريا والتي غزاها الخانات الشيبانيون في حين ما تضحيات كبيرة بصفة خاصة . وبعد وفاة «محمد شيباني» القوي ضعفت خانيته بسبب الصراعات الداخلية ، ولم تجرؤ أن تثبت الرعب في الأراضي الكازاخية خوفاً من سلاح الفرسان السريع لقاسم خان . ولكن مع بدايه تولي «خاك نزار» أمور الخانية كان يجلس على العرش الذهبي في بخارى السلطان «عبد الله» أحد أحفاد «أبو الخير» المباشرين . كان هذا النمر الشاب يشبه جده القوي في الشكل الخارجي ، وسعى إلى محاكاته في كل شيء بما في ذلك شن الغارات على السهوب . وبدعم من شقيقه الأكبر بدأ السلطان عبد الله شن حملة في إثر حملة ، معتبراً أن كل الأرض ، التي غزاها في وقت ما «أبو الخير» ، و«محمد شيباني» هي أرضه . ولكن الله لا يعطي البقرة النطاحة قرناً فقد تعلق على يديه بحمل ثقيل أبناء عمومته ، وأقربائه العديدين الذين يريدون أيضاً المجد والسلطة . وتحوّلت النزاعات التي تعد ظاهرة طبيعية إلى حرب حقيقية . وأصبحت أكثر حدة عندما تدخل فيها خانات ، وسلاطين الكازاخ . كان يحدث ذلك دائماً عندما كانت تدور الحرب في الواحات الزراعية القديمة كما حدث هذه المرة ...

وقد أيد السلطان «شاجاي» الذي استولى على جزء من تركستان ، وانفصل عن الخانية الكازاخية سليل أبو الخير عبد الله خان في هذا الصراع . واتخذ «خاك نزار» الذي



أعاد توحيد الكازاخ مرة أخرى، جانب عدوه بابا سلطان والذي هو أيضا من نسل أبو الخير، ولكنه يمت بصلة قرابة أيضا للتيموريين. وكلما كان الصراع شرسا بين بابا سلطان، وعبدالله رسخ «خاك نزار» أقدامه أكثر في السهوب.

كان السلطان شاجاي يجلس في أراضيه المنفصلة كشوكة سامتة في خاصرة إحياء الدولة. وكانت هذه المناطق هي الأكثر تطورا في الخانية حيث تُصنع هناك البضائع اللازمة للزحل، وتتم فيها التجارة، وتقام العلاقات الثقافية مع جيرانها الجنوبيين. وقد أعادت الصراعات المستمرة بين زعماء القبائل القيرغيزية والكاراكالباقية المنضمين للخانية الوحدة الكاملة. حينئذ وعلى غرار الخانات الموحدين السابقين ذهب «خاك نزار» في عمق في السهوب إلى جبال أيتاو، وأرجيناتى. وأصبحت العشائر والقبائل التي تسكن هذه الأماكن؛ فضلا عن وديان أنها «إيسيل»، وإرتيش، وتوبول، ونورا والأراضي الساحلية للبحر الأزرق بلخاش، كما في الأيام الخوالي، العمود الفقري للوحدة. غير أنه كان من الواضح أنهم لم يكن لديهم القوة الكافية لخوض نضال قادم طويل وشاق ضد أحفاد أبو الخير من الشيبانيين، ناهيك عن التهديد الجونغاري-الصيني الذي لا يتوقف أبداً. وبمجرد أن ضعفت السهوب كثف الحكام الأويرات بتحريض من المستشارين الخانيين العظام غاراتهم على القرى الكازاخية من جهة جونغاريا، وألتاي. وفي مكان ما في شمال غرب البلاد خلف نهر «إديل» الواسع ظهرت ملامح الدولة الروسية العظيمة، وأصبح الخان «خاك نزار» يحول رأسه إلى هذا الجانب بشكل متزايد. وعندما تحكّم السهوب المفتوحة يجب أن تملك حاسة شم دقيقة، وتتوقع كل شيء لسنوات كثيرة قادمة. فمن يدري ما الذي يمكن أن تتوقعه من الجانب الآخر، عدو جديد، أودع في معركة ضد جميع الفهود، والذئاب، والنمور التي تزمجر من ثلاث جهات على الخانية الشاحبة ..

حينئذ قرر الخان «خاك نزار» التحرك إلى «إديل» مع كامل جيشه. وقبل الدخول في معركة حاسمة مع الخانات الشيبانيين أحفاد «أبو الخير» من أجل مدينة سيحون داريا، كان عليه أن يعمل على استقرار الأمور، وإقرار النظام هنا، وفي نفس الوقت معرفة ما يمكن أن يحدث في المستقبل القريب من قبل الجار القوي الجديد. فالخانية القازانية، والخانية الأستراخانية تقعان بين روسيا وخاناته، إلا أن قوة هائلة جديدة ظهرت في «إديل» بسبب الليونة، والانصياع غير المتوقعين من قبل حكام قازان، وهلع وتوتر حكام القرم ...



ودائماً ماتجد الحجة والدافع إذا كانت هناك قوات يمكن أن تأخذها معك . ولم تكن القوات التي أخذها معه الخان «خاك نزار» إلى شواطئ نهر «جايك» بالقليلة . فقد تصاعد الدخان من النيران الموقدة على السهول الفيضية للنهر من كلا الجانبين من «سرايتشك» حتى الأفق . كان الناس ينظرون إلى الفرسان الراكضين في الزبي العسكري الكامل، ويصمتون . فأحياناً ما يجيء خان القبيلة البيضاء العظيم ليصلي على رفات والده العظيم قاسم خان . ولا يليق به السفر عبر السهوب وحيداً . وكلما كان معه فرسان أكثر كان يحظى باحترام أكثر لدى رعاياه وجيرانه . فهذه هي قوانين السهوب ...

ولكن ألا يسمع الله الهمس كما يقولون في السهوب . فقد كانت قبائل وعشائر «مانجيت»، و«ألشين»، و«بايواي»، و«أليمولي»، و«جاجالبيلي» الزحل في السهول الفيضية لنهر «إديل»، ونهر «جايك» تدرك جيداً أن التقوى والورع الخاني مرتبط دائماً بالمصالح الدنيوية . وفي المخيمات كانوا يتكهنون كل مساء حول الوضع الذي سيقرب عليهم وصول الخان إلى قراهم . وكان أكثرهم من المتهورين وقصيري النظر يعدون أنفسهم أحراراً وغير خاضعين لكائن من كان ، ويعتقدون أنه يمكنهم العيش كما يحلو لهم في مثل هذه الحافة المضطربة دون مساعدة أو دعم من أحد . ورأى آخرون أنفسهم رعايا للخانات الأستراخانية والتي مع ذلك تعد من رعايا القبيلة البيضاء . ولكن بعد عشر سنوات من وفاة «تيمور بك» وقعت في الخانية الأستراخانية الاضطرابات والقلقل ...

آنذاك قال المغني الشعبي الشهير «شالكيز» كلمته الشهيرة :

- مهما اختلفت آرائنا فإن القبيلة البيضاء من حيث الروح والقربان هي الأقرب إلينا من الجميع ، فدعونا نلتقي قريبنا المقرب «خاك نزار» ، ولنسمع ماسيقوله لنا ...

وقد أسكنوا الخان والمرافقين له القصر الرئيس الخاص ببايات النوجاليين بعد أن قاموا بإعداده للسكنى على وجه السرعة . وكذلك أقيمت مباشرة على شاطئ نهر «جايك» منازل البيوت البيضاء ؛ لأن الحكام السهيبيين لم يعتادوا الجدران الحجرية ، وكانوا يشعرون بالراحة أكثر في وضعهم المألوف . وقد جاءوا بقطعان ضخمة من الخيول وآلاف من قطعان الأغنام لإطعام الجنود . وكما هو الحال دائماً أقاموا مسابقات الفرسان مع الاحتفالات اللاحقة حيث تنافس بالفعل المغنون ورواة القصص . وأثناء انشغال الناس بكل ذلك عقدت في صمت المفاوضات مع البايات والسلطين المحليين ...



منذ العصور القديمة عقد البايات الحكماء مثل هذه المفاوضات في بلد الكازاخ .
وحيثما تتم هذه المفاوضات في مدينة «سارى أركا» ، أو في الأنهار السبعة - جيتيسو ،
أو في المخيمات الواقعة على نهر «سير داريا» كان أول من يتكلم هو «تيوبي-بيه» أى
الباى الأعلى . ويجلس وفقا لمقامه في مكان مرتفع . وبعده يبدأ الحديث تولي - بيه أى
مساعدوه . حدث نفس الشيء هنا على ضفاف نهر «جايك» إلا أن البيه الرئيس يسمى في
هذه النواحي «باس بيه» أو «كازيك بيه» ، أما مساعدوه فيطلق عليهم «أوريمتال بيه» ،
و «أوشيمدي بيه» . وكان من مهام «أوريمتال بيه» ملاحظة نقاط الضعف في موقف
الطرف الآخر المفاوض ، وبكلمة حادة يبرزها في النسق العام للمفاوضات . ويتعين على
«أوشيمدي بيه» السريع أن يستقبل فكرة زميله بسرعة ، ويطورها في اتجاه ايجابي .

وحيث إن الشاعر المسن «شالكيز» لم يكن يشارك في ذلك الوقت في مثل هذه
المجالس ، فقد حل محله الشاعر البارز لمنطقة «نوجاي» ، الذي يحمل اسم «كويسارا» من
عشيرة «الشين» والذي قال :

- عندما تغرق في هاوية من الأفكار ينكمش القلب على الفور من المعاناة النفسية
ولا تستطيع النوم ، وتقعد الرغبة في تناول الطعام . وعندما تغرق في بحر المرح يسعد
القلب ، وتنام بهدوء ، وتتناول الطعام بسعادة ..! هكذا بدأ رب الكلمة الذي لا يبارى
حديثه . ثم قال :

- لسنوات عديدة نعيش معكم في سلام وسعادة يا عزيزي الخان «خاك نزار» .
ورعاتنا في الأدغال طيبون وودودون وقوافلنا في الرحلات الطويلة مسالمة . لذلك فإننا لا
نسأل عن السبب الحقيقي لظهورك في نواحيننا مع مثل هذا الجيش الكبير . إنني لا أريد
أن أبدأ حديثي بسؤال الضيف العزيز . وفي هذا الصدد التقت أذناي العجوزتين ما يقوله
الناس أنك جئت إلى هنا لهدف نبيل ، وهو الصلاة عند قبر الوالد ، وبناء ضريح ذي قباب
يليق بسمو الخان ...

أوما جميع البايات الحاضرين برؤوسهم علامة الموافقة على ما يقول ثم قالوا :

- كل ماقلته صحيح ، يا «بيهنا» يا صاحب المقام الرفيع ..

- حسنا ماقل «بيهنا» صاحب الفم الذهبي ..!



- وإذا كنت تحب والدك العظيم قاسم خان ، فإننا نبجله كحامي لبلاد «النوجايلي» .
انظر إننا لم ندع هلال القائم على قبره يبهت ! - وأشار «كويساري بيه» إلى ذلك
الجانب حيث دفن الخانات ، والحكماء النوجايليين ملمحاً للضيف بمهارة أنه لا ينبغي
إصطحاب مثل هذا الجيش الكبير من أجل تزيين قبر والده . - لسوء حظنا أننا لم نستطع
في وقت ما أن نحافظ عليه . ولكن هل الزمن السريع والأرض التي لاتشبع يشفقان على
شخص؟ فكثيرا ما ابتلعت عظماء الناس منذ أن خلق العالم؟ ومهما كان الطريق طويلا
فنهايته الموت على أية حال ! ..

تهند البايات والشيوخ بحزن ، وهزوارؤوسهم . وبعد أن انتظر «كويساري بيك»
الوقت المتعارف عليه إنتقل إلى الجزء التالي من حديثه فقال :

- دعونا من الحديث عن الماضي وعن المشكلات والنزاعات التي حدثت بيننا . لقد حان
الوقت للتفكير في المستقبل ، وإننا نتوجه بكل آمالنا نحو المستقبل . ونحن نعتقد
أن إخواننا قد قطعوا مثل هذا الطريق الطويل والشاق عبر السهوب؛ لكي يتحدثوا عن
المستقبل فوق القبور القديمة . ومن جانبنا فإننا نبارك قدمومهم ! ..

ومس الوجهاء والموقرون من القبائل المحلية والعشائر لحاهم بأيديهم ، وهمسوا ببركة
الله .

ثم بدأ الحديث «أسكولي بيك» «تيوبي بيك» أي (البيك الأعلى) للقبيلة البيضاء
فقال :

- لقد بدأت حديثك يا «كويساري بيك» بشكل جيد جداً عندما ذكرت الأزمنة
الغابرة . ونحن نعلم أنه قد بدا لبعض الناس ضيقى الأفق أن الغابية الكازاخية الموحدة
التي من أجلها أريقتم دماء أسلافنا ، وأسلافكم قد ذابت في سحب الزمن . ولكن عندما
تتحول إلى غابة قوية مثمرة ألابقي منها بعض الشتلات؟ وأنها تصبح خضراء مع أول
هطول للأمطار؟ وعندما يحدث ذلك فعلى قمة شجرة البلوط القوية ، كما كان من
قبل، يعشش النسر السهبي ذي الأجنحة القوية التي لا تعرف الكلل ... وإذا كان البحر قد
جف فإن الأعمى وحده لا يرى النبع الذي بقي ، ويصخب منذرا بموجات قوية في المستقبل !
ويموت الحصان ولكن يبقى المهر دقيق الساقين ، والذي ينمو ، ويقفز بعيداً في السهوب !



أليست هذه نفس القوانين التي نعيش بها نحن الكازاخ؟ .. لقد نام في هذه الأرض نسر القبيلة البيضاء قاسم خان نومته الأبدية، ولكن أسرج حصانه «خاك نزار أوجلان» يا أقربائي الكازاخ من الشمال إلى الجنوب، ومن الشرق إلى الغرب لقد شاهدتم جميعاً أن العاصفة الشرسة قد حطمت قوائم خيمة القبيلة البيضاء والتي أقامها «جانبيك وكيري وقاسم خان». وقد بدأت الجدران في التصدع، والتقطت الدوامة السوداء الغطاء المصنوع من اللباد لتحمله إلى السماء. وأنداك في أصعب لحظة قبض الابن البار لقاسم خان بيد قوية على الهيكل المتبقي، ووضع دعامة صلبة لقبعة العرش المترنحة، وحافظ على بيتنا المشترك...

لقد مرت سنوات عديدة منذ ذلك الحين. وما أن شرعنا في ترقيع الحوائط الممزقة حتى هبت رياح جديدة على حدود السهوب. فهناك العديد من الناس الذين يرغبون في الريح من خلال أنقاض مخيماتنا. وأول أولئك هو «شيبانيد عبد الله» الخان البخاري الذي تمكن من التغلب على الأمراء الآخرين في أراضيه، ويهدد بالفعل مضارب ترحالنا في الشرق بالاستعباد الكامل. ويسير في ركابه أحفاد الخان أبو الخير المتوحشين، وكثير من التيموريين، وكذلك أخونا السلطان شاجاي. ويمكنكم أن تقولوا أن منازلنا، ومراعينا بعيدة كل البعد عن هذا العدو الغادر الوحشي ولكن «أوليتا» أيضاً بعيدة عنا. ومن منكم؛ لا يدرك أيها الشيوخ أن أعدائنا الأقوياء لم يستطيعوا أن يبيدونا على مدار قرن من الزمان؛ لأنه في أعماق السهوب دائماً ما كان سلاح فرسان القبيلة البيضاء الرهيب على أهبة الاستعداد. وكان أعداؤنا المحليون يدركون أن سلاح الفرسان سوف يتحرك في نفس اللحظة لانقاذنا، معتبرين إيانا جزءاً من الخانية الكازاخية الموحدة! .. إنني أسألكم، أيها البكوات، والشيوخ ماذا سيحدث لنا غداً إذا ما وقعت هناك في مدينة «سارى- أركا» رايتنا المشتركة تحت ضربات الشيبانيين المتوحشين؟!!

ساد الصمت، وأخذ بكوات وشيوخ مخيمات الترحال النوجالينة يفكرون. فجأة دوى صوت شبابي نسبياً :

- أحسنت فيما قلت أيها البيك الحكيم «أسكوبي» . - ولكن لماذا جلبوا معهم جيشاً كبيراً من أجل أن يقول لنا هذا؟

هز الشيوخ المستهجنون لهذا الكلام رؤوسهم؛ فقد كانوا يدركون جيداً أنه ليس



للكلمات الحكيمه، والتمنيات الطيبه في السهوب أي قوه مالم يكن الجيش واقفاً خلفها . والآن أظهر أحدهم غباءه، وشكك في هذه القاعدة الثابته .

ظهرت ابتسامه رقيقه على شفتي «أسكوبي بيك»، عندما التفت إلى سائله وقال :

- لا يعززي بيك . - ماجئنا إلى هنا مع جيشنا لتخويفكم، ولكن فقط لإسعاد إخواننا بقوتنا وقدرتنا .

وأحنى الجميع رؤوسهم علامه على الموافقه، مرحبين بهذا الرد المهذب والحكيم .

قال «كويساري بيك» :

- إننا سعداء للغاية بمجيئكم . وأشار بيده على نطاق واسع مبيناً بالتالي أن العشائر المحليه والقبائل مستعدة لاستعادة ذلك التحالف الذي كان قائماً بينها وبين القبيله البيضاء في القرن السابق .

من بعده تحدثت البكوات حسب الأقدميه، ثم الشيوخ والفرسان العاديين . وتواصلت تلك الأحاديث ثلاثه أيام ؛ لأنه في الحقيقه كان الأمر غير المتفق عليه لا يعد إلزامياً . وقد تكلم في النهايه «خاك نزار» نفسه فقال مشيراً إلى الجنوب :

- إن حكام خوارزم، وبخارى يريدون دائماً أن يدوسوا على خانيتنا . - وهم جميعاً ينتمون إلينا لأن أبا الخير، وتيمور الأعرج ذهباً من سهوبنا إلى هناك . ولكن هؤلاء الأطفال دائماً ما يملؤهم الجحود، ولن يصينا منهم أي خير أو رحمة فلهم حياة أخرى و مصالح أخرى . وليس لنا مكان آخر غير السهوب !

وهكذا تم تسوية الخلاف القديم المرتبط بوفاه «قاسم خان» والذي قتل هنا منذ فترة على أيدي الكازاخ النوجايلين . وقد تعهدت مخيمات الترحال المحليه بتقديم عشرة آلاف فارس لقتال «عبد الله خان» من أجل استرداد الاراضي والمدن الواقعه على نهر «سير داريا» . وأكد هذا القرار وحده هذه الأراضيه مع الخانيه الكازاخيه . وكعلامه على



الإخلاص وجدية الاتحاد وافق «كاراساي» من عشيرة «شاجالبيلي» وهو الرجل الأكثر غنى والأكثر عراقية من حيث النسب على تزويج ابنته «لخاك نزار». وهذا العادة توارثتها من الأسلاف ...

كان «الجاجالبيليين» من العشائر الباشكيرية رفيعة الشأن ، وكانت الفتيات من هذه العشيرة دائما ما يتميزن بجمال أخاذ . ولكن ابنتاي «كاراساي» أكتورجين ، وأقبالا طغتا على كل الأقاويل والأساطير فلهما خاصرتان نحيلتان ، وضفائرمدلاة أسفل القدمين بسمك اليد ، وحمرة وجه مشتعلة على الخدين ولدى كل منهما عينان واسعتان، ومشرقتان مما يذكر بطريقة لا إرادية بالحكايات القديمة عن العذارى السماويين اللاتي يخلبن لب المحاربين الأقوياء بمنظرهن الأخاذ ...

وقد قرر النوجايليون تزويج كبراهما «أكتورجين» سوداء العينين لخان القبيلة البيضاء كفدية مقابل أبيه المقتول بأرضهم منذ فترة .

ولكن لماذا كان خان القبيلة البيضاء قلقاً للغاية في الوقت الراهن؟ .. فلقد تحقق الذي من أجله انتقل إلى هنا مع جيشه . وقد أظهرت بلد «النوجايليين» المأهول بقبائل سهبية مختلفة مرة أخرى ولأنه للقبيلة البيضاء ، وعرض تقديم عشرة آلاف جندي من أجل القضية المشتركة . حدث ذلك دون إراقه الدماء المعتادة ، ولكن عن طيب خاطر . على أية حال رأى الخان أن حكماءهم ، وبعيدي النظر منهم يدركون جيداً أهمية الحفاظ على الغانية الكازاخية الموحدة دون استثناء قبائل وعشائر السهوب .

في صباح اليوم بدأت احتفالات الزفاف . وبدت مدينة «سرايتشك» كخلفية نحل مضطربة . كانت الفتيات والفرسان يشبهون في ملابسهم الحريرية الزهور الخلافة . واجتاحت الخانات والمزارع أصوات الأبواق والطبول . وفي الميادين الفسيحة أقيمت مسابقات المصارعين ، وألعاب الفروسية الثابتة مع تمزيق الماعز ، والرماية على أكياس من الذهب والفضة .

عند الظهر توافد أصحاب النفوذ من «العظم الأبيض» من جميع عشائر ، وقبائل بلد «النوجايليين» على القصر الرئيس حيث كان هناك بالفعل الخان «خاك نزار» ، والحكيم «شالكيز» ، والبكوات البارزين من كلا الجانبين «كويساري» ،



و «أكسوبي»، وكذلك «كاراساي» بيك مع جميع أقاربه. وتوجه «خاك نزار» إلى منزل يورت العروس .

حسب العرف القديم ينبغي على العريس أداء الدور الهزلي في لعبة «توييباس» أي «رأس البعير». وكان الخان سيقوم بأداء هذا الدور لإظهار بساطته، ومجاملة للعشائر العائدة للإنضواء تحت رايتة، ولكن النساء أنفسهن لم يسمحن له القيام بذلك. لقد أجلسوه على وسائل من الحرير، واكتفين فقط بالنكات الحسية. أدار الخان رأسه إلى اليمين، وهنا رأى لأول مره زوجته المستقبلية السابعة. لقد أثبتت فعليا أن اسم «أكتورجين» والذي يعني «الشاش الأبيض». يناسبها تماما. وكانت في العباءة البيضاء مثل الثلج، والسترة الطويلة بالحزام الذهبي كأنها تعزف عزفا مهموساً على أوتار «الدومبرا» الصغيرة، وتتمايل بلطف على قبعتها المستديرة رياش البومة بمقدار حفنة تملأ الذراعين، محدثة أصوات منغمة. وكانت رموشها الطويلة التي تغطي العيون السوداء الكبيرة تهتز بهدوء.

قفزت عمدة العروس الشابة الجميلة وبحركة سلسلة من يدها البيضاء خبات الفتاة عن عيون الرجال وقالت :

- لقد نسينا غلق الستائر! . وستكافئني مقدماً يا صهرى العزيز على هذه المتعة الرائعة! ..

ضحك الجميع . في هذه اللحظة أشرقت عيون الخان بالسرور، وزالت التجاعيد من وجهه الصارم، وأصبح واضحاً على الفور أنه لا يزال يتمتع بالشباب نسبياً . وتوجهت عيناه بطريقة لا إرادية نحو الستارة المغلقة . في هذه اللحظة ركض إلى الخيمة «شابارمان» أى رسول . ومن ملابسه يمكن التخمين أنه من العشائر التي تسكن قرب «سيرداريا»، ومن طبقة الغبار التي عليها أنه قد واصل الليل بالنهار دون راحة ليقدّم للخان أخباراً مهمة. وبعد أن تفحص وجوه الحاضرين بنظرة ثابتة؛ انحنى أمام الخان وقال :

- ياسيدي الخان خبر عاجل ..

نظر إليه الخان نظرة فاحصة ، وتذكره ثم قال :

- أأنت أنت البطل كياك؟!

- نعم أنا ياسيدي الخان !



بعد أن انحنى بصمت لقربته الجميلة خرج الخان «خاك نزار» مع الرسول إلى الحديقة. وتهامس الحاضرون فقد أصبح من المعروف أن البطل «كياك» قد جاء من «كاراتال» البعيدة. ولكن ماهو الخبر الذي يحمله وأتى به إلى هنا؛ ذلك ما لا يعرفه أحد. وسرعان ما عاد الخان، أما الرسول فقد قفل عائداً إلى القبيلة البيضاء بعد أن استبدل حصانه المتعب من وعثاء السفر ...

قال الخان بصوت خفيض :

- أنها رسالة عادية لذلك فلتواصلوا الاحتفالات .

جرى كل شيء على مايرام .

وأخذ «خاك نزار» يفكر تفكيراً عميقاً

توقف الشاعر «بوخار» عن سرد قصته . وفي تلك اللحظة ذهب العبد «أوراز» للمرة الثانية لإعداد الطعام للضيوف . وقد جمع كل الفحم وأشعله في مكان واحد ، فأصبحت الخيمة أكثر ضوء وإنارة . أخذ «أبو المنصور» الصغير يحرق في النار ثم قال فجأة :

- لقد أخطأ الخان « خاك نزار» حين وثق بعبيده .

سأله الشاعر «بوخار» بدهشة :

- لماذا؟ .

قال أبو المنصور :

- البطل «كياك» من العبيد ، والعبد الذي يعلم أفكار سيده الخفية مثله مثل الأفعى الرابضة في جيبه وحضنه .

سرى البرد مرة أخرى في ظهر الشاعر . هل ياترى يكون هذا الصبي حقاً بلا قلب؟ أنه لم يخطئ في حدسه فعلى رأس ذلك الرجل الذي يعد الطعام الآن قدعلق الفأس ..!

عاد «أوراز» بإبريق ، وطست لغسل اليدين . وأخذ الشاعر «بوخار» يرقب «أبو المنصور» إذا كان هذا يدعي أنه راع شاب فإن ذلك لم يجعله أكثر تواضعاً . والأعمى فقط هو



الذي لا يلاحظ أن الأكبر سنا هو الذي يعمل بالقرب من المسافرين التائهين في الصيد ، في حين يعتبر المراهق نفسه على قدم المساواة مع الضيوف رفيعي المقام . فيذهب معهم إلى الطست ، ويسكب العبد على يديه الماء بلطف ...

تناولوا الطعام في صمت ، وأخذوا قسطاً من الراحة بعد تناول الطعام . ولم يحضر حرس الخان ، وواصل الشاعر رواية قصته عن الماضي ...

كان يتعين على خان القبيلة البيضاء «خاك نزار» التفكير في شيء ما ... منذ فترة طويلة ساءت العلاقات بين الخان «خاك نزار» والسلطان «شاجاي» . لقد وضع «شاجاي» البذرة الأولى في الإنشقاق عن القبيلة البيضاء ، فأعلن خاك نزار الذي كان لا يزال وقتها صغيراً جداً أنه خارج عن القانون . واستغل «شاجاي» آنذاك صغر سن «خاك نزار» ، واستبداد «طاهر خان» الزائد عن الحد ، وقام بفصل الجزء الأكبر من تركستان عن الخانية الكازاخية ، وأعلن نفسه حاكماً مستقلاً ، منتهكاً بذلك كل القوانين السهبية .

كان من الممكن التغاضي عن ذلك ، وتشكيل وحدة عامة على الأقل مع الدول ذات القرابة . ولكن هذا الدعي ذهب بعيداً في خيانتته ، وعقد معاهدة مع أعداء الخانية الكازاخية من الشيبانيين أحفاد أبي الخير السفاح . كان الصفح عن ذلك ببساطة غير ممكن . وحدث كذلك أن أبناء «قاسم» و «جاديك» أولاد الخان جانيبيك تحولوا إلى أعداء دمويين .

ذات مره بعد عودته من إحدى الغارات الإعتيادية توقف السلطان «شاجاي» لينال قسطاً من الراحة في قرية أحد فرسان «أبو الخير» السابقين من عشيرة كونراد . وكان يرتدي ملابس متواضعة ، ولم يعرفه حينذاك أحد . وكان من غير المقبول في السهوب استجواب رجل توقف للمبيت عنمن يكون ، ومن أين جاء ؟ .

قضى السلطان «شاجاي» ليلته في يورت (منزل) الشيخ «أبو القاسم» حفيد البطل أوريتشي . وحدث أن الابنة الصغرى لصاحب اليورت وقعت في حب المسافر الوسيم ذي الأنف المعكوف ، على الرغم من أن «شاجاي» قد تجاوز الأربعين في ذلك الوقت . ولم يبق هو



أيضا غير مبال ، وقضى الليلة في سريرها . وقد أحب ذلك البرعم الذي لم يتفتح بعد حتى أنه بمجرد أن عاد إلى وطنه حافظ السلطان على الكلمة التي أعطها لها في عمى وحمى العاطفة والشغف ، وأرسل الخاطبين إلى الشيخ «أبو القاسم» والهدايا التي تدخل في عداد المهر ...

لكن الشيخ «أبو القاسم» كان موالياً غاية الولاء للخاتمة الكازاخية ، واتخذ جانب «خاك نزار» في ذلك النزاع الضارى . وعندما علم أن البغيض السلطان «شاجاي» كان قد حل ضيفاً عليه ، ويريد أيضا أن يكون صهراً له رد الخاطبين بشكل قاطع . وكان الشيخ يخشى أنه بعد أن يعرف الخان «خاك نزار» بكل هذا يمكن أن يفكر في شيء سيء حياله . في نفس اليوم بعث برسالة إلى والد العريس المتقدم لخطبة ابنة حاكم مدينة «سوزاك» سليمان خودجى جاء فيها : «في حديقتنا تنضج الفاكهة التي وعدتكم بها ، وقد حان وقت الحصاد والإ أخذتها الطيور المهاجرة ...».

في أقل من أسبوع جرت مراسم الزفاف ، وصار «شاجاي» ، الذي ألهبته العاطفة يعرض مرفقيه في غضب . وقد غضب على زوجاته البديئات الثقيلات اللاتي كانت مداعباتهن تبدو له مملته ، خاصة عندما يتذكر «كونسانا» . وبعد تسعة أشهر جاءته الأخبار أن عروس حاكم سوزاك قد أنجبت غلاماً . كل هذا جعله يشعر أن قطعة من سكين قد سكنت قلبه .

مرت سنوات وكالفضة التي بقيت دون استعمال أصبح حبه المتواصل لـ «كونسانا» فاتراً . ولكن علم «شاجاي» من أحد الرجال الذين وصلت قافلتهم إلى طشقند قادمة من سوزاك أن ابن سليمان خودجى توفي بالطاعون ، وطبقاً لقانون توريث الزوجات بين الاقارب فأنهم يعتزمون تزويج زوجته «كونسانا» لابن الحاكم الأكبر . وحينئذ اشتعلت النار المنطفأة في صدر السلطان «شاجاي» بقوة جديدة . وانسدل قناع الغيرة الأصفر على عينيه ، ولم يعد يرى شيئاً غير هذه المرأة الغريبة البعيدة ، التي نام ذات مرة بجوارها على السرير ...

في تلك الليلة ارتدى السلطان «شاجاي» كعاداته ملابس إنسان بسيط من عامة الشعب ، وغادر المدينة مع عشرة من حراسه الشخصيين المخلصين . كان يعرف أنه طبقاً للقانون فإن الأرملة مازالت توجد عند «سليمان خودجى» . وما إن وصل السلطان «شاجاي»



إلى «سوزاك» حتى إقتحم بيت الحاكم بهدوء ، وقيد الحراس ، وأخذ «كونسانا» مع الطفل «توكل» البالغ من العمر أربعة أعوام والذي يعتقد أنه ابنه . في صباح اليوم التالي إنتشرفي «سوزاك» نبأ اختطاف المرأة مع طفلها . أمر الحاكم - الحاكم العسكري للمدينة - بملاحقتها ، ولكن هل من الممكن القبض على الريح في الحقل؟!!

لم يعرف أحد في «سوزاك» أنه في صباح اليوم سقط كل رجال السلطان «شاجاي» في أيدي أتباع الخان «خاك نزار». فقد كانت هناك دوريات يومية للقبيلة البيضاء تجوب الحدود الجنوبية للخانية ، وتقوم على حماية المواطنين من اعتداءات دول الجوار المضطربة. واصطدمت واحدة من تلك الدوريات عند مكان سقاية الماشية بفرسان «شاجاي» المهوليين ، وإرتابوا فيهم ، فأحاطوا بهم ، وقيدوهم . وقبل ظهر اليوم التالي تم نقل المعتقلين بقيادة السلطان «شاجاي» إلى الخان «خاك نزار» في مدينة «سيجناك» .

في اللحظة الأولى كان الخان «خاك نزار» سعيداً جداً لأن العدو الأكثر خصومة له، وعناداً قد وقع في يديه . لكنه كان صغيراً ، ولم يتمتع بعد بحكمة إدارة الدولة المتعارف عليها في السهوب . ووفقاً للقوانين غير المكتوبة كان من غير اللائق معاقبة العدو ، الذي قبض عليه في أرض المعركة ، وإنما يعاقب الذي قبض عليه عن طريق المصادفة . ولو كان مكان «خاك نزار» حاكم أكثر خبرة ، فإنه لم يكن ليفعل ذلك. فقد كان سيودع عدوه بكامل التكريم ، كضيف ، ولكن في الطريق كان هذا سيقع مصادفة من فوق حصانه ، ويدق عنقه . أو سيطعم الضيف شيئاً ما غير مدرج بقائمة الطعام ، ويتوفى فجأة . وكان الجميع سيفهم ما حدث ، ولكن لأحد يدين هذا الحاكم ؛ لأنه قد اتبع جميع القواعد .

لكن الخان «خاك نزار» فكر في رأى الناس . ماذا سيقول الرعايا ، وما سوف يفعلونه إذا بدأ إخوة الدم الخاني قتل بعضهم البعض بهذه الطريقة . كلا هذا ببساطة شئ غير لائق ، وغير حكيم . السلام بين الرجال هو سلام بين الدول ! هكذا قرر أنذاك الخان «خاك نزار» و الآن يؤنب نفسه ويلومها ...

لم يستطع خان القبيلة البيضاء مع ذلك أن يقاوم ابتسامة الظفر عندما رأى قريبه البغيض مقيداً في قميص صوفي ممزق والذي عادة ما يرتديه لص متجول وليس سلطان رفيع الشأن . وعندما رأى «شاجاي» ابتسامته «خاك نزار»، أصابه الخوف بشكل جدي .



كان يتصور أنه سيفعل نفس الشيء مع العدو الذي ألقى القبض عليه . ولكن الخان «خاك نزار» قام عن الوسائد المذهبة ، ومد ذراعيه نحو «شاجاي» كأنه يحي كبير قومه ثم قال :

- هل وصلت بأمان ياسلطان «شاجاي» ؟ وبقي في أذنيه إلى الأبد ذلك الصوت الذي كان يرتجف من العاطفة ثم قال : - يا هذا فك قيود أخي !

أطاع أولئك ، الذين جلبوا «شاجاي» مقيداً الأمر ، وقطعوا الحبال . والشيء الوحيد الذي سمح به الخان لنفسه تجاه الضيف هو أنه لم يُضف عليه لقب السلطان . ولكن كان ذلك وفقاً لقوانين القبيلة البيضاء التي أوصى بها الآباء . فلا بد أن يكون لدى الكازاخ خان واحد فقط ، وحينذاك ستتوقف المشاحنات والحروب الأهلية ...

بدأ الأتباع يقطعون الحبال عن حراس «شاجاي» المقبوض عليهم ، وهنا حدثت حادثة ظلت في ذاكرة الخان «خاك نزار» . كان «شاجاي» يدلك ذراعيه ، فمدهما إلى الأمام . واعتقد أحد الأتباع أنه ينوى فعل شيء ما غير طيب فقفز على الفور نحوه بسيف أخرجه من غمده . فأصاب «شاجاي» الشحوب ، وترنح ، وهوى على الأرض . وفي تلك اللحظة تحديداً رأى الخان «خاك نزار» عيوناً واسعة لامرأة إتسعت إلى أقصى مدى لها . نظرت إلى «شاجاي» ، منددهشة من جنبه . بجانب هذه المرأة رائعة الجمال والتي كان ترتدي قميصاً داخليا من الحرير السمرقندي وقف صبي يبلغ من العمر أربع سنوات ، وله عينيْن مثل عيني الأم .

قال «خاك نزار» بلهجة أمرة :

- اذهبوا بالمرأة مع طفلها إلى منزلها في «سوزاك» .

لكن المرأة لم تتزحزح من مكانها ، وقالت بهدوء ناظرة إلى عيون الخان :

- لن أذهب إلى أي مكان ! .. ولا تأخذ مني السلطان «شاجاي» . إن هذا الطفل ابنه ، وأريد أن أكون معه طوال حياتي ...

نظر خان القبيلة البيضاء إليها بتعجب وقال :



- هل قلت إنك تريد أن تكوني معه طوال حياتك.. وإذا حكمنا عليه بالموت الآن لقيامه بتدمير وحدة الكازاخ فهل ستضعين رأسك تحت نصل السيف معه كما تقضي بذلك التقاليد؟

قالت بحزم:

- نعم!

- حسنا وماذا سيكون حينئذ مصير ابنك؟

قالت:

- وكيف يمكنني أن أساعده إذا كان هذا هو مصيره!

فكر الخان «خاك نزار» طويلاً في أمر هذه المرأة. إما أنها ناقمة جداً على أقارب زوجها المتوفي، لدرجة أنها على استعداد للذهاب إلى أي مكان بشرط ألا تعود إلى أسرهم، وإما أنها حقاً تحب بإخلاص وتفان هذا الرجل ذا الحذبة على أنفه... ذات مرة دعاه والده «أك نزار»، وسماه الناس بالفعل «خاك نزار» أي «نزار العادل». آنذاك لوح بيده، وسمح للمرأة وطفلها بالذهاب مع «شاجاي»...

ثم قال الخان لشاجاي:

- يا سلطان، الله والناس يتوقعون ما الذي سوف يدور بيننا من حديث.. لقد تقابلنا على غير موعد، فدعنا نتوصل إلى اتفاق ينتظره الناس في سهوبنا!

قال «شاجاي»

- إنني أستمع إليك يا خان!

- يا سلطان... يمكنني أن أقول لك إنه ينبغي عليك أن تكون معنا حياً أو ميتاً. ولكنني لا أريد أن أرغمك على هذا الأمر. إنني سأسمح لك بالعودة إلى ديارك، ولكن أرجو منك أن تبتعد عن الأمير الغادر عبد الله. إبتعد عن الاعداء، وعد إلينا. ولتعد الخانية الكازاخية موحدة من جديد!..

ربما كان «شاجاي» صادقاً في هذه اللحظة عندما جثى على ركبتيه، ومد ذراعيه إلى السماء يغمره الفرح، والامتنان على الحياة التي وهبت إليه من جديد وقال:



- أقسم بالله وبالخبز على ولائي للقبيلة البيضاء ، ولك ، ولخانها . وسوف أغسل ذنبي بدمي أمامكم . ولن ترى عيناى الشمس أبداً إذا حنث بهذا القسم ! ..

رأى «خاك نزار» فجأة أن المرأة الجائبة على ركبتيها بجوار «شاجاي» قد وقفت مع طفلها على ركبتيها ، ورفعاً أيديهما كعلامة على القسم المشترك مع الزوج والوالد ...

أنقذ ذلك حياة السلطان «شاجاي» ، لأنه حتى بدون أمر خاص من الخان كان يمكن لفرسان الكازاخ أن يقتلوه في طريق عودته إلى دياره . ومع ذلك قرر الخان أن يرافقه الحرس الخاص به . ولا يمكن القول إن الخان لم يسمع عن طبيعة «شاجاي» الماكرة والخبيثة ولكن من يعرف روح شخص آخر . لقد تأكد «خاك نزاك» من ولائه وإخلاصه .

وقد تردد الخان «خاك نزار» مرة أخرى ، عندما لمح نظرة «كونسانا» وهى تقف على قدميها بعد أن كانت جائبة على ركبتيها . فلقد نظرت إلى زوجها التى أنقذته بنفور غير مفهوم . وكذلك شوهد فى عيون حراسه الذين تم العفو عنهم إزدراء تجاه سيدهم . حينذاك فكر الخان أنه تصرف التصرف السليم ؛ لأنه لن يزيد فى مجده قتل هذا الرجل . لقد ضرب الفخر رأس الخان مرة أخرى ، ولقد عفى عن عدوه مرة أخرى ، بعد أن أعماه هذا الشعور الخبيث.

أمر الخان رئيس حرسه بحزم قائلاً :

- إذهبوا مع سمو السلطان حتى نهاية حدودنا ! ثم التفت إلى «شاجاي» وقال : - وأنت يا أخي السلطان توجه بالشكر أولاً وقبل كل شيء لشقيق والدى «جاديك» ، والذي باسمه أحسن القدر إليك هذه المرة . ولكن إذا لم تلتزم بالقسم فإن ظل جدنا «جانبيك» مؤسس الدولة ، وقبيلة الكازاخ البيضاء لن يغفرا لك أبداً .

قال «شاجاي» :

- سمعاً وطاعة يا سيدي الخان!

وأحنى «شاجاي» رأسه .



... ولدى وصوله إلى طشقند أعدم على الفور الحراس العشر الذين رأوا عار خانهم، ويتذكرون قسمه بالله وبالخبز. وقضى ليلة العودة مع «كونسانا»، وفي الصباح أمر بقتل تلك التي أنقذت حياته.

خمنت «كونسانا»، نوايا زوجها، وقبل مغادرته جثت على ركبتيها وقالت:

- يا سيدي التوري إرحمني من أجل ابننا توكل!

أعرض عنها السلطان «شاجاي» وأشاح بوجهه.

وعندما سمع الصغير «توكل» صراخ أمه المذبوحه تقلب في فراشه بفرع، وبدأ في البكاء. وفي صباح ذلك اليوم أمر السلطان «شاجاي» أحد أتباعه المخلصين بأن يأخذ الطفل ليربيه عنده.

بعد أسبوعين اقتحم جيش ضخّم حدود القبيلة البيضاء أرسله للخائن سيده عبد الله خان. وداس الأشقاء على الأشقاء، وأحرقوا الخيام في كل السهوب، وبكى الأطفال اليتامى، وفر الناجين من الناس على غير هدى. ولم يكن هناك أحد للدفاع عنهم؛ لأن الخان «خاك نزار» بعد القبض، والعفو عن السلطان «شاجاي» تحرك على الفور مع جميع قواته إلى هنا في «سرايتشك». . وقد لحق الرسول آنذاك بالجيش الذي أرسله النائب على الحدود الجنوبية.

سأل الخان الرسول:

- كم عدد المنازل التي دُمرت؟

- خمسة عشر ألفا ياسيدي خان!

نظر الرسول مباشرة في عيون الخان، وشوهد في عينيه شيء ما غير عادي. لقد كان واحداً من الفرسان العديدين العاديين الذين لم يكن لهم نسب عريق، والذين التحقوا بالآلاف في سلاح فرسان القبيلة البيضاء منذ عهد جانيبيك، ولم يطلبوا مكافآت أو ذهباً نظير خدمتهم. وفي أحسن الأحوال كان لدى أفضلهم حالا منزل يورت في مكان ما



في السهوب الشاسعة، وعشر أو عشرين أو ثلاثين من الأغنام التي تطعم الأسرة. ولكن «خاك نزار»، على الرغم من شبابه، كان يعلم أنه لدى هؤلاء الناس قوة. وأن خيامهم هي التي تضررت في المقام الأول من جراء غارة السلطان «شاجاي» مع جيش «عبدالله»، وهم الفقراء، وغير الوجهاء الذين يمثلون الغالبية العظمى المعنية في المقام الأول بقوة الدولة.

- وما هورأيك أنت وأصدقائك أيها المحارب؟

بدت الدهشة في عيون الرسول. فلم يعتادوا في السهوب أن يواجه الخانات مثل هذه الأسئلة لأناس بسطاء. لكن الخان انتظر، ونظر الرسول في عينيه مباشرة ثم قال:

- يقول الناس، يا سيدي الخان، أن السلاطين الذين لاحصر لهم، يتخاطفون سهوبنا، كما يتخاطف الذئب الغزال المطارد!

- أي إن الأفضل لهم أن تكون يدي هي العليا؟

- حتى مخلب الأسد أخف وطأة من أسنان الذئب التي لا تعد ولا تحصى!

- أحسنت القول أيها المحارب... والآن اذهب، وقل للنائب على الحدود أن يعد الحماية، ويعزز حماية الطرق المؤدية إلى السهوب. ولترحل القرى الباقية عن حدود تركستان. فلا أظن أن «شاجاي» وجيشه سيتحركان الآن خلفهم ...

- وماذا أبلغه عنك يا سيدي الخان؟

- أنه لا ينبغي عليه أن يأتي لزيارتي هذه المرة على ضفاف نهر «جايك».

بسبب مكائد «شاجاي» لم يتمكن من تعزيز الخانية الكازاخية على حدودها الغربية. وقد سعى الخانات الموحدون للدولة «جانيبيك»، «وكيري»، و«قاسم» في المقام الأول إلى فعل ذلك لأنهم كانوا يدركون أنه بدون مضارب الرخل النوجيليين في الغرب لا يمكن اعتبار القبيلة البيضاء خانية حقيقية. وبدون دعم قوي من جانبهم، كان من غير الممكن أن يبدأ المعركة في تركستان من أجل استرداد المدن الكازاخية القديمة.



وخلف ظهر الخائن «شاجاي» يتعملق بسرعة سيده «عبد الله» مع عدد لا يحصى من الجنود المرتزقة. ودون المرور عبر مدن تركستان إلى طرق قوافل الشرق الكبير لن يكون في المقدور بيع الصوف، والسجاد، والجلود، والملح والمواد الخام للمعادن الموجودة بوفرة في السهوب. وسوف يعطيهم التجار المتعاملين معهم من بخارى، وكوكاند، وطشقند، وهرات مبالغ زهيدة متعللين بصعوبات النقل، والرسوم الضخمة التي يفرضها عبد الله، والأمراء الآخرين من الشيبانيين، والتمويين، وميرزات مغولستان على هذه القوافل. أنها دائرة مغلقة، ويجب قطعها مهما كان الثمن ...

والآن بعد سنوات عديدة حين أصبح حكيماً بفضل السنين، والخبرة، وصل أخيراً مدينة «سرايتشك»، وعندما أصبحت الأمور على مايرام، جاءه مجدداً رسول من تلك الأماكن. وتكرر الأمر مرة أخرى؛ لأنه سمح لنفسه قبل عدة سنوات أن يكون كريماً، ويعفو عن «شاجاي» الغادر. من الواضح أن أخطاء الصبا ستبقى أشواك في جسده بقية حياته. لايدور الحديث الآن عن «شاجاي»، ولكن عن نسله الثعباني «توكل» ذلك الصبي الذي كان جاثياً آنذاك مع والده على ركبتيه مقسماً على الإخلاص الأبدي. لو لم يعف حينذاك عن الصبي مع أمه التعييسة، وخائن العهد «شاجاي» لربما كانت الأمور الآن على غير هذا النحو! ..

كل شيء يتكرر بنفس السيناريو. فالحاكم الحالي لولاية تركستان «بابا سلطان» سليل أبو الخير المعروف بتقلباته يتقلب حسب الموقف بين الصداقة مع القبيلة البيضاء ومع عبد الله. وفي الأونة الأخيرة عندما وقف سلاح الفرسان الرهيب الخاص بالخان «خاك نزار» على الحدود مع ولاية، وأصبح في مقدوره أن يكون تحت أسوار مدينته خلال يومين، أقسم مرة أخرى على الولاء الأبدي. علاوة على ذلك وافق «بابا سلطان» أخيراً أن يعيد للقبيلة البيضاء مدينتي «ياسي» و «ساوران» اللتين كانتا في حوزته في وقت ما، ولكنه طلب منحه وبعض التجار مزيداً من الوقت لنقل ممتلكاتهم. وما أن وصلته الأخبار عن حملة الخان الوشيكة على «جايك» بعث برسالة إلى عبد الله، طالباً منه أن يغفر له خيانتة القسرية. وكمكافأة على ولاءه طالب «بابا سلطان» منحه السيادة على جزء من وادي فرغانة، وبلدة أنديجان. استشاط عبد الله الذي كان في ذلك الوقت يصطاد في إحدى المناطق الواقعة على نهر «شيخون داريا» بالقرب من بلدة «تشاردجوي»



غضباً ، وأمره من خلال الرسول بعدم الدخول في أي مفاوضات مع الخان الكازاخي حتى عودته . بعد أن تلقي «بابا سلطان» هذا الخبر انحاز في نفس اللحظة مجدداً إلى «خاك نزار» ، وسلمه المدن التي طلبها . ثم طلب مساعدة سلاح الفرسان الكازاخي في الحرب المقبلة مع عبد الله . وفي حين كان عبد الله مشغولاً بالصيد ولم يرجع دياره بعد ، قرر بابا سلطان مع ابن عمه «بوزاخور سلطان» أن يسبقه ، ويهاجما الواحات الغنية في بخارى وسمرقند ...

كل هذا كان يصب في مصلحة الخان «خاك نزار» ، وقرر بشكل نهائي الذهاب إلى «جايك» . وفي الوقت الذي سيتشاجر فيه سلاطين آسيا الوسطى ، ويتفاهمون فيما بينهم ، سيتمكن من تدعيم غرب خانيته ، وسيعود من هناك بجيش إضافي لقتل أعدائه . وكان واضحاً أن «بابا سلطان» قد تشاجر هذه المرة بجديّة مع عبد الله ، وكدليل على الثقة أرسل إليه الخان الكازاخي «خاك نزار» في طشقند إثنين من أبنائه ، وإثنين من أبناء قريبه «جاليم سلطان» ليقوم على تربيتهما . وبطريقة أو بأخرى كان هؤلاء الفتية عند «بابا سلطان» مثل الرهائن ...

هاهو الآن بعدما حصل على ما أراد ، واحتفل بزفافه في «سرايتشك» والذي يجسد علاقة الدم مع الكازاخ النوجاليين جاءه الرسول مرة أخرى مثلما جاء منذ عدة سنوات . لقد كان مظهره يشبه مظهر رسول الشوم السابق الذي لم يخش أن يقول له الحقيقة عن رأي السهييين البسطاء في الخان نفسه ، وجميع رجال «العظم الأبيض» . نعم أنه البطل «كياك» نفسه ، ولكنه صار أكبر سناً ، وصارت أكتافه أعرض ...

تكلم الرسول ، كما يليق به ، وباختصار على الطريقة السهبية ، وقال فقط ما أوكل به ... لم يكن «عبد الله» الحاكم الرئيس من سلالة الشيبانيين سهلاً كما كان متوقفاً . فعندما أحس بالتهديد الخطير لحكمه في آسيا الوسطى توقف عن الصيد ، ورجع بسرعه إلى بخارى وسمرقند . وطارت من عنده مثل العاكس الدوار على شكل مروحة رسل إلى اتجاهات مختلفة تحمل أوامره بتجميع الجيش . وأثناء الطريق أعاد إلى «بابا سلطان» في طشقند ابنته الجميلة البالغة من العمر خمسة عشر عاماً ، والتي دعاها من قبل إلى بلخ عازماً على أن يتخذها أصغر زوجاته مع حراس أمناء . كان هذا التصرف من جهة يدل على أن الأمير العظيم عبد الله حارس الإيمان والأخلاق ، حيث إنه يحترم نائبه على تركستان «بابا سلطان» للغاية ، الأمر الذي يمنعه من أن يضع على سيره



ابنته دون موافقة أبيها ، ومن ناحية أخرى فإنه بمثابة تحذير «لبابا سلطان» ، مفاده أن جميع العلاقات بينهما يمكن قطعها تماماً ...

مرة أخرى بدأ «بابا سلطان» يتأرجح بين نارين . كان على الأرجح يريد أن يخون الخان «خاك نزار» مرة أخرى ، ولكن الفرقة الكبيرة من سلاح الفرسان الكازاخي التي جاءت بناءً على طلبه كانت تقف بالفعل داخل أسوار المدينة . كذلك كانت تتوافد يوماً إلى تركستان قوات السلاطين المتمردين الخارجين على عبد الله . وكان من الخارجين على الأمير عبد الله بصفة خاصة العديد من البكوات التيموريين وسلاطين ولاية سمرقند المعروف عنهم منذ القدم الاقتتال فيما بينهم .

عندما اقتربت القوات الأمامية لجيش عبد الله الضخم فر «بابا سلطان» ببساطة شمالاً إلى القلاع التركستانية ، على أمل القرب من الخان «خاك نزار» .

أصبح الحاكم المؤقت للمدينة السلطان طاهر، والذي بناءً على نصيحة رسول أبو الخير «كوسكولاك - بيك» سلم صاحب «بابا - سلطان» شاه سعيد أوجلان إلى الأمير . وبناءً على أوامر عبد الله تم قطع رأس «شاه سعيد أوجلان» وأرسلوها إلى بابا سلطان في «ياسي» ...

سأل «خاك نزار» الرسول :

- ما هو الوضع هناك الآن؟

قال الرسول :

- لا يزال الجيش الرئيس للأمير يقف بالقرب من طشقند ، وتحرك جزء من سلاح الفرسان إلى مدن تركستان «ياسي» ، و «أوتزار» ، و «سيرام» .

سأل الخان :

- وهل عاد «الشيخ» «جاليم» من عند بابا سلطان؟

- لا ... - وأحنى الرسول رأسه عن علم وقال : - أبناؤه ، وأبناؤك مازالوا عند «بابا سلطان» ،

وهو لا يسمح لهم مطلقاً بالابتعاد عنه !



وكان يبدأ باردة قاسية لشخص ما قد قبضت على قلب «خاك نزار». فقد كان يحب أبناء الصغار «حسن»، و«حسين» حياً جمأ. وكان يحب أيضاً وبقدر لا يقل عن ذلك التوأم «شاد يجي»، و«أد يجي» أبناء الشيخ «جاليم»، اللذين تربيا في منزله. وربما يكون الأمير السفاح عبد الله قد وصل إليهم، حيث إن أسوار قلاع مدن تركستان غير حصينة ولا يمكن التعويل عليها. كما أن الناس هناك لا يعول عليهم. ويمكن لهذا «البابا سلطان» أن يشتري حياته من الأمير «عبد الله» على حساب حياة الأطفال الرهائن...

ظل وجه الخان خال من المشاعر وسأل الرسول :

- وأين الأمير عبد الله الآن؟ - هل مازال بالقرب من طشقند، أم تحرك مع سلاح فرسانه إلى بلدنا تركستان؟

- الأمير عبد الله ليس في الجيش .

- وأين هو؟

- في «جيزك».

- ومن يقود الجيش؟

- يقود الجيش كله «البجادور توكل» نجل السلطان «شاجاي»!

في لحظة استولى اليأس على الخان، لكنه ظل ينظر مباشرة، وبهدوء إلى وجه الرسول. أه لو كان يستطيع أن يعيد تلك اللحظة، عندما كان يستطيع بحركة من يده أن يقرر مصير «السلطان شاجاي» اللعين، وذريته. والآن هذا الصبي دقيق العنق الذي جثى بهدوء آنذاك، على ركبتيه بجانب أبيه الماكري يقود جيش العدو على أرض الآباء، وغداً، ربما يقطع رأس أولاده!

أخبر الخان إخطار السهوب أنه سيعود بجيشه. وتم إبلاغ «بابا سلطان» أن يرسل أبناء الشيخ جاليم، وأبناء الخان للقاء الشيخ. ولم يكن هذا مطلباً، بل أمراً. وإذا عصى «بابا سلطان» الأمر فسيصبح في صفوف أعدائه ...

على الرغم من أن شعبان القلق كان ينهش قلب الخان، إلا أنه كان عليه أن يتحمل مراسم الزفاف حتى النهاية. وعلى الخان ألا يظهر القلق تحت أي ظرف من الظروف حتى



يتثنى لرعاياه أن يكونوا هادئين ، وواثقين .

سحبت الصغيره «أقبالا» الخان من كفه ، وضغطت على شفيتها بشدة وقالت :
- مرة أخرى تعبسون يا خاني .. - هل أفقدتكم رؤية أختي ملكة الكلام ..
ابتسم الخان ، كما يليق به في حفل زفافه ، وأخذ ينظر إلى ضيوفه السعداء .

استمع الخان إلى الأغاني ، وسطعت أمام ناظريه بدلا من الحلي الفضية على فساتين
الفتيات سيوف جلادين الأمير المعكوفة . وترأى له بوضوح رؤوس أبنائه مقطوعة ، ولم
يكن هناك ألم أقسى من ذلك ...

ولكن ماهو ذلك الشيء الذي أعمى عينيه آنذاك ، عندما أطلق الخائن «شاجاي»
سليماً معافي؟ .. فعلى مدى تلك السنوات استعادت الخانية الكازاخية تقريبا جميع
الأراضي التي كانت في حوزتها في عهد الخان «قاسم» . وهل كان سيعيد هذا
«البابا سلطان» المدن الكازاخية إن لم يكن يعلم مدى قوة القبيلة البيضاء . فمدن
«سوزاك» ، و «سيرام» و «أوترار» ، و «ياسي» بطريقتة أو بأخرى ، تقوم على خدمة السهوب
ومصالحها .

لكن الغيوم خيمت مرة أخرى على القبيلة البيضاء ؛ فالأعداء الكثر يريدون مجدداً
تمزيقها إلى عدة أجزاء ...

لا ، لن يحدث هذا . «فالطريق الرئيس لقاسم» سياسة توارثتها السهوب لعدة قرون ،
ولن يتخلى عنها الخان «خاك نزار» ! اليوم دون إنتظار نهاية حفل الزفاف ستتحرك القوات
الأمامية إلى «ياسي» العاصمة الحالية للقبيلة البيضاء ...

فجأة اخترق أفكار الخان «خاك نزار» صوت حزين بشكل لا يوصف ملئ بالشقاء
الحو . فبحسب العرف بعد أغنية «حرارة - حرارة» تقوم فتاة برفقة زميلاتها ، وأصدقائها
بالمرور على جميع منازل القرية ، وتغنى أغنية وداعية . وهى أغنية عن الأحلام السرية
للفتيات ، وعن الأحلام التي لم تتحقق ، وعن الحب الخفي ، الذي يكون عند كل عروس
سوف يأخذونها إلى مكان آخر غريب . وتعرب الفتاه عن شكاويها ، وأمنياتها للأقارب
ووالديها المقيمين في أماكنهم . وفي «السينسو» (أغنية البجعة) يمكنها أيضا أن تلمح



عن عدم الرضا عن العريس ، وأقارب المستقبل والتي تدفع ثمنه بقية حياتها في الجانب الآخر . ونادراً ما كان يتجرأ أحد على فعل ذلك ، أما حزنهم فكانوا يعبرون عنه بطريقة مجازيه ، وبالصوت في المقام الأول . وكان الذكاء الأنشوى ، والمقدرة ، والمهارة مفتاح للعيش بأمان في أسرة الزوج . وكان صوت الجميلة «أكتورجين» معروفاً في جميع أنحاء السهوب الكازاخية من نهر «جايك» إلى البحر الأزرق بلخاش . ومثل تلك الأغاني التي تؤدي بنجاح تبقى في ذاكرة الناس ، وتنتقل من قرن إلى قرن ، ومن رحل إلى رحل . وهذا هو السبب في أن الخان «خاك نزار» قد أنصت باهتمام ، عندما بدأت زوجته السابعة في الغناء .

كان «أكتورجين» قد فهمت حالته الراهنة فجاءت الأغنية حزينة وثقيلة ، ولكنها حذرة . وتجنبت الفتاة اللوم المباشر لزوجها في المستقبل ، على الرغم من أنه كان يمكنها أن تسمح لنفسها بالكثير معتمدة على مكانتها ، ووضعها الاجتماعي .

تذوب أحلام العذارى كسراب في الصحراء .

وبدا لي أن الزهرة تزدهر في الحديقة فقط من أجل الليل

ويتوجع قلبي بشأن مصير تلك الزهرة

فبدلاً من الليل طار إليها نسر مخيف ...

غادرت أفكار الخان «خاك نزار» الزفاف على الفور... فماذا قال له الرسول «كياك» البطل العادي غير المنتسب إلى قبيلة عريقة؟ .. لن يستطيع الناس أن يصبحوا أغنياء في السهوب ، وفي الشتاء ينتظرهم الجوع . ولكن اليوم قال أيضاً أنه عند «أفضل الناس» قطعان كبيرة ، كما لو كان يقترح على الخان أن يأخذ منهم ضرائب في المقام الأول . وقبل عشرين عاماً مضت ، لم يقل أحد مثل هذا الكلام ...

إن جيشه يتكون منهم هم - المحاربين البسطاء - وقوته فيهم . ولم يعودوا يسرون الآن عن طيب خاطر خلف بكواتهم ، عندما يريد هؤلاء أن ينفصلوا عن القبيلة البيضاء . ألم يترك نحو ثلثي الفرسان «شاجاي» على الفور عندما انفصل عن الخانية الكازاخية . فالعوام يريدون قبل كل شيء خانية موحدة ؛ لأنهم سيجدون عنده - خاك نزار - الحماية من الإضطهاد ، ومن ظلم أرباب عشائريهم . ومن الأفضل أن يحميهم جيش موحد من عدوهم الحالي . وتعانى مضارب الرحل الجنوبية بالكامل من بحر آرال إلى كاشغور من الغارات المتواصلة لعدد لا يحصى من الحكام الشيبانيين ، والتيموريين ، والمغولستانيين . وترد عليهم الفرق الكازاخية بالمثل . وكل شتاء تنتشر قطع القماش السوداء الدالة على



الجوع على مضارب الترحال في هذا أو ذاك الجانب . ولم يتبق شيئاً لسلبه من بعضهم البعض ...

نعم لا بد من اتباع «طريق الخان قاسم» ! ضغط كل الأصابع إلى القبضة ، ومن ثم استعادة القانون والنظام . بعد ذلك عندما يتم تعزيز الحدود من الممكن العمل على إعادة توزيع الدخل . فأى ذنب اقترفه ذلك المحارب البسيط الذي قال الحقيقة في وجهه اليوم ؟ ليس له ذنب إلا أنه ولد من جاريه ، وطبقاً للقانون القديم ، ليس له أية حقوق أو مزايا من تلك التي يتمتع بها من ولد حراً . ينبغي إلغاء العديد من القوانين القديمة ؛ كي تصبح خانيته قوية ، ومنتصرة . وما دام قد رد على هذا المحارب المحب للحقيقة بالإجابة الصحيحة فليصبر ...

بعد أن وصل إلى هذه النقطة قطع الشاعر «بوخار» القصة فجأة في منتصف الجملة ونظر بفضول إلى «أبي المنصور» . لقد تذكر ملاحظة السلطان الصغير أن الخان «خاك نزار» عبثاً ، قد وثق بعبده البطل «كيك» .

أدرك «أبو المنصور» لماذا توقف الشاعر ، وكأنه قد واصل الحديث المنقطع فقال :

- سوف ترى ، أيها الشاعر ، أن العبد سيجد طريقة ليلدغ سيده !

حدث الشاعر «بوخار» نفسه فقال :

«كلا لن تخرج فكرة القتل من رأس هذا السلطان الصغير . - سيتعرض العبد للقتل إذا بقي هنا . يجب تحذيره بطريقة أو بأخرى !»

انتظر أبو المنصور جواباً محققاً في وجهه بعينيه الباردتين اللتين لاتطرفان . مسح الشاعر «بوخار» خديه كأنه يفكر ثم قال :

- ربما كنت محقا ... ولكن البطل «كيك» هو من سيساعد السلطان «توكل» الضال عن جادة الطريق في أن يجد نفسه وشعبه . أليس كذلك؟

- ربما كان ذلك كذلك !- ونظر السلطان الشاب نحو شيء ما في الفضاء أعلى من



رأس الشاعر ثم قال : - لكنه أفشى سراً . وعلاوة على ذلك ، الخان لا يجد شعبه ولكن يجب على الشعب الخضوع لحاكمه الشرعي !

اعترض الشاعر بشدة وقال :

- وماذا يفعل الحاكم وحده دون الشعب - وهل في مقدور مئات الخانات أن يدفعوا الهزيمة عن القبيلة البيضاء دون الناس ...

وفجأة ضحك «أبو الخير» بطريقة ساخرة وقال :

- منذ متى أيها الشاعر نحدد حجم الخانات بالمئات؟ - أليس الجسد بلا رأس هو جيفة نتنة؟ أليس الخان بمثابة الرأس للشعب !

تذمر الشاعر وقال :

- هناك رؤوس لا يرى منها سوى الفم !

- من الأفضل أن تحكي ... ماذا حدث بعد ذلك للخان «خاك نزار» ...

نظر الشاعر «بوخار» إلى «أبي المنصور» القابع في مكانه بلا حراك ، وتطلع بفزع إلى العبد العجوز المستكين عند المدخل ، ثم واصل قصته ...

- كان التفاوض على كل شيء قد تم من قبل ، وقد أعطى اجتماع الكازاخ النوجايليين فقط الإتفاقية قوة القانون . أبلغ الخان «خاك نزار» كباراء النوجايليين أنه سيعود أدرجه إلى السهوب على الفور بعد حفل الزفاف . وستقوم الفرق القتالية النوجايلية المخصصة لمساندته بالسير خلف زوجته الجديدة ...

وحيث إن الأمر كان جد خطير ، فإن لقاء الشيوخ امتد حتى المساء . وعندما لامست الشمس القرمزية خط الأفق خرج الخان «خاك نزار» من أسوار «سرايتشك» يرافقه الشيوخ الذين صاروا جميعا الآن أقاربه ، متوجها إلى يورته (منزله) أبيض الجناح . لم يكملوا الابتعاد مائتي خطوة إلا وقد صدرت صيحة مخيفة من أحد فرسان الخان . حملق الخان بعينيه في أحد الجوانب وكأن سكيننا باردا قد دخل في قلبه ...



من جهة الشرق المظلمة جاء فارس بأقصى سرعة . وكان يرتدي اللون الأسود ، وحصانه تحته بلون الغراب . لذلك برزت بوضوح قطعة القماش البيضاء الدالة على المصيبة والمثبته على الرمح . أشار الخان لهم بالمضي قدما ، وبقي هو وحده ليقابل الرسول دون شهود .

لقد كان «تويك باتير» الشقيق التوأم لذلك الرسول الذي جاءه من قبل . وبعد أن تعرف على الخان في شخص الرجل الواقف وحده ، ترجل عن فرسه ، وجثى على ركبتيه ، وأراد أن يلقي على رقبته الحزام الذي خلعه كعلامة على وفاة الأقارب . لكن الخان منعه من ذلك بإشارة من يده وقال :

- لاداعي لذلك «ياتويك» ... إنك لست في ديارك . ولا تصنع إشارات يمكن أن يلحظها الغرباء ...

- خير حزين يا سيدي الخان!

- أعرف ...

- ولدك يامولاي ... حسن ، وحسين ...

- أعلم !

نظر البطل «تاويك» إلى خانه بدهشة . كان من غير الممكن عدم إبلاغه بسرعه هذا الخبر المروع ، ولم يكن هناك أحد للقيام بذلك .

- بيد من تم هذا الأمر؟

- بابا سلطان ياسيدي الخان ...

قص المحارب على مسامعه ما حدث . من الجائز أن الرجل الذي فر من مدينة «ياسي» أخبر «بابا سلطان» بتحريض من رجال الأمير «عبد الله» أنه سيقتل بناء على أوامر من الخان «خاك نزار» . وقدم له الرسالة المختومة بخاتم القبيلة البيضاء ، والتي صنعتها أيدي ماهرة ، وجاء فيها أنه قد تم إعداد العدة لقتل النائب على ولاية تركستان . حينذاك جمع «بابا سلطان» الذي أصابه الجنون أخلص خلصائه بطريقة سرية ، وأعد خطة مفصلة . وكان يوجد في مقر «بابا سلطان» مع السلطان جاليم ، والفتيان الأربعة الرهائن كتيبة كازاخية كبيرة من سلاح الفرسان ، والتي جاءت لخوض قتال مشترك ضد «عبد الله» . في الليلة السابقة تناول «بابا سلطان» و«السلطان جاليم» مع الشيخ



الكازاخ الآخرين الطعام باسم النصر القادم على العدو المشترك، ودعاهم في صباح اليوم التالي للتشاور. وعندما اقترب «جاليم سلطان» مع تلاميذه، والفرسان المرافقين له من بيت «بابا سلطان»، أمسك مقود حصانه بنفسه. وعندما إستشعر «جاليم سلطان» العجز الشرم من جانبه سحب سيفه، ولكن رأسه انزلقت من على كتفيه، فقد قطعت من الخلف بسيف معكوف. وفي نفس اللحظة قام الجنود برفع الفتیان الأربعة أبناء الخان، وأبناء «جاليم سلطان» على أسنة الرماح. وتم قتل الفرقة كلها عن بكرة أبيها غدرًا، ولكن بعض الفرسان تمكنوا من تشكيل محكم في الوصول إلى البوابات، ثم ذهبوا إلى مدينة «ياسي». وبعد ذلك بوقت طويل ورد ذلك في سجلات «شرف نامي إبيشاخي»: «تغطت السهوب باللون الأحمر القاني كما لو أنه قد غطتها أزهار الخشخاش ...»

كان كل شيء يحترق داخل الخان «خاك نزار»، كأنه قد شرب سم التبت المر. ولكن، كان وجهه الشاحب هادئًا، وعيناه تنظران ببرود إلى شيء ما بعيد. أخذ البطل «تويك» ينظر بدهشة إلى خانه. في مثل هذه الحالات كان التعبير عن الحزن يتطلب حتى على الأقل لمس الوجه، والعينين باليدين. أو ربما كان صحيحا مايقوله الناس عن قسوة هذا الرجل ...

سأله الخان «خاك نزار» بجفاء:

- هل الأمير عبد الله بطشقند؟

- لا يامولاي فبعد أن سلمه «السلطان طاهر» الأمير السفاح «شاه سعيد أوجلان» ولم يحصل منه على المكافأة المنشودة قام بتحسين المدينة، ولم يسمح له بدخولها ...

واصل الخان «خاك نزار» طرح السؤال بعد السؤال بنفس الصوت الخالي من العاطفة. وقص عليه البطل «تويك» بالتفصيل كل ما حدث في تلك الأيام الرهيبة على حدود الخانية. في نفس اليوم الذي ذبح فيه «بابا سلطان» حلفاءه الكازاخيين تلقى رسالة أعدت سلفاً من الأمير نفسه، تضمنت إقتراحاً بالإذعان له، وتسليمه أخيه «بوزاخور سلطان» لمعاقبته. وأقترح الأمير إرسال رأسه المقطوع في الحالة القصوى، وكمكافأة له أقر الأمير «بابا سلطان» مرة أخرى نائباً له على ولاية تركستان. أدرك «بابا سلطان» أنه تسرع بقتل السلاطين الكازاخ، ولكن لم يبق له شيء يفعله سوى الموافقة على جميع شروط الأمير «عبد الله». وقد أرسل شقيقه في وقت سابق إلى السهوب ليقوم بهجوم



مفاجئ على الخان «خاك نزار». غير أنه أرسل في عقبه فرقة أخرى مع تكليف بقطع رقبة «بوزاخور سلطان» نفسه. ولكن بعد أن علم هذا الشخص بكل ما يدور من إشاعات تحول هو وفرسانه نحو الأنهار السبعة، وفي الطريق نهب، وساق أمامه قطعان من الماشية من مضارب الترحال الكازاخية، والقيرغيزية. وبعد أن نفذ أوامر «عبد الله» انطلق «بابا سلطان» خلفه، وترك تركستان في حماية سلاح فرسان الأمير ...

بشكل عام كان كل شيء على الحدود كالمعتاد. كان السلاطين من جميع الفئات والأعراق يمزقون بعضهم بعضاً إرباً مثل الذئب المسعورة، حتى الذئب العادية لا تنقض على إخوتها من غير سبب. أصبح الطريق إلى السهوب الكازاخية مفتوحاً على مصراعيه لخيالة الأمير المرتزقة، وهاهو، خان القبيلة البيضاء يستمع هنا بهدوء إلى ترهات، وخرافات الزفاف! ..

قال الخان «خاك نزار» وهو غارق في التفكير :

- كثير من الجثث الآن في تركستان. وأين هو الآن ابن آوى العجوز «شاجاي»؟ فدائماً ماتجذبه رائحة الدم! ..

- وفقاً للشائعات يوجد السلطان «شاجاي» في مكان ما في «تالاس» ... ينتظر نتيجة المعركة بين الأخوين «بابا سلطان» و «بوزاخور سلطان» .
أوماً الخان برأسه موافقاً وقال :

- هذا هو ما فكرت فيه ... الأمير «عبد الله» رجل مكرر. والشئ المهم بالنسبة إليه هو أن يجعل روح الشقاق والخلاف تدب بين السلاطين الكازاخ، وبين سلاطينه، ويؤلبنا عليهم، وعلى القادة القيرغيزيين، ويؤلب هؤلاء علينا ... فهل نبدو بهذا الغباء!

واصل البطل «توبياك» النظر إلى الخان في دهشة. فقد كان صوته هادئاً كأن لم يكن لديه أي أبناء حتى أنه لم يسأله عن تفاصيل موتهم الرهيب.

- وأين البجادور «توكل» الآن؟



- في «تالاس» مع السلطان «شاجاي». هكذا يقولون .

- حسنا ... لا تدع أحداً يعرف ما قلته لي الآن أيها المحارب . والآن عد إلى معسكرنا وراء النهر!

حدث البطل «تويالك» نفسه وهو يخرج من عند الخان :

«أنه جرب بلا شرايين يسرى بها الدم ، الخان بلا قلب». ولم يستطع أن يتخيل أنه بعد أسبوعين عندما كان الخان «خاك نزار» وحده عند قبر أبنائه ، أنه سوف يخدش صدره في كرب مميت ، ويبكي مثل جمل أبيض فقد ولده ...

في فجر اليوم التالي تحرك سلاح فرسان القبيلة البيضاء في تناسق تام نحو الشرق . وبعد أن استيقظ سكان «سرايتشك» من النوم ، أخذوا ينظرون في دهشة إلى ضفاف نهر «جايك» الغاوية ، حيث كان لا يزال الدخان يتصاعد من النيران . وسرعان ما تبدد الدخان عبر النهر ... لقد تم إيقاظ الجيش النوجايلي المهدي للخان أثناء الليل ، وسار معه . هزال الشيوخ النوجايليون رؤوسهم في حيرة . وسرت بين الناس شائعات شتى .

وعندما حكوا للحكيم الشاعر « شاكليينز » عن ذلك الأمر قال بحزم :

- أنه خاننا من الآن فصاعدا ، وهو الذي يقرر ما يجب القيام به من أجل المنفعة العامة لنا جميعا !

بعد ثلاثة عشر يوماً وصل الخان «خاك نزار» إلى مدينة «ياسي» . وهنا علم بما حدث في المعركة التي دارت بين جيش «بابا سلطان» و «بوزاخور سلطان» في وادي «تالاس» . وتمكن «بوزاخور سلطان» المنهزم من الهرب ، وأرسل الأمير عبد الله الغاضب «لبابا سلطان» علامة سوداء ، تعني الموت . وانقض جيش «شاجاي» غير المتعب تحت القيادة العامة للسلطان «توكل» على جيش «بابا سلطان» المنهك . ولكن «بابا سلطان» نجا هذه المرة ، وتراجع في الوقت المناسب . وقد سمح هذا للخان «خاك نزار» بالعودة بدون معوقات إلى «ياسي» . وكان من الواضح أنه طالما لم يتخلص الأمير عبد الله من السلطانيين الهاريين تحت حماية الحلفاء ، ولم يقمع أعداءه الآخرين الكثيرين ، فإنه لن



يتحرك لغزو المدن، وعلاوة على ذلك لن يتوغل في السهوب.

لم يستسلم الخان «خاك نزار» طوال حياته للمشاعر، وبقي في ذاكرة الناس كرجل عادل، وصلب كالصخر. ومع ذلك لم يكن هكذا. فقد استسلم مرة واحدة في العمر للشعور الإنساني. حدث هذا في جوف الليل عند قبر أبنائه. في تلك الليلة، خلافاً لمصالح الخانية، إنتقل بفرسانه إلى الشرق؛ لأن «بابا سلطان» قاتل أبنائه كان يوجد عند حاكم كاشغر الخان عبد اللطيف...

بهذا الفعل شد الخان «خاك نزار» فقط من أزر عدوه الرئيسي الأمير «عبد الله»، الذي كان السلطان الهارب يستعد لقتاله. وجاء من قبل «بابا سلطان» أناس يبدون الندم والتوبة، وحكايات عن براءة السلطان المضلل. وعرض إقامة تحالف جديد ضد «عبد الله» ولكن مشاعر الخان «خاك نزار» طغت على عقله. لذلك بعد ثلاثة أيام ذهب الخان «خاك نزار» على رأس سلاح الفرسان الكازاخي والقيرغيزي إلى ألكسو. كان ضمير الخان «عبد اللطيف» مثقل بالعديد من الخطايا ضد القبيلة البيضاء، ولكنه الآن حليف جيد ضد «عبد الله» الرهيب... وفي الليل اقتحم فرسان الخان «خاك نزار» المدينة المطمئنة من الجهات الأربع. وأعماه كرب الوالد فقام بنفسه بتقطيع الخان «عبد اللطيف» إرباً قبل أن يتمكن من ارتداء ملابسه...

وبمجرد أن سمع «عبد الرشيد خان» حاكم «كاشغر الشرقية»، و«جاركينت» القوي شقيق «عبد اللطيف خان» بذلك، حتى رفع يديه إلى خديه، وشرع في الأنين من الكرب العظيم. جمع جميع قواته، وانطلق في إثرهم، وبالقرب من «جازيل كول» في مستنقعات «إرتيش» اشتبك مع جيش القبيلة البيضاء المنهك. لم يكن ذلك الجيش كامل العدد، ولم يعد إعداداً جيداً لهذه المعركة. إستمرت المعركة عدة أيام. وبعد أن إخترق سلاح الفرسان الكاشغري الحلقة الأخيرة من المحاربين وهم حراس الخان الشخصيين، قام بتقطيع أجساد كل من كان هناك بما في ذلك الخان «خاك نزار» نفسه...

هكذا غادر عالمنا الدنيوي آخر خان قوى للقبيلة البيضاء، والذي تمكن لفترة قصيرة من إعادة توحيد القبائل والعشائر الكازاخية المضطربة، والمتنافرة، واستعاد تقريبا الخانية الكازاخية في تلك الحدود، التي كانت في عهد قاسم خان؛ لأنه تغلّى



لمرة واحدة فقط عن حذره ، واستسلم للضعف الإنساني العادي .

حمل الناجون من الفرسان الكازاخ ، والقرغيز جثمانه ، ودفنوه في ضريح «خودجي أحمد يسافي» ، ووضعوا عليه حجراً من الجرانيت الأبيض مع نقش مناسب . وعلى الفور تصدعت بلد الكازاخ مثل زجاج مكسور في كل الأجزاء ، والقبائل ، والعشائر ، وتحولت إلى شظايا حادة لا يعول عليها . ثم تجرعوا اليأس ...

قال الشاعر «بوخار» :

- هذا هو الجواب على سؤالك ياسيدي الخان ... - حتى «خاك نزار» الجبارين «قاسم خان» لم يتمكن من توحيد شعبنا المبعثر . فمن من خاناتنا الحاليين يستطيع أن يفعل ذلك ؟ ولكن نادراً ما يسير الخان ، والشعب في نفس الاتجاه ! ..

صمت أبو الخير ، واصطكت أسنانه . فكثيراً ما كانت تتباين وجهات نظره مع الشاعر العراف . وصمت الشاعر «بوخار» أيضاً . ومس شخص ما ذراعه فتطلع حواليه . لقد كان ذلك الشخص هو الفتى الذي لا تطرف عيناه .

قال الفتى :

- إنك لم تحك بعد أيها الشاعر عن سر «توكل» ! ..

- نعم لقد أفضى الخان «خاك نزار» قبل وفاته بسر ميلاد «توكل» لفارسه المخلص «كيك» ... - قال الشاعر ذلك ، وأغمض عيناه ، وأظهر أنه لا يريد أن يقول أي شيء أكثر من ذلك .

انطفأت النار في الخيمة منذ فترة طويلة ، وبدت من جراء ذلك أكثر سواداً . وقد سُمع فقط شخير إيقاعي من النائمين ، وكذلك أنات هادئة من الإبل الناعسة بالجوار .

غير أن الشاعر الذي كان قلقاً من روايته الخاصة لم يستطع النوم . وكانت النجوم السهبية الكبيرة تنظر إليه من خلال سجادة اللباد الممزقة ، أما هو فكان راقداً يفكر في مصير شعبه . فكم من المصائب قد كابدها شعبه ، وماذا ينتظره في المستقبل؟



حقاً تتجمع الغيوم السوداء فوق سهوبنا، وقد دفع الشعب إلى الاقتتال الداخلي الدامي بفعل رؤساء العشائر الذين لاحصر لهم ، ولن يستطيع الصمود تحت ضغط القبيلة الجونغارية. والآن تحديداً يحتاج الناس إلى شخص يستطيع بقبضة من حديد توحيد القبائل والعشائر، ويكسر العمود الفقري لأولئك الذين لا يريدون الوحدة . ولكن أين هو ذلك الخان؟ العجوز بولات؟ ... ساميكي؟ ... السلطان باراك المسعور؟ .. لا ، ربما يكون أكثر ملاءمة لهذا الأمر « أبو الخير» البالغ من العمر ثلاثين عاماً . أنه حاكم شجاع، وذكي، ولكنه مثل كل الخانات يضعون مصلحتهم الشخصية فوق كل شيء . حسنا ولكن أين تجد مثل هذا الخان الذي لا يحب المجد الشخصي؟ هكذا خلقهم الله. ولكن ماذا يمكننا أن نقول عن هذا الفتى الضخم، الباسط ذراعيه إلى جانبه، والذي ينبعث منه شخير أقوى من شخير ثلاثة من الفرسان . ووفقا لمكانة الاجتماعية فهو يملك الحق في أن يعتلى عرش الخانية. أنه ابن السلطان والى ، أى أنه جنكيزي خالص ...

ابتسم الشاعر «بوخار» ابتسامة عريضة . سيذهب أبو الخير، بطبيعة الحال، ولن يعرف أي شيء عن «أبي المنصور» . ليتنى أرى وجه خان الجزء الأصغر عندما يكتشف فيما بعد من قابل في خيمة الراعي الممزقة ...

بأى شيء جذبته إليه هذا الفتى ذو العينان اللتان لا تطرفان؟ ربما على السهوب الآن أن تفتن بتلك النظرة الباردة . لقد أتيج للشاعر أن يقتنع خلال الوقت الذي تواصل فيه مع السلطان الشاب أنه ذكي، ورباط الجأش . ولم تخذل الشاعر «بوخار» غريزة الشاعر من قبل قط . ما يحيره فقط هو عدم قدرته على تقدير الخدمة المقدمة له من ذلك الرجل البسيط من عامة الشعب . ولكن ربما كل ذلك قد تبدى له على غير الحقيقة ، وأن أبا المنصور لا يزعم أن يقتل منقذه؟

مع ذلك كان من السابق لأوانه التفكير في هذا الفتى كخان قادم . وهل ستسمح له تلك الذئاب مثل ساميكي ، وباراك ، أو أبو الخير هذا بأن يزيحهم من طريقه ! .. ومع اقتراب الصباح فقط غط الشاعر في نوم عميق، كأنه قد سقط في مستنقع أسود بلا قاع ...

ضربته الشمس الساطعة في عينيه فاستيقظ على الفور . كان أفراد من حاشية الخان من التولينجوت يسرون حول الخيمة ، وعلموا عند الفجر أين يقضى سيدهم



ليلته فأعدوا الخيول . نظر الشاعر «بوخار» إلى جانبه . كان السلطان الشاب يصدر شخيراً كسابق عهده مباحداً في النوم بين يديه الثقيلتين القويتين . لكن العبد العجوز «أوراز» الذي كان يخدمهم على مدار يومين كاملين لم يجد له الشاعر أثراً حيثما نظر .

قال الشاعر بوخار «لأبى المنصور» الذي إستقيظ أخيراً :

- مالي لا أرى زميلك «أوراز» . - هل حدث له مكروه؟

نظر إليه المنصور كعادته في عينيه ، ومن جديد زحف البرد في ظهر الشاعر .

قال السلطان الشاب بهدوء :

- حدث له ما كان يجب أن يحدث. - وإنك قد خمنت ذلك الأمر...

طأطأ الشاعر رأسه . نعم على ما يبدو هذا هو مصير العبيد في هذا العالم الرهيب .

سأله الشاعر :

- ومتى تمكنت من فعل ذلك الأمر؟

- هذا أمر يتم إنجازه بسرعة !

كانت اللامبالاة بادية في لهجة السلطان الصغير .

- لكنه لم يكن عدوك ! - قال الشاعر ذلك فقط لكي لا يصمت .

أجاب الشاب باختصار :

- كل الناس الآن أعدائي !

- إذا أصبحت هكذا ... هكذا بلا قلب ، فإنك لن تذهب بعيداً يا سلطان ! - وصار

الغضب يغلى في قلب الشاعر . - لديك عدوان أحدهما خارجي ، والآخرهم بكوات

وسلاطين العشائر الذين يجذبوننا في جميع الاتجاهات . لذلك فإن من يريد أن يوحد

الشعب ينبغي عليه أن يضع الشعب في حسبانته لأن يقتل المخلصين في كل فرصة

سانحة !

- ومن سيعرف أننى فعلت ذلك؟

صاح الشاعر :



- إننى أعرف ذلك الأمر!
- ولكنك لن تحكى لأحد عن ذلك .
- لماذا؟
- نظر السلطان الشاب في عينيه مجدداً بناظريه اللذين لا يطرفان وقال :
- لأنني سأكون على رأس القبيلة البيضاء ، وأنت ستدعم وحدتها !
- وعندما جلس الشاعر «بوخار» على الحصان، لمس السلطان الشاب ركاب جواده وقال :
- سوف أغير اسمي !
- وماذا ستسمي نفسك ؟
- أبلاي ... أنهم يخافون من هذا الاسم في السهوب !
- ولكن أبلاي مصاص للدماء ... هكذا كان يسمي الناس جدك!
- فليكن ذلك ..



III

ساعدت العاصفة الرملية المحارب الشجاع «يليتشيبك» على مغادرة تركستان. وتوجه مع كتيبة من الرجال الشجعان إلى مدينة «سوران» ليتدس للجونغار هناك. كانوا في طريقهم إلى هناك يختبئون في أحراش نبات الديس خلال النهار، ويتحركون فقط في الليل.

توجه بعض سكان المدينة الذين لم يذهبوا مع «يليتشيبك» صوب مدينة طشقند بعد أن لفوا حول «سوران». أما الآخرون، وخاصة القادمين الجدد، فقد قرروا عدم الذهاب بعيداً واختبأوا في أحراش نبات الديس عند «سيحون داريا».

وقد أعادت حصون تركستان، وبعض المدن الأخرى تقدم الجيش الجونغاري، وأتاحت الفرصه على الأقل لإنقاذ بعض اللاجئين. وفي المجلس العسكري المقام على أنقاض تركستان تقرر تأجيل الغزوات القادمة إلى الصيف المقبل. وبناء على اقتراح من الفرسان ذوى الشأن، والأعيان الجونغاريين عقد العزم على وضع بلد الكازاخ كلها بين فكي كماشته مميتة في ربيع العام المقبل. وبعد أن إقتحموا خانات آسيا الوسطى، وهبطوا إلى بحر آرال عن طريق نهري «سيحون داريا»، و «جيجون داريا» كان ينبغى على تومينات الكونتياتشي الجونغاري الذهاب إلى نهري «جايك» و «إديل»، حيث كان يخيم هناك من قبل المتسربين من الكالميك الجونغاريين. ومن جهة البوابات الجونغارية، وجبال «ألتاي» تم إقتراح إطلاق جيش آخر «للتطويق». وكان ينبغى على الجناحين أن يتحدا عند مدينة «أستراخان» ليقميا الخانية الجونغارية العظمية الجديدة. طالب «سيبان رابتان» في نفس الوقت بجزء من سيبيريا والذي ينتمى فعليا إلى روسيا لاسيما المدن الجديدة على الخط الحدودي بما في ذلك تومسك. ومن حين لأخر كان يهدد الصين نفسها، وليس سرا أنها هي التي كانت تعين الحاكم الجونغاري المنكب على شهواته ورغباته.

كل هذا يذكرنا بصيد الثعبان الهندي النمري القديم. فلكى يغوون الثعبان كانوا يضعون أمام جحره ضحية من الأيل الأحمر. ثم يبدأ الثعبان قصير النظر في



بلع الأيل الأحمر من الذيل ، ولكن عندما يصل إلى الرأس لا تمر قرونه المتفرعة الضخمة حتى من فكي الثعبان . وهنا يبدأ الصيادون ذوي الخبرة عملهم . كان الكونتاييتشى الجونغاري «سيبان رابتان» الآن مثل الثعبان لأن قرون الأيل الأحمر الكازاخي التي وصل إليها بذلك الإصرار تقع في الحدود الروسية الواسعة .

يقولون أن الله قبل أن يعرض عن الإنسان يحرمه العقل . في أواخر الخريف تحرك الحاكم الجونغاري «سيبان رابتان» مع جيش ابنه «جالدين تيسرين» ، وابنته «خوتشا» من تركستان إلى «جان كورجان» . وفي هذه المرة كان معه أربعون ألف فارس ، أما بقية القوات فقد تركها لنهب الأراضي المحتلة بالكامل . فجأة جاء رسول من قبل «خوتشا» التي كانت في مقدمة الجيش يبلغه أن جحافل لا حصر لها من الكازاخ تتحرك نحوهم . فأصيب المزهو بنفسه «سيبان رابتان» بالدهشة البالغة .

وفقا لمعلوماته فإن المقاومة الكازاخية الآن غير واردة بالمرّة .
قال للرسول بلهجة امرأة :

قل لابنتي «خوتشا» لو أنها اعتقدت خطأ أن قطعان الأغنام ، وقطعان الخيول جيش فلتقم بتحذيرنا ، وسوف نرسل لها الرعاة !
لكن سرعان ما تأكد الحاكم الجونغاري من أن ابنته لم تكن خاطئة . وجاءه الرسول من عندها مرة أخرى يصيح :

فرسان كازاخ من الجزء الأصغر ... يقودهم الخان «أبو الخير» ... لا يقلون عن ثلاثين ألف فارس ... وعلى الجانب الأيمن منا فرسان كازاخ من الجزء الأوسط ... ويقودهم شقيق الخان «بولات ساميكي» ... ثلاثون ألف أيضا ...

وقد أبلغته ابنته أن كلا من الجيشين الكازاخيين سيتحdan في السهول الفيضية لنهر «تشييلي» ، واقترحت إنتظار ذلك الأمر . وأبلغه الرسول كلماتها حرفياً : «سيكونان حينئذ في جوال واحد وماعلينا فقط إلا أن نربطه !» . لم يكونوا في الجيش الجونغاري يكتبون رسائل لبعضهم البعض ، ولكن كان الرسل يتميزون بذاكرة حافظة .



كان «سيبان رابتان»، الذي لا يقل فخراً وغروراً عن ابنته المزهوة بنفسها على استعداد لأن يستجيب لهذا الاقتراح، لكن «رينات» مستشاره السويدي الذي أسمرتين أثنائه عن ذلك. وأقترح عليه الإنسحاب، وتجنب معركة يتفوق فيها العدو عدداً وعدة.

قال الحاكم الجونغاري :

- كلا سوف نسحقهم واحدا تلو الآخر - أولاً أبو الخير، ثم ساميكي !

سأله رينات :

- وماذا ستفعل إذا جاء فجأة جيش «ساميكي» أثناء القتال مع أبو الخير؟

قال الحاكم الجونغاري «سيبان رابتان»:

- السيف الجونغاري يقطع كالبرق

- بسرعة، وبطريقة ساحقة !

أصر رينات على رأيه وقال :

- ولكن ماذا لو حدث ذلك؟

قال الحاكم الجونغاري :

- لا يمكن أن يحدث ذلك !

قال ابنه «جالدين تسيرين» بهدوء وبحزم :

- حينئذ سنمنى بالهزيمة !

عرض «جالدين تسيرين» أن يجلب عشرين ألف فارس، ثم بعد ذلك يدخل في معركة مع الكازاخ. قهقه الحاكم الجونغاري العجوز الحكيم ثم قال :

- حينئذ سيحتاجوننا !

اندهش الابن وقال :

- لماذا ؟

- عشرون ألفاً من جنودنا يحرسون عشرين ألفاً من الممرات التي يسير خلالها الكازاخ خلف ظهورنا. فإذا استدعينا هؤلاء الجنود إلى هنا فسيأتى إلينا الكازاخ من خلال تلك



الممرات . ألا تعلم أن رجلاً واحداً يضرب في الظهر لهو أكثر خطورة من خمسة عشر يرمون
سهامهم في الوجه !

اندهش «جالدين تسيرين» ثم قال :

- ولكن من ... من سيضربنا في الظهر؟

قال «سيبان رابتان» بجديّة بالغة :

- الأموات !

نظر الضابط السويدي «رينات» في وجهه وقال : إن الحاكم الجونغاري لا يميز .

تقرر الذهاب في مسيرة سريعة إلى أبي الخير لسحق وتسوية جيشه بالأرض قبل وصول
خيالة الجزء الأوسط .

قال الحاكم الجونغاري «سيبان رابتان» ..:

- عندما يكون لديك طريق واحد فقط هو المتاح من أن جميع الطرق فلا بد من تطلق
له عنان فرسك !

هز المستشار رينات كتفاه بطريقة لاتكاد تكون ملحوظة . وحدثته نفسه أن
في هذه البساطة الطبيعية للحلول ، والقرارات تكمن ، على ما يبدو ، انتصارات ، وقوة
أسلاف الحكام الجونغاريين العظماء الملتخّة بالدماء ...

تحرك الجيش الجونغاري في جوف الليل بسرعة كبيرة . وأصدرت السهوب أزيزاً من وقع
آلاف الحوافر الفولاذية ، وصفرت الرياح من تمايل أعراف الخيول الشعثاء السوداء وذيلها
المدلاة . وفي جوف الليل وصلوا بحيرة بها أحراش نبات الديس بالقرب من نهر «شيلي» حيث
يوجد معسكر «أبو الخير» . وهناك كانت «خوتشا» المحاربة مع أفراد الاستطلاع التابعين
لها في انتظار والدها . ذهبت إلى الحاكم الجونغاري ، وساعدته في النزول عن فرسه ،
وصحبته إلى خيمتها المغطاة بنبات الديس .



دلف «جالدين تسيرين»، و«رينات» إلى الخيمة، وجلسا على ركبة واحدة عند المدخل. أخذت الفتاة ترج بصمت لبن الفرس في الزق. أعطت والدها أولاً وعاء كبيراً في صمت، ثم شقيقها الأكبر، ثم «رينات». روى «سيبان رابتان» ظمأ الطريق باثنين أو ثلاث رشفات طويلة، ثم نظر إلى أفراد الاستطلاع الواقفين على عتبة الخيمة وقال :

- أين قائدهم النويون (أميرجونغاري) «شانجريك»؟

رَجَّت «خوتشا» الزق عدة مرات، وصبت لوالدها لبن الفرس طازجاً ثم قالت :

- ها هو هناك جثة هامدة وراء الخيمة ...

- ومن الذي قتله؟

- أنا قتلته.

- وأين هو؟

اصطحبت الابنة والدها عبر الطريق الذي لا يكاد يرى في ضوء القمر، وأرته الجثة. كان الشاب عريض المنكبين في الخامسة والعشرين من عمره وعليه ملابس غالية الثمن. وفي صدره أمام القلب مباشرة برز سهم انغرس حتى منتصفه.

قالت «خوتشا» :

لقد أذنب، وأنا قتلته . - إنني أنا التي أصدرت عليه الحكم !

سأل الحاكم الجونغاري :

وماذا فعل؟

كان النويون «شانجريك» ابن البطل «دودا دروجي» من عشيرة «ميركيت» أحد أكثر الرجال البارزين في الخانة الجونغارية . كان البطل قد خطب في العام الماضي ابنة الحاكم الجونغاري البالغة من العمر ثلاثة عشر عاماً لابنه ، وقد وافق «سيبان رابتان». وكان مقرراً إتمام مراسم الزفاف في هذا الشتاء. ومن غير المعروف لماذا لم تكن «خوتشا» سعيدة .

وحقيقة الأمر أنها كانت تدرك كيف كان يتعامل معها النويون الشاب. فقد كانت بالنسبة إليه ابنة الحاكم الجونغاري فقط . وقد علمت مؤخراً أن النويون



«شانجريك» اصطحب فتاة جونغارية أخرى إلى خيمته. ولو كانت هذه الفتاة الجونغارية قبيحة لما أعارت هذا الأمر أي اهتمام. ولكن أن يصطحب فتاة جونغارية جميلة وأجمل منها هي شخصياً ، فقد أهان كرامة «خوتشا» المحاربة ...

قالت «خوتشا» :

- لقد كان مذنباً بحق هذا المحارب ! وأشارت إلى جثة أخرى .

كان هناك شاب كازاخي ملقى خلف شجيرة . وقد لاحظ «رينات» الذي اقترب مع «جالدين تسيرين» أن القتل الكازاخي يرتدي ملابس متواضعة ، وخلف ظهره يوجد قوس بسيط مصنوع من شجرة البتولا . ووضعت «خوتشا» عليه فرع شجرة فغطى جسد المحارب الكازاخي بالكامل .

قال «سيبان رابتان» :

- قصى علي ما حدث !

- صباح أمس كانت هناك فتاة تجرى مسرعة في هذا الجانب من البحيرة ... - وأشارت «خوتشا» بيدها التي تحمل سوطاً ملفوفاً . - لقد ذهبت إلى «أبو الخير» ، ولحقها حصاني «كوماي توس» بالكاد . وقد وضعت الأنشطة حول رقبتها ... لقد كانت جميلة جداً .

سألها والدها وهو يلقي نظرة خاطفة على جثة النويون «شانجريك» ...

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- أخذت أسألها لكن ، الفتاة الكازاخية قالت أنها سوف تموت ولن تقول شيئاً . حينئذ قلت إنها سوف تموت . ولكن النويون «شانجريك» لم يرد ذلك . قال لتمت في الغد . وقال إنه ، ربما ، تحكي له شيئاً ما في الليل ... وأخذ جميع فرسان الاستطلاع يقولون لي أنه من الأفضل أن تموت غداً . وقد كانوا جميعاً من عشيرة ميركيت . وقد أخذوا يلفون حولي شاهرين السيوف . ثم قررت نكاية في النويون «شانجريك» أن أهدى الفتاة الكازاخية الجميلة لأخي «جالدين تسيرين» . كنت أملك الحق في أن أقرر مصيرها كيفما أشاء لأنها تعد غنيمة خالصة لي ..

كرر الحاكم الجونغاري السؤال دون تغيير لنغمة صوته :



- وماذا حدث بعد ذلك؟ -

- أمرت جميع المحاربين أن يحرسوا الأسيرة ، وقلت للنوبيون «شانجريك» أنه ينبغي عليه أن يحرس حصانها فقط ... وفي الجانب الآخر من البحيرة قبض أفراد الإستطلاع على فارس كازاخي ، وأحضره إلى ، وهاهى جثته منطرحه هناك . هو أيضا لم يرد أن يجيب على أسئلتى . واعتقدت أنهما أصدقاء مقربون- المحارب والفتاة . ولذلك أمرت بالضغظ على فخذيته بأنشوطة الشعر . وعندما لفوا الضاغظ الخشن مرتين أخذ يصيح ، وبدأت الفتاة في قضم شفتيها . ولم يستطع المحارب أن يتحمل ، ووعده بأن يحكي كل ما يعرفه ...

سأل الحاكم الجونغاري :

- وماذا قال؟ -

عندما أمرت بأن يفكوا الضاغظ عن فخذيته قال أنه مرسل من قبل «أبو الخير» . وأخبرني أن جيش «أبو الخير» سيقضى ليلته اليوم بالقرب من نهر «شييلي» ، ويبلغ قوام جيشه ثلاثون ألف محارب . وأنهم سوف يتحركون لملاقاتنا عندما يصل الخان «ساميكي» من الجزء الأوسط . ويضم جيش الخان «ساميكي» أيضا ثلاثين ألف محارب اعتادوا محاربتنا ...

ومتى سيلتقي أبو الخير وساميكي ؟

قطبت حاجبيها الكثيفين

ثم حدث مايلي . قبل أن تتمكن من الإجابة على السؤال الخاص بموعد مواجهة الجيشين الكازاخيين قفزت الفتاة الكازاخية فجأة مثل الوشق ، وبقي في حلق المحارب الكازاخي سكين صغير معكوف . إبتسمت «خوتشا» إبتسامة عريضة ، وأمرت بتكبير الفتاة بالأغلال الصينية . قاموا بتكبيرها على الفور . ولكن في الليل بناء على أوامر من النوبيون «شانجريك» فكوا قيودها . ثم اصطحبها إلى السهوب ، وأطلق سراحها ...

صاحت «خوتشا» وعينيها تومضان :

- لقد سمعته بنفسى يقول لها: «طيري أيتها الفتاة الطائرة» بعيداً عن تلك الحية قاسية القلب!»



قالت : «شكرالك أيها المحارب النبيل . على الرغم من أنك عدو لقبيلتي لكنك إنسان عادل . إن لديك قلب إنسان . ربما نلتقي ثانية» حينذاك سحبت قوسي ، و ... وأنهما لن يلتقيان أبدا ! ..

سأل الحاكم الجونغاري :

- وأين جسدها !

عندما سحبت قوسي مرة أخرى اختفي حصانها في أحراش نبات الديس ... وهذا يعني أن أبا الخير يعلم باقترابنا !

- نعم ! - وأجهشت الفتاة البالغة من العمر أربعة عشر عاماً بالبكاء عندما تذكرت الإهانة التي لحقت بها .

ارتفعت شفة «سيبان رابتان» العليا بعنف وقال :

يا أيتها الضفدعة المبللة ! من أين ماء العار هذا في عيون ابنة الحاكم الجونغاري ! الأرنب والغزلان فقط تبكى بسبب ضعفهم أما بالنسبة للناس فهو أمر غير طبيعي .
اعتدلت «خوتشا» ، وجفت عينيها ، وسارت على جثة النويون «شانجريك» ، ووطئت وجهه بقدميها وقالت :

- لن يرى هذا التافه السماء العالية !

أوماً الحاكم الجونغاري برأسه موافقا وقال :

- نعم ولا يلومن «دودا دورجي» إلا نفسه ؛ لأنه أنجب مثل هذا الابن التافه ! وبعد أن ضربه بكعب حذائه ثم بالكعب الآخر سار بساقيه القصيرتين المقوستين إلى حصانه .

وقبل أن يصعد إلى السرج التفت بجسده كله لابنه «جالدين تسيرين» وقال :

- لا تنس أمر الفرسان الميركيت الذين رأوا كل شيء!

- بالطبع يا أباي !

على الرغم من سنوات عمره الستون ونيف ، قفز الحاكم الجونغاري بسهولة إلى السرج بمجرد أن لامس الركاب بمقدمة حذائه ، وحمله الحصان الأصهب الأشعث



قافلا إلى الجيش. وقد سمع من خلفه عويلاً في ضوء القمر إذ قام حراس «شانجريك» بسيوفهم الجونغارية الثقيلة بقطع رؤوس فرسان الماركيت الذين شاهدوا مقتل النويون «شانجريك» ...

كانت الفتاة التي وقعت في أيدي «خوتشا» ، وأطلق سراحها النويون «شانجريك» هي «جوهر» من تركستان . لقد كانت شقيقة المحارب «ماليساري» من عشيرة «باسينتين» الأرجينية والذي كان يعيش في ذلك الوقت عند جبال «أوليتاي» . كانت قرى تلك العشيرة ترسل إلى تركستان ، وطشقند، وفي بعض السنوات إلى بخارى ، وخوارزم قوافل محملة بالصوف والجلود مرتين في العام تحت حماية كتيبة كبيرة من المحاربين .، وتعود بالشاي ، والسكر البخارى ، والملابس والأدوات المنزلية ، والقماش .

في هذا العام أرسلت القافلة إلى تركستان تحت حماية «ماليساري» . وذهبت «جوهر» مع القافلة ومع مجموعة الفتيات اللاتي كن سيتزوجن في القريب العاجل . كانت العرائس عادة ما يشاركن بأنفسهن في اختيار فساتين الزفاف . وكان الجزء الأكثر ثراء في القافلة القبليّة يواصل سيره إلى طشقند ، أما الأقل ثراءً فكن يمكنهن في تركستان . وهنا تعرض للغزو الجونغاري . إختبأت النساء والأطفال في أحراش نبات الديس الكثيفة «بسيحون داريا» وتولى الفرسان الدفاع عن المدينة . ومن نجا منهم هرب من هنا أثناء العاصفة العاتية ، وانضم إلى النساء ، والأطفال .

كان الهاربون ينطلقون كل يوم إلى اتجاهات مختلفة . وفي أحد الأيام السعيدة علموا أن جيش الجزء الأصغر بقيادة أبي الخير والذي يبلغ قوامه ٣٠ ألف محارب يقترب ، وقد جلب «أوزون كولاك» الشهير في السهوب «بالأذن الطويلة» أخباراً عن تحرك سلاح فرسان «ساميكي خان» القادم للانضمام إلى «أبو الخير» . كانت فرحة الناس المختبئين لعدة أسابيع في أحراش نبات الديس بلا حدود . ولكن ما إن خرجوا من أحراش نبات الديس حتى تنامى إلى مسامع الطلائع منهم خطوات ثقيلة لألاف الأقدام . فقد انطلق في الليل سلاح الفرسان الرهيب التابع «لسيبان رابتان» ، وذهب إلى الجانب الآخر حيث يوجد معسكر الخان أبو الخير ...



كانت «جوهر» تجيد ركوب الخيل أفضل من كثير من الفرسان . وكان حصانها ، فضلاً عن ذلك ، أسرع حصان . كانت الخيول الأخرى للهاربين قد أصيبت في المعارك ، أو انزلقت أقدامها أثناء فرارها من تركستان . بالإضافة إلى ذلك لم يول «الجونغار» إهتماماً لفارسة وحيدة في حين كان الرجل يثير فيهم الشك . قفزت «جوهر» على ظهر الحصان ، وتوجهت برفقة فارس واحد كان يتبعها عن بعد إلى معسكر «أبو الخير» للتحذير من الخطر الداهم . وفي الطريق تم القبض عليها من قبل ابنة الحاكم الجونغاري نفسها ...

قتلت «جوهر» في ثورة غضبها المحارب الذي لم يتحمل العذاب الرهيب عن طريق ضاغط أنشودة الشعر ، وكان هذا أول وآخر قتل لها في حياتها . ثم قرأت في عيون النويون الجونغاري الشاب عاطفة لم تدع لها مجالاً للشك في أنها سوف تنجو . وعندما فك قيودها بنفسه ، وأخرجها من أحراش نبات الديس فكرت أنه يريد أن يعتدي عليها مثلما يفعل أقاربه . كانت «جوهر» قد أعدت عدتها بالفعل ، وأمسكت في يدها بمشبك فضي حاد من المجوهرات القديمة التي تركتها لها أمها كي تطعن المغتصب في حلقه . ولكن الجونغاري الشاب أعطاها عنان فرسه ، وأشار إليها بيده صوب السهوب . حينذاك وقبل أن تقفز على الحصان قامت بتقبيله ...

صاح بشيء ما في إثرها ، ولكن بعد أن انطلق الحصان لم تسمع صفير سهم «خوتشا» ، وأصيب النويون «شانجريك» بجروح قاتلة .

في اليوم التالي ظهرأ وصلت «جوهر» إلى معسكر خان أبو الخير . تغير وجه الخان عندما سمع عن اقتراب الجونغار . حقيقة الأمر أن نصف قواته كانت في مكان آخر بالقرب منه . وكان معه هنا خمسة عشر ألف فارس فقط . وكان الدخول في معركة مع الجونغاريين بمثابة الموت . أمر أبو الخير بالاستعداد للمعركة ، ودعا مجلس الحرب . وهناك إقترح أن تنسحب القوات ، غير أن الفرسان المحاربين من عشيرتي «أداي» و «تام» لم يوافقوا على هذا الاقتراح . وتحديثوا عن المعتقد القديم الذي ينص على أنه لا يمكن أن تبدأ حرب كبرى بانسحاب غير دموى . يمكن الانسحاب فقط بعد أن تغمس رماحك في دم العدو . وقد تقرر الدخول في معركة ضد الجونغاريين ، وإرسال الرسل لإخبار الخان «ساميكي» لحثه على الإسراع بالقدوم إليهم .



عندما ذهب المحارب «كابانباي» من تركستان إلى القرية التي يوجد بها مقر الخان «بولات» في «نورا» كان وقت الصيف قد حل . كان الخان ، كما هو الحال دائماً ، مريضاً . وعادة ما كانت تشتد عليه أمراضه الكثيرة عندما كان ينبغي عليه اتخاذ أي قرار مهم . لذلك فقد وقعت الالتزامات الخانية في هذا الوقت العصيب على أكتاف أخيه «ساميكي» . وقد تم إرسال الرسل من قبل الخان «ساميكي» إلى جميع أنحاء «ساري أركا» بصيحة : «العدو قادم» .

لم تكن كلمة «الحرب» تثير دهشة السكان الذين يعيشون في هذا البلد منذ زمن سحيق . فعلى ما يبدو كانت لا تترسنت دون إراقة دماء على هذه الأرض . بداية من الهجرات الهونية قرناً بعد قرن ، وموجة بعد موجة توالى عليها الغزاة الذين لاحصر لهم مع كل طلعة شمس . وغادرها أبناؤها فرادى وجماعات . وقد تعلموا الحرب رغماً عنهم . وليس من قبيل الصدفة أنه في جميع قصور سلاطين ، وخلفاء الشرق قاموا بشراء أبنائها الأسرى على مدار ألف عام من أجل خوض الحروب ومن أجل الحماية . و الآن علت موجة جديدة من كراهية الانسانية مخضبة بالدم في الحدود الشرقية . وتقريباً بشكل عفوي وصلت حد الغليان ، وتصاعدت موجة قوية من الغضب الشعبي .

لم تكن الخلافات هينة . وظهر بوضوح أثناء غزو العدو عدم وجود سلطة واحدة ، ويد حازمة . ومع ذلك فقد انصاع زعماء القبائل الأكثر مقاومة لأوامر الخان «ساميكي» . ولكن القبائل الكازاخية المتناثرة في جميع أنحاء السهوب لم يستطيعوا التجمع بسرعة كما يمكن أن يفعل الجيش النظامي . وقد مر كثير من الوقت حالماً تخيروا من قطعانهم الخيول المحاربة ، وأعدوا التجهيزات للطريق ، ووصلوا إلى مقر الخان . و فقط بعد ثلاثة أسابيع تمكن الجيش الذي بلغ قوامه ثلاثة عشر ألف محارب بقيادة الخان ساميكي من الانضمام إلى جيش الجزء الأصغر . وكان جيشه في الغالب يضم محاربين شباب لم تظهر شواربهم بعد . ولكن بعد مرور عقدين من الزمن سيصبح الكثير منهم فرسان مشهورين سيتغنى بمآثرهم الشعراء الشعبيين من قرن إلى قرن مثل «بوجين باي» من عشيرة كانجي جالي ، و «سيرى مبيت» ، ومايلاساري من عشيرة «باسينتين» ، و «بايجوزي» من عشيرة «تاراكتا» ، و «جانبييك» ابن كوشكار من عشيرة «كيبشاك» ، و «أوزيمبيت» من عشيرة «باجانالي» ، وعشرات الفرسان المشهورين من عشيرة «كيري» و «أواك» بما في ذلك المحارب الأسطوري «بايان» ، والتي حفظت الذاكرة



الشعبية الأصيلة أسماءهم . كان الكثيرون منهم يرتدون قفاطين جدودهم القديمة المهترئة ، وعلقوا على السروج سلاحهم الوحيد وهو هراوات الأجداد ، المغطاة بالحديد . وعلى ما يبدو أن هذا تحديداً شيء بسيط ، ولكن السلاح الرهيب جعل كل الحروب التحريرية على الأرض متشابهة فيما بينها ...

وحالما تم تجميع الجنود ، وتحركت الوحدات كان فصل الصيف قد انقضى . بالإضافة إلى ذلك هطلت على «ساري أركا» أمطار لامثيل لها خلال النصف الثاني من الصيف . وقد قام المحارب «بايان» دون انتظار قدوم القوى الرئيسية من الجزء الأوسط مع ألف من المقاتلين بالذهاب إلى «سيحون داريا» . وقد لحق به رسول من قبل الخان «ساميكي» ليخبره أن خان الجزء الأصغر «أبو الخير» سوف ينتظر ميليشيات «ساري أركا» في السهول الفيضية لنهر «شيلي» عند «جان كورجان» . وكان عليهم أن يلتقوا في وقت لاحق لا يتجاوز شهر «كاراش» تقريباً شهر «سبتمبر» .

لم يكن الخان «ساميكي» يشتهر بالذكاء أو الكفاءة العسكرية ، ولكنه أصبح رئيساً للميليشيات فقط بسبب مرض شقيقه الخان «بولات» . وبالتالي فحسب رأيه لم يكن الوصول إلى العرش الخاني الشرعي بعيد المنال ، وأصبح ساميكي على غرار جميع الأغبياء يتصرف قبل الأوان كحاكم مستبد . وقد ساعده في ذلك زعماء العشائر المقربين الذين لاحصر لهم ، والطفيليون الذين يتزعرعون بجانب هؤلاء الناس . بالإضافة إلى ذلك فقد زوج ابنه الأصغر «كودايميدي» في الأونة الأخيرة ابنة أحد فروع «بوكي سلطان» ، ووجهت الدعوة لحضور حفل الزفاف إلى أفضل الناس من الأجزاء الثلاثة . هذا أيضاً بدوره أفقد رأس الخان «ساميكي» الضعيفة الصواب ، وتباطأ أثناء إعداد الحملة ، ولم يستمع إلى النصائح المفيدة .

تحرك الجيش الرئيسي للجزء الأوسط ببطء خلف الكتيبة الأمامية . وقد ساعد الطقس على ذلك الأمر . وبدا كأنهم أخرجوا جميع الشياطين من الزجاجاة لمواجهة الميليشيات . اشتدت العاصفة يوماً بعد يوم ، وأصبحت الرؤية منعدمة في الأمام بسبب الرمال المتصاعدة إلى السماء . وامتنعت الخيول عن السير في مواجهة الرياح ، وكان من المستحيل أثناء التوقفات في الطريق وضع أى نوع من الخيام أو منازل اليورت . وفي أثناء العاصفة نفقت جميع الخراف التي اصطحبتها القوات من أجل الغذاء . وبدأت المجاعة .



سرعان ما تحولت التربة الصلبة إلى كثبان رخوة عندما تحولوا عن «البحر الأزرق» إلى بحيرة بالخش في الغرب إلى نهر «سيحون داريا» ، وتباطأت حركة الجيش أكثر من ذلك . وعلى مسيرة يوم من مسجد «أكا» أمر الخان «ساميكي» الجيش بالتوقف؛ لعلاج الجروح على ساقى وظهور الخيل . وهنا سمع عن المعركة التي دارت رحاها بين الحاكم الجونغاري وجيش الجزء الأصغر . هزم أبو الخير في هذه المعركة غير المتكافئة، ولكن جيشه لم يؤخذ على غرة بسبب التدابير المتخذة في الوقت المناسب ، وتراجع في حالة جيدة .

كان الأمر كما لو أن الخان «ساميكي» ينتظر ذلك فقط . وجمع في خيمته كبار قادة الميليشيات التابعة له ، وتحدث معهم .

قال الخان «ساميكي» :

- إن فصل الشتاء ليس ببعيد . كما أن الحاكم الجونغاري قد أوقف الحرب . في فصل الشتاء لن تصل الخيول الجونغارية إلى عاصمتنا «سارى أركا» . وسيكون من الحماقة الآن أن نهاجمه . فإذا كان «سيبان رابتان» قد أحرز النصر على «أبو الخير» فإنه سيتمكن بكل يسر من الانتصار على جيشنا المتعب ، وسنهلك دون أي فائدة تذكر . أليس من الأفضل إتباع النصيحة الحكيمة لكبار السن الذين يقولون في مثل هذه الحالة : «إبحث عن المنزل طالما لم يتعكر العقل بعد» وبعون الله سنهزم الحاكم الجونغاري في الصيف المقبل!

وعاد الجيش أدراجه ...

لم تتمكن خيالة «سيبان رابتان» من توجيه ضربة مفاجئة لجيش «أبو الخير» . فقد كان ضرورياً لكى يغلى الماء في الغلاية أن تسبق الفتاة «جوهر» الطليعة الجونغارية بفترة وجيزة ، ومع ذلك فقد كانت كافية . تمكن أبو الخير من رفع الروح المعنوية للجنود ، وقسم الجيش إلى ثلاثة أجزاء ، وأعدهم للمعركة . وهاجم من كلا الجانبين القوات الجونغارية التي لم تكن تتوقع أية مقاومة . ونصب الجزء الثالث من الجيش كميناً باختبائه في أحراش نبات الديس ...



لم تتمكن الخيالة الجونغارية المتباعدة في المسيرة أن تتحمل الضربة الأولى ، وبناء على أوامر «سيبان رابتان» قام ألف فارس من طليعة الجيش بتحويل خيولهم للخلف. وطاردت الخيالة الكازاخية الجونغاريين المنسحبين ، وكلما بعدت أكثر، أحست بالتعب أكثر ، وتضاعفت قوى الجونغاريين بسبب التيومينات (الفرق) القادمة نحوهم. وسرعان ما أعطى الحاكم الجونغاري الإشارة بالهجوم الشامل. ولكن قبل أن يتجمع الفرسان الجونغاريين كالحمم البركانية دوت صيحة «كاراكوجا!» فقامت الفرقة المختبئة في أحراش نبات الديدس البالغ تعدادها خمسة آلاف جندي بقيادة المحارب العائد «كابانباي» بالهجوم عليهم .

ظن الحاكم الجونغاري «سيبان رابتان» أن جيش الجزء الأوسط قد حضر ، فأمر بالانسحاب مرة أخرى . وحتى بعد أن أدرك أخيراً أن هذا ليس سوى كمين صغير لم يقدّر بالغاء أوامره . ورأى الجنود الكازاخ المحاربون أنهم محاطون بقوات العدو المتفوقة عليهم عددياً بدرجة كبيرة . وفي الجنوب كأن الأفق قد تغطى بالدخان ذلك أن القوات الجونغارية الجديدة كانت تتوافد تباعاً .

تم محاصرة جميع القوات الكازاخية بما فيهم الخان أبو الخير نفسه . وأصدر الحاكم الجونغاري أوامره بأن لا يترك أحد على قيد الحياة ، أما أبو الخير فيسحب بالأنشودة ، وانقضت بعض الفرق الجونغارية على المحاصرين مع عواء وحشي . وفي كرة دموية واحدة تشابك الناس ، والخيول شبه الوحشية التي كانت أيضاً تمزق بعضها البعض بأسنانها في إقتتال وحشي . وقد أصيب أبو الخير نفسه ، وتوقف عن قيادة المعركة . وبدأ أن النهاية قد حانت ...

فجأة تصاعد عمود أسود من الغبار في الشمال ، وأذهلت الصيحة الحربية المعروفة للجونغاريين «أرواح» «أكجول» جميع أنحاء السهوب . وانقضت الحمم البركانية الرهيبة للفرسان من الخلف على الجونغاريين المهاجمين وفرقتهم شيعاً ، وقطعت الحلقة المميّنة . لقد قام بهذا العمل البطولي المحارب المجيد «بايان» .



لقد دخل في معركة دامية بعد أن ابتعد عن الخان «ساميكي» بمسافة بعيدة، وقد زادت أعداد جيشه خلال الطريق إلى ثلاثة آلاف رجل، ولكن كان دخوله في معركة خاسرة سلفاً بمثابة انتحار. غير أن الحاكم الجونغاري الذي شهد في ذلك اليوم العديد من المفاجآت إعتقد أن الميليشيات الكازاخية الرئيسية قد جاءت، ومرة أخرى أصدر أوامره بالانسحاب. في هذا المرة لم يقيم الكازاخ الذين تعلموا من التجربة المريرة بمطاردة المنسحبين. وبدأ جيش «أبو الخير» التوجه نحو الشمال في زحف منتظم تحت حماية كتيبة المحارب "بايان". وحل الغسق... في اليوم التالي لم تقم الخيالة الجونغارية بتعقب المنسحبين على الرغم من علمهم بوجود جيش الخان «ساميكي» في مكان ما بالقرب منهم. وبعد يومين حل البرد في وقت مبكر، وقفل الحاكم الجونغاري راجعاً إلى تركستان.

تم بناء عاصمة الكازاخ القديمة «ساوران» في العصور القديمة في نفس الوقت الذي بنيت فيه مدينتي «أوترار»، و «سيجناك». كانت المدينة محاطة بخندق طوله خمسة وعشرين ياردة، وعمقه خمسة عشر ياردة. وبلغ ارتفاع الجدران من الأسفل للأعلى حوالى خمسين ياردة، وسمكها حوالى ثلاثين ياردة. وقد تحولت إلى أحجار منذ قرون عديدة، وكان من المستحيل اختراقها. وقد تواترت الأساطير أنه الحصن الوحيد الذي لم تتمكن الآلات الصينية الثقيلة المحطمة للأسوار التي جلبها معه «جنكيزخان» من التغلب عليه، ولكنه تمكن من الاستيلاء عليه بعد أن توفي المدافعون عنه بسبب الجوع.

بعد مغادرة تركستان وصل المحارب «يليتشيبك» مع رفاقه خلال ثلاثة أيام إلى المدينة المجيدة «ساوران». واتضح أن حاكم قلعة «تورسون» هرب مؤخراً إلى طشقند خوفاً من الجونغاريين. وأجمع سكان المدينة على تكليف المحارب «يليتشيبك» الشهير في تلك البقاع بالدفاع عن المدينة. وبدأ المحارب «يليتشيبك» مع أصدقائه بحماس كبير التحضير لمجابهة الجونغاريين...

بعد يوم واحد جاء إلى المدينة الشاعر العراف «بوخار». وكان الشاعر الشعبي الذي لا يملك من حطام الدنيا سوى آلهة الموسيقى «الدومبرا» يتمتع بحب الجميع، وفي هذه الأيام الصعبة كان دائماً ما يكون هناك حيث تشتد الحاجة إلى كلمته. لذلك جاء إلى «ساوران» المدينة التي كانت دائماً رمزاً للمقاومة الوطنية ضد الغزاة الأجانب.



سار الشاعر «بوخار» دون الترجل من فوق حصانه بمحاذاة أسوار الحصن . كان العمل هنا يتم على قدم وساق فقد جلبوا الدروع والحجارة الثقيلة ، وأحضروا الأواني المملوءة بالزيت ، والغلايات اللازمة لغليه ، وقاموا بإغلاق الفتحات التي نجمت عن فترات الحصار الماضية . أوقف المغني العراف حصانه فجأة . وفي برج الزاوية الأعلى من كل الأبراج الأخرى كان يقف محارب يعتمر خوذة حديدية ، ويمسك في يديه قوساً ثقيلاً . كان يحدق بعيداً غير عابئ بالجلبة وراء ظهره .

قال الشاعر «بوخار» بصوت عال :

- أنا أعرفك . - أنت الحداد «نون» سليل الفرسان الأماجد ..

- نعم يا شاعرنا ..

أحنى المحارب رأسه أمام المغني . وبعد أن علم الناس بالجوارع من جاء إليهم بدءوا في التجمع بسرعة . وتفحص الشاعر «بوخار» الحشد بنظرة ثابتة . فقد كان يعلم جيداً أهمية الكلمة الحماسية قبل المعركة .

قال الشاعر:

- جئت إليكم يا شعب المدينة المجيدة «سوران» كي أحكي لكم عن الماضي المجيد . ما يحدث دائما عندنا في السهوب أنه عندما يذهب المحارب إلى الموت يطلب المدد والدعم من الأسلاف ، وإذا كانت قضيتة عادلة ، فأنهم يكونون يقيمون دن أن يراهم .

- تكلم يا شاعرنا !

- نحن نستمع إليك ..

تجمع هنا في الساحة أمام البرج مئات المدافعين عن الحصن الذين لم يرغبوا في الهرب وتركه للعدو . وجاء من الشوارع والأزقة أشخاص جدد . لوح الشاعر «بوخار» بيده على نطاق واسع وقال :

- هل ترون هذه الأسوار ... إن جنكيز خان نفسه لم يستطع أن يكسرها ، ودخل المغول المدينة فقط عندما توفي آخر مدافع عنها بسبب الجوع ... وبعد ذلك كان هناك كثير من الحكام الذين أرادوا إخضاع مدينة «ساوران» مثل تيمور ، وخانات مغولستان ،



وأبو الخير الرهيب، والمالك عبد الله خان . ولكن حديثي الرئيس لن يكون عنهم . إنني أريد أن أحكي عن أجدادك الأماجد أيها الحداد «نوان» ! ..

نظر الناس إلى بعضهم البعض في حيرة . لقد تعودوا على المغنيين الذين يحكون عن مآثر وبطولات الخانات والسلاطين . وماهى تلك المآثر التي يمكن أن تكون عند أسلاف حداد بسيط ؟ لقد كان كل من في المدينة يعلم أن «نوان» من سلالة العبيد .

- نعم يا صاحبي «نوان» .. في مدينة «ساوران» دائما ما يحدث أن يفر الحكام الموكل إليهم بحماية المدينة ، ويصعد على الأسوار أصحاب «العظام السوداء» . حدث هذا في عهد «أبو الخير» عندما دافع عن المدينة المحارب البسيط «أوراك» الملقب بالأعور . وفي الحصار الأخير عندما رغب أمير بخارى «عبد الله خان» دخول المدينة لم يسمح له بالقيام بذلك شقيقان محاربان من العبيد . لقد كانا من أسلافك يا «نوان» ! ..

قال الحداد «نوان» في الصمت الذي حل بالمكان :

- لقد سمعت عن ذلك ولكن كيف حدث كل ذلك ؟ لا أحد يعرف . والناس يتحدثون عن ذلك بطرق مختلفة ...

قال الشاعر :

- أنا سأحكي لك كيف كان كل ذلك في واقع الأمر !

جلس الشاعر على الحجارة القديمة ولمس أوتار «الدومبرا» ...

- أضاءت ابتسامة في عيني «عبد الله خان» أمير بخارى ، وانتصب شاربه قليلا ، وارتفع للأعلى ، وتوردت وجنتاه . ويعتقد الغريب على الفور أن الأمير الرهيب يفرح لشىء ما . ولكن «حسن خودجا» معلمه ووزيره أدرك منذ الوهلة الأولى أنه كان غاضبا . لقد كان يعلم جيدا أنه إذا أضاءت العيون الرمادية بالسعادة ، وأن الابتسامة وصلت لنهايات فم الأمير فإن الموت سيكون من نصيب شخص ما ...

على مدى سنوات عديدة من الخدمة لم يقدر العالم «حسن خودجا» أن يتعود على هذه الخاصية من سيده . ويقال إن التمساح يذرف الدموع قبل أن يبلع فريسته .



لكن لا يفعل التمساح ذلك بدافع الشفقة، ولكن بدافع التقرب. وعبد الله ، على عكس التمساح ، لا يبكي ولكن يضحك ؛ تحسباً لموت شخص ما . وعادة ما يفعل ذلك في حضور الضحية . لكن الآن لا يوجد أحد آخر سواه «حسن خودجا» ...

ففيما أغضب سيده وهو الخودجا المطيع والمنفذ لأوامره ؛ هل لأنه لم يخبره في الوقت المناسب عن معركة «طلاس» التي هُزم فيها مؤخراً «شاجاي» الموالى للأمير عبد الله خان على يد «بابا سلطان» ؛ لكن ، ربما ، يكون «عبد الله خان» المستبد غاضباً من شخص آخر غيره . عسى أن يكون ذلك .. إن شاء الله! ..

التفت الأمير «عبد الله» بشدة ثم ذهب إلى نافذة متعددة الألوان . من هنا - من برج القصر - كانت جميع أنحاء بخارى المقدسة الغارقة في الحداثق حتى الأفق على مرمى البصر . من هنا ظهرت في بحر الأشجار مآذن رشيقة ، وأسطح ، وأبراج قصور ، وخانات لا تعد ولا تحصى . وعلى الجدران ، والأبواب ، وبوابات المنازل الملونة بجميع الألوان المعروفة للعين البشرية تتشابك آيات من القرآن الكريم في نقش بديع . وليس من قبيل الصدفة أن حاكم بخارى ليس فقط مجرد خان، ولكنه أيضاً أمير - معلم للإيمان يتوجب عليه مراقبة حسن الأخلاق في جميع الخانات والسلطنات في هذا الجزء من العالم .

لا يسمع هنا أي صوت من المدينة الضخمة النائمة بسبب الحر . فقط يسمع خريبر الماء بلطف في قنوات الري بحدائق القصور ، ويسمع من وقت لآخر حفيف أوراق الشجر من جراء الطيور التي تطير من فرع إلى فرع آخر في حديقة القصر . ورغم ذلك فهي المدينة الثانية في الغانية من حيث المساحة . أما المدينة الأكبر فهي مدينة سمرقند الخالدة ، والتي إنتزعها مع بخارى المقدسة في زمن ما من أيدي التيموريين الرهيب «محمد شيباني» جد الأمير عبد الله . جرت في النهرمياه كثيرة بعد ذلك ، ففي ٩٦٤ هجرية ، أي في عام ١٥٥٧ ميلادية إنتزعها مرة أخرى من أيدي التيموريين «عبد الله» نفسه البالغ من العمر أربعة وعشرين عاماً . وفي بخارى أقام مقره ، وترك بها والده الخان إسكندر ، ومنها بدأت الإمارة البخارية .

ابتعد الأمير عن النافذة . ولمحت عيناه السجاد الخراساني الأحمر المفروش على الأرض، والجدران المعلقة عليها السيوف العادية ، والمعكوفة ، والخناجر المصنوعة من الصلب الدمشقي بأيديها المطلية بالذهب والمرصعة بالأحجار الكريمة ، والطاولة المستديرة المنخفضة المصنوعة من العرعر المصقول، والتي وقفت عليها أنية معكوفة الأرجل



وسلطانيات من الخزف مليئة بالشربات، وأطباق ذهبية بها حلوي وفواكه. ولكن أفكاره قد شردت بعيداً جداً .

كانت عيون الأمير الرمادية لازالت تضحك ثم قال :

- أحتاج مشورتك ياخودجا ماذا أفعل إذا كان العدو، الذي استأجرته لخدمتي يحسن إلى عدو آخر؟

- يجب، يجب إعدامه أيها الأمير المقدس!

- هكذا إذن ... إن الهارب إلينا الخان «شاجاي»، وابنه «توكل» لا يريدان أن يحضرا إلى رأسي «بابا سلطان»، و«بوزاخور». وسأخذ بنصيحتك أيها الوزير الحكيم. وقد حسمت أمرى فقط بفضل حديثك المنقح! ولكن ذلك سيكون بعد الاستيلاء على «تركستان»، و«ساوران»، و«سيجناك».

... بدأ الأمير «عبد الله خان» الاستعداد للهجوم بعد أن أخذ الجيش مدة الراحة المقررة وهى ثلاثة أيام . كان يوم الأربعاء الأول من شهر ربيع الثاني (٢٨ مارس ١٥٨٢)، وفقا لتوقعات المنجمين، والعلامات القديمة، يوماً سعيداً. وأشرقت الشمس على خمسين ألف محارب يرتدون دروعاً زرقاء، ويمتطون سهوات خيول محاربة قوية الأرجل عريضة الصدر. وقد حاصروا «ساوران» بعدة صفوف، وكان كل صف يمتطي خيولاً بلون مختلف. بالإضافة إلى صفوف الخيول اصطف أمام كل البوابات مثل التود ألف من المهاجمين. وقام العبيد المدفوعين بالسياط بجراآت الحصار إلى الأسوار، وحملوا السلاالم الطويلة، وحزم نبات الديس واللاتي سيقومون بها بتغطية الخنادق المليئة بالمياه. وعند البوابة الغربية للمدينة كان هناك ألف مقاتل من قوات «عبد الله سلطان» يمتطون جياد تيكي الرمادية، ومن الناحية الشمالية كان هناك ألف مقاتل من قوات السلطان المؤمن والوريث الشرعي للأمير يستعدون للهجوم. كانت جميع الخيول في هذا المكان سوداء، وترفرف عليها أعلام سوداء مع صورة الشمس المشرقة. وفي الجنوب وقف تحت الراية الزرقاء المطرزة بالوشق جنود بكوات خيوة، وتركمان الموالين لبخارى. وكانوا يمتطون سهوات خيول حمراء نارية. وكان هناك أيضاً حلفاء الأمير من السلاطين الكازاخ. ويعلو خوذة كل واحد منهم حزمة زينة مع ذيل حصان، وتحت ركاب الجنود كانت هناك الهروات الشهيرة



المغطاة بالحديد على أهبة الاستعداد . ومن ناحية الشرق عقدوا العزم على اقتحام المدينة أولاً للاستيلاء على الغنائم الثمينة، وعلى الجنود المرتزقة الكثيرين الذين قام الأمير بتجنيدهم من المارقين من جميع أنحاء من العالم- من الصين الى روما ...

على الجانب الأيمن من النهر من خيمة الأمير البيضاء تحركت فرقة سلاح الفرسان المتألثة بالدروع الثمينة، والأسلحة . وفي هذه اللحظة زمجرت بشراسته، وبشكل مخيف الآلات النفخ الموسيقية المسماة «الكارناي» وأصدرت الآلات النفخ الموسيقية المسماة «الزرنه» أصوات رفيعة، وأيقظت دقائق مئات الطبول التي تشبه هدير البحر السهوب النائمة حتى ذلك الوقت . نظر سكان المدينة بخوف، ودهشة إلى ذلك المشهد الذي لم يشاهدوه من قبل . وكان في مقدمة الفرقة على حصان أبيض ضخم غير معروف السلالة في هذه الأماكن رجل طويل القامة، وسيم، وترى شواربه السوداء الجميلة من كلا الجانبين . ضحك، وهو ينظر إلى «ساوران» ، وكانت آسيا الوسطى كلها تعرف ماذا ينبئ ضحك الأمير عبد الله ...

كانت جبهة وصدر وأفخاذ حصان الأمير مغطاة بترس من الحلقات الفضية . وكان يجلس بين آذان الحصان صقر صغير أبيض كالثلج، والذي كانوا يعدونه وفقاً للطقوس السهبية القديمة «طائر السعادة» . فإذا لم يطير الصقر في أول اشتباك مع الأعداء، فإن النصر سيكون حليف المحارب . وإذا طار فلا يجب الاستمرار في المعركة؛ لأنها من الممكن أن تكون مميتة . الإسلام لا يقر هذه العلامات، ولكن أحفاد قادة السهوب لا يزالون يتذكرون، ويحترمون الطقوس الشامانية القديمة.

حالما تساوى الأمير مع الخط الأمامي لجيشه رعدت، ودقت مرة أخرى طبول لاحتصر لها، وزمجرت الآلات «الكارناي» ، وصرخت، وصاحت آلات «الزرنه» . وسرت القشعريرة في جسد العديد من المدافعين عن الحصن، وأمسك بعضهم بأقواسهم . وفي الوقت نفسه قامت الحاشية بعمل دوران على نحو سلس، وسارت خلف الأمير على إمتداد أسوار القلعة. ولم يرقم أى واحد من الألف فارس المرافقين بأرجحة سيفه، والإلتفات برأسه. وبمقدرة رهيبة كانوا يسرون في دائرة مغلقة غير مقتربين أو مبتعدين حتى بمقدار خطوة واحدة عن السور . فقط وحده حيا عبد الله معارفه والفرسان ربيعو الشأن، وقادة جيشه ملتفتاً



برأسه وبايماءة عظيمة...

- الأمير المقدس العظيم هوركيزة الإيمان!

- فلتضاعف قوتك أيها الباجادور العظيم!

- المجد لك يا عبد الله خان الرهيب!

بذلك صاح خصيصاً أناس مختارون من الجيش ، وسمع جميع المحاربين صيحة الألف فارس. ورفرفت خلفه راية النبي الخضراء ، وجلس الصقر الأبيض بين أذني الحصان دون حراك كما لو كان مربوطاً من القدمين .

قال الحاكم «محمد سلطان» على الحائط بقلق :

- الصقر لا يطير ... - هذا ينبىء بكارثة!

- فلننظر بماذا سينبىء هذا السهم الأمير الملعون!

هكذا قال المحارب «كياك» وهو ينتزع من خلف ظهره قوسه الشهير.

- إننى أمنعك من إطلاق السهم!

لم يفهم الحاكم كيف استطاع أن يصيح بهذا على السور ، حيث كان هناك الكثير من المدافعين عن القلعة ، ووصح خطأه فقال :

- إذا سفكنا دم ولي الإيمان ؛ فأنهم سيدبحوننا جميعاً حتى أخرج رجل فينا!

قال المحارب «كياك» بهدوء :

- سمعاً وطاعة أيها الحاكم .. ولكن فليشك له هذا الطائر عن سوء حظهِ وشقائه!

مع هذه الكلمات شد المحارب قوسه بسرعة البرق ، وأطلق سهمه الرهيب . كان نصله في عرض عظم كتف الجمل ، ومشحوداً ككشفات الحلاقة العادة . ظل الصقر الأبيض جالساً على شعر ناصية الحصان ، ولكن من دون رأس . تناثر الدم الزاهى للطائر على وجه الأمير فضحك ضحكة للسهب وكلها وقال :

- رام رائع ... ولكن هذه الرمية لا تدخل في الحساب . لقد قتلوا الصقر ، لكنه هو نفسه

لم يطير . إعطوني صقراً آخر!



بعد بضع دقائق عاد مساعده بطائر آخر من نفس الفصيلة، ومضى الأمير إلى مكان آخر. لم تزايل الإبتسامه شفتاه، وانعكست في عينيه شمس تركستان.

غير أن طائر السعادة مكث فوق حصان الأمير عبد الله ولم يهم مطلقاً بالطيران. وبعد أن قام الأمير بعمل دائرة بجانب القلعة عاد إلى خيمته.

في صباح اليوم التالي حدث نفس الشيء. ومرة أخرى ركب الأمير نفس الحصان الأبيض، وسار على نفس الدائرة. جلس الصقر الأبيض بلا حراك بين أذان الحصان. وبعد أن سمع عن انضمام الفرسان الكازاخ ضاربي السهام إلى المدافعين عن المدينة قام عبد الله بالابتعاد عن مزاجل الأسوار مسافة معقولة.

في هذه المرة حدث شيء مختلف. ما إن حول الأمير وجه جواده وسار على امتداد السور حتى طار الصقر محلقاً إلى الأعلى. طار «طائر السعادة» بعد أن وقف في الهواء فجأة صوب «ساوران». رقص الصقر الأبيض في السماء فوق أحد الأبراج، ثم عاد، وبدأ يدور فوق الأمير كما لو كان يريد أن يجلس مرة أخرى في مكانه. لم يكن ذلك أيضاً نذير شؤم. لكن الطائر المتململ طار مجدداً صوب القلعة. في منتصف الطريق هبط، وجلس على شجيرة شوكية.

قال الأمير :

- أمسكوا الطائر!

انطلق أحد جنود الحراسة على الفور وراء الصقر. وبعد أن إنقض عليه حمله على ذراعه. وتنفس الجيش الصعداء.

دوى صوت مرح لأحد الأشخاص قائلاً :

ياللهول إننى أشفق على الطائر وليس على الجندى اللص!

أصدر السهم صفيراً فألصق الصقر الأبيض مع الجندى بالأرض. صاح الجميع. لقد أطلق السهم المحارب «كياك»، الذي كان واقفاً على البرج بالقرب من حاكم المدينة. إستدار الأمير عبد الله بجواده، وذهب إلى خيمته.

قال «عبد الستار سلطان» ناظراً إلى المحارب بشكل مثير للريبة :



- لقد سقط الصقر الأبيض أقرب إلى المدينة منه من الأمير - ألا تقول لنا أيها المحارب المرح
لماذا سقط الصقر فجأة من على كاهل الحصان؟

وضع المحارب ورقة على شفتيه المضمومة ، ثم بدأ الصفير بهدوء. وقال : بهذه الطريقة
يقوم الصبيه الكازاخ في السهوب بجعل الطيور تطير .

أخفى الحاكم إبتسامته تحت شواربه الضخمة وقال :

- حسنا، الناس لا يعرفون شيئا عن قدرتك. وهم يعتقدون بحظهم الحسن ، وذلك أمر
حسن !

طالت أيام الحصار. ومن وقت لآخر كان أكثر المحاصرين شجاعة يسبحون عبر
الخنديق ليلا ، ويرمون الحبال على الفتحات الصغيرة بين الأسوار. ثم يصعدون بهدوء ،
وبعد ذلك تسقط أجسادهم مقطوعة الرأس في الماء ، وتطفوا على الماء ، رهيبته ، منتفخة
وتكون بمثابة درس للأخرين. كان الفرسان يقومون بالحراسة ليلا ونهارا حتى لا يأخذون
على غرة.

أرسل عبد الله للمحاصرين خطاباً مع أفصح من يجيد عنده الحديث ذهبى الفم
«كول بابا كوكيلتاش» يقول فيه : «لا تضيعوا قواكم سدى في المقاومة ،
فسأهزمكم على أية حال لأن الله معي. ولا تجعلوني أملاً خندق الحصن بدمائكم.
أظهروا الطاعة ، وسأعفو عن جميع ذنوبكم باسم الله الرحمن الرحيم ، العادل .. قام
«كول بابا كوكيلتاش» طوال اليوم عبثاً بتبديد ثروة بلاغته أمام قادة «ساوران» ،
لكنهم ضحكوا فقط رداً على ذلك الحديث ، وقالوا : «من يتكلم عن السلام لا يجلب
خمسین ألف جندي إلى منزل جاره» !

وهنا تمردت مرة أخرى مدينة «سايرام» التي سلمها حاكمها بدون قتال ، ورفضت
تسليم الأغذية لجيش الخان. في هذا الوقت إكتظت «سايرام» بالكثير من الغوغاء
الذين فروا من المجزرة التي ارتكبتها الأمير عند استيلائه على مدن «سيرداريا» الأخرى.
كان المحاربين الذين سلموا أو هربوا من قوافل العبيد يملؤهم الغضب ، ويتعطشون



للالانتقام. وعلى الرغم من أن حاكم «سايرام» «محمد سلطان» كان يرتجف أمام الأمير لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً معهم . فقد كانت السلطة في المدينة بالفعل في أيديهم.

عندما ظهر «عبد الله خان» أمام جيشه بدأ أنه لم يكن ينظر إلى أحد . ودون أن يلتفت برأسه أطلق العنان لفرسه وسبق حراسه الشخصيين لكنهم لم يكونوا يسمحون لأحد بالاقتراب منه أكثر من مائتي خطوة . في الواقع كان الأمير ينظر، ويفهم جيداً . لقد تعب الجيش من الوقوف تحت أسوار قلعة «ساوران» . لم يعد القادة يحصون كل صباح عدد الجنود . فقد هربوا جماعات وفرادى أخذين معهم الأسلحة إلى السهوب الكازاخية ، وانضموا إلى صفوف المحاربين الأحرار . وكانت هذه الفرق الحرة دائماً ما تلقى في مناطق الترحال الكازاخية الملاذ والدعم بين «العظام السوداء» . وكان شيوخ القبائل في كثير من الأحيان لا يتعرضون لهم ؛ لإدراكهم أن هؤلاء المحاربين قادرين في الوقت المناسب على حماية قراهم من قوات الأمير . وكان كثير من تلك الفرق متعددة القبائل التي تأخى فيها الفقراء الكازاخيين ، والأوزبكستانيين ، والقرغيزستانيين يظهرين كل يوم في المنطقة الحدودية ، ويهاجمون قوافل الدعم العسكري للخان ، ويطلقون سراح الأسرى .

في صباح أحد الأيام ارتدى الأمير قفطان قفطاناً بسيطاً ، وسار بين خيام أنصاره . كان أفراد الحراسه يطهون طعاماً لأنفسهم ، وكانوا نادراً ما يوقدون النار في زرقمة ما قبل الصباح . أمر الأمير حراسه الشخصيين بالتراجع للخلف ، ولم ينتبهوا له عندما كان واقفاً في ظل الخيمة . واصل اثنان من المحاربين أحدهما شاب ، والأخر كهل حديثهما الهاديء .

قال الشاب :

- حرب ملعونة ! - متى ستنتهي؟

- عندما نستولي على «ساوران» سيرسلوننا لنستولي على «سايرام» أو «ياسي» !

- وما حاجتنا إلى «ساوران» هذه .. أنهم سيعطوننى من كل تلك الغنيمات قطعة قماش ، وحنة من الدراهم . وعندما أعود إلى الديار في «شاخريسيابي» سيقوم جابي الضرائب بانتزاعهم مني . من أجل نفس الحرب !

- لا تعطهم شيئاً !

- سيثبتون الأذان بالمسامير في البوابة ، ثم ينزعون الرأس من الكتف ...



- كل شيء في يد الله !

تحسن وضع جيش الأمير بعض الشيء عندما وصلت «ساوران» قافلة كبيرة من بخارى. وقد جلبوا مع الإمدادات الغذائية أربع آلات قاذفات للنار «الجمل العربي الأسود» والتي صنعها تلميذ العالم الشهير «روداخي ميرخ توباشويست». لم تكن تقذف الحجارة الساخنة بحجم أنثى الخروف فحسب، ولكن أيضا المراحل المليئة بسائل خاص والذي يحرق كل شيء حتى الحديد. عملت تلك الآلات المثبتة على الجوانب الأربعة دون توقف، لكن الأسوار الضخمة لم تنهار. حينئذ رموا النار على المدينة نفسها فاندلعت فيها الحرائق. في ذلك الوقت وصل الحمام الزاجل من «ياسي» إلى «ساوران». وجاء في الرسالة المربوطة في رجل الحمام أن «بابا سلطان» و «بوزاخور سلطان» يتحركان مع الجيش النوجاييني لانقاذ مدن تركستان. ارتفعت معنويات المدافعين، وواصلوا المقاومة. وفي الوقت نفسه نفذ الخليط الحارق الذي أحضروه من بخارى، ولم يكن في الإمكان فعل أي شيء. وياتوا يرمون «الجمال السود» الرهيبة حينئذ بشكل متقطع ومن حين لآخر ...

لم يكن الأمر كذلك كما أخبر من «ياسي» أحد الأشخاص الطيبون. في الواقع فإن «بابا سلطان» و «بوزاخور سلطان» المطاردين من قبل قوات الأمير «عبدالله» ذهبوا إلى «سرايتشك». وهناك استقبلوهم أول الأمر كحلفاء وأقارب القبيلة البيضاء. ولقد لقيا ترحيباً حاراً لاسيما من «أكتورجين» أرملة الخان «بخاك نزار». غير أن الوضع في هذا الوقت قد جعل من المستحيل الاعتماد على الدعم القوي من قبل الكازاخ النوجاييين لقتال عبد الله. فقد سقطت الخانة الأستراخانية في الأونة الأخيرة دون مقاومة تذكر. والآن أمسك بزمام الحكم في أستراخان قائد جند القيصر الروسي الرهيب ومعه فرقة كبيرة من الرماة. وحصل بكوات أستراخان على المواطنة الموسكوفية. ومن رغب عن ذلك فر إلى شبه جزيرة القرم، وإلى جايري، وذهب البعض إلى أقاربهم من الكازاخ النوجاييين. وقد رفضوا أيضاً مساعدة سلاطين تركستان في صراعهم مع أمير بخارى. وانحاز إلى جانبهم بكوات وشيوخ عشيرة «مانجيت» الأكثر نفوذاً وتأثيراً.

قال الفارون من أستراخان :

- نحن بحاجة إلى محاربين لاستعادة «أستراخان» من الكفار! - إن المصالح الرئيسية لبلاد «النوجاييي» هنا على الطرق التي تؤدي إلى خان القرم العظيم. سنقره حاكماً



علينا ، ونتوحد . ولاشأن لنا بعبد الله ! فنحن لا نريد أن نكون جزءاً من القبيلة البيضاء !

لكن غالبية النوجايلين لم يرغبوا في تمزيق أو اصر القربانة مع إخوانهم ، ولم يستطع البكوات النوجايلين أن يرفضوا علانية دعم كازاخ سير داريا خشية التسبب في غضب الشعب . لذلك أخروا الرد ، وأقاموا العديد من الاحتفالات الواحد تلو الآخر .

في يوم الخميس السابع عشر من شهر رجب (٧ أغسطس ١٥٨٢) ترجل البجادور «توكل» عن حصانه مع أسيره «لطيف سلطان» في المقدمة أمام خيمة الأمير ، وألقى تحت قدميه رؤوس «بابا سلطان» ، «وريبه» «جال محمد» . انحنى عبد الله خان ، ونظر بإمعان رغبة في التحقق في عدم وجود أى خداع ، وتخطاهما ، وذهب إلى البجادور الواقف على ركبة واحدة .

قال مكرراً المثل القديم :

- من قتل العدو الأول يصبح أقرب من القريب الأول ! - وإنني أجعل «توكل» ثالثاً بعد إخوتي الأشقاء ، وسلاطين عبيد الله ، ودوستم . وإنني أمنحك منصب «كوش بيغي» ، و «أفريكينت» ضيعتي ، التي آلت إلي عن طريق الميراث !

أوماً الوزير «حسن خودجا» برأسه موافقاً . فلقد تصرف ريبه أمير بخارى المقدس بشكل صحيح . إذ ينبغي أن يربط هذا «البجادور» (الفارس أو الشجاع أو البطل) برباط القربانة ، والامتنان . فقد كان الجميع تقريباً حول الأمير غرباء ، لذلك فإنه سوف يخدم العرش بإخلاص وبقوة . و «أفريكينت» - هي أبعد مكان في بخارى عن السهوب الكازاخية ...

قال البجادور «توكل» وقد إستوى واقفاً :

- شكرا لك أيها الأمير المقدس !

أسقطوا رأسى العدوين في برميل من العسل ، حتى يأخذ الشكّل الطبيعي للأحياء ، وأقاموا وليمة عظيمة تكريماً لهلاك أخطر الأعداء . في هذه الليلة سمع المدافعون عن الحصن صيحات محمومة . فقد صعد أحد الجنود وهو في حالة سكر على السور ، وهتف قائلاً أنها آخر ليلة في حياة الحائثين في قسمهم من «ساوران» الملعونة . فألقوا عليه حزمة مشبعة بالزيت من نبات الديس المشتعل فأخذ يدور مع حصانه كموقد نار حتى ضخم .



حل صباح هاديء . وللمرة الأولى بعد العديد من الأيام توقف الهدير غير الإنساني «للجمال العربية السوداء» ، والقبرات الصغيرة التي لا تعد ولا تحصى في هذه النواحي ، فاستغلوا فترة الراحة لإلتقاط الأنفاس ، وشرعوا في الرقص المرح فوق أدغال المروج ، التي نمت بين القلعة والمحاصرين.

أنبات الأبواق عن شروق الشمس ، وخرج على الفور الأمير «عبد الله» الحاكم لخانية بخارى الكبيرة نيابة عن والده من خيمته الحربية. وعلى الفور اقترب منه في حشد فوضوي يضم الوزراء ، وقادة الجيوش ، والسلاطين والبايات ، والبكوات ، وأحنوا رؤوسهم وقالوا :

- أيها الأمير المقدس خاننا وسيدنا .. ما هي أوامرك لهذا اليوم؟

صارت عيون عبد الله الرمادية دافئة ، وعلت فمه ابتسامة .

فكر «حسن خودجا» في نفسه وقال بمرارة :

«من سيكون عليه الدور اليوم؟»

التفت الأمير إلى «كول بابا كوكيلتاش» وقال له :

- اذهب أنت وابن «بابا سلطان» إلى السور ، الذي يختبئ خلفه أصدقاؤنا من مدينة «ساوران» ... واحكيا لهم عن كل شيء . وإذا بدا لهم أن هذا قليل فينبغي علينا أن نهدي إليهم رأس «بابا سلطان» نفسه . وللحق فإنه من المؤسف مفارقة رأس صديق قديم لطلما خدمنا كثيراً حتى أننى أشعر بالملل دون وجوده في هذا العالم.

سرعان ما تحرك إلى البوابة الرئيسية حصان فوقه برميل ملء بعسل جيزكي ذى رائحة عطرة . وسار «كول بابا كوكيلتاش» بعظمة برفقة إثنين من الجنود . كان «لطيف سلطان» المكبل بالأغلال مربوطاً في ذيل حصان . وظهر في الجزء العلوي من البرج الرئيسي للمدينة كل من عبد الستار نجل «بابا سلطان» والحاكم الأخر لمدينة «ساوران» «جاكبولات توري» . وكان معهما عدد قليل من الفرسان الشجعان بما فيهم المحاربان «كياك» و «تويك» . وعندما رأى «عبد الستار» أخاه متعباً للغاية، ومكبلاً في الأصفاد ، غطى عيناه بيديه لبرهة .

قال «كول بابا كوكيلتاش» بصوت رخيم :



- يا إخواننا فالجميع إخوة إمام الله ! - إن لدي أعلى الجبال مشكلة حيث تخلو من الممرات . والأنهار الكبيرة سيئة لأنها تخلو من المعابر . وأنتم يا أصحاب الشأن يا وجهاء «ساوران» لديكم عيب واحد هو التكبر . أنه ، وهو وحده ، لا يعطيكم الفرصة أن تنظروا إلى العالم نظرة واقعية ، وتقبلون بالهزيمة . مهما كان الأمر صعبا بالنسبة لي ، فلا بد أن أبلغكم هذا الخبر المحزن . بابا سلطان الذي تنتظرونه قد وصل .

- ولكن أين هو؟

عليكم أن تسألوا أين جسده ... لقد دفن في باطن الأرض وفوقه يقف شاهد كما هو الحال دائما فوق قبر أى سلطان . أما رأسه فتوجد في هذا البرميل المليء بالعسل كى لاتزول حمرة وجنتاه ! ..

للمرة الثانية غطى «عبدالستار» عيناه بيديه عندما سمع بوفاة والده .

سأل شقيقه :

- هل هذا الكلام صحيح يا لطيف سلطان؟

- نعم صحيح ...

لقد سمعتم أيها المؤمنين، ولا تقولوا بعد ذلك إنكم لم تسمعوا ! .. على من تعولون أيضا؟ فكروا جيدا ، أيها الأخوة، واطلبوا الرحمة من الأمير عبد الله الرحيم والمقدس ! قدموا له بكل خضوع مفاتيح مدينتكم ، وسوف يغفر لكم خطاياكم !

سألوه من البرج :

- وإذا لم نفعل فيماذا تنصحننا أيها الفصيح ذو الفم الذهبي؟

- أول شيء سنفعله هو ذبح «لطيف سلطان» هذا على مرأى منكم ، أخوك يا عبد الستار ، وسنذبح معه السلطان طاهر الذي ينام الآن مع الفئران أكلى لحوم البشر في السجن !

سأل عبدالستار بهدوء :



وبعد ذلك؟

بعد ذلك سوف سنقيم الولائم تحت أسواركم حتى يقضى آخر واحد منكم نجبه من الجوع!

في هذه اللحظة هزوا الأغلال . دفع «لطيف سلطان» الجنود عنه ، وتقدم للأمام بصعوبة وصاح بقوة :

لا تستمع إلى حديثهم المعسول ، يا أخي عبدالستار، وأنتم يا أهل «ساوران» ! - إنكم على أية حال لن تنقذونا ، ولكنكم ستهلكون أنفسكم . فالجميع يعلم أن الملعون عبد الله خان قد أقسم أنه لن يهدأ حتى يلطخ الحوزة العلمية الرئيسة بالمدينة بدمائكم ولن يشرب من هناك !

- عد إلى الخلف أيها الفهد الملعون !

جذب اثنان من الجنود السلاسل ، ولكنهما فشلا في أن يزحزحا «لطيف سلطان» من مكانه . وأخيرا طرحوه أرضا ، وجروه إلى الورااء عندما جلدا ظهور الخيول بالسوط .

صاح الأسير :

- لا تصدقوهم ! - اصمدوا وستأتى لنجدتكم ياسي، وسايرام، وأوترار، وأرخوك ... ستأتي السهوب كلها ..

في صباح اليوم التالي دوت آلات الكاراناى الموسيقية ، وخرج الأمير عبد الله مجدداً من خيمته . وأشار بيده فأطلق في نفس اللحظة «الجمال العربي الأسود» بطريقة قوية . ولكن بدلا من القذيفة طار إلى المحاصرين جوال جلدى صغير . كان به أربعة رؤوس وهي رؤوس بابا سلطان ، و طاهر سلطان ، ولطيف سلطان، والريبب جال محمد ...

ولكي لا يتطاير الحشو الرهيب للقذيفة ، وبتفتت إلى قطع صغيرة من جراء الضربة، قاموا بلف الرؤوس المقطوعة في قطع سميكة من اللباد . ومن فوقها تم لصق خطاب كتبه



الأمير عبد الله خان بخط يده يحذر فيه أهل «ساوران» جميعاً صغاراً وكباراً من أنهم سيلقون نفس المصير .

قام المدافعون عن المدينة بدفن رؤوس القتلى ، كما لوأنهم يدفنون جثثهم وفقاً لجميع قواعد الدين. وأقسموا في ميدان المدينة بالدفاع عن المدينة حتى النفس الأخير. ولم يكن لديهم أي آخر. في ذلك اليوم استدعى الحاكم «عبدالستار» الذي فقد والده وشقيقه في نفس الوقت المحاربين التوأم وقال لهما :

- أمام الأسود لا يخفون الحقيقة مهما كانت قاسية . وبإخفاء الحقيقة يشجعون فقط أبناء آوى البائسين . - لن نستطيع أن ندافع عن «ساوران» أكثر من شهرين . فقد ظهرت بوادر الجوع . ولكن لسان حالهم يقول ليس كل شيء على مايرام . فقريباً ستهطل الأمطار باردة وبلاتوقف . والغالبية العظمى من قوات الأمير من الولايات الجنوبية. أنهم الآن يشعرون بالبرد في منطقتنا. بالإضافة إلى ذلك لن يكون من السهل عليهم الحصول على الإمدادات الغذائية بسبب الوحل ، وعدم وجود طرق ممهدة . وأعتقد أنه إذا صمدنا ، فإن الأمير سيرفع الحصار !

سأل البطل «كيالك» :

- وإذا لم يرفع الحصار؟

أجاب السلطان باختصار :

- سوف نموت جميعاً !

ساد صمت مطبق . وفكر البطل «كيالك» في شيء ما بإصرار ناظراً إلى الأرض . ثم رفع رأسه وقال :

- لدي فكرة !

- تكلم أيها المحارب !

- إن الخيمة تسقط إذا قطعت العارضة التي تحملها ...

- أنت ... تريد ...



- في الآونة الأخيرة كدت أفعل ذلك.

- كيف؟

- إن سهمي عادة ما يطير بمقدار الضعف أكثر من الآخرين . لكن روح جدي المتوفي لم تسمح لي بذلك . والآن إنني في غاية الأسف ... أنه من الصعب الوصول للأمير . فهم يحرسونه ، كما يحرسون باب الجنة . ولكن يمكنني التعامل مع أحد الركائز الأساسية لذلك الجيش ...

- عن من تتحدث أيها المحارب ؟

- عن البجادور توكل ... في المعركة التي دارت رحاها مع الكاشغريين مات على ذراعي الخان «يخاك نزار» . وقبل وفاته قال لي شيئاً ما عن ذلك التعيس .

- حسناً ، كما تريد أيها المحارب . فالبجادور توكل رغم صغر سنه ، إلا أنه اليد اليمنى لعبد الله . علاوة على ذلك يتبعه الكثير من الكازاخ . وهم من أخشاهم أكثر من الجميع ، لأنهم اعتادوا البرد والحرمان . ويمكنهم أن يقفوا الشتاء كله تحت أسوارنا .

- سنذهب يا سلطان!

- فليكن الله في عونكم أيها المحاربين الكازاخ الشجعان!

في تلك الليلة هبط خمسة أشخاص بالحبال من فوق الحائط إلى الخندق ، وسبحوا في صمت إلى الضفة المقابلة . كانوا يرتدون ملابس بسيطة ، وساروا خفية عبر المعسكر الحربي الصاخب ، متعدد القبائل ، الذي ضرب حصاره حول مدينة «ساوران» . لكن بمجرد أن أشرقت الشمس ، طارت حمامة بيضاء صغيرة من نافذة غرفة «أينار سلطان بيكي» ، وحلقت خارج الأسوار . كانت زوجة الحاكم شقيقة «عبيد الله سلطان» . وقبل وقت الغداء علم «عبيد الله» أن خمسة أشخاص ذهبوا إلى المحاصرين لقتله ، وقتل نجل الأمير عبد المؤمن ، والوزير «حسن خودجا» ، والبجادور الكازاخي «توكل» . وتضمنت الرسالة صفات الفرسان الذين ينبغي عليهم أن يقوموا بذلك . وسرعان ما تم القبض على ثلاثة منهم ، وشنقوا على الفور . أما الرابع ، المحارب «تويك» فقد أفلت من أيدي الجنود الذين أمسكوا به ، وعبر الخندق تحت وابل من السهام ، وتم



رفعه بالحبال إلى داخل الأسوار . كان الخامس المحارب «كياك» أكثر حفا . فقد علم أن البجادور «توكل» ذهب مع الآلاف من القوات الإضافية نحو مدينة «ياسي» ، لكي يخضع المدينة المتمردة . فانطلق المحارب «كياك» في أثره ...

ذات مرة عند الفجر أيقظت جلبية ما القائد النائم في خيمته . فقد اقتاد اثنان من حراسه الشخصيين رجلاً مقيداً بحبال غليظة ، ودفعوه أمامه على السجادة . غير أن الرجل وقف على قدميه ، وصار ينظر في وجه البجادور «توكل» بازدياء لا يوصف .

أمسك البجادور بسيفه بطريقة لا إرادية وقال :

- رائع ! - من أنت .. إن الفرسان يقولون إنك كنت تدبر شيئاً ما ضدي؟!

أخذ البجادور يلعب بالسيف ، ويقطع بسهولة حزم الأغصان المتدلّية في الخيمة .

- أنا المحارب «كياك» ..

- لم أسمع أي شيء عن هذا الاسم بين الفرسان . أما عن «كياك» مجهول العشيرة السارق، الذي تمرد على معلم الإيمان الأمير عبد الله فقد سمعت عنه بعض الشيء . أتذكر أنهم قالوا لي إن هذا المارق يهاجم قوافل إمدادات الخان ، وقطعانه ...

ضحك المحارب «كياك» ناظراً في وجه البجادور ، وبنفس الإزدراء نظر إلى السيف . أسقط البجادور السيف جانباً دون إرادة منه .

قال المحارب «كياك» :

- عادة ما يسمى الكازاخ خلاف ذلك أولئك الذين يدافعون عن ممتلكاتهم من اللصوص . - ألم يسرق كلاب الأمير من رحالنا المحترقة القطعان ، وسلبوا قوافل الإمدادات؟!

فكر البجادور في نفسه :

حسننا ، لقد أحسن «عبدالستار» اختيار من يأتيه برأسه .. ولكن لماذا لديه مثل تلك النظرة الداله على الكراهية ؟ وما هو ذلك الشيء السيء الذي فعلته مع هذا المحارب..؟! »



- ما اسم والدك كما أخبرتني؟

- جاوباسار .

- ما هذا ، وهل يطلق الجرو القذر على نفسه الكلب الذئبي . فليقتلني الله إن كنت قد سمعت شيئاً عن هذا المحارب جاوباسار . من أية عشيرة أو قبيلة هو؟

- من عشيرة أرجين المحاربين .

- كم عمرك؟

- قال لى والدي الراحل إنني ولدت في نفس العام الذي ولد فيه «توكل» ربيب «شاجاي» الطفل المستبدل بغيره !

- أمسك البجادور الذي شحب لونه سيفه ، ومشى بخطوة سريعة إلى المحارب «كياك» المقيد ، وقطع عنه الحبال ثم قال :

- اجلس يا «كياك» ابن جاوباسار!

- جلس المحارب «كياك» على السجادة .

- تكلم !

- فليخرج الحراس من هنا !

- أشار البجادور بيده ، فغادر الحراس ووقفوا خارج الخيمة خلف الباب . بقى كبير الحراس فقط عند الباب مستلاً سيفه . وعندما دعاه رفاقه قال لهم أنه يخشى على البجادور ، ويريد أن يكون مستعداً لنجدته .

- قل لي لماذا تكرهني لهذه الدرجة؟!!

- ومن أجل ماذا أحبك أيها البجادور؟

- هل ضايقت أحد أقاربك؟

- من كان غيرك ، أيها البجادور ، الذي نثر في الرياح رفات أقاربي الذين كانوا يعيشون



في تلك القرى؟ ألا يباع إخوتي كعبيد الآن في جميع أسواق العالم؟ ألم يقيم جنودك بجلب العار لأخواتي قبل بيعهم كجوار في البلاد الأجنبية؟

- إننى كازاخي ، ولا أقاتل الكازاخ الصادقين والمطيعين ! لقد قبضت فقط على عدونا المشترك «بابا سلطان» ، وقتلته . ألم يقتل أبناء «خاك نزار» الذي تخلص له حتى الآن؟

- إصمت أيها البجادور ! لقد ولدت في السهوب الكازاخية من أم كازاخية . ما الذي تفعله ضد وطنك؟ .. لم يمضي شهر منذ كنت في مضارب خيامنا . لم يكن هناك الرفات والدم . وقد أقسمت مع شقيقي «تويك» أن تدفع ثمن هذه الجريمة البشعة بصورة كاملة ! أليس سيدك الأمير عبد الله من فعل هذه الفعلة النكراء؟ ألسنت أنت عبده المخلص؟ أجبني إذا !

قفز المحارب «كياك» على البجادور ، وتدحرجا على البساط كإثنين من النمرور .

همس المحارب «كياك» في غضب :

- أليس أنت ... ألم يحرق أصدقاؤك قرانا؟! - وتذهب الآن لتغرق مدينة «ياسي» في الدم ، وتحصل على معطف آخر من كتف الأمير . إن لم أقبض عليك أنا فسيقبض عليك أخي أيها القاتل! ..

لم يتناول المحارب «كياك» الطعام لمدة يومين . بالإضافة إلى ذلك فقد ظل مقيدا فترة طويلة ، وفقد الكثير من قوته في صراعه مع الحراس . أسقطه البجادور على البساط ، وأمسكه فترة قصيرة ، ثم تركه .

سأل من جديد وكان شيئا لم يحدث :

- إذن أنت والآخرون تعدونني الخائن الذي يسفك دماء أقاربه؟

- نعم... ولكن لا يتعجب أحد من ذلك . فعندما يحل بالوطن كارثة كبرى فإن أبناء الجارية مثلي ومثل أخي «تويك» هم من يدافعون عنه . فماذا ننتظر من الوجهاء الذين هم أطفال بالتبني ، ومن الخونة! ..



أصدر البجادور توكل صوتا يشبه زئير الأسد وقال :

- تكلم - تكلم الآن والإ سوف أقتلك وأقتل نفسي . لقد سمعت شيئا عن ولادتي .
ولكن والدي «شاجاي» ...

قال المحارب «كيالك» بهدوء :

- والدك قاتل ... قاتل حقير! . وفجأة أصبح يأسف على هذا الرجل إلى حد الألم ، لكنه
على أية حال سوف يحكي له سر وفاته والدته التعيسة ...

أمسك البجادور بذراعه ، وقال له بصوت يشبه الأزيز :

- كل شيء ... أخبرني عن كل شيء!

- أمك ، كما يليق ، «بالعظم الأبيض» كانت تدعى كونسانا ، أي «مثل الشمس» .
وأمي أنا وشقيقي «تويالك» ، كما يليق بالجارية كانت تدعى كويسانا ، أي «مثل
النعجة» . ولكن عندما يحل ببلد مثل هذا الشقاء ، كما حل بنا ، فالموت لا يختار ...

سأل البجادور بصوت مكتوم :

- من قتل والدتي؟!

- والدك الذي يدعونه «شاجاي خان» ...

- تكلم!

فتح البجادور توكل أصابعه ، وخفض يد المحارب .

حكى المحارب «كيالك» للبجادور توكل سر وفاة «كونسانا» .

- نعم ، فهذا يعني أنك لا تعرف بالفعل أن «شاجاي» الذي تبناك ذبح أمك في يوم عودتها
من «سوزاك»!

- وإنني ... إنني أتذكر الصراخ فقط أصبح صوت البجادور فجأة غريبا وهادئا . -



لقد كانت تصرخ بشيء ما ..

- وقد أمرني «خاك نزار» قبل وفاته أن أخبرك بذلك أيها البجادور . وانني لا أعرف لماذا أراد ذلك . ولكن عندما رأيته مع الأعداء قررت ببساطة أن أقتلك !

- لماذا لم يخبرني أحد بذلك من قبل؟!!

- لأن كل من عرف الحقيقة ذبحه السلطان «شاجاي» مع والدتك!

سأل البجادور فجأة :

- وماذا حدث لأمك كويسانا ؟

- زوجوا الجارية «كويسانا» لأحد الفرسان الفقراء من غير الوجهاء يدعى «جاوباسار» .
- نظر المحارب «كياك» مباشرة في عيني البجادور «توكل» وقال : - لم يبق لي أب أو أم !

خفض البجادور رأسه للأسفل وقال :

- وما كان مصير والديك؟

- قُتل المحارب «جاوباسار» في معركة شنّها المعتدون الجونغاريون على قريتنا...

- و... كويسانا ؟

- وجدتها مقتولة تحت الأنقاض ... لقد قتلها جنودك أيها البجادور!

قفر الجندي الذي كان واضعاً أذنه على الباب فجأة إلى الجانب . وخرج من الخيمة البجادور توكل مع الأسير . وبعد أمسك بلجام واحد من خيله ، صنع البجادور علامة مغزاهما عدم مرافقته ، وذهب مع المحارب إلى السهوب .

وبعد أن أصبحا بعيدين عن المعسكر توقفا ، وأعطى البجادور ، دون أن ينبس ببنت شفة ، اللجام للمحارب «كياك» . قفز المحارب على الحصان دون أن يتحرك من مكانه ، ونظر إلى البجادور .

قال البجادور «توكل» :



- سوف أجدك في السهوب في وقت ما أيها المحارب ! - ثم التفت ، وذهب إلى خيمته.

وقف المحارب في الركاب ، وصفر بهدوء ، وأحاط به شريط من الغبار ، ثم انطلق الغبار في السهوب المفتوحة ...

قال الجندي الشاب «كاراكالباك» أحد أفراد الحراسه مخاطبا البجادور :

- ياسيدي البجادور إن هذا الجندي الكلب الذي قتل كبار السن من الرجال ، سمع حديثكم في الخيمة !

نظر البجادور توكل إلى الجندي العجوز ذي الندبة على خده . لقد كانت لديه نظرة خبيثة ، ومتملقة . ولكن البجادور لوح فقط بيده ، ولم يفعل أي شيء ...

بعد ثلاثة أيام دخل الرجل ذو الندبة بهدوء خيمة السلطان «شاجاي» بالقرب من «ساوران» . أخذ يقص على السلطان عن شيء ما لفترة طويلة ، وكان السلطان يهز رأسه موافقا . في نهاية الحديث ألقى السلطان للرجل جوالا جلديا مليء بالذهب . وعندما التفت الجندي ليغادر المكان رشقه السلطان بسكين بخارى معكوف أسفل الظهر و قال هامسا :

- الخادم الذي يعرف كثيرا لا يكون مخلصا ... - ثم صاح بصوت عال :- خذوا هذه الجيفة التي حاولت تشوه سمعة ابني البجادور توكل !

- عند الظهر أحنى السلطان «شاجاي» ركبته أمام الأمير وقال :

- ابني البجادور «توكل» يريد الذهاب إلى أعدائك يا سيدي الخان ... وها أنت الآن ترى مدى ولائي لك !

- نعم أعلم أنك مخلص لي حتى النهاية . فلا أحد يريدك ولا أحد سيؤويك عنده سواي ... وابتسم عبد الله إبتسامة عريضة . - وأردت أن يكون ابنك توكل في صحبتي . وليكن قريب منا !



رأى القادم «حسن خودجا» عيني سيده الضاحكتين فتجمد من الخوف . فهذه الابتسامة تنبيه مرة أخرى بموت أحد ما ؟

لم يعلم الأمير أو السلطان «شاجاي» أن البجادور «توكل» قد انفصل عن الجيش في ذلك الوقت مع فرقة صغيرة من خلائه ، وذهب إلى الشمال ، وتحديداً إلى سهل كيبشاك...

وقف جنود الأمير «عبد الله خان» بالقرب من «ساوران» مدة شهرين آخرين . لكن الأمير غادر قبل ذلك بسبب مرض والده إسكندر خان . ثم غادرت جميع القوات . وإستطاعت «ساوران» أن تصمد أمام الحصار ...

ظهر صوت صفير غريب في مكان ما في السماء الزرقاء . ثم صار أقوى ، واقترب بسرعة ، وقام الناس المذولون الخائفون بإخفاء رؤوسهم في أكتافهم بطريقة لا إرادية ، واقترب الجميع من الأرض .

صاح أحدهم

- هذا هو «الجمال العربي الأسود» !

لكن ، لم تكن تلك هي الألة الحجرية «الجمال العربي الأسود» ، التي حاولت قبل قرنين من الزمان سحق تلك الأسوار . ضربت النواة الحديدية الدوارة الجزء العلوي من برج القلعة ، وأصابت واحدة من البروزات بين الجدران ، وتساقطت كتل من الطين الجاف على الناس في الأسفل . وطيرت نواة أخرى الحائط ، وسقطت وسط الساحة ، فقتلت حصاناً مربوطاً في وتد .

أنهم الجونغاريون .. ليصعد الجميع إلى الأسوار !

لقد كان ذلك الصوت الراعد هو صوت المحارب «يليتشيبك» الذي جاء في الوقت المناسب . ولكن الناس بدونه قد فروا بالفعل كل إلى مكانه على الجدار . وظهر على برج الزاوية الحداد «ناوان» حفيد ، وسليل أولئك الذين يدافعون عن «ساوران» عبر العصور ضد الغزاة الأجانب .



صاح «ناوان» عندما رأى الشاعر «بوخار» يصعد على الجدار مع الآخرين قائلاً:

يا شاعرنا توخى الحذر!

لكن المغني العراف أصبح بالفعل في الأعلى . ووضع يده على عينيه ، وأخذ يحقق بعيداً عنهم ، حيث بدأت الخيالة الجونغارية الرهيبة تتكشف خلف التلال . أطلق النار على القلعة عشرون مدفعاً نصبهم الحكام الصينيون للجونغاريين ؛ في محاولة لبث الرعب في نفوس المدافعين عنها . وكان يشرف على إطلاق المدافع الرقيب السويدي «رينات» الذي تم أسره في إحدى المعارك التي دارت رحاها بين الجونغاريين وإحدى الكتائب الروسية . وانطلق خمسة آلاف من الفرسان على خيول منغولية صغيرة الحجم إلى أسوار القلعة تحت وابل من نيران المدافع . ولكن كان كل شيء هنا جاهزاً للمقاومة ، وعندما اندفع الفرسان قابلوهم بطلقات بنادق قديمة ، ووابل من السهام . وسكبوا الزيت الساخن على رؤوسهم ، وأسقطوا على رؤوسهم أحجاراً ثقيلة . وسقط مئة وخمسون من الجونغار من الصف الأول من على السور . لقد حاولوا تسلق البرج من كلا الجانبين في محاولة منهم للاستيلاء عليه . ولو استطاعوا الحصول على موطن قدم لهم في القلعة لكانت «ساوران» قد سقطت . ولكن هناك كتيبة من المواطنين بقيادة الحداد «نوان» قد تصدت لهم . وكان الأعداء اصطدموا بجدار من حديد فتساقطوا في الخندق ، مقطعين إرباً بفعل الفؤوس وسيوف الأجداد القديمة . لم يشفق المدافعون عن البرج على أنفسهم فتصارعوا مع الجونغاريين ، وسقطوا معاً ، وكسروا النتوءات الحجرية . ومن الجزء الخلفي للأعداء هاجم أهالي البلدة أولئك الذين بقوا على قيد الحياة على الجدران ، وتم القضاء على الخطر تماماً ...

كان المحارب «ناوان» يقف ثابتاً على قمة البرج ، ولكن عندما وصل إليه الشاعر «بوخار» رأى أن وجه الحداد كان أبيض تماماً . كان المكان حوله ملطخاً بالدماء ، وبرز في صدر «ناوان» جزء مكسور من حربة جونغارية ثقيلة . وكان من غير المفهوم كيف أنه لا يزال واقفاً على قدميه . نظر الحداد إلى الشاعر وقال :

- ما هذا يا صديقي «ناوان» ..

أمسك الشاعر «بوخار» المحارب «ناوان» من يديه ، وأرقدته بعناية على الصخور . ثم أراد أن يسحب رمح العدو من صدره ، لكن الحداد هز رأسه يرجوه ألا يفعل . وهمست شفتي المحتضر بشيء ما . اقترب الشاعر من وجهه .



قال الحداد :

- ياشاعرنا ... إنكم ... إنكم لم تقصون علي حكاية أجدادى كاملة ... عن
«كياك» ...

أخذت البرودة تسرى في يدي المحارب فوضعها الشاعر بوخار على صدره .

ابتعد سلاح الفرسان الجونغاري عن أسوار المدينة المجيدة . لقد كان واحدا من الكتائب
التي حاولت الاستيلاء على «ساوران» سريعا من دون أن تتوقف لالتقاط الأنفاس . وكان
الهجوم الأول هو الأقوى . قام الجونغاريون بعدة محاولات هجومية ، لكن تم التصدى لها
بنجاح . وبعد أن رأوا أنهم لن يستطيعوا الإستيلاء على «ساوران» ، قاموا برفع الحصار ...

كان فصل الشتاء، كما هو الحال دائما ، خلال الحرب في هذه السنة قاسياً بشكل
لا يصدق. وبالفعل تجمدت في شهر أكتوبر كل أنهار السهوب والبحيرات . وبسبب
مياها الضحلة تجمد الكثير منها حتى القاع . وطوال فصل الشتاء كانت تهب عاصفة
ثلجية عنيفة دون توقف حتى ليوم واحد . وفي فترات نادرة عندما كان يحل الهدوء على
الأرض كانت السماء تبدو حمراء من الصقيع الحارق . وتحول بصاق المحارب إلى الحجر
حتى قبل أن يصل إلى الأرض . حتى الذئب قد تجمدت في السهوب في هذا الشتاء . فماذا
يمكن أن يقال عن الناس والخراف؟! لقد كان صعبا للغاية على الكازاخ الرحل . ولم
يكن سهلا على الجونغاريين الغرباء . وكأنه عقاب فقد هلك جميع الماشية المسروقة
في القرى الكازاخية ، والقرغيزية . وهجم الجوت (الموت الجماعى - المترجم) على الخيول
الجونغارية التي لم تعتاد مثل تلك المحن المحلية.

كان الربيع أكثر ضراوة . فقد هاجم الجوت (الموت الجماعى) السهوب ، وأهلك الموت
الناس والحيوانات من بحر قزوين إلى ألتاي . وارتحلت القرى التي بقيت على قيد الحياة إلى
الشمال ، حيث كان من الممكن المياضنة بأي شيء في المدن الحدودية الروسية ، والعيش
على نحو ما . وسميت تلك السنوات في الحكايات «أوقات المحنة الكبرى»



فقط في السنة الثالثة نجت مضارب الرحل الكازاخ من المحنة المروعة. فقد بدأت بعض وحدات المحاربين في تحقيق الانتصارات الأولى على قوات «سيبان رابتان». وقد حقق البطل «تايلاك» من الجزء الصغير مع ابن أخيه البطل «سانيراك» من الجزء الكبير أول انتصار على العدو. وقد وقعت المعركة في المنطقة الواقعة بين نهري «بولنتا» و «بولينتا» والذنان يصبان في نهر «ساريسو»، ومازال هذا المكان يسمى «كاماك كيرلجان» أي مكان موت الجونغاريين.

حينئذ تحدثت السهوب كلها عن القائد ذي الثمانية عشر عاماً الذي أربب الجونغاريين باستمرار، وهجم على قواتهم بطريقة مفاجئة، وقضى عليها حتى أخرج رجل فيهم. لم يعرف الرحمة مطلقاً. كان يدخل المعركة بشجاعة نادرة، وكانت صحبته الشهيرة هي «أبلاي». أصبح الجونغاريون يخافون من هذا الاسم، وعندما التقاه الخان أبو الخير عرف أنه الراعي المراهق، الذي قابله ذات مرة، عندما ضل طريقة مع الشاعر «بوخار» في أحراش نبات الديس. وقد كان هذا الشاب من الطبقة الحاكمة، ودلت جميع المؤشرات على أنه قد ظهر منافس آخر لأبي الخير في طريقة إلى حكم السهوب كلها ...

سرعان ما دارت رحى معركة شهيرة عند بحيرة «الأكول»، في الجنوب الشرقي من بحيرة «بالغاش»، على تلال «أنراكايسكي» والتي هزم فيها الجيش الكازاخي الموحد لجميع الأجزاء الثلاثة بقيادة الخان أبو الخير القوات الكبيرة للكونتائيتشي الجونغاري نفسه، واضطر الفرسان الجونغاريون إلى الفرار إلى الأسفل عبر النهر أو إلى معسكرهم. وكان هذا يمكن أن يكون بداية النهاية للغزو الجونغاري على بلاد الكازاخ. ولكن كما هو الحال دائماً، منع ذلك الفتنة بين العشائر. وكانت تبدأ دائماً بين القبائل، وبالكاد تحسن الوضع العام ...

توفي الخان «بولات». وكانت جميع الشواهد تدل على أن «أبو الخير خان» ينبغي أن يكون على رأس جميع الكازاخ. فقد كان لا يمكن الجدل حول إنتصاراته على الجونغاريين، وخبرته الحربية، وشهرته بين الجنود. لكنه طبقاً للوصية التي تركها الجينكيزيون لم يكن لسليل الفرع الأصغر الحق في أن يكون الخان العظيم. وقد رفع على البساط الأبيض «أبيلمامبيت» الابن البكر للخان بولات. سحب «أبو الخير» الغاضب جيشه إلى شواطئ «إرجيز» على أرض الجزء الصغير. وغادر أيضاً الخان «ساميكي» مع غالبية الميليشيات التابعة له والذي كان يرغب أيضاً في العرش الخاني العظيم. ومن جديد أصبحت الأراضي الكازاخية عاجزة عن الدفاع عن نفسها ...



صنع بعض الفرسان مع قواتهم حاجزاً منيعاً ضد جيش «سيبان رابتان» السفاح الغازي والمتعطش لفتوحات جديدة. وكان من بين هؤلاء الفرسان البطل المجيد «كابانباي» مع مئتين من المحاربين. لقد قضى فصل الشتاء في «كازالينسك» عند المقر السابق لأبي الخير خان، أما في فصل الصيف فقد هاجم الدوريات الجونغارية، ووصل في بعض الأحيان إلى تركستان. وكانت ترافقه دائماً جوهر «فتاة اللؤلؤ» التي تعرفها السهوب كلها. وقد قاموا بالفعل بتأليف الأغاني عن انقاذها الجيش الكازاخي من هلاك محقق عندما أبلغته بقدوم الجونغاريين. وأصبحت صديقه المحارب المخلص.

لقد كانت السهوب خالية وباردة. وكانت الرياح تقطع من الكشبان القريبة سحباً من الرمال وتلقيها في الوجه. وعلى حافة الأرض الطينية الجرداء حيث توجد الرمال انحسرت عن جبل من الجمالجم. كانت العظام قديمة، وتدل كل الشواهد على أنها قد دفنت في الأرض لأكثر من قرن. فمن ذا الذي قام بمذبحة هنا في أحد الأزمنة هل هم جند جنكيز خان أو جنود أبي الخير أم حدث قبل ذلك أم أزهرت شفرات المنتقمين الشورشوتيين أرواح الرحل في المخيمات؟

خلف التلة كانت ترقد العظام البيضاء. ورفرفت قطع من الملابس في مهب الريح، وتناثر كل شيء لم يتحول بعد إلى رماد. وكان من الواضح أن جنود الحاكم الجونغاري قد قتلوا الناس هنا. وفي العام الماضي أو العام الذي سبقه قد حدث ذلك. في هذه الأرض العتيقة كما في نفوس الناس إختلط الماضي بالحاضر، وأحياناً لا تعرف فيها أين ينتهي أحدهما ويبدأ الآخر. والشئ الوحيد الذي لا يتغير هو القتل... تطلع الشاعر «بوخار» حوالبه ثم نظر إلى السماء. وذهب، كما جرت العادة، عبر السهوب وحيداً. كان يفكر بطريقة أفضل عندما يكون بمفرده في الطريق. والسهوب، هنا وهناك، تحكي قصتها دون أية زخارف كلامية عندما تكشف عن العظام المدفونة فيها.

حل الظلام. نزع الشاعر السرج عن الحصان، وأقام بالقرب من شجيرة الرمث حاجزاً ضد الرياح، ورفق على بطانة السرج، وتغطى برداء قديم. كانت الرياح تصفر فوق رأسه



لذلك لم يستطع النوم. نظر المغني العراف في السماء المظلمة، الضبابية وفكر في مصير وطنه.

لقد نسى الفن القديم للكتابة بين الناس، ولكن الذاكرة ظلت حية وغير قابلة للتدمير. ففيها إختزن كل شيء، لذلك كان فن الشاعر يحظى بالكثير من التبجيل. فهو المغني، والقاص، وهو حارس الماضي والذي بدونه لا يوجد شعب. وفي مختلف بقاع السهوب المترامية الأطراف ينشدون بالفعل شعراً من الحكايات التي تروي حصار الجونغاريين للقلعة الحجرية القديمة أي «ساوران». وأضيفت كلمات جديدة، ولا يعلم الكثيرون أن هذه هي حكايته الأسطورية. نعم لقد ساعدت المقاومة الباسلة من قبل فرسان مثل المحارب «ناوان» الأتسقط «ساوران». وقد ساعد أيضا البارود، والبنادق التي جلبها التجار الروس. ولو أن كل مدينة كازاخية كانت تملك مثل هذه البنادق لكان من الممكن أن تتصدى للمدافع الشورشوتية ...

كان الأمر ينحصر في كيفية العثور على شخص يكون قادراً في الوقت الراهن على توحيد الكازاخ لصد العدو. من أجل ذلك كان ينبغي كسر السلاسل التي لاتعد ولا تحصى من بايات العشائر، والسلاطين، حيث يريد كل واحد منهم أن يجلس على عرش الخان. وهل يوجد رجل في السهوب يمكن أن يضطلع بهذه المهمة... ارتجف الشاعر رغمًا عنه. فقد تمثل أمامه الفتى الذي كان يرتدى ملابس الراعي الخشنة ذا العينان الباردتان القاسيتان. لقد تطايرت الأحاديث عن بطولاته في السهوب، وقد ذكر خلال ذلك الاسم الملعون أبلاي جده السفاح لهذا الفتى ثلاث مرات ...

نعم أنها بداية لانقطة لتوري جينكيزي. لقد ذبح ذلك الفتى بدم بارد عبده العجوز المخلص، الذي كان قد أنقذ حياته، ولكى لايشك أحد في نواياه بعد ذلك تسمى باسم جده مصاص الدماء، والذي تخيف به الأمهات أطفالهن في مضارب الرحل الكازاخية. وربما كان ولا بد أن يصل إلى السلطة في ذلك العصر القاسي شخص مثل هذا ؟ ..

تنهد الشاعر «بوخار» بصعوبة. كم من الدماء سوف تسيل على أرضنا! لقد طلب منه الجنكيزي الشاب بالحاح حينذاك أن يحكى له عن الماضي، وقد حكى له عن تلك الأزمنة التي شهدت الاقتتال الداخلي والذي بسببه بدأت القبيلة البيضاء في الانهيار. وطلب منه المحارب الحداد «ناوان» الذي خر صريعاً على أسوار «ساوران» نفس الشيء. وأنهما



لينظران إلى الماضي بشكل متباين. فلقد حكى للحداد عن أسلافه الفرسان المشهورين من «العظام السوداء» مثل «كيك» و«تويك». وقد أدان السلطان «كيك»، أما «ناوان» فقد مضى إلى الموت مردداً اسمه! وهذا يعنى أن هناك نوعان من القصص واحدة للسلطين، والأخرى لعامة الناس. فأى تلك القصص هى الأصدق؟ .. وما الذي يمكن أن يفعله أولئك السلطين القساة الماكريين دون هؤلاء المحاربين المخلصين أمثال «ناوان»! ..

لم يتمكن من أن يحكي للحداد كل شيء عن أسلافه الأبطال «كيك» و«تويك». ولكنه سيحكي للناس عنهم، وليقرروا هم بأنفسهم أى الفصيلين أحق بالمجد السلطين العظام أم فصيل الحداد «ناوان» ..

الجزء الثانى



I

إذا كان في غرب الأرض الكازاخية لم يزل الهدوء يسيطر نسبياً فعلى الحدود الشمالية جرت أحداث أثرت كثيراً على وضع الخانية الكازاخية. لم تكن هناك في سيبيريا القاسية الشاسعة سلطة موحدة مستقرة منذ أمد بعيد. وعقب الاشتباكات القبلية والحروب قام المهانون والمنهزمون من السهوب الكازاخستانية، وقبل ذلك بكثير من خانية كازان، وخانية أستراخان، ومن بشكيريا، وأراضي الفولجا القديمة بالذهاب إلى هناك. وقد فر إلى هناك الكثير من العبيد، والسجناء من شتى القبائل، وفي القرن الأخير، فر أيضاً إلى هناك العبيد الهاربون من النبلاء والأمراء الروس. كان من الواضح أن الناس لم يكونوا سعداء في ظل حكم القيصر الروسي الرهيب؛ لأنه قد تم إزالة قرى بأكملها من أماكنها الأصلية، وذهب الفلاحون الذين يحرسون الأرض إلى جهات مجهولة وراء جبال الأورال. ولكن غالبية الناس الهاربة من روسيا كانت تفر بشكل فردي وهم أولئك الذين كانت تلاحقهم القوانين القيصريّة الرهيبة، وفترة أوبريتشنيا غير القانونية (أوبريتشنيا عبارة عن فترة من التاريخ الروسي من عام ١٥٦٥ إلى ١٥٧٢ والتي أسس خلالها القيصر إيفان الرهيب سياسة داخلية تخص البوليس السري، والاضطهادات بالجملة وحالات الإعدام العامة، ومصادرة أراضي طبقة النبلاء الروس. وكان يطلق على الشرطة السياسية المكونة من ستة آلاف نسمة والتي كانت تتولى تنفيذ السياسة اسم أوبريتشنيكي، وينطبق مصطلح أوبريتشنيا أيضاً على تنظيم البوليس السري وعلى الإقليم الذي حكمه القيصر مباشرة خلال تلك الفترة والتي عملت خلالها الأوبريتشنيكي - المترجم). لقد كانوا من جنسيات مختلفة، ولكنهم سرعان ما وجدوا لغة مشتركة، وكونوا من أنفسهم فصائل، واتخذوا لأنفسهم اسم القوزاق. بهذا الاسم القديم المقبول للكازاخ أكدوا حريتهم ورغبتهم في العيش وفقاً لقوانين الديمقراطية العسكرية الترحالية. وقد تم محاكاة التشكيلات العسكرية الكازاخية القديمة في الهيكل ذاته، وأسماء الرتب في فصائل القوزاق، ثم بعد ذلك في القوات.

قامت عشرات ومئات من الفصائل الكبيرة والصغيرة في جميع أنحاء سيبيريا بالتجوال على غرار القبائل الرحل، والقيام بالغارات، والانخراط في اشتباكات مع بعضها البعض،



والإختلاط مع السكان المحليين، والاستقرار تدريجيا في الأراضي المغتصبة. وقد أدركت الحكومة القيصريّة بشكل واضح ما هي الفائدة التي يمكن استخلاصها من ذلك. لم يكن في مقدورها التعامل مع الفصائل القوزاقية القوية، فأخذت في إستغلالهم من أجل السياسة التوسعية، وتأمين الحدود. وقد سهل تعدد عشائر وقبائل أحرار القوزاق إخضاع سيبيريا.

في ذلك الوقت الذي رفعوا فيه البجادور «توكل» على سجادة اللباد البيضاء كان اسم «الأستروجان» معروفاً في جميع أرجاء الحدود الشمالية من السهوب. هكذا كانوا في السهوب يطلقون على التجار الذين أعطاهم القياصرة الروس مساحات شاسعة في سيبيريا لزراعتها لقب الأستروجانين. وقد استأجر «الأستروجانيون» فصائل القوزاق الأحرار لخدمتهم، والفصائل الكازاخية لحماية القوافل التجارية والمستودعات. وسرعان ما ظهرت على طول خط الحدود أوائل المدن التجارية. وعلى الرغم من أنهم كانوا يدفعون أبخس الأثمان مقابل البضائع التي جلبها الرّحل من السهوب، فقد حصلت السهوب أخيراً على منفذ جديد للأسواق الجديدة. ولم تعد بخارى وحدها هي التي تسيطر على جميع الطرق، وسعر الصوف، والجلود والمعادن. وفي المقابل تمكن الرّحل من شراء جميع السلع التي يحتاجون إليها من الأسواق الحدودية.

لكن الغيوم تكاثفت في شرق السهوب. فقد كان الحكام الجونغاريون يشبهون كلب البولدوج الذي يتشبث بالرقبة، ولا يترك ضحيته أبداً. وهذا البولدوج مع كل صيف يقترب ببطء، وبإصرار، من الوريد الرئيسي في رقبة بلاد الكازاخ. وليس الكازاخ فقط، ولكن جميع الشعوب الأخرى المجاورة يشعرون بالتهديد المميت. وكان العدو القديم والرهيب يتحرك خلف الجونغاريين. وقد اتخذ القرغيز أماكن ترحال لهم في الجبال التي يستعصي على الجونغاريين الوصول إليها، وقلص التجار الأوزبك، والطاجيك أعمالهم، وتزاحم الكاراكالباكيون؛ ليفسحوا مكاناً للقرى الكازاخية المنسحبة. وهذأت خانات آسيا الوسطى عندما شعروا بالتهديد من غزو واحاتهم. والآن توجه الحكام الجونغاريون صوب مدن سيبيريا ...

لكن الدبلوماسيين الروس كانوا يتابعون عن كثب كل ما كان يحدث في السهوب الشاسعة على الحدود الجنوبية الشرقية. وكانت تحركاتهم تتميز بالحذر الشديد. ويبدو أنه في هذا الوقت الصعب لبلد الكازاخ عندما إنقضت عليها من الشرق



الكارثة الجونغارية ، وفي الغرب - عند مصب نهر الفولجا - كان ينتظرها كارثة أخرى متمثلة في شخص خانات الكالميك ، ومن الشمال أزعجتهم غارات الميرزات الباشكيريين ، أما في الجنوب فلم يتوقف العداء ليوم واحد مع خانات آسيا الوسطى ، كان الوقت مناسباً لأية دولة أخرى أن تتدخل في القسمة وانتزاع أذق قطعة من الكعكة لنفسها ... ومن الواضح أن الشيء نفسه كان سيفعله الساسة الروس قبل عهد بطرس الأول . ولكن ، بدءاً من بطرس كان مقدرًا لروسيا أن تلعب دوراً كبيراً في شؤون الشرق . ولقد تعاملت مسارات هذه السياسة الكبيرة مع مسارات قوة عظمى أخرى في المحيطات الأربعة . وهنا ، في قلب آسيا ، كانت الخطوط المنقطعة واضحة ، ومحددة . وكانت روسيا تنتظر فقط تطورات الأحداث ، معززة علاقاتها التجارية والدبلوماسية مع جميع دول المنطقة .

حول البطل «بوجيمباي» حصانه للخلف بشكل حاد . بعد أن انحنى الحصان الأصبغ الأشعث الذي يبلغ طوله من العتبة حتى الجدار الأحمر لمنزل اليورت بصعوبة ، وتوقف عن السير ، قام بعمل نصف دائرة ، وركض إلى الخلف ، مثيراً بكل ضربة من حافره كتلة ترابية تساوي مساحة نار المعسكر . كانت الرياح وحدها تصفر في السهوب الخاوية ، ومع كل قفزة للحصان الهائل كانت تستجيب بصوت عال كأن الأرض تتأوه ...

وهاهو البجادور الجونغاري «شونودابو» قد لاحظ أيضاً البطل الكازاخي ، وبنفس الدفعة القوية من يده حول حصانه الأشعث الأبيض العملاق . وأنطلقا جنباً إلى جنب بأقصى سرعة ، وبالكاد غير ملامسين للركاب . وفي سحبات الغبار ارتفعت وانخفضت الهروات الثقيلة المغطاة رؤوسها بالحديد . وقد سمع في السهوب ضربة ثقيلة كصخرتين من صخور الجرانيت اصطدمتا في السماء ، وطارت بعيداً الهراوات المكسورة .

حول كل من المحاربين خيولهما مرة أخرى . لم ير أحد هذه المباراة فقد كانت اشتباكاً محموداً . مرة أخرى اندفع كل منهما تجاه الآخر مثيرين الغبار ، لكنهما الآن لا يحملان الهروات في أيديهما ، وإنما سيوفاً ثقيلة . كانت الضربات تخلف رعداً وصريراً عند تقاربهما . ولكن المحاربين الآن لا يبتعدان ، بل يدوران حول بعضها البعض قادين الشر . وعندما تلمت السيوف القديمة ابتعد المحاربان ، وشدا الأقواس في محاولة للحصول على جسد العدو عن طريق السهام . لكن لم يتح لأحد منهما النجاح في ذلك . فقد كانا متعادلين في القوة والشجاعة .



كان الوقت الذي تحاربا فيه ، يكفي لحلب الفرس مرتين . أصيب المحاربان بالتعب ، وأغرق العرق عينيهما ، وصارت أذرعهما في الدروع الحديدية ترتفع بمشقة بالغة . كان الحصانان بالكاد يحملان المحاربين الثقيلين . حينذاك ترجلا عن الحصانين ، وهجما على بعضها البعض بالخناجر . وسرعان ما وقعت الخناجر من أيديهما المطبقتين عليهما بإحكام ، فشرعا يخنقان بعضهما البعض بأيديهما العارية ...

بعد أن خارت قواهما تماما رقدا جنبا إلى جنب على التلة الجرداء . ثم وقف أحدهما من دون أن ينبس ببنت شفة ، وسار ببطء إلى حصانه . وفعل الآخر نفس الشيء . ولم ينظر المحاربان لبعضهما البعض ، حتى جلس كل منهما في سرجه ، وحول كل منهما حصانه إلى وجهته . فقط بعد أن ابتعدا خطوات قليلة ، نظرا إلى بعضهما البعض نظرة خاطفة .

قال شنودابو :

- أيها المحارب «توجيمباي» لقد ظلت ضمائرنا نقيّة كانت مبارزتنا صادقة كما في الأغاني القديمة . وفيما بعد لتكن كذلك لمن يستطيع . احترس ، ولا تقابلني في السهوب مرة أخرى وحيداً ! ..

قال البطل «توجيمباي» :

- وأنت أيضا لاتندهش إذا أخذتك على غرة !

وذهب كل منهما إلى حال سبيله .

لقد كانا يعرفان بعضهما البعض منذ فترة طويلة (المحارب الكازاخي من فرع كانجيجاليفيسكي من عشيرة أرجين ، والبجادور الجونغاري «شنودابو» . كان معسكرهما يقعان على مسيرة يومين . ومنذ عدة سنوات ، وفقا لحكايات الناس ، منذ أن بدأ الشورشوتيون مزاحمة الجونغاريين في مكان ما في الشرق ، لم يحل صيف إلا ويبدأ «شنودابو» في الظهور في المراعي الكازاخية . وكبجادور حقيقي كان في أغلب الأحيان يسافر وحده . وكان - وحده - يسرق قطعان كاملة من خيول الكازاخ ، وأحيانا كان يأخذ الأسرى . كان المحاربون الكازاخ الشجعان يسافرون مدة طويلة إلى الحدود السهبية ليعترضوا أولئك البجادورات الوحيدين . ثلاث مرات تقابل المحارب



بوجيمباي مع المحارب «شنودابو» في أرض خالية، ولكن دون جدوى . أما الآن فقد قررا التخلي عن القواعد القديمة التي بمقتضاها يتم إبلاغ العدو بطلب النزال . وتماما مثل الوحوش قررا مطاردة بعضهما البعض .

بعد خمس سنوات جمعهما قدرهما مرة أخرى... كانت المليشيات الكازاخية الكبيرة تختبئ في الوديان والسهول الفيضية العديدة لنهرى أريس ، وبادام . وعلى جبل «أوردا باسا» كان هناك بعض الفرسان يقفون بلاحراك بالقرب من القوات الرئيسية . وفي الأمام كان يجلس على حصانه الأبيض الخان أبو الخير الذي يقود جيشه مرة أخرى لمحاربة الجونغاريين . كان يعلم أنه إذا سحق الجونغاريون مضارب الرحل الكازاخية في سيحون داريا ، والأورال ، فحتماً سيستولون على الجزء الأصغر . فمن جهة سينقض عليهم خانات الفولجا الكالميك ، ومن جهة أخرى ستدهمهم خيالة الحاكم الجونغاري نفسه .

خلف الخان «أبو الخير» مباشرة كان البطل «توجيمباي» يجلس على حصانه الأصهب . وفي الأسفل عند الأقدام كان هناك عشرون من رسل الخان مع خيول مناوية مستعدة للانطلاق في انتظار الإشارة . في هذا اليوم دارت هنا رحى معركة شهيرة تمكن فيها الكازاخ مرة أخرى من هزيمة الحاكم الجونغاري . لم تكن لهذه المعركة أيضاً نتيجة حاسمة ، لكنها خفت لبعض الوقت ضغط الجونغاريين على الأراضي الكازاخية .

كانت المعركة في «بادام» دموية وعنيفة . فقد لقي عدة آلاف من الجنود من كلا الجانبين حتفهم . أراد كل من الطرفين خداع الآخر ، وأرسلوا الكتائب المختبئة في الكمائن واحدة تلو الأخرى . وتحولت المعركة إلى مفرمة كبيرة للحم البشري الدامي ...

حينذاك التقى البطل «بوجيمباي» للمرة الأخيرة على الضفة اليسرى لنهر «بادام» الأمير «شنودابو» . وفي أغنية قصة معركتهما يحكى أن البطل الكازاخي اخترق برمحه ذى الحواف الستة الدروع الحديدية ، والصدرة المزودة للبجادرور الجونغاري ، وأصابه في صدره بجرح مميت . لكن الحصان الأبيض أقل البجادرور بعيداً عن ساحة المعركة ، واجتاز به نهر عنيف شديد البرودة . وغير بعيد عن الضفة المقابلة نظر الأمير المحتضر إلى الوراء . كان عدوه القديم البطل الكازاخي واقفاً هناك متكناً على قوسه . وعلى الرغم من كل ما حدث بينهما لم يطلق البطل سهمه لأنه لم يرغب في إنتهاك القواعد القديمة للنزال . ثم نظر الأمير «شنودابو» إلى ضفته ، وصرخ من هاجس الموت . على



الشاطئ كان يقف ابن أخيه «جالدين تسيرين» مع هرواة بكعب حديدي في يده. وعندما وصل الحصان الذكي الشاطئ انزلق البجادور «شنودابو» من فوق الحصان فقطع الحاكم الجونغاري المستقبلي «جالدين تسيرين» جمجمته. وقد حملت الموجات العاتية للنهر جسد البجادور الجونغاري المجيد تتقدمه رجلاه إلى السهوب الكازاخية ...

شيع «جالدين تسيرين» بعينيه الجسد العائم للشخص الذي كان ينبغي أن يكون عن حق الحاكم الجونغاري الرئيس بعد وفاة العجوز «سيبان رابتان» .

قال «جالدين تسيرين» :

- لن تكون في طريقي بعدى الآن ! وحول حصانه عن النهر .

قبل أن ينطلق مثلما ينطلق السهم من القوس إلتقاه أمير أخر صائحاً :

- انظر «يا جالدين تسيرين» هاهو حصان « شنودابو» يعدو ، دون صاحبه !- أين الأمير الشجاع «شنودابو» ؟ هل أفل نجمه ؟!

قال «جالدين تسيرين» ببرود :

- لا أعتقد .. ربما يكون الحصان الجونغاري المجيد أخلص من سيده ..

منذ ذلك الحين ظهرت أسطورة تقول إنه في السهوب الكازاخية يختفي مؤقتاً المنافس الشرعي على صولجان الحاكم الجونغاري . ومن قرن لآخر يحكونها في مراعي الكالميك، وألتاي ...

لم يعرف القلب النقي للبطل «بوجيمباي» سبيلاً للراحة . فإن كان قد حدث بحق عدوه غدر شنيع ، لكنه رأى مقتل «شنودابو» على يد «جالدين تسيرين» ، وبدا له رغماً عنه أنه هو نفسه متورط في القتل الغادر . لم يخبر أحداً عن ذلك حتى قاده قدره لمقابلة الشاعر «بوخار» ، وسأله : - قل لي ، أيها الشاعر المحب للحقيقة ، لماذا تكون الذئاب في علاقتها مع بعضها البعض أشرف من البشر؟ ثم أخذ يحكى له على مقتل البجادور الجونغاري على ضفة نهر «بادام» .



قال الشاعر «بوخار» :

- الناس تصبح أسوأ من الذئاب عندما ينتهجون نهج الذئاب . - أو ليس الأمراء الجونغاريون منشغلين الآن في سهوبنا كالذئاب في عمل ذئبي؟ وهامهم في علاقتهم بعضهم البعض أسوأ من الذئاب . لكن يحدث العكس عندما يعيد العمل الطيب الإنسان المتوحش لطبيعته الإنسانية . هل سمعت حكاية السلطان «توكل» ؟ ..

- نعم انهم يحكون في كل أرجاء السهوب قصتك عن تخلي السلطان «توكل» ابن «شاجاي» عن الجيش الظالم للأمير البخاري «عبد الله» ، وعودته إلى وطنه السهبي بعد أن سمع من المحارب «كياك» كل الحقيقة عن نفسه ...

- لم يتسع الوقت لأحكي للبطل المجيد «ناوان» حفيد البطل «كياك» القصة بأكملها . لقد كنا آنذاك على أسوار «ساوران» ، ونفذ رمح جونغاري في صدره .

- أكملها لي أيها الشاعر!

كان الليل قد حل على السهوب ، ولم تكن هناك نجمة واحدة مضيئة في السماء السوداء الباردة . جلسا سويا بالقرب من نار المعسكر الصغيرة (الشاعر العظيم والبطل المجيد) .

قال الشاعر «بوخار» :

- حسنا . - اسمع ، وستدرك أن كل تصرفات الإنسان تعتمد على الأمر الذي يغدو إليه الإنسان سواء كان خيراً أم شراً ...

كانت السهوب الكازاخية تنتظر المنقذ . فقد كانت الذئاب تتجمع مع الغزلان في قطيع واحد ، ويركضون معاً هرباً من حريق سهبي رهيب أو من فيضان . وكمثل ذلك الحريق أو الفيضان كان الأعداء يتدققون على السهوب . كان وحده البجادور «توكل» الذي جمع حوله الكثير من أقارب السلطان «شاجاي» المتوفي في ذلك الوقت يشكل قوة ما . وهو ينحدر من أسرة جانيببيك ، وقاسم ، اللذان بقيا في الذاكرة كخانات موحدين للبلاد .



وكما في الأساطير القديمة دخت الجبال في الشرق منذرة بكوارث لم يسمع بها من قبل . وارتحلت مزيد من القبائل والعشائر بعيداً عن البوابات الجونغارية . لكن العدو القديم عديم الرحمة الذي ينبغي اليوم قتاله يقيم بالحدود الجنوبية . وقام الخان الجديد «توكل» بالاشتباك مع ذلك العدو .

في حين كان «توكل» يجمع في السهوب بقايا القبيلة البيضاء لم يغف الأمير البخارى «عبد الله» . فقد قام مباشرة بعد وفاة «إسكندر خان» ، وتنصيبه رسمياً على عرش «بخارى» بقمع الحركة الشعبية في ولاية طشقند بوحشية لم يسبق لها مثيل ، وقام بحملة دموية ضد مدن تركستان الشرقية ، وكاشغر ، أما في الجنوب والغرب فقد استولى على خوراسان وخوارزم . وتبقى فقط الإستيلاء على مدن تركستان الغربية عند مصب نهر «سيحون داريا» . وكما العظمة في الحلق فقد منعاه من الراحة . كان سكان هذه المدن منذ عهد بعيدة مرتبطين بمناطق الترحال السهبية ، وكانوا يحصلون منهم على العون الدائم ، وكان من الصعوبة بمكان التغلب عليهم . بالإضافة إلى ذلك فكما يحدث هذا دائماً بدأت الخلافات الحادة بين الخان العجوز ، ووريثه الصغير العنيد عبد المؤمن . أراد عبد المؤمن معتمداً على بلخ الخاضعة له إزاحة والده ، أو أن يحكم نيابة عنه الخانية كلها كما حكم في وقت ما عبد الله أثناء حياة أبيه «إسكندر خان» . واضطر الخان العجوز أن يحتفظ بأفضل جزء من قواته على الحدود مع بلخ .

أتاح ذلك للخان «توكل» أن يقوى في السهوب ، ويؤثر على السياسة في تركستان . وقد قوى شأنه عندما انضم إليه يسييم ابن «شاجاي» الأصغر دون أية شروط . حتى تلك العشائر والقبائل الكازاخية التي لم تعترف بتوكل خاناً عليها كانت مضطرة أن تتوافق معه .

أصبح الوضع في السهوب أكثر صعوبة . فقد كان الحكام الأويروتيون بضغط وتحريض من قبل البوجد يخان الصيني يشنون غارات على المراعي الكازاخية المتاخمة . وقام المسئولون الصينيون بالمكر المتأصل فيهم بإشعال العداوة العرقية بين الشعوب البدوية منتزعين منهم بشكل منهجى وبإصرار أفضل أراضيهم . ولم تستطع تلك الشعوب التي خارت قواها في الصراع الداخلي أن تتصدى طويلاً للجيش الصيني النظامي . وقد زحف التنين ببطء وبثبات صوب السهوب الكازاخية . ولم يكونوا يعولون حتى



في المستقبل على دعم خان بخارى . وهل يمكن أن تقدم مثل هذا الدعم إمارة بخارى التي تمزقها الاضطرابات المستمرة ؟ وقد أصاح الخان الكازاخي الجديد رغما عنه بناءً على نصائح أكثر الشيوخ بصيرة السمع إلى ما يحدث على حدود السهوب الشمالية والغربية.

لم ير الخان «توكل» حتى الآن أية أعمال تهديدية من جانب جاره القوي . وقال الشيوخ من مختلف العشائر والقبائل بصوت واحد إن الصداقة معه ستكون ضرورية خاصة في المواجهات المقبلة مع الحكام الجونغاريين المنفذين لإرادة البوجد يخان . وكذلك في المعارك المقبلة مع عبد الله ينبغي أن يكون الظهر آمناً ...

تحسنت العلاقة الثنائية مع الجار الشمالي من تلقاء نفسها . ونتيجة للقلق على الحدود تم القبض على بعض الناس من ذوي الشأن في مدينة تيومين ومن بينهم «أورزا محمد» ابن شقيق الخان توكل نفسه ، وتم إرسالهم إلى موسكو . حقيقة الأمر أن والد «أورزا محمد» البطل «أوناي» المعروف في السهوب كان قد التحق بخدمة القيصر الروسي ، وقدم بعد ذلك الكثير من الخدمات لبوريس جودونوف . على أية حال فقد أرسل الخان «توكل» سفارة خاصة للقيصر لطلب الإفراج عن ابن أخيه . لكن القيصر لم يفرج عن «أورزا محمد» ، ولم يعده وإنما جعله خاناً مالكا على مدينة قاسيموف . وهكذا كان للخان «توكل» أقرباء في محيط القيصر نفسه .

الآن يمكن البدء في النزاع القديم مع الخان «عبد الله» حول مدن تركستان . وينبغي القيام بذلك في ظل الخلاف الدائر بين النمر العجوز «عبد الله» وابنه الواعد عبد المؤمن . ومثل الرياح في الصحراء تتغير السياسة في بخارى . فمن ذا الذي يعرف في أي اتجاه ستهب تلك الرياح غدا ! وقد بدأت الشائعات بالفعل تتجول في السهوب عن أنهم يجمعون الفرسان في خوارزم وسمرقند لخوض حرب جديدة . ومن غير المحتمل أن يذهب الخلاف بين الأب وابنه بعيداً . وماذا لو أنهما تصالحا ، وانقضا معاً بكل قواهما على الخانية الكازاخية الوليدة ؟ من الأفضل دائماً أن يكون معك مفتاح منزلك . وهذا المفتاح ، كما هو الحال في جميع العصور المدن التركستانية ذات القلاع الحصينة .



يطلق الآن على المدينة القديمة «ياسا» تركستان. وقد اتخذها الخان «توكل» عاصمته الرئيسية. كان قصر الخان يتوسط حديقة كثيفة الظلال بالقرب من ضريح خودجا أحمد ياسافي. وعلى الرغم من أن هذا القصر لا يشبه القصور الفخمة في بخارى وسمرقند، لكن جدرانه السميكة من الطوب الأحمر قد حمت ساكنيه من حرارة تركستان الرهيبة، ولم تسمح آيات القرآن على الجدران والإفريز بالوقوع في الخطيئة والجهل. تماما كما لدى الخانات الآخرين.

كان واضحا أن المدينة تستعد للحرب. فقد أقيمت الخيام في جميع الساحات، وكان الناس يركضون في كل الشوارع حاملين الأسلحة، ولم تهدأ ليلا أونهاراً القعقعة في أحياء صانعي السلاح. وحول المدينة، وفي الضواحي الكثيرة انتشرت جميع الفرق الجديدة القادمة من السهوب. ومن السهل معرفة الفرسان من ملابسهم وأسلحتهم. وجاء الناس من البلدات والقرى القريبة من نهر «سيرداريا» حاملين سيوفاً خوازمية، وسيوفاً معكوفة، وكان مع المحاربين القادمين من الأنهار السبعة، وتالاس حراب مربوطة في السروج، وفي الكتائب القادمة من الحدود الشمالية للبلاد ومن بلاد النوجايي شوهدهنا وهناك بنادق الستريليتس (القناصة) الروسية ...

جمع الخان «توكل» أكثر من مائة ألف جندي حول تركستان. وفي المجلس الخاني الكبير الذي إنعقد حسب التقاليد القديمة تم تقسيم الجيش إلى ثلاثة أجزاء. ترأس الجناح الأيمن البطل «كودجيك» الأخ الأصغر للخان «توكل» والجناح الأيسر شقيقه الآخر السلطان يسيم. أما الخان توكل فقد كان يقود منطقة القلب وجميع قوات الجيش. وكان لدى كل قائد عسكري كالعادة مستشارون محنكون لذلك لم يكن صغرسن القائد يشكل عائقاً. الشيء المهم هو أن يكون من عائلة الخان.

تقرر ضرب طشقند وسمرقند؛ لحرمان عبدالله من الاحتياطيات، وفرص المناورة. وحالما تصل قواته الرئيسية لتقديم العون يكون قد تم الاستيلاء على هاتين المدينتين، ثم السير في طريق المفاوضات. كان من غير المرجح في ظل الظروف الحالية أن يدخل أمير بخارى في حرب كبيرة. بالإضافة إلى ذلك فإن هاتين المدينتين قد تضخمتا بشكل لا يصدق، وتحولت قلاعهما إلى جزر في وسط البحر. هذا ولم يتم إصلاح جدرانها منذ فترة طويلة، وليس هناك ما يكفي من المياه في الخنادق. والأهم من ذلك أن أهل هاتين المدينتين قد تدمروا منذ فترة طويلة بسبب الضرائب غير المسبوقة المفروضة في بخارى، وقد حسدوا



في الخفاء مدن شمال تركستان شبه المستقلة . ومن عام لأخر كان الناس يهربون من طشقند وغيرها من المدن إلى السهوب، واستقروا على الحدود . كان الخان «توكل» الذي خدم بنفسه في زمن ما في بخارى يدرك جيداً ذلك الأمر، وقرر إستغلال السخط الشعبي ضد الظلم البخاري . وحتى لا يثير القلق بين سكان المناطق الحضرية في تركستان نهى هنا حتى عن فرض الضريبة العسكرية التي تم جمعها من جميع أرجاء السهوب.

قضى الخان «توكل» الليلة التي سبقت الحملة في غرفة زوجته المحبوبة «أكتورجين» . نعم أنها هي نفسها أرملة «خاك نزار» التي زوجها النوجايليون الخان الجديد . لقد كان واثقاً من تحقيق انتصار سريع ، وأحس أنه صار قوياً جداً . لكنه حينما كان يتناول وجبة الإفطار تلقى بعض الأخبار السيئة . لم يقم بدعوة أحد من مرؤوسيه ، ولكنه بعث في طلب مطربه المفضل الشاعر العراف «جيينبت» .

بعد أن أدي الصلاة المفروضة أوما الخان لوزيره :

- ليدخل الشاعر!

على الرغم من أن الشاعر قد تجاوز الثلاثين بقليل ، إلا أنه ذو لحيحة ضخمة أشيب الشعر بشكل واضح تظلل وجهه الشاحب كأنه وجه ميت . لم تكن القبعة على رأسه تتوهج بنار حمراء كما في أيام صباه ، وإنما كانت من فراء ثعلب كاراتاوسكي غير جميل . وكان معطفه بالياً رث الأكمام . كانت آلت «الدومبرا» وحدها مزدانة بريش البومة وتسطع كأنها جديدة . وأغلب الظن أن الشاعر الشهير قد جردها خصيصاً قبل أن يغادر موطنه «كازيجورت» إلى عاصمة الخان البعيدة تركستان ...

لم يصبح الشاعر «جيينبت» شاعراً في البلاط الخاني . ونادراً ما كان يذهب إلى الخان «توكل» لكن الخان كان يقدره أكثر من غيره من الشعراء ؛ لأنه لم يستطع أن ينسى كيف كان هائماً على وجهة مطارداً في السهوب ، وقدم له الشاعر الشاب خدمة جليلة ، فقد كان أول المطربين من ذوى الشأن الذي مجده وأعلى من شأنه أمام بلاد النوجايلي . وكما يقال «إن أول من يكشف عن وجه العروس يوم الزفاف يبقى حبيبها مدى الحياة» . مضت حياة المغني بطريقة عاصفة . ففي اليوم التالي بعد رفع «توكل» على البساط الخاني الأبيض إختفي الشاعر «جيينبت» كما لو أنه قد ذاب في السهوب الشاسعة والتي كانت هي وحدها مسكنه الدائم . ولم يتمكن رسل الخان الذين ذهبوا



بتكليف منه إلى اتجاهات مختلفة من العثور عليه. ولكن في أقل من عامين جاءوا بالمغنى الكبير مقيداً بالحبال مطالبين الخان بمحاكمته . إتضح أن الشاعر تجرأ على الوقوع في حب الجميلة «يسين بيكي» ذات السابعة عشر ربيعاً ابنة أغنى بيك من عائلة «باي أولي» القوية . وعلى الرغم من أن الشاعر «جيينبيت» كان يملك صوتاً جميلاً لم يسمع مثله من قبل ، وطبقت شهرته أفاق السهوب إلا أن هذا الرجل الفقير لم يكن يملك من حطام الدنيا غير حصانة الوحيد والدومبرا الوفية . ولكي لا يدفع الشاعر المهر قام بختف الفتاة الجميلة بموافقته ، وذهب بها إلى جبال إندير . تمكنت فرقة المطاردة المكونة من أقارب العروس من القبض على الهاربين، ولكن لعلم الأب بعلاقة الخان الخاصة تجاه الشاعر لم يجروا على معاقبة المذنب . ولانتهاك الشاعر قوانين الأجداد الثابتة الأجداد ذهبوا ليحاكمه الخان بنفسه .

سأله الخان بصرامة :

- ماذا فعلت أيها الشاعر؟

قال الشاعر :

- وهل يمكن للمغني أن يجيب على الأسئلة وهو مقيد اليدين؟

أمر الخان بفك قيوده ، فأمسك الشاعر بالدومبرا المعلقة على الحائط ، وغنى الأغنية التي مازالوا يتذكرونها في القرى حتى الآن :

في أيام الخريف القاتمة المليئة بعصير الصيف

تسكر الأغنام ، والإبل الشعثاء .

وفي أيام الربيع العاصفة المتدثرة بالشمس الأولى

تسكر الثيران القوية ، والخيول ذات الصدور الضخمة .

والمغني يسكره الحب طوال العام

في الحرارة المستعرة ، والبرد القارس ...



وفي حالة سكر دائم من الحب أقف أمامك الآن .

وهاهي رأسي : اقبل الحب ياسيدي الخان ..

ابتسم الخان «توكل» وقال لوالد العروس :

- كما فهمت كلاهما في حالة سكر . - وماذا سيقال عنك إذا قتلت ابنتك وصهرك؟ وهل يمكنك جبر الوعاء المكسور؟ وحقيقة أن الوعاء مكسور؛ فلا أحد يشك في ذلك .
أليس من الأفضل أن تعفوا! ..

وخوفا من غضب الباي لم يعد الشاعر مع زوجته الشابة إلى قريته مسقط رأسه ، لكنهما صارا يعيشان بعيداً عن الناس عند سفح جبل «كازيكورت» . واشتهر بين الناس أنه لم يذهب مطلقاً إلى زفاف الأغنياء ، لكن لم يكن يقام حفل زفاف في ناحيته لأحد الفرسان من غير الوجهاء أو من المحاربين الفقراء دون مشاركته . وحتى على قصر الخان حيث أنقذوا حياته لم يكن ضيفاً كثير الزيارة . وهاهو الرجل الذي يتمتع بالحب الكامل من عامة الناس يدعو الآن إلى قصره الخان «توكل» . فقد كان ينبغي وفقاً للقوانين القديمة غير المكتوبة أن يطلب المشوره قبل الحرب من المغنيين العرافين .

لم يكن ذلك بالأمر الصعب ؛ لأن الشاعر الشعبي وصل أمس تركستان مع مجموعة من المحاربين الذين جلبهم من الجزء الأصغر قريبه البطل «جوليمبيت» . دخل الشاعر «جيينبت» ، وأحنى رأسه قليلاً أمام الخان . كان هذا من حقه ، وأوماً الخان «توكل» بترحيب للمغنى ثم قال :

- اجلس على الوسادة يا شاعرنا !

جلس الشاعر «جيينبت» أمام الحاكم وقال :

- لقد جئت بناءً على طلبك ياسيدي الخان .

- قل لي أولاً كيف وصلت هنا يا شاعرنا . - هل كان كانت طريقك جيدة؟ ...

- وما أهمية الطريق للمغني !



- مع ذلك أخبرني . فأنا لا يزعجني معرفة ما يقوله الناس وفيما يفكرون بالطريق .

- نعم أنت على حق ياسيدي الخان . لأن الخان الأعظم يحب أن يسمع الأشياء الجيدة فقط . ومن سيقول لك الحقيقة إن لم أكن أنا ...

- تكلم أيها الشاعر!

- يقول الناس في جميع الطرق السهبية إن هناك أمراً سيئاً ستقوم به أيها الخان «توكل» . لقد جاءوا إلى هنا بناءً على طلبك كي يدافعوا عن مدنتهم وأرضهم ضد عبد الله السفاح . وأصبح من الواضح أنه يتم هنا التجهيز لشن حملة على مدن غريبة . ويقول الناس أنه لم يحظ شعب أبداً بالسعادة يحكمه غرباء . وإنك تحمل الموت والحرائق إلى طشقند وسمرقند ، حيث يعيش هناك أقاربنا المقربين . كل هذا سوف يعود مئة مرة إلى السهوب ، وسوف تحترق من أدناها إلى أقصاها ...

أصاب الشحوب وجه الخان ، ولكن لم تتحرك عضلة واحدة في وجهه .

- تكلم أيها الشاعر!

- يقول الناس إن العشب سيضيع هباءً في السهوب ، وأنه يجب تخزينه للماشية في فصل الشتاء . وإن الحرب ستبعد الناس عن العمل الديني . وسيحل الموت والجوع مرة أخرى في سهوبنا . إن الخان والسلطين يريدون خوض هذه الحرب ؛ لأنهم يرغبون في قصور بخاري الفخمة وحريهما . ولكن ماذا سيحدث للناس من هذه الحرب؟!

- تكلم أيها الشاعر!

- لا لن أخبرك يا سيدي الخان بأسماء أولئك الأشخاص الذين قالوا ذلك !

رفع الخان يده اليمنى وقال :

- لا داعي لذلك أيها الشاعر . - سيحضرونهم الآن إلى هنا ، وستقرر بنفسك ما إذا كانوا محقين في شكوكهم .

أشار الخان «توكل» بيده فسمع الصوت الثقيل للسلاسل . قام خمسة عشر من الحراس بإدخال اثنين من الفرسان إلى القاعة . كانت أيديهما وأرجلها مكبلتين بالأغلال . وقف الشاعر على قدميه من فرط القلق . لقد عرف كل من المحاربين . أنهما



المحاربين التوأماً «كياك» و «تويك». كان الخان قد جعل كلا منهما منذ فترة قريبة قائد ألف. ولقد خدما الخان «توكل» بإخلاص وأمانة حينما كان يلصق شظايا القبيلة البيضاء. كما أن البطل «كياك» مدين بحياته للخان. وهما الأخوان المحاربان يقفان الآن أمامه مذنبين .

أشار الخان إليهما وقال :

- هاهم أولئك الذين يزرعون الفتنة بين الجنود قبيل المعركة ! لقد صحت مقولتي :
«لن تلصق الحجر بالرمال ، ولن تقوم خانية على أكتاف العبيد !» كما لو أن دماء العبيد وحدهم سوف تراق في معارك الغد ! ألم يسقط الكثير في المعارك من «العظم الأبيض» !
وهل من الممكن إنشاء دولة دون حرب !

علم الشاعر الحكيم على الفور حقيقة الأمر . كان البطلان الشعبيان يقفان بين حراس الخان طوال القامة كأنهما جبلان . وقد كان من الممكن أن يجلس بسهولة على أكتاف كل واحد منهما رجل بالغ . وعلى الرغم من أنهما كانا مكبلين بالأغلال إلا أنهما وقفا بشكل مستقل . وبقيت شارات قائد ألف على ملابس كل منهما . لم يكن الخان «توكل» بهذ الغباء وقصر النظر ليقوم قبل الحملة بمشاجرة حقيقية مع أناس يحبهم الشعب والجيش ...

أشار الخان بيده فخرج الحراس .

قال الخان «توكل» موجهاً حديثه إلى المحاربين :

- لولا أنى أعرفكما لاعتقدن أن رنين ذهب الأمير عبد الله يسمع في حديثكما !

قال البطل «كياك» وقد سمع في نبرة صوته سخريته :

- نشكركم من أعماق قلوبنا ياسيدنا الخان أنكم لم تأمروا على الفور بقطع

رؤوسنا الغبية !



وعدهم الخان قائلا :

- قد أقطعها على تلك الفعلة !.. ولكن لماذا أصبحت راحة الأمير عبد الله فجأة عزيزة على المحاربين الكازاخ ؟ قل أنت يا «كيك» ؟

- نحن كازاخ ياسيدى الخان !

- وماذا في ذلك؟

- نحن كازاخ بسطاء ، ولسنا بحاجة إلى أرض أجنبية !

- وماذا عن عبد الله؟

- فليحاول أن يأتى هنا مع جنوده ، وأنت تعرف ماذا ينتظره . قد تقابلنا معه في مدننا أكثر من مرة . أما المدن الأجنبية فلسنا في حاجة إليها . لسنا وحدنا الذين نقول ذلك ، بل يقوله كل الناس في الجوانب الأربعة للسهوب !

- لقد نسيت أيها المحارب «كيك» أنهم يتغنون في الأغاني القديمة بحملات الكيبشاك . لقد غزوا نصف العالم حتى الروم العظام كانوا يرتعدون لمجرد رؤيتهم !

- هذه أغاني خانية يا سيدى !

- وماذا عن المجد؟

- ذلك مجد الخان !

- وماذا عندك أنت؟

- الوطن أيها الخان ! وأيضا خمسون من الأغنام ، وأربعة من الإبل أولئك الذين يرعون بجوار خيمتي السوداء . وإذا هلكوا من الجوع فكل مجد العالم بدءاً من الإسكندر ذي القرنين لن ينقذ عائلتي من الموت جوعاً !

- حسناً، وماذا تقول أنت أيها المحارب تويك ” ؟



- عندنا الخير وحده ... يمكنني أن أضيف فقط أننا لانعرف بالضبط أين الأوزبك ،
وأين الكازاخ . نفس هؤلاء الناس يعيشون في مدننا ومدنهم ، وليس هناك في تركستان
عائلة إلا ولها أقارب في طشقند . فماذا يفعل المحارب الفقير «تويك» مع نفس الحداد
الفقير من بخارى!

أحس الشاعر «جيينبت» وحده أن الخان قد تملكه الغضب . لقد شحب وجه الخام
«توكل» ، واشتعلت النار السوداء الباردة في عينيه . وفجأة لامست شفثاه إبتسامة شريرة
وقال :

- حسنا أيها المحاربين الحكيمين اللذان يقرران بدلاً من الخان أمر الحرب والسلام ...
أنتما تقولان إن أقاربكم هناك في طشقند . فلماذا إذاً لايمريوم إلا ويلجأ إلينا المئات
منهم هرباً من أمير بخارى؟

تبادل الأخوان النظر إلى بعضهما البعض وقالوا :

- إن جنود الأمير ينزعون عن أجسادهم الغطاءين ، ولكن هنا ...

قال الخان بصوت غليظ :

- أكمل حديثك أيها المحارب .

أكمل المحارب «كياك» حديثه بثبات ناظراً مباشرة في عيني الخان وقال

- أما هنا فينزعون فقط غطاء ونصف!

قال الخان بصوت خافت :

- لن أنسى وقاحتك أيها المحارب ...

- لنندع تقديراتكما إلى وقت أفضل من هذا . والآن قل لي ألسنت تخون إخوانك في

طشقند عندما تتركهم يتعرضون للظلم من جنود أمير بخارى؟

- من الواضح أن الأخوين لم يتوقعا هذا التحول في الحديث .

قال المحارب «كياك» بعدم ثقة :



- حسناً ، نستطيع أن نساعدهم .

رفع الخان يده اليمنى بابتهاج وقال :

- رأيت ! .. وعندما نستولي على طشقند لن يكون في مقدور الملعون عبد الله أن يهاجم مدننا من أى مكان . إذهبوا في أمان أيها المحاربان ، واستعدا للعمل لإعلاء العدالة !

استدعى الحراس ، وأمرهم على الفور بفك قيود الأخوين . قاما الأخوان بالانحناء في صمت ، ثم غادرا المكان .

التفت الخان «توكل» إلى الشاعر «جيينبيت» وقال :

- ما بال تلك الأزمنة التي أتت علينا يا شاعرنا ، والتي يضطرب فيها الخان أن يقنع شعبه بدلاً من أن يأمره !

قال المغني :

- لقد فعلت الصواب ياسيدى الخان !

قال الخان «توكل» بامتعاض :

- نعم أنهما سيذهبان إلى طشقند ... وبعد ذلك ... وبعد ذلك ، فليجربا أن يقنفا في طريقى عندما أتحرك إلى سمرقند ، وبخارى، وبلخ، وخوارزم ! سوف أنتقم للإهانات التي كابدتها في بلاط عبد الله. سوف أجتث نسله اللعين ، وسأجره بالحبل عبر بخارى كلها. وسترفرف الراية العظيمة للقبيلة البيضاء على أنقاض بخارى وسمرقند . وعلى درب أسلافنا العظماء سنعدو إلى المجد ، وسوف تموت ممالك العالم تحت سنابك خيلنا !

لم يلحظ الخان «توكل» أنه قد وقف على رجليه . كانت عيناه نصف مغلقة ، أما الكلمات فقد كانت تتطاير من فمه ، تتبع بعضها البعض كما في حالة الهذيان . وفجأة رأى النظرة الخائفة للشاعر فتوقف عن الحديث .

أخذ خان القبيلة البيضاء ينزل ببطء مرة أخرى إلى الوسائد ثم قال :



- هل تدهشك أفكار المضمورة يا شاعرنا ؟

هز «جيينبت» رأسه بالنفي وقال :

- لا ياسيدى الخان ... لم أتصور أن المرض سيصيبك بهذه السرعة ...

- أى مرض؟

- المرض الخاني ... إننى أرى كثير من المصائب عما قريب ياسيدى الخان ...

في الليل بدأت الخيالة الكازاخية البالغ قوامها مائة ألف فارس مسيرتها . ركضت الخيول المدربة معا بخفة وهدوء عبر السهوب . وفي الضوء الشفاف للقمر تلالأت الدروع المصقولة ، وتألقت الهروات الحربية المغطاة بالحديد ، وتمایل السلاطين في خوداتهم النحاسية مع الريح .

بعد مسيرة ليلتين بلغوا الهدف ، وفي صباح يوم ربيعي مشرق طوق جيش القبيلة البيضاء بنصف دائرة متألثة منازل وحدائق طشقند الكبرى . كانت قوات عبد الله الرئيسة تنتظر بالفعل على المشارف الغربية للمدينة . كان الأمير نفسه يمتطى سهوة جواد أبيض كالثلج ، ويتقدم قواته التي لاتقهر والبالغ قوامها ألف رجل .

قام الخان «توكل» بتنظيم قواته ، ثم شرع في الهجوم على عدوه . لم يتحرك جنود الأمير من أماكنهم . في ذلك الوقت صاحت الأبراج الركنية لقلعة طشقند بصوت مكتوم . وسقطت الصخور الهائلة المتوهجة في منتصف الجيش الكازاخي محدثة فيه فجوات دموية ممتدة . اندفعت الخيول السهبية المذعورة إلى اتجاهات مختلفة ، وأحدثت خللاً في صفوف سلاح الفرسان المغير . لم يحترق العشب فقط ، بل احترقت الأرض نفسها في الأماكن التي سقطت فيها قذائف «الجمال السوداء» . ما إن تمالك الفرسان الكازاخ أنفسهم حتى تلقوا الضربة الثانية . ولم يكن أحد يعلم كيف ستتطور الأحداث إذا لم يقم سكان المدينة ، وكان كثير منهم من المواليين « لبابا سلطان » برفع راية العصيان ، والاستيلاء على مدافع ضرب الحجارة . في الوقت نفسه تم فتح البوابات الخلفية الصغيرة سراً والتي من خلالها دخل المدينة ألفان من الفرسان بقيادة «كياك» و«توياك» . فقد كانوا يعرفونهما في طشقند ، وكان ما يقرب من نصف قواتهما من الهاريين من طشقند ...



بعد أن تعرض الأمير عبد الله لخطر الحصار، والضغط من جانبي السلطان يسيم، والسلطان كودجك أعطى الإشارة بالانسحاب. ثم فكر في الإحتماء بالقلعة، غير أنه في هذه اللحظة كان الفرسان الكازاخ قد إعتلوا أسوارها. شد أحدهم قوسا ضخما لكن الأمير عبد الله ابتسم بامتعاض. كان سور القلعة يبعد عن الأمير بمسافة تزيد بمقدار ثلاثة أمثال المسافة التي يقطعها السهم العادي سمع صفير حاد، واخترق الطرف الملتهب للسهم درع الخان عبد الله في الجهة المقابلة للقلب تماما. لكن حصانه الوثاب أنقذه من موت محقق.

قال الأمير وهو غارق في دمائه، ومنزلقا على أيدي حراسه بصوت يشبه الشخير:

- أنه هو... ذلك السهم الملعون!

نعم أنه المحارب «كياك» الذي إحتفظ بالسهم الملتهب لأمير بخارى منذ حصار «ساوران».

هرب الجنود البخاريون بعد أن سمعوا عن إصابة أمير بخارى- حارس الإيمان- بجروح بالغة. قام الخان «توكل» فوراً بمطاردتهم بخيالاته غير المتعبية. وبعد أن استبدلوا الخيول واصلوا مهاجمة الفارين بلا هوادة. وهكذا على أكتاف الجنود اقتحمت الكتائب الأمامية للخان «توكل» سمرقند القديمة.

جلس خان السهوب «توكل» على عرش قديم منحوت في ذات القصر الذي كان يعقد فيه تيمور الأعرج في زمن مضى المحاكمات. ورفرت راية القبيلة البيضاء بذيلها المخروطية على البرج. دخل على الخان الوزراء، وقادة الجيش، والأخوان يسيم سلطان، وكودجيك سلطان، وكثير من العاشية لكنه كان يبحث بعينيه عن إثنين من الإخوة المحاربين وما إن وجدهما حتى قال:

- هاهما من حققنا لنا نصرنا! - لقد انقضا على العدو مثل نسور السهوب، ومثل الذئاب اقتنصا الحيوانات البرية في بخارى، ومثل النمر كانا يستعدان للوثبة الأخيرة على صدر الغزال البخاري المحتضرا!



بناءً على إشارة من الخان أحضروا أفضل خنجرين من الغنائم، وأهدوهما إلى المحاربين. كانت مقابضهما مزينتة بالأحجار الكريمة ورقائق الذهب. وألقوا على كتفيهما جلابين بخاريين مطرزين بالذهب، وأحضروا إلى الرواق اثنان من الخيول السريعة رائعة الجمال من السلالة الباخترية النبيلة.

قال لهما الخان توكل :

- راية القبيلة البيضاء تنتظر منكما بطولات جديدة ! .. ماذا تتمنون أيها المحاربين الباسلين؟

كالعادة تقدم خطوة للأمام أكثرهم حبا للكلام المحارب «كيك»، وثنى ركبتاه ثم قال :

- محاربونا من الألفين محارب هم رعاة وفلاحون وحدادون ... اسمح لنا يا سيدي الخان أن نعود لأعمالنا !

كان صوت المحارب المتواضع الأصل هادئاً وثابتاً، لكنه كان يهدر كالرعد تحت الأقبية القديمة العالية. ثم سمعوا بكل وضوح في فترة الصمت التي تلت ذلك كيف أن الخان العظيم توكل يصير بأسنانه ...

لم يكن الأمير عبدالله حاكم بخارى يشبه غزالا بخارياً نبيلاً، بل كان يشبه نمراً جريحاً. قام باستدعاء الميليشيات العامة في بخارى، وخيوة، وبلخ، وخراسان، وجميع الأراضي الأخرى التابعة له. وبعد أقل من شهر نصبت القوات البخارية خيامهما في «زارفشان» في منتصف الطريق بين بخارى وسمرقند. وذهب هناك إلى عبدالله الذي تماثل للشفاء من جرحه الشديد ابنه المتمرد عبدالمؤمن. دخل الخيمة البيضاء الكبيرة وجثى على ركبتيه وقال :

- اغفر لي يا أباي تلك المصيبة التي سببتها لك بخلقي وسلوكي المتمرد. من الآن فصاعداً أنا ابنك المطيع. وهامها الخبز والقرآن أقسم عليهما بالولاء لك والطاعة !



كان من الواضح أن الأمير عبد الله قد هرم بالفعل ؛ لأن الدمعة البشرية الشحيحة قد ظهرت في زاوية عينه.

هتف عبد الله قائلاً :

- لقد جعلني الله أرى السعادة في سنوات عمري الأخيرة ، وأغفر لابني الوحيد ! - ولإن جاءني الموت الآن فسأقبله دون شكوى ؛ لأن حلمي المنشود قد تحقق . فمعي ابني الوارث للملكى من بعدي ! ..

أخذ الأمير العجوز يحكى لابنه عن شؤون وأسرار إدارة دولة بخارى المقدسة . لم تكن تلك الأسرار قليلة . ثم أشار لابنه على مكان القدح ، وطلب منه أن يسقيه عصير العنب المنعش .

نفذ الابن رغبة والده ببالغ الاحترام . لكن الله كان قد استمع فيما يبدو إلى كلمات الأمير العجوز أنه مستعد للموت «حتى هذا اليوم» . لأنه ما إن شرب الخان عبد الله قدح العصير من يدي ابنه الوحيد حتى بدأ في الشخير ، واستلقى على الوسائد . نظر عبد المؤمن باهتمام في عيني والده ، ثم أغلق الجفون . ثم ألقى بقايا الشراب في الزاوية ، وغسل القدح ثم ملاه بالعصير مجدداً حتى منتصفه . وعندما خرج من الخيمة أصدر أوامره للحارس بالأبقاء على الأمير النائم .

في المساء قرر رئيس الحرس أن يدخل الخيمة . حملق في الخان المتكئ على الوسائد ، ثم أصابته الرجفة . كانت شفتى الأمير المقدس منفرجتان عن بعضهما البعض بإبتسامة صفراء معروفة للعالم بأجمعه . نفس هذه الابتسامة القاسية المنذرة بالموت تجمدت في عيون الحاكم الميتة ...

كان أول من ركض إلى والده المتوفي هو الابن عبد المؤمن ، وفي حزن طفولي لا يحتمل أمسك بوجنتيه . وقام والدموع تبلبل لحيته بإغلاق عيون والده الضاحكة . قرر الأطباء العلماء من بخارى الذين تم استدعاؤهم من أجله أن «ملك الملوك والنسور ، الأمير المقدس - راعي الإيمان - توفي بسبب توقف القلب» في الوقت نفسه سرت الشائعات عبر بخارى كلها عن قدح عصير العنب الذي أعطاه الابن لوالده المريض ...



ثمانية أزواج من الخيول السوداء كالليل ربطت في عجلة حربية تحمل جثة الأمير .
وأقام الملالي في ألف مسجد ببخارى المقدسة الصلاة من أجل أن يغفر الله له خطايا .
وتم إنزال التابوت تحت الأساس الحجري لضريح خودجا النخشبدي الشهير . حدث ذلك في
١٠٠٦ هجرية أو ١٥٩٨ بالتقويم الميلادي . وفي هذا اليوم اعتلى عرش بخارى الحارس الجديد
للإيمان - الأمير المقدس عبد المؤمن .

كلا ، لم يكن الخوف من غضب الله هو ممانع الخان الكازاخي من إستغلال الوضع
الموات للهجوم على بخارى . لقد كان ذلك مجرد تبرير من المؤرخين المعاصرين له . ببساطة
بعد يوم واحد من الاحتفال في القصر الرئيس بسمرقند أبلغوا الخان أن كلا من كتيبتي
الأخوين المحاربين قد غادرتا للعودة إلى الوطن . وسارت خلفهما الكثير من الكتائب
الأخري بقيادة زعماء السهوب . لقد كانت تنتظرهم الأسر الجائعة ، والعشب المحترق في
السهوب . كان غضب الخان عارماً لكنه لم يستطع أن يفعل معهم أي شيء . لم يجرؤ
على معاقبة المتمردين . لقد كانوا كثيرين جداً . فأعطى الخان الإشارة بالرحيل من
سمرقند .

في طشقند لم تبق الخيالة الكازاخية طويلاً لأنها تقريبا كانت تتكون من
الميليشيات ، وكانوا في المخيمات السهبية العديدة ينتظرون عوائل الأسر . وفي مدينة
طشقند نفسها التي فتحت بواباتها طواعية للخان «توكل» منذ فترة قريبة زادت خميرة
الغضب . فقد كانت الضرائب التي فرضها الخان «توكل» أيضاً ليست هينة ، وبدونها
كان من المستحيل مواصلة الحرب . كان يقود الساخطين أحد أقارب المتوفي عبد الله
ويدعى حضرت سلطان . وعد عبد المؤمن من خلال جواسيه بتخفيف الضرائب على
المواطنين . على أية حال عاد الخان «توكل» إلى تركستان . ومن هناك كان يتابع عن
كثب كل ما يحدث في ولاية طشقند ، متدخلاً في شؤونها عند الضرورة .

في أقل من ستة أشهر قتلوا «عبد المؤمن» في سيره ، وبموته انتهت سلالة الشيبانيين
من على عرش بخارى . وأصبح «دين محمد» من أحد عوائل خانات أستراخان الذين فروا إلى
هنا ، هو الأمير المقدس .



بالفعل يطارد المصير السيء قاتلى الآباء فيهم عادة ما تنتهي السلالات الحاكمة . وبوفاة الخان «بيردى بيك» الذي قتل والده ، انتهت سلالة «باتو» في القبيلة الذهبية . وبوفاة لطيف الذي قتل والده أولوجبيك الشهير إنتهت عظمة التيموريين . وقد تكرر نفس الشيء الآن في بخارى .

كان الخان «توكل» يتوقع ذلك الشيء . على ما يبدو أن الشاعر «جيينيت» كان على حق عندما تحدث عن المرض «الخاني» الخاص . في هذه المرة ، أدرك أن الميليشيات لايعول عليها كثيراً . فالشعب حازم ، وعنيد طالما يدافع عن أرضه . لكن من الضروري أن تذهب به إلى بلد أجنبي وعند ذلك ستنخفض أيدى الفرسان الوطنيين أنفسهم . فالعدو يقوى عشرات المرات على أرضه . حتى عن ذلك الأمر كتب في الكتب القديمة التي وجدت في خزائن سمرقند . فمصدر القوة للجيش هي أرضه التي تربي فوقها .

كان الخان «توكل» في ذلك الصيف يشبه القط الذي ينتظر الفأر . وقد إنضم إلى جيشه النظامي الحلفاء وهم القرى العشائرية من القييرغيز ، وخان جنوب الكاشغر عبدالرشيد . وانطلق مرة أخرى مائة ألف جندي إلى طشقند ، وسمرقند . ولكن هذه المرة لم يفتحوا لهم البوابات . وأخفي الناس المون وكذلك الأعلاف للخيول . تعين أخذ كل شيء بالقوه ، لكن ذلك لايقوى الجيش .

علاوة على ذلك ، كان الصيف على غير العادة جافاً وساخنأ . جفت الأنهار ، وهبطت الثلوج من على قمم الجبال . نفقت آلاف الخيول الكازخية من السهوب الشمالية بسبب تلك الحرارة . انتشرت الأمراض البوائية بين الناس . ولم تمر ليلة دون هروب الجنود من الجيش . وفي سمرقند عندما جرح الخان «توكل» الذي كان محاصراً من جيش بخارى بسهم طائش تذكررغما عنه الفرسان الوطنيين الكازاخ . لكنهم لم يذهبوا معه في هذه الحملة غير الطيبة .

بعد أن ترك الخان «توكل» سمرقند مرة أخرى مخلفاً خسائر فادحة ، ذهب إلى طشقند . وبعد أن احتمي بالقلعة بدأ في تلقي العلاج من الجرح الذي أصابه . في الوقت نفسه تخلى عنه غالبية الحلفاء ، وحاصرت القوات البخارية المدينة في حلقة محكمة . ولم يبق غير عدد قليل من الطرق الخالية التي تؤدي إلى الشمال ، وإلى السهوب . في النهاية تم قطع الطريق الأخير الذي يؤدي إلى تركستان . بقى فقط بجانب الخان المحتضر أكثر الناس



إخلاقاً ، ومن بينهم الزوجة الحبيبة أكتورجين ...

في واحد من أسوأ أيام الحصار ، سمعت فجأة ضوضاء شديدة .

سأل الخان «توكل» بصوت ضعيف :

- ما هذا؟

قالوا له :

- هجوم!

آلاف من كتائب الجنود البخارية تتوجه نحو القلعة من الأطراف الأربعة . وصلت سلاالم الحصار بسهولة إلى قمة الأسوار غير العالية . واضطر المحاربون الكازاخ الذين كانوا معتادين على الضرب من فوق الجياد المتحركة أن يقاتلوا في تشكيل مترجل على الأقدام . وصارت الصرخات تقترب أكثر فأكثر من قصر الخان . وفجأة ساد الهدوء .

سأل الخان :

- ماذا هناك .. ماذا .. ؟

فُتح باب مزدوج عال ، ودخل في قاعة الخان محارب ضخم مغطى عن آخره بالغبار والدم وقال :

- أيها الخان توكل .. أنا خلفك ..!

بعد أن قال ذلك ، سقط المحارب على الأرض ، ومات . قام الخان من على سريريه ، ونزع الدرع من على وجه المحارب . كان المحارب هو البطل «كياك» .

همس البطل وقد غطى شحوب الموت وجهه :

- لقد جئنا خلفك ... غادر الأرض الأجنبية أيها الخان !

أخذ الخان توكل يحشرج وقال :



- نعم لقد كنت على حق أيها المحارب العنيد ! ثم تدفق الدم من حنجرته بسبب المجهود الذي بذله ، وظل ملقى على المحارب الميت ...

دفنوهما معاً في طشقند - الخان والمحارب كياك - اللذان ولدا ، وماتا في يوم واحد . وفضل الإمدادات التي أتى بها الأخوان التوأم ، تمكن الجيش الكازاخي من الخروج من طشقند المحاصرة . ولكن حدث أسوأ شيء ، وهو أن الجيش بقى بدون قائد عام . فقد أصيب أيضا البطل «جوليمبيت» الذي أتى بالمدد . ومن ثم قد أعطى البطل «تويك» كامل السلطة على الجيش . شعر السلاطين الكثيرون من ذوى الشأن ، والفرسان بالامتعاض ، ورفضوا الانصياع لابن الجارية .

جاء اليوم الأكثر أهمية بالنسبة للمحاصرين . ارتدى البطل «تويك» الدرع وخوذة القائد المزيّنة بريش البومة ، ثم جلس على حصانه رابط الجأش . فجأة رأى بجواره جسد صغير في درع لامع وخوذة الخان . وكان الحصان هو حصان الخان - الأبيض الأرقط - الحصان المحارب المحب للخان توكل .

قال المحارب بصوت واضح :

- لنذهب أيها البطل ! ثم أماط اللثام عن وجهه . لقد كان ذلك المحارب هو الزوجة المحببة للخان توكل التي تحظى باحترام كبير في الجيش الكازاخي . وكان وجودها بجوار بطل متواضع الشأن كما لو أنها تعترف بسلطته على الجيش نيابة عن زوجها الراحل . وذهبا معا إلى أرض المعركة .

هنا في الجانب الشمالي الشرقي تقرر مصير المحاصرين . قام السلطان «يسيم» الذي أصبح خانا للقبيلة البيضاء بإعاقته الجنود من الجانب الجنوبي ، وقام السلطان كودجك بفعل الشيء نفسه من الغرب . ولكن تحديداً في الشمال الشرقي حيث فتح طريقاً لتركستان لقد حشد «دين محمد» وقائده العسكري السلطان «باخي محمد» أفضل قواتهما . ومرة أخرى كما لم يحدث من قبل أثناء حصار مدن تركستان اصطف البخاريون بالآلاف على خيول ذات لون واحد . واندفعت الخيول في الجبهة تخيف بقدرتها وقوتها . وبدا أنه يمكنهم بسهولة سحق أي عدو ، وخاصة الكتائب السهبية الأقل منهم عدداً والتي أصبحت دون قائد . أخذ الجنود الكازاخ يراقبونهم بحذر من وراء الجدران الطشقندية



الكثيرة . وعلى الرغم من التعزيزات القادمة فقد انخفضت روحهم المعنوية بشكل واضح . فقد كان موت الخان ينذر بشيء سيء في السهوب .

قام الجنود بضم الصفوف بسرعة ، استعداداً للهجوم الرهيب . فبعد دقائق سيتحرك للأمام سيل لا قبل لهم به . وفجأة طار من خلال فتحة في الحائط إلى ساحة المعركة فارس يرتدى خوذة الخان مزدانة بالريش على الحصان الأبيض المعروف للجميع . أصيب الجنود الكازاخ للحظة بالذهول . ما هذا؟! أيكون ذلك ظل خان القبيلة البيضاء الذي دفن اليوم مع البطل كياك في الضريح الطشقندي الكبير؟ وما هو ظل البطل المقتول يتبع الخان...

أرواح ! أرواح !... يا روح الموتى ..

دوت الصرخة العادة الغاضبة التي أطلققتها «أكتورجين» في أرجاء ساحة المعركة . وفي نفس الدقيقة اندفع وراءها الجنود الكازاخ . اندنعوا بسيل رهيب مع صرخاتهم العشائرية :

- أكجول ! أكجول !... يا إلهي ..

- ويسون !.. دولات !.. باريباي !..

- كارا خودخا !.. كابانباي ..

- بيكيت .. شاكاباي ..

هتفوا بأسماء الفرسان والمحاربين المشهورين الذين قضوا نحبهم منذ مائة ، ومائتين ، وثلاثمائة سنة داعين أرواحهم لتساعدهم . ويسمح للجنود في حالة التأثر الشديد فقط عندما يواجهون الموت بالصياح بأسماء القديسين السهبين . فارتعدت الآلاف المختارة من الجنود ، وبدءوا في تغيير وجهة خيولهم . أما أولئك الذين حاولوا المقاومة فقد سحقوا ، وطئتهم الأقدام . لكن هب لنجدة الجنود جيرانهم من الأجنحة . واشتعلت المعركة بقوة جديدة ، واضطر البطل تويك مع ستة من الجنود المخلصين أن يحموا «أكتورجين» الشجاعة من الأعداء الكثيرين المحيطين بها ...



تحولت المعركة إلى إشتباك متلاحم . تعاركوا كما تراءى لهم . بعد أن لعن الآلاف من الناس الساعة التي ولدوا فيها ، أسلموا الروح في تلك الساعة المشئومة لخالقهم . ونجح الجنود المتفوقون عددا في الضغط على المحاربين الكازاخ ، لكن الخان «يسيم» الذي حقق انتصاراً في موقعة قد اقترب منهم . واستمرت المعركة الطاحنة حتى وقت متأخر من المساء ، وانتهت فقط عندما لم يعد العدوان يرى أي منهما الآخر .

في صباح اليوم التالي ، بدأت أفواج الجنود البخاريين السير نحو سمرقند تاركين لهم جنوداً في مخفر للحراسة . عندما رأى الخان يسيم هذا فعل نفس الشيء . وبعد أن وضع أكمنة للحراسة حتى مدينة طشقند ذهب مع جيشه إلى عاصمته تركستان . وأصبحت طشقند بهذا الشكل تحت رقابته اليقظة ...

أصبحت طشقند لفترة طويلة فيما بعد مدينة شبه مستقلة . وحيث إن الأراضي الكازاخية لعشائر الجزء الأكبر من «كاتاجان» و «شانيشكالي» ملاصقة لولاية طشقند ، عين الخان يسيم «تورسون محمد» المنحدر من هذه العشائر والذي نصب خلال الحملة العسكرية الأخيرة حاكماً للمدينة . أقسم الحاكم الجديد بعد أن رفع فوق رأسه الخبز والقرآن على الولاء الأبدي للقبيلة البيضاء . وتم تحديد كمية الذهب ، والأرز ، والمشمش المجفف ، والزبيب ، التي من المقرر تسليمها كل عام من طشقند إلى تركستان . وسرعان ما تم تنصيب «يسيم» البالغ من العمر اثنين وعشرين عاماً خائناً بشكل رسمي ، وكعلامة على ذلك رفع على البساط الأبيض من قبل غالبية القبائل والعشائر الكازاخية ...

في أعقاب ذلك جلب «يسيم خان» من طشقند إلى تركستان رفات شقيقه الأكبر الخان «توكل» وجميع المحاربين الذين قضوا نحبتهم معه ، بما في ذلك البطل كياك . وعلى الأحجار بالقرب من ضريح خودخا أحمد يسافي نقشت أسماؤهم ...

انتهى الشاعر بوخار منذ فترة طويلة من قص حكايته عن الأزمنة القديمة . ولم ينم كل من المغني العراف والبطل الشهير ، وأخذاً يحدقان بصمت في جمرات النار . لم ينم كثير من الناس بالليل في السهوب في هذا الوقت العصيب .

سأل الشاعر أخيراً :

- هل فهمت معنى ما قلته لك ؟



أوما «توجيمباي» بصمت.

- هل رأيت كيف أصبح البجادور «توكل» شخصاً مختلفاً في الفترات المختلفة من حياته ... - رفع الشاعر «بوخار» إصبعه عالياً وقال : - كل إنسان يريد أن يكون شخصاً جيداً في ذاكرة خلفائه. والذاكرة الشعبية هي القاضي الرئيس . وقد أنصفته تلك الذاكرة عندما ترك الأمير الظالم ، وذهب إلى السهوب حيث مسقط رأسه ، وإدانتته لحملته الدامية في الأراضي الأجنبية . ويتضح تطبيقاً عليه أن القضية الظالمة تنتج أفعالاً جائرة. أما البطل «كياك» فسيبقى في الذاكرة الشعبية نقياً ، ومشرفاً ، لأنه لم يكن لديه الطمع الخاني في أرض الغرباء . ولم يرد حفيده الحداد «ناوان» أن يحصل على خيرات الغرباء . لقد قضى نحبه على سور مدينته ، وهو يحميها من الغزاة . هكذا الشعب أيها البطل . ولو أعطيت كل شعب حقه في أن يقرر مصيره فلن تكون هناك حروب في هذا العالم ! ..

لم يغلقا عيناها حتى الفجر ، وفكرا في نفس الشيء .

بعد تسليم تركستان صار مقرخان الجزء الأوسط «أبيلمامبيت» ينتقل من مكان إلى آخر . والآن يوجد على ضفاف بحيرة «تيلي كول» حيث تتجمع مضارب ترحال الأجزاء الثلاثة . وقد أتى إلى هنا البطل «بوجيمباي» يرافقه خمسمائة من الفرسان الشباب . وكان معهم المغنى العراف الشاعر «بوخار» المنضم إليهم في الطريق والذي لم يكن في هذه الأوقات الصعبة يقيم يوماً واحداً في مكان واحد .

بمجرد أن وصلوا أتى رسول من الغرب إلى مقرخان بخبر مخيف . فلقد قام «لولا دروجي» «شقيق» سيبان رابتان» الأمير الأكثر قسوة ونقلها من بين الأمراء الجونغاريين بانتهاك الهدنة غير المعلنة ، ومستغلاً انشغال خان الجزء الأصغر أبو الخير بمحاربة كالميك الفولجا فهجم على القرى قرب «سير داريا» التابعة لعشائرتام ، وتابين ، وأحرق معظمها ، واستولى على الكثير من الماشية ، والأسرى . تم إرسال أفراد الاستطلاع على الفور . وسرعان ما عادوا بخبر مفاده ، أن الجيش الجونغاري بعدما قام بتدمير شديد في روافد نهر سيجون داريا انقسم إلى قسمين . الكتيبة الأولى المكونة من ثلاثة آلاف فارس تسوق قطعاناً كبيرة من الماشية إلى مراعيهم في روافد نهر إيل ، أما الكتيبة الثانية البالغ قوامها ألفان من الجنود فتسوق الأسرى الكازاخ لبيعهم في خوارزم .



ثارالفرسان من القرى الواقعة حول بحيرة «تيلى كول» على الفور، وبدءوا في إعداد الخيول، وشحن سيوف الآباء. وذهب البطل «بوجيمباي» على الفور إلى منزل الخان.

قال البطل «بوجيمباي» وهو ينظر بتمعن في عيون خان الجزء الأوسط الرمادية التي لاتطرف أبداً:

- الله سيعاقبنا ياسيدى الخان «أبيلمامبيت» إذا سمحنا أن يباع أخواتنا كعبيد!

- وقد أخبرونى أن شقيقة الخان أبو الخير من بين الأشخاص الذين أسرهم الجونغاريون.

حك الخان الجزء الأعلى من أنفه بهدوء وقال:

- نعم ولقد تم تدمير قرى الجزء الأصغر أيضاً. لقد كان أبو الخير مكلفاً بحمايتها...

احتج البطل وقال:

- لكن أبا الخير الآن في مكان ما عند نهر إديل يحارب الكالميك!

- أنه يقول دائماً إنه لا يوجد شخص في السهوب يمكن أن يضارعه في سباق الخيل.

فليحاول الآن أن يلحق بالجونغارين!

سمع بوضوح في صوت خان الجزء الأوسط الرضا عن أن خصمه الشديد المراس وقع في

ورطة!

صاح «بوجيمباي»:

- حينئذ سأقود الجنود بنفسى للحاق بهم!

رفع «أبيلمامبيت» يده اليمنى وقال:

- أمنعك بسلطة الخان أن تفعل ذلك! - لن أدخل الآن في حرب مع الحاكم الجونغاري

فليس لدينا ما يكفي من القوات ...



في ذلك الوقت قال الشاعر «بوخار» ، الذي دخل في إثر «بوجيمباي» ويقف الآن على عتبة منزل الخان بصوت هادئ :

- أنت لن تحارب يا خان الجزء الأوسط . فمن يعرف هل جاء إلى مقرك جنود بوجيمباي أم أنهم وهم في الطريق قد سمعوا الخبر السيء ، فحولوا خيولهم صوب لصوص «لولا دورجي»!..

التفت الخان الغاضب بكامل جسده إلى الشاعر . ولو كان الأمر بيده لكان قد انتقم من هذا البطل المعارض ، وهذا المغني الواثق من نفسه . ولكن دائماً ما تقف خلفهما قوة ما غير مرئية . فلو حاول الآن أن يفعل شيئاً ضدهما ، فستثور وتتمرد جميع القرى المجاورة . ومن يدري ماذا يمكن أن تكون عاقبة ذلك حتى بالنسبة له شخصياً .

لوح الخان بيده وقال :

- حسنا .- إذا تغلبتم على الجونغاريين ، فهنيئاً لكم ، ولكن لا تنتظروا مني دعماً !

بعد خمسة أيام عثرت كتيبة المحارب بوجيمباي على آثار قافلة الجونغاريين . أخبر أفراد الاستطلاع أن الجونغاريين ليسوا بعيدين عن هنا تماماً ، وأنهم يتحركون صفوفاً وراء بعضهم البعض .

قال الشاعر «بوخار» :

- كنت أول من أراد تعقب اللصوص .- ولكن تذكرأيها البطل أننا أقل منهم أربع مرات.

ثم إن جنودك فتية صغار ، أما المحاربون الجونغاريون فمقاتلون محنكون!..

لم يتمكن «توجيمباي» من الإجابة . وصمت الجميع رغماً عنهم . فقد حملت إليهم عاصفة من رياح السهوب صوتاً ضعيفاً حزيناً . لم تكن أغنية بل أنين .

وانضم إلى الصوت الوحيد صوت آخر ثم ثالث . سمع بشكل واضح أن الكثير من الناس رجالاً ونساءً يغنون . كان هناك شقاء وحزن لا يوصف في أغنيتهم . لقد كانوا يغنون « إيليم أي».



تهبط قافلة الحزن من جبال كاراتاو

وبجانهم يمشي ببطء جمل يتييم ...

أظلمت السماء على الفور في أعين المحاربين الكازاخ. وبدأ اللحن الكئيب كذئب جائع ينهش أرواحهم. وقبضت أيديهم بطريقة لا إرادية على مقابض سيوفهم. وتم إبلاغ أوامر بوجيمباي همسا من مكان لآخر، وتناثر الجنود، واختبأوا خلف قمم التلال. من تحتهم كانت طريق الرقيق القديمة تتلوى كالثعبان. وفي هذا المكان تحديداً تتباعد التلال، وشهدت في الأمام صحراء «أوست أورت» المألحة شديدة المرارة. وهناك في مكان ما في الدخان الضبابي تقع خوارزم بسوقها القديم المسمى «سوق الدموع»، حيث يشتري العبيد للعمل في المناجم، والجواري لحرمك الشرق كله.

ظهرت دورية الخيول الجونغارية تتبعها قافلة الرقيق في شريط أسود طويل. كانت الأمهات اللاتي أبعدهن عن أطفالهن يجهشن بالبكاء، وكذلك كان الأطفال الصغار الذين فقدوا آبائهم وأمهاتهم يبكون. وبسياط طويلة كان الجنود يضربون المتأخرين منهم. في مقدمة الكتيبة على حصان أشعث كان يجلس رجل ضخم متوحش من الجونغاريين عريض المنكبين يشبه جبل حجرى. وتغطي رأسه الحليق خوذة حديدية تشبه الرجل، ويصل شاربه الطويل إلى الأذنين، وفي عيونه السوداء الواسعة كانت أوردته الدموية السميككة ترى حتى من على بعد. ويكاد يصل سيفه الثقيل المعلق في جانبه إلى الأرض. أنه «لولا دورجي» أحد أكثر القادة الجونغاريين المتعطشين للدماء. وكان يتبعه صفان من الجنود لهم نفس الكآبة والشراسة، ومدججين بالسلاح ...

انتظر البطل «بوجمباي» حتى تخرج نصف القافلة من الممر الضيق بين التلال. لقد قرر ضرب رأس الكتيبة، ثم التعامل مع الكتيبة الرئيسية للجونغاريين حالما يدرك الآخرون حقيقة الأمر. كان المزيد والمزيد من الأسرى يخرجون بصحبة الحرس من الفج الجبلى. وها قد توازى «لولا دورجي» مع الرابطة التي كان يختبئ خلفها الفرسان الكازاخ. وسمعت بوضوح كلمات أغنية يتغنون بها :

أواه كم من الصعب أن تحرم من الوطن ...

ودموعنا تحجب عنا ضوء النهار! ..



لم يتمكن البطل «بوجمباي» من إصدار أوامره . فقد خرجت من بين جموع الأسرى السائرين امرأة شابة ذات شعر أشعث. كانت خصلة من شعرها مثلها في ذلك مثل النساء الأخريات قد نُزعت من مكانها ، وتختثر الدم على رأسها ؛ لأن الفرسان الجونغاريين وفقا لعاداتهم كانوا يمسكون النساء من شعورهن ، ويجرونهن خلف الحصان على الأرض . كن يحملن في أيديهن أطفالهن الرضع . وضعت المرأة طفلها على الأرض ، وبدأت تلفه في الأقمطة . لاحظ ذلك أحد الحراس الجونغاريين ، واقترب منها من الخلف . التفتت المرأة في خوف ما إن رأت ظل الحصان الأشعث . ولكن كان الوقت متأخرا . لم يكن الجونغاريون في حاجة إلى أطفال صغار لبيعهم في خوارزم ، وكانت الأم المرضع بخسة الثمن . هوى الحارس دون أن ينبس ببنت شفة برمحه الجونغاري الطويل ، واخترق به جسد الطفل ، ثم التقطه ، وألقى الجسد البائس الذي كان لا يزال يرتجف على قمة التل . كان الطفل يصدر فقط أنينا بشكل ضعيف . ثم طار في السماء الزرقاء ، ورفرفت حفاضاته مع الريح . ضحك الحارس بصوت عال ، وضحك جميع الأمراء ، والمحاربين بأصوات غليظة فرحين بمزاحه . وبدت أيضا حتى على وجه « لولا دورجي » نفس تلك الابتسامات . ولكن لو كانوا قد رأوا أين وقعت جثة الطفل الدامية لما كانوا قد ضحكوا . وقعت قطعة اللحم البشرية المرتعشة على الأرض مباشرة بين الجنود الكازاخ ...

- قاتل .. سفاح ...!

مع صرخة النمرة الجريحة انقضت الأم على الحارس فاستل سيفه وشقها نصفين . لكن في تلك اللحظة انقض جميع الأسرى العزل على معذبيهم . واضطر الجونغاريون أن يدافعوا عن أنفسهم بالسياط والسيوف . وارتفعت سحابة من الغبار فوق مكان المعركة . ولم يلحظ الجونغاريون كيف أنه دون صرخة واحدة انقض جنود البطل «توجيمباي» الرهيبيون في صمتهم على عدوهم .

هبط البطل «بوجيمباي» مع فرسه بأقصى سرعة ، وانقض بكل أوتى من قوة على الأمير السفاح . وهوى بهراوته المغلقة رأسها بالحديد على رأسه ، ولم يتمكن «لولا دورجي» حتى من معرفة من أرسله للعالم الآخر.

- أكجول ..



- بوجيمباي - أكجول -

أخذت الصيحة الكازاخية الغاضبة تدوي في الفجّ الجبلي . ولم يستطع الجونغاريون المحاصرين بالتلال تنظيم المقاومة ، وداسوا بعضهم البعض . غير أنه قد تمكن مائتان فقط من الفرسان من الفرار ، والإنطلاق نحو السهوب . ووفقا لرواياتهم يبدو أن ما يقرب من مائة ألف من الجيش الكازاخستاني قد هاجمهم . وهذا الفجّ الجبلي ، مثل الكثير غيره في السهوب الكازاخية ، أصبح يعرف منذ ذلك الحين باسم «كالمك كيرلجان» والذي يعني «فجّ الموت الجونغاري» ...

فر الجونغاريون في مجموعات مكونه من ٥ : ١٠ من الفرسان . لكن عين المحارب الثاقبة لاحظت أنه خلف أحد الجونغاريين الهاربين جسد مربوط بالحبل في الحصان . أطلق البطل «بوجيمباي» عنان فرسه . وبقفزات هائلة تمكن من اللحاق باللص . أصدرت الهرواة الثقيلة أزيزاً في الهواء ، ووقع الجونغاري مع حصانه على الأرض . قطع المحارب الحبل ، ورأى فتاة في ثوب غال ممزق .

قال بعد أن نزل عن حصانه :

- أنا أعرفك ، إنك أخت الخان أبو الخير !

قالت :

- وأنت البطل بوجيمباي !

كان الأمر صحيحا . كانت بالفعل «ساكيبجمال» شقيقة الخان رائعة الجمال . لقد أسرها الجونغاريون عندما كانت في زيارة لأقاربها في القرى القريبة من نهر سير داريا . وعندما أوصلها البطل «بوجيمباي» إلى الخان أبو الخير الذي أتى على عجل نحوهم قالت لشقيقها أنها تريد أن يكون زوجها هو من أنقذها . كان العرف في السهوب منذ العصور القديمة أن المحارب الذي ينقذ امرأة من الموت أو العار ، تكون له الأولوية قبل الآخرين بغض النظر عن أصله . وعلى الرغم من أن البطل بوجيمباي كان بالنسبة للخان الفخور من «العظم الأسود» فقد اضطر إلى الموافقة على الخطبة . الى جانب ذلك فقد كان يعول في المعركة القادمة من أجل السلطة والنفوذ في السهوب على المحارب الشهير وجنوده ...



واصل خانات وسلاطين الأجزاء الثلاثة وهم يقاتلون الجونغاريين التنافس للسيطرة على السلطة على السهوب، وقد أضعف ذلك مقاومتهم للغزاة . عاش البطل بوجيمباي الذي تلقى إهانة من الخان «أبيلمامبيت» خمس سنوات في الجزء الأصغر . وشارك عدة مرات في معارك ضد القوات الجونغارية ، وذاعت شهرته عبر السهوب . في أحد الأيام تلقى رسالة من السلطان أبلاي . عرض عليه «أبلاي» أن يعود ويلتحق بخدمته . كان من الواضح أن السلطان الشهير يستعد لحرب كبيرة حقيقة ضد الجونغاريين . فقرر البطل المحارب الذهاب إليه .

في نفس اليوم تلقى البطل «توجيمباي» رسالة من صهره الجديد الخان أبو الخير . على ما يبدو أنه قد علم بشأن رسالة «أبلاي» خان الجزء الأصغر؛ فطالبه بالحضور فوراً إلى مقره والذي كان يبعد عنه المحارب مع فرقته مسيرة ثلاثة معابر للخيول .

سأل البطل بوجيمباي الشاعر بوخار الذي كان يقيم لديه :

- ماذا أفعل أيها الشاعر العراف؟

أجاب الشاعر:

- اذهب إلى أبلاي .- فهناك أقرب إلى الجونغاريين . ولكن لا تذهب هناك مباشرة . لنذهب قبل ذلك ، ونرى ماذا يريد منا خان الجزء الأصغر . ربما قد قرر أن يخوض حرباً كبرى ضد الجونغاريين .



II

اجتاح الغزو الجونغاري الأراضي الكازاخية مثل النار السهبية . واحتلت مساحات شاسعة ، ومدن تركستان ، وطشقند ، وسایرام ، وسوزاك . وتاما مثل النار السهبية واصل سكونه ؛ كى يندلع مرة أخرى عند أول هبوب لرياح الربيع . غير أن المليشيات الكازاخية ، وبعض الكتائب المستقلة دون قيادة موحدة أو أى مساعدة من أحد ألحقت بجيش الحاكم الجونغاري أكثر من مرة هزائم ثقيلة . وفي عام ١٧٢٩ م على ضفاف نهر «بولانتا» أحد فروع نهر «ساريسو» ألحق الخان أبو الخير والمحارب تايمان بالغزاة هزيمة منكرة ، وأجبروهما على الفرار . وحدث الشيء نفسه على ضفاف نهرى «كاراتال» و «إيلي» حيث ألحقت القوات الكازاخية بقيادة البطلين «كابانباي» و «بايان» هزيمة أخرى لأحد أجنحة الجيش الجونغاري . وقعت مئات الاشتباكات مع درجات متفاوتة من النجاح في السهوب . ولكنها لم تنه المسألة . فقد تشبث الحاكم الجونغاري بالأراضي المحتلة بقبضة حديدية . ونصبت المخيمات الجونغارية فوق الأراضي الكازاخية والقرغيزية ، وفي مكان ما وراء الجبال العالية أخذ المسؤولون الصينيون يفركون أيديهم بطريقة مبالغ فيها . سار كل شيء وفقا للخطة التي رسمها من قبل الإمبراطور الصيني . اثنان من النمرور الأغبياء يتعاركان فيما بينها ، ويمكن دفعهما تدريجيا عن مكان السقاية ...

كانت روسيا تراقب عن كثب تطورات الأحداث . وعندما أرسل الخان أبو الخير في عام ١٧٢٥ م سفير بلاده إلى «سان بطرسبرج» باقتراح لقبول الكازاخ والكاراكالباك «الجنسية الروسية» تقبلوا هناك هذا الأمر كطلب طال انتظاره .

على عكس القوى الاستعمارية الأخرى ، كانت روسيا عادة ما تدير دبلوماسيتها الشرقية من خلال أشخاص مقربين من ثقافة ودين سكان المناطق التي تستكشفها . لذلك في هذه المرة تم إرسال الملا التتري «مقصود يونس» لإجراء المباحثات مع الخان أبو الخير . ثم بعد ذلك تم إرسال سفارة جديدة إلى سان بطرسبرج من قبل الخان أبو الخير



برئاسة «كويباجار كوبيك أولي» لطلب الإسراع في الانضمام إلى روسيا ، والسماح للكازاخ بالترحال بين نهر الفولجا ونهر جايك ، وكذلك بمزولة التجارة على الأراضي الروسية.

لم تكن الدبلوماسية القيصريّة تتعجل الأمور ، مدركة أن مساندة أحد الجوانب تعنى القطيعة مع الجانب الآخر . ودارت مفاوضات طويلة حول شروط الانضمام ، والتسهيلات المختلفة من كلا الجانبين . كان الخان أبو الخير يرى بوضوح أنه «لن تحلق بالفأس شوارب الجونغاريين» ، واستعجل سفراءه . فقط عندما غزت الجحافل الجونغارية أراضي الجزء الأصغر قامت الملكة أنا إيفانوفا في ١٩ من فبراير عام ١٧٣١ م بناءً على إقتراح من وزرائها رداً على رسالة الخان أبو الخير في ٨ من شهر النوروز ، أي ٨ من مارس عام ١٧٣٠ م والتي يطلب فيها «الدفاع عن الكازاخ» بإصدار مرسوم يقضي بضم الجزء الأصغر إلى الإمبراطورية الروسية . سلم المبعوث الروسي التتاري المعمد « أ . م . تيفكلييف » هذا المرسوم إلى مقر الخان أبو الخير في ٥ أكتوبر ١٧٣١ م .. مع توقيع هذا المرسوم بدأت مرحلة جديدة في العلاقات بين الخانات الكازاخ والحكومة القيصريّة ، من جهة ، ومن جهة أخرى بين الشعبين الروسي والكازاخي .

بعد هذا المرسوم ، وتقريباً في نفس العام ، ناشد خان الجزء الأوسط «ساميكي» أنا إيفانوفا أيضاً «بقبول كازاخ الجزء الأوسط تحت حماية روسيا» ، وبعد ذلك بعامين ، أي في عام ١٧٣٣ م أرسل سلاطين وبيات الجزء الأقدم «قودار بك» ، و «توليا بك» ، والبطل ساتاي ، والبطل بولياك إلى سان بطرسبرج البطل كانجيلدي مباشرة إلى أنا إيفانوفا برجاء منحهم والعشائر الخاضعة لهم الجنسية الروسية .

لعب الدور الحاسم في قرار الخان أبو الخير بجانب الغزو الجونغاري رغبته في أن يكون خاناً للأجزاء الثلاثة بدعم من روسيا . غير أنه بعد مرسوم الملكة أنا إيفانوفا واصل الجونغاريون الحرب ، وأخذ العديد من السلاطين الكازاخ من الأجزاء الأخرى يهتمون الخان أبا الخير بالخيانة . وكان السلطان بارك من الجزء الأوسط أحد المعارضين الرئيسيين لأبي الخير .



الآن وبعد مضي ثلاث سنوات على مرسوم الانضمام إلى روسيا، كان المبعوث الروسي «تيفكليف» ينتظر في إرجيز من جديد ، حيث كان هناك مقر أبو الخير في ذلك الوقت. ومن أجل لقائه ، وتحقيق الوحدة دعى الخان أبو الخير في وقت مبكر إلى مقره أكثر الناس وجاهة وأهمية، بما في ذلك العديد من معارضيه . كما دعى أكثر الناس تميزاً في الحرب ضد الجونغاريين مثل السلطان باراك ، والبطلين تايمان ، وبوجيمباي . وصل كلاً من البطلين المعادين لبعضهما البعض مع فرق صغيرة من الجنود تليق بهذه الحالة، أما السلطان باراك بوصفه من صفوة القوم ، فقد أحضر معه كتيبة كبيرة من الفرسان . بالإضافة إلى ذلك ولسبب غير معروف أخذ معه إلى مقر الخان البجادور «سيرينا دورجي» الذي حاربه طوال حياته بعد عدوه الحاكم الجونغاري الملعون «جالدين تسيرين». كان الضيوف ينظرون بدهشة إلى الجونغاري الضخم الصامت . توقعوا وجود أي شخص ، لكنهم لم يتوقعوا أن يقابلوه هنا ...

على الرغم من حرارة الصيف ظلت ستائر الخيام البيضاء الثلاثة ، الموضوعت بجانب بعضها البعض ، واللاتي تعد المقر الصيفي للخان أبو الخير مسدلة . حتى الجزء السفلي منها والذي يترك مرفوعاً للتهوية كان مغلقاً بإحكام عن طريق سجادة سميكة . في منتصف الخيمة المطرزة من الداخل بالفضة يجلس الآن كل من البطلين ، و سلطان باراك ، والنويون الجونغاري ، والخان أبو الخير نفسه . وبالإضافة إليهم بقي في الخيمة الرئيسة الابن الأصغر للخان يرالي المحارب الجميل الأشقر بزغب خفيف فوق شفته العليا ، وبجانب الباب يقف اثنان من حراسه شاهرين سيوفهما ...

أن يكون هذا البطل المحارب الشهير صديقاً أفضل من أن يكون عدواً . كان البطل بوجيمباي يفكر في ذلك الأمر وهو جالس في خيمة الخان أبو الخير . وكان يجلس أمامه تحديداً البطل تايمان من الجزء الأصغر خصمه القديم متكناً بذراعه على الوسادة .

كان عمر كل منهما يربو على الأربعين عاماً ، واستمر العداء بينهما عندما كانا فارسين صغيرين منذ الوهلة الأولى التي رأى فيها كل منهما الآخر . ومثل الخناجر المسنونة كان العداء بينهما والذي إستمر طوال حياتهما ...



لا ، لم تسفك فيما بينهما دماء القربى ، وإنما ما كان يفرق دائما الرجل المحبين لذواتهم والفخوريين هو التنافس . وهناك حيث يبتسم فقط الساكن المقيم ، ولا يحاول أن يتنافس مع من هو أقوى منه وأقدر يسعى المرتحل أن يتفوق عليه ، وغالبا ما يعتبر فشله بمثابة إهانة شخصية . وتحديداً هذه المنافسة مهما كان شأنها تصبح سببا للعداوة الشرسة بين اثنين من كبار القوم .

هذا ما حدث معهما . كانت عشائرها تتجاوران في حين ما في المرعى وتحديداً على الحدود بين الجزء الأوسط والجزء الأصغر . حينذاك لم يكن هناك بين الجزئين مثل هذه الكراهية العميقة التي تولدت من الأحداث اللاحقة . في فصول الشتاء الكازاخية القارصة بعواصفها الثلجية المستمرة كانت قراهما تتحصن معا في الغابات الكثيفة المطلة على نهر سيحون داريا . ولقاؤهما بعد صيف طويل حار دائما يتميز بوليمة عامة ، ومسابقات في كل ما يليق بالفرسان مثل سباق وألعاب الخيل والرمائية والأغاني ...

وتحديداً في ذلك الاجتماع المشؤوم الذي لا مثيل له في فخامته قام الباي «حيسان» من عائلة بوجبان بأداء طقس الختان لابنه الوحيد . كان الباي حيسان تاجراً مشهوراً في جميع أنحاء آسيا الوسطى ، وكان يتاجر بشكل رئيس مع مضارب الترحال الكازاخية . لذلك أقام بهذه المناسبة احتفالاً في القرى الكازاخية الرئيسية المرتحلة إلى نهر سيحون داريا . في هذا الاحتفال تشاجر المحارب الأسطوري بوجيمباي مع المحارب تايمان الذي يشبه النمر . ولولا الاحتفال لكانا قد تصارعا ليس من أجل الحياة بل من أجل الموت . ولكن بعد أن أضمر الضغينة لبعضها البعض كانا يغذيانها من وقت لآخر مدة عشرين عاماً بالشائعات التي ينقلها «الناس الطيبون» . كانت هذه الشائعات في السهوب أفضح من سهم مسموم أطلق من كمين ... ولكن عندما داهمهم الغزو الجونغاري يصبح المحاربان كأن لم يكن بينهما أي خلاف ، وأصبعا جنباً إلى جنب ، وكانا دائما متجاورين ، ومتكاتفين ضد العدو المشترك .

وهما الآن يجلسان وجها لوجه في منزل يورت الخان أبو الخير الأبيض ، وينظر كل منهما في عيني الآخر ... وعلى الجانب الأيمن من الخان أعلى منهما قليلاً يجلس على وسادة سليل «شاجاي» سلطان الجزء الأوسط البطل الشهير باراك . ونظراً لشراسته



وشجاعته يطلق عليه الناس «الذئب الرمادي باراك». وإلى اليسار من الخان يجلس مبعوث الحاكم الجونغاري الحالى «جالدين تسيرين» النويون الشهير «سيري دورجي». لقد مرت عشر سنوات منذ السنة الأولى من «المحنة الكبرى»، ومن حين لأخر كان يصل سفراء من قبل الحاكم الجونغاري عارضين الخضوع التام لهم ...

- إذن الأمر كذلك يا أبو الخير خان ... - ابتسم السلطان باراك بطريقة حميمة، مظهراً أنه لا يعتبر أبا الخير أعلى منه ، ولف شاربه ببراعة. إذن ... الآن فهمت لماذا دعوتنا إلى تلك البلاد البعيدة. لقد أرسلت المرأة- الملكة مجدداً توبييكل الخاص بك (لقد شوه متعمداً اسم السفير الروسي، مما جعل اسمه باللغة الكازاخية ينطق كعبارة مهينة أى اذهب، وإركلها بقدمك!) ... أرسلته، وهذا يعنى أنه تبين أن طلبك قبل ثلاث سنوات ليس كافياً بالنسبة لها. هل أنا على حق؟!

قال أبو الخير بهدوء كما لوأنه لم يلحظ نبرة السلطان باراك :

- من الواضح أنك على حق على ما يبدو أن وعدى وحده في الحقيقة لم يكن كافياً للمرأة- الملكة. ولكن عندما يكون هناك أشخاص آخرين أثناء حديثنا ...

هتف السلطان باراك :

- لماذا تصمت يا خان أبو الخير فإنك لم تخجل قط من أحد أبداً في أقوالك وأفعالك؟
- تكلم ولا تخجل إن لم يكن اليوم فغداً ستصبح أحاديثنا على أية حال معروفة للعالم كله. وعلى الرغم من أن «سيري دورجي» السفير الموثوق به للحاكم الجونغاري إلا أنه أفضل صديق لي.

تكلم ! ..

ابتسم أبو الخير ابتسامة عريضة وقال :

- حيث إنه قد ظهر لديك مثل هؤلاء الأصدقاء فيجب أن أعتقد أن الحاكم الجونغاري نفسه يحظى باحترامك. هل أصبحت قريبه يا سلطان؟!



- لا تضحك يا خان أبو الخير . فإذا قلت إن «سيرين دورجي» ليس مجرد ابن عم ، وإنما هو شخص مقرب مني ، فهو ذاك ! ..

فكر الخان أبو الخير قليلاً ، وأوماً موافقاً برأسه ... نعم لقد كان يعلم أن الأمور ليست على مايرام لدى الحكام الجونغاريين . فكلما كانت السلطة الأولى قاسية كان الصراع في وقت لاحق أشد شراسة . لقد ورث الحكام الجونغاريون من أسلافهم مهارات عراك الذئب مع بعضهم البعض . وتزايد الشائعات عن كيفية إزاحة الحاكم الجونغاري «جالدين تسيرين» عمه والوريث الشرعي «شنودابو» من طريقه . ومن حيث إن هذه الشائعات المتناقضة تمتلك تحتها تربة فيعلم ذلك جيداً المحارب «بوجيمباي» الجالس هنا . فقد جرح فقط في إحدى المعارك عند نهر بادام البجادور «شنودابو» ، ثم قتله بيده «جالدين تسيرين» .

تعج السهوب بالشائعات . ولكن لا يمكن الاعتماد فقط على الشائعات . وفي المقر التركستاني للحاكم الجونغاري يوجد أناس يرسلون إليه رسلا سرية بعد كل قرار مهم يتخذه «جالدين تسيرين» . وانقسم الآن الأمراء الجونغاريون إلى فئتين . أرسل «جالدين تسيرين» الأبعد نظراً والأكثر خبرة جميع قواته إلى بلد الكازاخ ، أما مجموعة الأمراء الشباب فكانوا يريدون منذ فترة طويلة أن يوجهوا التيومينات (الكتائب) الجونغارية إلى مصب نهر إرتيش ، وإلى سيبيريا الروسية . وكانوا في كل مجلس للحكم يصرخون بأعلى أصواتهم أن الوارث العظيم «مزلزل الكون» الخان دايان الذي لا يقهر من عشيرة «تشوراس» ، وأن أسلاف هذا المؤسس للخانية ولدوا في سيبيريا ، وأن قبور الأجداد تنادي بإصرار على البجادورات الجونغاريين الأماجد .

كان الخان أبو الخير يعلم جيداً ، وليس أقل من «جالدين تسيرين» من يوسوس من وراء ظهره لهؤلاء الشباب الزاعقين بحديثهم الطائش . كانت القوات العسكرية الروسية في مكان بعيد في الشرق ، متوجهة إلى الأراضي المنشورية من حيث أتى هؤلاء الغزاة والحكام الحاليين للإمبراطورية السماوية . وكانت السفن الروسية بالفعل تجر في المحيط حيث تشرق الشمس . وهذا هو السبب في أن مستشاري الحاكم الجونغاري من الصينيين الحكماء يوجهون مع كل عام بإصرار وجه النمر الجونغاري نحو سيبيريا ؛ كي يقطع الوريث على الذراع الطويل للمرأة - الملكة الممتد حتى المحيط . يقولون إن «الإمبراطورية السماوية هي منتصف العالم . - وأليس ضواحيها تنتمي بحق إلى وسط



العالم؟! وعاجلاً أم آجلاً فكروا أن يقيموا حصونهم على المساحات غير المأهولة في سيبيريا. ولتقم القوات الجونغارية بإخلاء تلك الأراضي، ثم بعد ذلك يمكن مواصلة دفع هؤلاء بعيداً حتى المحيط الآخر.

لكن الحاكم الجونغاري «جالدين تسيرين» مع كل غطرسته، كان يدرك أن القطعة الروسية تستعصي على أسنانه. لكنه كان يشعر بالهدوء والثقة في بلد الكازاخ الضعيفة والمشتتة. وفكر في أن ينشئ هنا خانة كبيرة. وكان يخطط لتدمير نصف الشعب الكازاخي، ويجبر النصف الثاني على الانضمام إلى جيشه، وبعد ذلك ينطلق بهم لغزو العالم كما فعل ذلك من قبل سلفه أحمر اللحية.

ومع ذلك لم يهدأ الأمراء الشباب. وشرعوا بعد أن أصبحوا أعداء للحاكم الجونغاري في البحث عن حلفاء لهم بين السلاطين الكازاخ. وفي الأونة الأخيرة زوج السلطان باراك ابنته لسيرين دورجي، الذي يعد أحد الأمراء الجونغاريين الأكثر نفوذاً، والحفيد المباشر للخان دايان. كان الخان أبو الخير يعلم أن الحاكم الجونغاري أرسل هذا النويون (الأمير) المضطرب إلى الكازاخ سفيراً، كما لو أنه قد أرسله للمنفى. أما «سيرين دورجي» فقد استغل إقامته الطويلة لدى سلاطين الجزء الأوسط؛ كي يمنعهم من الانضمام إلى روسيا. كان السلطان باراك الكاره للخان أبو الخير وأنصاره يميلون لفكرة الذهاب في حملة مشتركة مع الجونغاريين إلى سيبيريا. وكانت هذه السياسة انتحارية للكازاخ.

قال الخان أبو الخير وهو يلف شواربه أيضاً :

- ليس لدى أي شيء ضد ضيفنا وقريبك يا صديقي العزيز السلطان باراك... لدى الكازاخ مثل يقول : «إذا قلت لصديقك سراً فإن لديه أيضاً أصدقاء». أليس من الأفضل أن أتحدث معكما أنتما الاثنان مباشرة...

لوى السلطان باراك شفتيه مما يعني عنده ابتسامته. ففكر بحذر، وأوماً برأسه « منذ متى يعدني الشعبان أبو الخير واحداً من أصدقائه؟»

- حسناً أنا سعيد بقرارك... والآن قل لنا نحن أصدقاؤك وأقاربك لماذا يأتي إليك الناس لعقيدته توكل؟ فمن سيركل بقدمه هذه المرة أنا أم أبلاي؟ لحم من تريد أن ترميه له



الآن؟ أُلن تصبح القلعة الروسية التي بدأ الروس يشيدونها بالقرب منا ، حفرة مقبرة لنا جميعا؟ وليس عبثا أن كلمة «أور» تعنى الحفرة ! ..

كان على أبي الخير أن يقول شيئا مارداً على اتهام باراك له « لحم من تريد أن ترميه له الآن؟ . فقد جاءه في الأونة الأخيرة سفراء الجزء الأقدم «أورالباي» و «أورزاكيلدي» يطلبون منه أن يلتمس من «أنا إيفانوف» منح الجزء الأقدم المواطنة الروسية. كان يمكن للخان أبو الخير أن يقول للسلطان باراك إن هذه هي رغبة الشعب ، لكنه إمتنع . كان أبو الخير يفهم أن هذا فقط سببه كره باراك له وعشائر الجزء الأقدم .

كانت القلعة الروسية هي الأقرب له من كل القلاع الأخرى . واعتقد أبو الخير مثل أي خان أنه بالاعتماد عليها ، وبالدعم الروسي يمكنه التصدي للجونغاريين ، وبسط سلطته أيضا على جميع الأجزاء الأخرى . وفي هذا الوقت تحديداً تم البدء في بناء القلعة والتي تولى الإشراف عليها الجنرال «كيريل» مع «تيفكيليف» . كان أبو الخير يفهم الأمر برمته ، وحث السلطات الروسية على المضي قدما في هذا البناء . وانتظروا بفارغ الصبر بناء القلعة ، ومضارب الرحل الكازاخية المجاورة لها على أمل أن يجدوا فيها الحماية من الغارات الجونغارية المستمرة . ولكن لمعرفة الخان أبو الخير بأمزجة بعض السلاطين أخفي رغبته في التعجيل ببناء القلعة الروسية .

سأله السلطان باراك بشكل راق :

- وهل ستقابل صاحبك «تويبكيل» كما في المرة السابقة بالآلات الموسيقية الزرنتة والكارناي؟

قال أبو الخير بهدوء :

- نعم ، فهكذا ينبغي مقابلة السفراء من قبل أية دولة عظمى ! - وإننا لم نكن أبداً أقل احتراماً حتى مع الضيوف الأقل أهمية !

قال السلطان باراك ببرود :

- ولكن ضيفك نسي عقيدة الأجداد !



أشار أبو الخير ملمحاً إلى العقيدة الشامانية التي يعتنقها «سيرين دورجي» فقال :

- أحياناً يكون ضيوفك غير مؤمنين على الإطلاق !
- فهل ستدعونا لحفل ختان حفيدك ياسلطان باراك ؟

عض السلطان باراك شفتاه في غضب ، ولم يعد قادراً على كبح جماحه أكثر من ذلك ثم قال :

- الأفضل من ذلك قل لي ماذا جلبت هداياك الثمينة للمرأة - الملكة ياخان أبو الخير ؟ وهل حصلت على العديد من الهدايا في المقابل؟ فهم يحضرون الهدايا من عندها للجميع - من عند حاكمتك - لكالميك أستراخان ، وللبخاريين والباشكيريين الذين يسطون على مراعيينا ، ولحاكم الجونغاريين أيضاً ! وكلهم مازالوا كما في السابق يذيقون بلد الكازاخ صنوف العذاب ، وصديقتك المرأة - الملكة لم تقبل لهم حتى كلمة واحدة ! أما القلعة الروسية ، فأنت في حاجة إليها لفرض سلطانك علينا نحن السلاطين العظام ! ...

قال الخان أبو الخير :

- نعم هو ذاك !

ارتجف السلطان باراك من الدهشة ...

قبل عام واحد فقط كتب «تيفكيليف» هذا الذي فعل الكثير لضم الأراضي الكازاخية إلى روسيا إلى هيئة الشؤون الخارجية الروسية : «مثل القيروغيز فإن القبيلة الكيساتسكية ، والكالميك والباشكيريين يقفون على مستوى واحد من التطور. كلهم متوحشون وجهلاء ... فإذا تمرد أحدهم على الإمبراطورية الروسية يمكن استخدام الإثنين الآخرين ضده . وفي هذه الحالة ، فإننا لا نتحمل أية مسؤولية ، وسيكون ضميرنا مرتاحاً ...» لاشك أن القيصرية الروسية استخدمت ترسانة السياسة الاستعمارية بما في ذلك القاعدة القديمة «فرق تسد» . وعلى الرغم من ذلك كان الانضمام إلى روسيا السبيل الوحيد إلى المستقبل . وكانت السبل الأخرى بما في ذلك التحالف مع الأمراء الجونغاريين تعني الهلاك الوطني ...



هتف السلطان باراك :

- الأمر سيان فيمن سيحكمنا الروس أم الجونغاريون ؟!

- إن الحاكم الجونغاري لم يترك في أراضينا المحتلة أحداً على قيد الحياة . فهو يحكم أموات ! ..

- وماذا عن الروس ؟

- الروس لازالوا حتى الآن تجاراً يأتون إلينا بالقوافل ...

- وعندما يأتي خلفهم الجنود ؟

- ساعتها سننظر في الأمر ...- نظر الخان أبو الخير مرة أخرى إلى النويون نظرة جانبية خاطفة . ثم قال : تذكر القول المأثور : « الأفضل أن تخدم الأسد من أن تخدم ابن أوى» .

- ولكن لماذا لا يطلق هذا الأسد مخالفه للدفاع عنا ؟

- بسببك أنت وأصدقاؤك يا سلطان باراك !

- ماذا يعني ذلك ؟

- من قام إذن في العام قبل الماضي بنهب القافلة الروسية الذاهبة إلى بخارى؟ والقافلة الأخرى التي كانت قاصدة طشقند في الصيف الماضي؟! أجب يا سلطان! أوريا لصوص السهوب الذين فعلوا ذلك ، هل كانوا في حاجة ماسة إلى السماورات (السماور ، وعاء معدني يستخدم لغلي الماء وتحضير الشاي ، يستخدم في روسيا وأوريا الشرقية وبلدان الشرق الأوسط - المترجم) اللاتي جلبها الروس أم كان من الضروري إحداث خصومة بيني وبين الملكة؟! تكلم يا سلطان ! ..

كان الحديث يدور حول قوافل كبيرة ترافقها فرق عسكرية تحت قيادة العقيد جاربر والراند ميلر . نهبت الأولى عند أستراخان ، والثانية نهبت في منتصف الطريق من أورينبورج إلى طشقند . مثل هذه الهجمات على القوافل الروسية كانت تشن كل صيف على ضفاف نهري إرتيش ، وإيشيم ...



- هل تعتقد ياخان أبو الخير أنه ما إن نسمح فقط بمرور قوافل الملكة حتى يحل علينا السلام والفرح... أصبح السلطان «باراك» لأول مرة جادا ، وسمع في صوته نبرة الحزن .
- يقولون إن الثعلب مذنب ؛ لأن لديه فراءً جميلاً . إن لدينا أرضاً غنية . ويرى الشورشوتيون في منامهم أنهم سوف يسكنونها عقب الجونغاريين . فلماذا نثير شهية المرأة - الملكة عليها ؟

- نصف سهوبنا تغطيها العظام البشرية البيضاء . فإذا تباطأنا قليلاً فستبيض سهوبنا كلها ! ..

- يعني ... يعني ... - شحبت شفاه السلطان باراك فجأة ، واتسعت حدقتا عينيه مما ينبئ بنوبة من السعار معروفة في جميع أنحاء السهوب . يعنى أنك تفكر في الناس ياخان أبو الخير ، وليس في نفسك ... ولا ترغب في أن تحني رؤوس السلاطين إلى الأرض ، وتجلس فوقها ؟!

كما يحدث قبل القفز ثنى السلطان باراك ركبته مصدر زئيراً كزئير الأسد ، وامتدت يد صهره «سيرين دورجي» إلى السكين الجونغارية المستقيمة داخل حذائه اللين .

- وفيما تفكر أنت يا سلطان ؟!

انحنى الخان أبو الخير حتى وصل إلى وجه السلطان باراك ، ووفقاً لإشارته التي أعطاها شد كل من حارسيه الشخصيين قوسيهما .

ياخان أبو الخير .. يا سلطان باراك .. لماذا دعوتماني أنا الشخص البسيط إلى مجلسكم الأعلى ؟!

كان صوت البطل «بوجيمباي» منخفضاً ومرعباً كصوت الأسد . خفض الجميع أيديهم ، وجلسوا في أماكنهم . لكن البطل «بوجيمباي» قال ذلك ، ثم لزم الصمت .



وكان الخان أبو الخير تذكر شيئاً ما فجأة فقال :

- تكلم ، تكلم ، أيها البطل المجيد بوجيمباي ! كان يعلم مدى الشهرة التي يتمتع بها هذا الإنسان البسيط في السهوب . ذات مرة قبيل الغزو الجونغاري الكبير ومباشرة بعد شجاره مع «تايمان» حين كان «بوجيمباي» جندياً وراعياً بسيطاً هاجم اللصوص الأليمان كوخه الشتوي ، وذبحوا جميع أفراد عائلته ، وسرقوا الماشية . منذ ذلك الحين انضم إلى المحاربين المتجولين ، وطغت بطولاته على مجد كل من عاش قبله من المحاربين . حتى تلك الأعمال التي لم يقيم بها قد نسبوها إليه على أية حال . وعلى الأرجح كان الشيء المهم للبهتاء من الناس أن «توجيمباي» قد انحدر من عائلة محاربين أحرار ، ومنذ الطفولة عاش من كسب يده . وبفضل الاعتراف الوطني الشامل ، والشجاعة الذاتية ، والبرسالة ، والمهارة العسكرية أصبح البطل «بوجيمباي» أحد القادة الوطنيين أثناء الغزو الجونغاري . ولم يجرؤ أي خان أو سلطان على القيام بأعمال عسكرية خطيرة ضد الغزاة دون الحصول على مساعدته ...

أيد السلطان باراك الخان دون النظر إليه وقال :

- نعم ، نعم ، تكلم أيها المحارب ! . وأخذ الدم يغلى في نفس التوري ؛ فهو حفيد جنكيز خان المباشر ، وأصبح مضطراً إلى أن يستمع لرأي راع متسول .

أوماً البطل «بوجيمباي» برأسه وقال :

- حسنا ... إنني لست الخان ؛ لأقرر مصير البلاد . ولكن الخانات ليسوا من يفكرون وحدهم . وسوف أقول لكم ما يلي ... هناك بالقرب من القلاع الروسية هدوء أكثر مقارنة بالأماكن البعيدة عنها ... وإلى أين تفر القرى بأكملها عندما ترفع عليهم السكين الجونغارية ؟ يفرون إلى هنا إلى خط القلعة . وأعلم أن الوضع هناك ليس على ما يرام للرجل العادي البسيط . أما بالنسبة للخان ، فالأمر على ما يرام في كل مكان ... - ونظر مباشرة في عيني أبو الخير ثم قال . - وما زال الناس في نهر الحياة مثل السمك في نهر سيحون داريا يهربون من الخطر إلى مكان أكثر بعداً ، وأكثر هدوءاً . وتحت حماية الحصون الروسية يهرب الناس من أقاربك يا سلطان باراك ... يريد الناس أن يبقوا على قيد الحياة لرعي الماشية ، وتربية الأطفال ...

سقطت كلمات المحارب في فراغ المنزل الأبيض مثل الأحجار الثقيلة .



فُتح الباب ذو الصلقتان محدثا صلصلة ، ودخلت زوجة الخان أبو الخير الأصغر سناً الجميلة الشهيرة نوربيكي . كانت صغيرة ، ونحيلة ، وغطى وجهها المستدير سمار خفيف من أثر الشمس ، وكانت عيونها البنية الواسعة تنظر بفتور . كانت قبعتها المخروطية العالية فوق رأسها تتمايل على وقع خطواتها ، وبدلاً للحاضرين أن حزمة من أشعة الشمس اخترقت صمت الخيمة شبه المظلمة ، والمشتعلة بالغضب .

قالت وهي تنحني وفقاً لأحدث موضحة في السهوب وتمط كلامها :

- في غرفة المعيشة ينتظركم الغداء أيها الضيوف الأكابر! - كلوا مما أرسله الله لنا! .

شملت جميع الحاضرين بنظرة ثاقبة سريعة . وأصيب كل من «بوجيمباي» و «تايما» بالارتباك ، مثل كل الرجال ، عندما تنظر إليهم امرأة جميلة . نظر كل منهما إلى الآخر في نفس الوقت ببرود . لكن عيون زوجة الخان توقفت عند السلطان «باراك» فأرع الطول جميل الصورة . لكن فيما يبدو ، أنه لم يعر قريبتة أي اهتمام .

قالت بفضافة :

- يا شقيق زوجي السلطان ، لعلك لم تسمع دعوتي لتناول الغداء!

أجاب سلطان باراك ببرود :

- سوف ندوق ما يقدم إلينا ... - اسمحي لنا أولاً أن نستفيد من عقل زوجك الراجح ..

ضاقت عيون الجميلة من الغضب وغنت بهدوء :

- حسناً ، من كان لديه نقص في عقله ، فعليه أن يقترض من الآخرين!

قال الخان أبو الخير منقذاً الموقف :

- الأفكار القيمة تولد من الطعام الجيد - سوف يستمر حديثنا ولكن بعد أن نلبي حاجة أجسادنا ..



رفع السلطان باراك كتفاه بازدرء ، كما لو كان مندهشاً من خضوع الخان أمام الأصغر سناً. ألقى عليها نظرة شزراً غير مباشرة كنمريستعد للقفز. لكن لم يكن في هذه النظرة أى انبهار بجمالها ولكن فقط نوعاً من الحساب البارد .

على الرغم من أن «نوربيكى» كانت زوجة الخان الصغرى ، إلا أنها كانت قد تخطت الثلاثين . لكن من حيث الشكل ، كان يمكن أن تحسبها في سن العشرين. وإذا تحدثنا بجديّة عن العداء اللدود بين المحاربين الكبارين ، فقد كان السبب الحقيقي له يتمثل في ابنة الباي «حيسان» ذات الرابعة عشر عاماً . لقد تنافسا على مرأى منها في براعة وقوة وغناء الجنديان المجهولان حينئذ تايمان وبوجيمباي . وقد كانت الجميلة الصغيرة ماكرة ، وخفيفة الحركة حتى ظن كل منهما أنه تفضله على الآخر . وكانت في ذلك الوقت تتنهد لثالث وهو السلطان الشاب باراك . بعد أن أصبحت «نوربيكى» الزوجة الصغرى للخان أبو الخير كانت لازالت تأمل أنها ستمكن الآن من رؤية حبيبها السرى الذي يعد أقرب أقرباء زوجها . لكن العلاقات بين الخان أبو الخير والسلطان باراك لم تكن على مايرام كى يستطيعا أن يلتقيا كثيراً . والآن وبعد سنوات عديدة جمع الله جميع المشاركين في هذا الاحتفال المأساوى المحاربين المغضوب عليهم ، والسلطان الذي كانت تتنهد له سراً طيلة حياتها . فكيف لا تقلق ...

في ذلك الوقت ، كان المحاربان يفكران في شيء واحد . لقد تذكرت الأسمية القمرية الدافئة ، والكلمات الجريئة التي كانت تعبر عن استهزاء بشكل واضح . ولكن كيف كان لهما أن يفهما هذا في ذلك الوقت .

قالت حينذاك :

- كلاكما يعجبني .. لكن من سيفوز في السباقات هو من سادخه قلبى ..

شاركوا في السباقات لمدة ثلاثة أيام ، ورميا السهام وهما على صهوة الخيل على كيس من الذهب ، وتنافسا ورفعا بأسنانهما عملة فضية من على الأرض والحصانان اللذان يحملانها منطلقان بأقصى سرعة ، وفي النهاية قررا الشيوخ أنهما متساوون في كل شيء .



انفجرت الجميلة في ضحك رنان عندما جاء إليها بهذا القرار وقالت :

- ألقيا باللوم الآن على أنفسكما ؛ لأنه لم يستطع أى منكما أن يتنازل عنى لغريمة..

سرعان ما علم المحاريان أن الفخورة «نوريكي» أصبحت الزوجة الصغرى للخان أبو الخير . ثم حلت سنوات الكوارث، وأصبح كل منهما فارساً مشهوراً ، ودوى مجدهما في جميع أنحاء السهوب . لكن الجرح السري لديهما استمر ينزف ، على الرغم من أن الحرب ككارثة عامة قد قربتهما كأشخاص يقفان جنباً إلى جنب في معركة حامية . واعتقد الناس أن سبب العداء السرى المستمر هو المنافسة في المجد العسكري ...

كان الخان أبو الخير يبدو الأكثر سعادة من بينهم جميعاً . فقد تذكر حياته مع الجميلة نوريكي التي كانت تمتلك كل مزايا المرأة الحقيقية لكن كان لديها عيب واحد . لم يكن عند نوريكي أطفال ، وهذا هو ما كان يعذب الخان العجوز . ولكن عندما كان يدخل خيمتها ، كان ينسى كل شيء على الفور . كانت تشعله بأنوثتها ، وتوصله إلى نشوة مفرحة . ولم يكن كذلك مع أى امرأة من زوجاته ، فدائماً ما كانت تجذبه التوكال (الزوجة الصغرى) ، وكان كثيراً لا يلتزم بالأيام المقررة للزوجات الأخريات من أجل زوجته الشابة .

وقد همست له زوجاته أكثر من مرة أخرى عن مداعبات زوجته نوريكي مع المحاريين الشباب . صدق الخان ذلك ، وأقسم أنه سينتقم . لكن عندما جاء إليها ، مدت إليه وهي جالسة على الوسائد يديها البيضاء فنسى الخان كل شيء . وبداله تدريجياً أن حب زوجته الشابة له ملازماً مثل ندى الصباح ، والسهوب . ولم تعد الزوجات يبلغونه الوشائيات . وأصبح مقتنعاً بإخلاص التوكال عندما زار معها ذات مرة تركستان . هناك أراها ضريح «خودجا أحمد يسافي» . صارت الجميلة السهبية ، وهي منبهة بقداسته وعظمة وهدوء هذا المكان تتفحص برزانة ، ونبل العديد من المباني المجاورة للضريح . وفجأة عندما اقتربوا من باب مغلق منحوت دوت خلفها ضحكة جوفاء مخيفة . شحبت نوريكي من الرعب .

سألت بصوت خافت :

- ما هذا ... من هناك؟!

قال الخان :



- هذه أصوات الطيور الجارحة الهاربة من الجحيم ... - وعندما تدخل امرأة متزوجة من خلال هذا الباب فإنهم يرفعون صياحهم بقدر ما ارتكبت الزوجه من خطايا في حق زوجها... إدخلي إن شئت ..

كان أبو الخير يعلم جيداً أنه وراء الباب في القصر نصف المهدم توجد النسور الرمادية اتخذت لها أعشاشا . وأنها تضحك بشكل مقزز .. لكن التوكال التي ترعرعت في الشمال لم تسمع قط من قبل صراخهم .

ضمت نوريكي قبضتها ، وألقت نظرة سريعة على زوجها . ثم فكرت في نفسها «إذا كان الله في السماء قد أحصى خطاياي ، فإنه سيجد طرقاً أخرى لإبلاغ زوجي - سأدخل وليكن ما يكون!» التفتت الجميلة إلى الخان مع ابتسامة حزينة ، وعاتبة وقالت :

- ألا يعلم سيدي الخان تواضع وطاعة زوجته الوفية .. حسنا افتحوا هذا الباب المقدس . فالله يرى ويسمع أفضل من الجميع ..

منذ ذلك الحين أصبح الخان أبو الخير في قمة السعادة . والآن وهم يتناولون الغداء لم يعرسلوك زوجته ثمة اهتمام . كانت الجميلة نوريكي غاضبة . فلم يحدث قط أن يكون الرجال غير مباليين لدى رؤيتها . وهاهو لم يعرها اهتماماً مرتين : المرة الأولى كانت منذ سنوات عديدة مضت ، والمرة الثانية حدثت اليوم . كان وجهها ، وعيناها بصفة خاصة يشعان بالنقاء والطيبة ، والفرح الخالي من الهم . كانت تتحرك حركات لينتة ، ولطيفة وتسكب للضيوف لبن الفرس ...

أكل الرجال لحمياً طيب الرائحة يذوب في الفم لمهربلغ من العمر عاماً ، وكان يتغذى على اللبن ، وتحدثوا عن الصيد بالنسور، وعن الخيول . وعندما قالوا كلمات مناسبة تحتمها العادات ، قاموا ، ورجعوا أدراجهم تدريجياً إلى منتصف اليورت (المنزل) ، ورأت التوكال بنظرتها الثاقبة علبة السعوط في نفس المكان الذي كان يجلس فيه السلطان باراك . أضاءت عيناها بالسعادة ، واتخذت وضعيتة مريحة ، وكشفت عن كامل ركبتها من تحت الحرير .



عندما ذهبوا الى اليورت الرئيس تذكر السلطان باراك فجأة أنه ترك علبة السعوط فى حجرة المعيشة. ذهب لياخذها ، وفي الطريق ، كان من الواضح ، أنه تأخر في مكان ما . وعندما عاد نظر أبو الخير بدهشة إلى وجهه الشرس ، ولاحظ ابتسامة شريرة لاتكاد ترى على حافة شفثيه . ولسبب ما تكدر مزاج الخان على الفور . لكن إذا قالوا له شيئاً ما سيئاً عن أصغر زوجاته ، فإنه لن يصدق مرة أخرى .

الآن تكلم أبو الخير فقال بشكل متزن وهاديء :

- منذ أن قررنا بعد تفكير عميق الانضمام إلى الإمبراطورية الروسية ظهر لى أعداء كثيرون . وأعتقد أن هؤلاء الناس كانوا بطريقتة أو بأخرى أعداء لى ، وكان قرارنا فقط هو الدافع ليوجهوا لى الاتهام . وإن لم أتخذ هذا القرار لكانوا وجدوا شيئاً آخر غيره... وغني عن القول أن الانضمام إلى دولة أكثر قوة هو خضوع وتبعية . والتبعية دائماً مذلة، وبها مابها من الأشياء الكثيرة غير اللطيفة . ولكن ليس لنا خيار آخر...

وهنا تحدث فجأة «سيرين دورجي» الصامت حتى تلك اللحظة . كان صوته على غير المتوقع رقيقاً وعالياً مثل صوت المرأة . كان يخلط بين الكلمات ، ويتكلم باستياء شديد .

قال وقد حرك الجزء الأسفل من جسده بغضب ، كما لو كان يريد أن يطحن الوسادة الحريية الجالس عليها ويحولها إلى مسحوق :

- لماذا تقول أيها الخان الكازاخي إنه ليس هناك خيار؟! - سوف نجند كل الأقوياء لخدمتنا . أنت أيها المحارب وأنت أيها المحارب .

شاهد الخان أبو الخير نظرة البطل بوجيمباي . كان ينظر إلى النويون بكرهية ، واشمئزاز .

سأل الخان بطريقتة خاصة ليجعله يتحدث بصراحة .

- ولكن ماذا عن الأراضي الكازاخية أيها النويون المجيد؟ - وإلى أين سنرتحل؟! .. ولم يبق من مراعيينا سوى نصفها !



قال النويون :

- ألم أقل إننا سوف نستخدم المحاربين الأقوياء - أما الضعفاء فلماذا نتركهم؟ من يحتاج إليهم؟ فلندعهم يموتون! ..

صمت الخان أبو الخير ثم قال :

حسنا... - قل لي أيها النويون هل رأيت كيف تطلق المدافع الروسية ذخائرها ..

صاح النويون الجونغاري :

- سوف يعطينا البوجد يخان مدافع كثيرة... - سوف يعطينا ألف مدفع .

نظر السلطان باراك إلى قريبه بتجهم . فقد كانت عشيرة نايمان ، التي ينتمي إليها السلطان الجار الأقرب للجونغاريين ، والعشيرة الأولى التي كانت تتصدى لغاراتهم . غير أن هذا الجوار مع العدو يؤدي عن غير قصد إلى توثيق العلاقات . ويحدث هذا بصفة خاصة في كثير من الأحيان بين شعبيين من الشعوب الزحل . أقام محاربو عشيرة نايمان صلوات وثيقة مع الجونغاريين ، وكثيرا ما شاركوا معهم في الاقتتال الداخلي الخاص بهم . لذلك ميزوا بصفة خاصة طبقة التوري ، الذين زوجوهم بناتهم عن طيب خاطر أو تزوجوا من نساءهم . ولكن عندما كان الأمر يصل إلى الحرب ، فإن هؤلاء المحاربين من عشيرة نايمان يكونوا في مقدمة صفوف المدافعين عن بلد الكازاخ . وقد كان من عشيرتهم العديد من الأبطال المشهورين الذين تصدوا للغزو الجونغاري . وإليهم ينتمي ، على سبيل المثال ، البطل «كابانباي» المتغنى باسمه في الحكايات الشعبية...

قال السلطان باراك بتجهم :

- ألا تذكر الشورشوتيين (الصينيين) ... - إن الشورشوتيين بمدافعهم أفضل كثيراً من أصدقاءك الروس!

- لقد طلبت من الملكة الروسية بناء مدينة على ضفاف نهر جايك وأوري ... واصل الخان أبو الخير حديثه الذي قطعه النويون . - وصحيح أن القلعة الروسية على أوري ستكون مفيدة لي ، أنا خان الجزء الأصغر . وسأتمكن في النهاية من الاعتماد عليها في



توحيد الكازاخ ...

قال السلطان باراك :

لكن هناك خان رئيس للأجزاء الثلاثة ، وهو «أبيلمامبيت» . - وهو من ينبغي عليه أن يبت في هذه الأمور!

لم يجب الخان أبو الخير على ذلك ، ولكن السلطان باراك أدرك أن مقاله غير صحيح . ذلك أن الخان «أبيلمامبيت» لم يكن يملك أي نوع من السلطة الحقيقية .

قال أبو الخير دون أن يغير من لهجته :

- نعم أريد توحيد الكازاخ ، وحينذاك فقط ، سيحسب الجميع لنا حسابا ..! - أما سمعت حديث البطل بوجيمباي عن السمكة؟ إن الناس تريد نفس الشيء! ..

كان «سيرين دورجي» ينفخ بغضب ، ولكن عندما تحدث كانت لهجته مختلفة فقال :

يقولون عندنا نحن الجونغاريون : « يتصادق القنفذ مع الخلد حتى يدخله إلى جحره ، وهناك يغرر أشواكه في جسده» .

سأل البطل نايمان :

هل تتحدث أيها النويون عن القنفذ الشورشوتي وحيوان الخلد الجونغاري؟

هز الخان رأسه وقال :

- أيها النويون «سيرين دورجي» إننا لانعرف بعد ما هي المتاعب التي ستأتينا من المدن الروسية - لكننا نعلم جيدا الحبل الجونغاري . والأسوأ منه الخداع الشورشوتي . وأنتم تعلمون ذلك أفضل منا !



قال سيرين دروجى متوعداً :

- إذن ، سأخبر يا خان أبو الخير ، حاكمنا الجونغاري العظيم بهذا القرار. - ولسوف تأتي إليك جميع قواتنا في إرجيز!

- حسنا فإنني لم أر وجه «جالدين تسيرين» السفاح منذ فترة طويلة في ميدان قتال..!

- ستراه قريباً يا خان ... في آخر لحظة من حياتك!

قام النويون الجونغاري من مجلسه ، وانحنى انحناءة خفيفة ، ثم غادر الغرفة. وقام أيضاً بباراك.

- انتظر دقيقة يا سلطان باراك! - أشار الخان أبو الخير إلى الوسادة ، وجلس السلطان مرة أخرى .. كما قلت فإن «تيفكليف» رسول الملكة في طريقه إلينا. وبالطبع فإنه سيأتي لغرض معين. على الأرجح أنه سيطلب منا الدخول في طاعتهم ، مع حلف اليمين، ومشاركتنا في كافة شؤون المملكة. فكيف نرد على «تيفكليف» ؟

قال السلطان باراك بتجهم :

- وما هو الرد برأيك أنت؟ .

- لقد اتخذت قراري قبل خمس سنوات .

- وأنا اتخذت حينذاك قراراً مضاداً !

- هذا يعني أننا سنقص ذيول الخيل؟

قص ذيول الخيل كان يعني نهاية الصداقة. وهما لم يكونا صديقين من قبل - أبو الخير خان والسلطان باراك - لكن الحديث الآن تطرق إلى أشياء أكثر خطورة من العلاقات الشخصية. فقد كانت مضارب الترحال لعشيرة نايمان قريبة جداً في جونغاريا بحيث لا يمكن التعامل مع هذا الأمر باستهانة ...

- كما تشاء يا خان أبو الخير..



ساد صمت مطبق في اليورت بعد رحيل السلطان باراك . ووقف الحراس عند الباب،
والسيوف في أيديهم كأنما تحولت إلى حجارة . ودخل غناء الرياح عبر جدران الشعر .

قال البطل تايمان :

- اسمحوا لي أن أتكلم يا سيدي الخان!

- تكلم أيها المحارب !

- كلما بقى عدد كبير من الكازاخ على قيد الحياة في هذا الوقت الصعب أصبح
لدينا مزيد من الأمل في المستقبل . لذلك فقد اتخذت القرار الصحيح بأن تستند بظهرك
على الروس . كان السلطان باراك يفكر في السير بين نارين دون أن يحترق جلده . وهذا
غير ممكن إذا كانت النار شديدة الاشتعال ...

سأله الخان :

- ما هو الشيء الذي يكدرك أيها المحارب ؟

- هل أصبح الأمراء الجونغاريون أصدقاءنا وهم من داسوا منطقتنا بأقدامهم ؟ أو أنهم قد
خرجوا من أرضنا حتى نتصادق مع أكثرهم دموية- جزار النساء والأطفال - سيرين دورجي؟
لكن بغض النظر عن ذلك ... لماذا تحدثت يا سيدي الخان في وجوده عن خططنا الشديدة
السرية ؟ وإذا كان هذا النويون يناصب حاكمه الجونغاري العداة أضعافا مضاعفة ،
فعندما يتعلق الأمر بسفك دمائنا ، فأنهم سرعان ما يجدوا لغة مشتركة . وغدا سينقل
مأقيل هنا حرفيا إلى الذئب المتعطش للدماء جالدين تسيرين! ..

- لم أكن لأتكلم بهذه الصراحة عن نوايانا إلا إذا كنت واثقا أن النويون « سيرين
دورجي » لن يمثل أمام الحاكم الجونغاري مرة أخرى !

- وماذا سيحدث له ؟

- إن الموت بانتظاره عند الصخرة الحمراء !

- هكذا إذن ..



نظر الفرسان إلى بعضهم البعض ، بدءوا في التفكير .

سأل البطل تايمان :

- ومن سينفذ الحكم عليه ؟

- أنت أيها المحارب !

- لكن ... لكن السلطان باراك سيكون معه !..

- لا تمسه بسوء . وتذكر أنه لا ينبغي لأحد من رجال النويون أن يغادر . فقد رأى الجميع كيف أنهم غادروا منزلي بسلام . ودعهم يقولون بين الجونغاريين إن السلطان باراك لم ينقذ ضيفه . وجميع الوسائل جيدة عندما تعيد المحارب الشارد إلى النظام ! ..

لم يمض الوقت الكافي لحلب فرس حتى قام عشرون من الفرسان بإختراق نبات الديس على الساحل ، وذهبوا إلى السهوب . وكان في مقدمتهم البطل نايمان الذي كان يرتدي عمامة ملفوفة على رأسه ...

بقى الخان أبو الخير وحده . فكم قليلا ، ثم توجه إلى الحائط ، وأخذ آلة الدومبرا الموسيقية الخاصة بجده ، والمزينة بريشة بومته . طار اللحن الجامح القوي من اليورت الرئيس . وتحول الغضب ، والمرارة ، والتعطش للانتقام إلى أصوات مزعجة تستولي على القلب . وحول الناس على الجانب الآخر من النهر رؤوسهم إلى مقر الخان ...

عندما غادر السلطان باراك إرجيز كبح جماح فرسه .

سأل النويون سيرين دروجى الذي تنحى أيضا عن الفرقة المرافقة له :

- لماذا تحيد عن الطريق يا سلطان ؟

قاطعه السلطان باراك قائلاً :

- وهل بعثك الله رقيباً عليّ ؟ إذا كان السلطان باراك قد كبح جماح مشاعره نوعاً ما في وجود الخان أبو الخير فإنه قد أطلق لها العنان هنا . وبطريقة أو بأخرى فقد انزلت رأس



البيجادور من على كتفيه بضربة من سيف السلطان الرهيب. وعلى الرغم من أنه ربط مصيره بالنويون الجونغاري عن طيب خاطر، لكنه لم يخضع له ...

عبر السلطان النهر، ثم توغل في الغابات الشاطئية. وأعطى أحد جنوده الحامل لسلاحه مقود فرسه، ثم مضى في طريقه وحيداً.

ظهرت من بين نباتات الديس مدينة الخان بمنازله الثلاثة البيضاء المتشابكة. اختبأ السلطان باراك، وانتظر حلول الظلام. وأحدثت شجرة البتولا الوحيدة حفيفاً بأوراقها فوق رأسه ...

عندما أوقدت النيران عند المنازل، والخيام العسكرية، أومض ظل نحيل في الممر المضى بين الشجيرات. سعل السلطان بصوت يسمع بالكاد، وانحدر الظل إلى البتولا المبيضة في الظلام. ودون أن ينطق بكلمة واحدة رفع زوجة الخان الصغرى، وضمها وسقطا معا على نبات الديس الناعم ...

ظهر ظل آخر عند شجرة الصفصاف. أخذ الخان أبوالخير يفرق فروع الشجر بذراعيه، ثم جمد في مكانه، وأخذ يحدق في غبش القمر الساطع. خيل له أنه سمع بالقرب منه تأوهات مؤلمة سعيدة، فتحجر قلبه. حدق في الظلام، لكنه لم ير شيئاً. وتكررت التأوهات مرة بعد مرة، وصار الضحك يخرخر كمياء الربيع. وقف الخان بلا حراك، واعتقد أنه لم يسمع في حياته قط مثل هذا الضحك. ثم التفت فجأة، ومشى بعيداً.

في هذا الوقت همست «نوربيكي» بصوت غريب: «أنه زوجي ... أرسل البطل تايمان ... ليقتل صاحبك الجونغاري ... عند الصخرة الحمراء».

تحت قدم الرجل الثقيلة طقطقت الأغصان، وصاح السلطان باراك بأعلى صوته بوقاحة «لماذا لم تتكلمي أيتها الحمقاء الملعونة؟!». تعلق بساقه، وطلبت منه البقاء بصوت حزين، وأن يظل معها فترة أطول قليلاً. لكن السلطان تملص منها باشمئزاز، وركض إلى النهر، مكسراً الشجيرات بصخب..



بكت ، وانتحبت بصوت ضعيف مثل «جرو» ترك في السهوب . ثم نهضت من الأرض، ونظفت فستانها لفترة طويلة. وعندما اقتربت من القرية ، ارتجفت وصرخت من هول المفاجأة. فأمامها كان يقف زوجها . وفجأة بغريزة حيوانية أدركت أنه ليس زوجها، وإنما خان الجزء الأصغر أبو الخير الحكيم عظيم الخبرة .

في الصباح ذهبت الجميلة «نوريكي» زوجة الخان الصغرى مع قافلة خاصة إلى أبيها «خيسان بك» على ضفاف نهر سيحون داريا . وقالوا في القرى إن الخان قد سئم من تصرفاتها الغريبة وغبائها ، وأن الخان أبا الخير شعر بالراحة ، عندما تخلص من زوجته المزعجة ...

بحلول مساء ذلك اليوم وفدت إلى خيام الخان مجموعة من الفرسان يعلوها التراب .
ترجل البطل تايمان الذي كان في المقدمة عن فرسه ، ودخل إلى الخان .

قال الخان أبو الخير بعد التحية الواجبة :

- تكلم أيها البطل !

أحنى البطل تايمان رأسه في صمت .

- لقد سمعت أن شيئاً ما قد حدث عند الصخرة الحمراء ... - انحنى الخان على عادته إلى البطل الجالس في موضع أسفل منه . - أم هي مجرد شائعات .. تكلم أيها المحارب !؟..

- لم يحالفنا التوفيق ياسيدي الخان ...

- كيف حدث ذلك؟

- جميع الجونغاريين الذين كانوا مع النويون ، ذبحهم جنودي كما أمرتم ، وهم نائمون. أما النويون فوفقاً للقواعد دعوته للقتال ...



لم يتحمل الخان أبو الخير إيماءة خيبة الأمل . وعلى الرغم من أنه كان يدرك أن لن يحمى سلطته بنبل الأخلاق ، لكنه اضطر إلى أن يتماشى مع التقاليد السائدة بين المحاربين. كان الخان أبو الخير يعتقد أن مثل هذه الأمور المهمة لا يجب إسنادها للفرسان، وإنما لبعض الناس الذين لاتعنيهم هذه الخرافات ، وقواعد الشرف. وليشتغل الفرسان بالحرب فقط ...

- حسنا ، وبماذا إنتهت مبارزتك يابطل ؟

- لقد ألقته إلى الصخرة ، وانترعت سيفه من يده ، وفجأة سمعت الصيحة الكازاخية «أرواح!»

- لقد كان السلطان باراك !

- حسنا ياسيدي الخان ... فهل كان بإمكانى محاربة رجل وقف بجانبى كتفا بكتف في ثلاثة من أعنف المعارك ضد الجونغاريين؟!

- لقد تصرفت بشكل صحيح أيها البطل . فالقاعدة القديمة تقول : «لايزيح الثلج إلا الثلج ، أما الخان فلا يعاقبه إلا خان مثله!» هذا ليس مثالا جيدا للشعب عندما يرفع رجل مثلك ، من عامة الشعب هراوته على سلطان تورى دون إذن من تورى آخر! ..

ابتسم البطل تايمان ابتسامة عريضة وهز رأسه بصمت .

إندهش الخان أبو الخير وقال :

- الاتعتقد ذلك أيها البطل ؟

- وهل الوقت يسمح الآن بالحديث عن ذلك ياسيدي الخان ..

- إن «سيرين دورجي» سوف يكون عند الحاكم الجونغاري بعد أسبوع...!

كان الخان أبو الخير دائما ما يذهب بعيداً في السهوب عندما كان يتعين عليه أن يفكر في أي أمر يعن له . وقد صاحبه في رحلته هذه الكلب الضخم صائد الذئب مقطوع الأذنين ، وكان على مقربة منهما ولكن على مسافة مناسبة وقف أفراد الحراسة الشخصية. هنال لم يراحد تعبيرات وجهه ، لذا كان من الممكن أن يطلق لأفكاره العنان...



ولكن فيما سيفكر الخان أبو الخير . لقد كابد في ليلة واحدة خيانتة ، وغدر زوجته الحبيبة ، وفشل الفخ الذي نصبه لأشرس وأخطر نويون جونغارى الذي سمع الكثير من الأسرار ، ولاشك أنه سيبلغها إلى الحاكم الجونغارى . وسينصب كل غضب «جالدين تسيرين» السفاح عليه مباشرة . بالإضافة إلى السلطان باراك الذي كان يظهر احترامه له حتى ذلك الحين ، لكنه من الآن فصاعداً ، أصبح عدواً صريحاً . وهل . الخان أبو الخير نفسه أن يغفر للسلطان الشرس ما حدث في تلك الليلة؟

لم يكن الخان أبو الخير رجلاً طيباً ، وضعيف الإرادة كما وصفه العديد من الأعداء والحاquدين . وأفضل شيء يتحدث عن شخصيته ، وقدراته تلك الإنتصارات التي أحرزها مرارا وتكرارا على أشرس عدو في تاريخ بلاد الكازاخ . وتجلى دم سلفه جنكيز خان تماما في تصرفاته ، ولم يقل قسوة عن أى أحد من أقاربه التوريين (الجينكزيين) .

كان سوء حظ الخان أنه ينتمي إلى الفرع الأصغر سنا من الجينكزيين ، وأفراد هذا الفرع طبقا للقانون المنصوص عليه منذ زمن ، لا يمكنهم أن يصبحوا خانات رئيسيين للأجزاء الثلاثة . كان كل شيء يتحرك في السهوب : الحيوانات والطيور والمنازل ، لكن الشيء الأبدي ، وغير المتغير بين الرجل هو قانون الأجداد . وكما تم الاتفاق عليه منذ العصور الماضية ، فإن هيكل السلطة في بلاد الكازاخ كان يملكه سلاطين الجزء الأوسط أحفاد كيري ، وجانيبك . ومهما صنع أبو الخير من بطولات فإنه سيظل خان الجزء الأصغر . حتى هذه الخانية نفسها كانت غير شرعية ، وظهرت فقط بسبب ضعف سلطة الخانية الرئيسية على الأجزاء الثلاثة . وكان الخان يدرك جيداً أن خانيته تعد مثل عائلة الابن الأصغر الذي يعيش في بيت مستقل صغير بجوار منزل والديه الكبير ...

ولم يشفع للخان أبو الخير أى شيء حتى قيامه بقيادة جميع محاربى الجزء الأصغر والجزء الأوسط في الأوقات الصعبة للكارثة الوطنية . وكان أول من أدرك من الخانات الكازاخ أن الغزو الجونغارى ليس غزوا عرضيا ، وإنما بداية لقمع طويل الأمد مستمد من أباطرة المانشو الصينيين . وكان أبو الخير هو من ربط بحزم ودون رجعة سياسته بروسيا . ومشى وراءه على طريق الانقاذ الوطني خان الجزء الأوسط ساميكى ، مما يؤكد بالتالى بعد نظر الخان أبو الخير . وبعد أن ربط نفسه بروسيا أخذ يسعى وراء أهدافه السرية . ومن الممكن أن يعترف بذلك وهو منفرد بنفسه . ولكن من غيره الآن يصلح للقيادة؟!



فجأة أدرك أبو الخير الحازم ، والتورى الجنكيزي القاسي المستعد للحنث باليمين ، ومباشرة القتل من أجل تحقيق الهدف المنشود أنه حتى وهو وحيد في السهوب الخالية لا يجرؤ أن يطلق على نفسه الخان الأعظم . ماهى تلك القوة التي تكمن في التقاليد القديمة؟ أيكون جنكيز خان حقا قد تلقى من الله حق اللعن؟ .. لكن هاهم الفرسان من العوام قد تجرءا على انتهاك العديد من القوانين المتبعة في السهوب . وبمجرد أن يلوح خطر الحرب تتفكك جميع غرز النظام القديم ، ويصبح عوام الناس على رأس الميليشيات ، وينصاع كثير من السلاطين لهم . ربما ينبغي عليه القيام بذلك مثل مايفعله هؤلاء الناس؟!

توقف الخان أبو الخير ، ونظر حوالياه ليتأكد هل يستمع أحد إلى أفكاره العجيبة ؟ لا بالطبع فالخانات لايسرون عبر هذا الطريق ، فهل يأبه «بالعظام السوداء» . ولسوف تأتي نهاية العالم بسرعة كبيرة .

على أية حال ... من أجدر منه باعتلاء عرش جميع الخانية الكازاخية ! .. هل هو ساميكي عديم الموهبة خان الجزء الأوسط؟ .. أم شقيقه جولباريس الذي يحكم الجزء الأكبر مناصفة بالعصيان ؟ .. ولا أحد يعد «بولات» المريض والكسول الخان الأعظم للكازاخ . وكذلك لايعد الكثير من الناس ابنه «أبيلمابيت» حاكماً أعلى لهم . يقولون ان أمالا كبيرة تنعقد هناك على الشاب الصغير أبلاي . ففي سن الثالثة عشرة أصاب بسهمه طائراً محلقا ، وأثناء عدو فرسه وهو مستقر على صهوته قطع بسيفه رأس سيغا (ظبي) هاربة . لكن على أي حال ، فالسلطان أبلاي لايزال صغيراً للوصول إلى سجادة اللباد البيضاء والتي يرفعون عليها الخانات العظام . أما هو ، أبو الخير ، فسيجد عدداً قليلاً من العشائر في الجزء الأوسط ، والجزء الكبير الذين يمكنهم أن يرسلوا أفضل رجالهم ليحملوا حواف سجادة اللباد البيضاء .

بالإضافة إلى ، ذلك فإن البايات والسلاطين متغيرون ، ولايثبتون على شيء . فما إن يضغط عليهم الأمراء الجونغاريون في الصيف حتى يفرون إليه طالبين منه الحماية مما يعني الحماية من قبل الحصون الروسية . ولكن ما إن ما تحل عليهم هدنة قصيرة لالتقاط الأنفاس حتى يرفض العديد منهم سلطته ، بل ويلعنونه من أجل الاتفاق الذي عقده مع الملكة . لم يكونوا يلعنونه بسبب الملكة ، ولكن في الحقيقة كان هؤلاء السلاطين الكثيرون يخشون من أنه بعد حصوله على الدعم الروسي سرعان



ماسيخضعهم لإرادته ، ويسلب الحريات والامتيازات ، ويحد من قوتهم غير المحدودة على قراهم . هذا هو الوضع على حقيقته . وإذا كان «أفضل الناس» في الكثير من العشائر يعارضون ذلك ، فإن غالبية الكازاخ يؤيدونه الآن على أمل ألا يحميهم فقط من الغزو الجونغاري ، ولكن أن يحد من السلطة غير المحدودة لبايات العشائر ، والسلاطين الذين اشتد ظلمهم أثناء الغارات الجونغارية . وازداد الناس فقراً فاستغل البايات ذلك الأمر ، وحولوا المحاربين إلى عمال أو عبيد . أليس يسانده لذلك السبب محاربون مثل بوجيمباي ، وتايمان ؟ وقد كان من الأفضل دائماً لغالبية الرحل أن تحكم السهوب يد واحدة . ولم يكن الخان أبو الخير غيبياً لدرجة أن لا يستفيد من الدعم الشعبي . وحكمة الحاكم تتلخص في استخدام الهبة الشعبية العارمة من أجل تحقيق مصالحه .

لكن هل يفهم ذلك الخان «أبيلمامييت» ، وباراك ، والسلاطين الآخرون ؟ ومن ذا الذي سياساندهم في السهوب إذا قاموا بعد هذا الغزو الجونغاري الدموي بالوحدة مع الحاكم الجونغاري أو مع أمرائه ؟ ألا يرون التنين فاتحاً فاه من وراء ظهر الحاكم الجونغاري ؟ .. إن توددهم للأمراء الجونغاريين بما في ذلك قدوم السلطان باراك مع صهره يجب أن يكون بمثابة تحذير لأبي الخير بعدم الذهاب بعيداً في علاقاته بروسيا . أنهم يخافون من توطيدها كما يخافون من النار . وهذا يعني أنه يسير على الطريق الصحيح !

ثم ... ثم أليس من الواضح للجميع أن الدول التي يكون فيها الناس والثروة في حركة دائمة لا يمكن أن يكتب لها الاستمرار كثيراً ؟ وكيف يمكن في هذا الحالة القيام باستخراج المعادن ، وصهر الحديد ، وتصنيع المدافع ، والتحصن ضد أسلحة العدو النارية ؟ يجب أن يتعلم الجميع ذلك . يجب أن يتعلم الناس بناء المدن ، وصهر الحديد ، وزراعة القمح . وهل هناك أحد يمكن أن نتعلم منه تلك الأشياء أفضل من روسيا ؟ ثم إن الجونغاريين يقفون في نفس موقفنا . فقط وحدهم الأمراء الجونغاريون المتوحشون لا يفهمون ، أو يتظاهرون بأنهم لا يفهمون ذلك الأمر . إن لديهم في جيشهم نفس الهروات ، والسيوف ، والأقواس التي لدينا . وجميع تومينات (فرق) الحاكم الجونغاري لا يمكنها التغلب على قوات الملكة الواقفين على خط حدود سيبيريا . ولكن أولئك الجنود هم واحد في الألف فقط من شعبها . وعاجلاً أم آجلاً سوف يضطر الجونغاريون إلى الاختيار بين روسيا والصين . وسيختار الجونغاريون روسيا أيضاً لأنه ليس هناك شيء أسوأ من الأباطرة الشورشوتيين (الصينيين) .



والآن يعلن أولئك السلاطين الحمقى القادرين فقط على سرقة الماشية من بعضهم البعض أنه خائن لسماحه ببناء المدينة الروسية ، ومن أجل المفاوضات ، والانضمام الى روسيا . لا إن الخائن ليس ذلك الذي يقود الزورق بمهارة أثناء العاصفة العاتية ، ويخرج به إلى المياه العميقة . أنهم هم الخونة الصارخون الذي يسحبون بلد الكازاخ إلى المياه الضحلة الجونغارية ، والتي يرى خلفها بوضوح الصخور الشورشوتية السوداء! ..

ودعهم يعتقدون أن «أبو الخير» يتخابث بانضمامه إلى روسيا . فهو يعلم بأية مقترحات سيقدم عليه «تيفكلييف» . وهو يعرف أيضا بعض الحكام الروس المتغطرسين والأغبياء في الخط الحدودي الذين يكتبون عنه وشايات ، ويرسلونها إلى الملكة متهمين إياه بالمكر . كلا أنه لايمكر ، ولكنه يرى ماسيكون في المستقبل مثل الخير والشر ، والشيء المفيد والشئ غير المفيد . وأنه سيوافق على اقتراح الملكة بإرساله أبنائه إلى بلاطها . هكذا يفعلون في كل الدنيا من قديم الزمان . ولن يصبح أطفاله ضيوفا أو مقربين هناك بل سيكونون رهائن . حسنا أنه واثق من صحة اختياره ، ولن يحيد عن الطريق . وليكن أولاده أول الكازاخ الذين سيتعلمون هناك كل مايلزم في المستقبل .

إن أولاده المحببين : هم نورالي ، ويرالي ، وباتير ، وأيشواك وكوجاخميت ، وجنكيز من زوجته الجونغارية . وقد أرسلهم خانهم أبو الخير مرارا وتكرارا إلى القلاع الروسية قبيل اتخاذ القرارات المهمة والإجراءات المشتركة . وإزاء ذلك الصراع الدموي الداخلي الذي كان السلاطين يشعلونه في السهوب من حين لآخر كان أبنائه هناك في أمان ، ثم إن الحكام الروس كانوا يثقون به حينذاك ثقة كبيرة .

لقد كان لديهم كل الأسباب ليتعاملوا مع موطنهم الجديد بريبة . في عام ١٧٣١ م استغرق تيفكلييف تقريبا عاما كاملا ليعود إلى روسيا من السهوب .. فلقد اتهم بايات و سلاطين الجزء الأصغر والجزء الأوسط المستبدين سفير الملكة بالتجسس ، وعزموا على قتله . وفي هذا الوقت بالذات شن زعماء القبائل البشكيرية التابعين لروسيا غارات على الأراضي الكازاخية ، وهو ما زاد في العداء تجاه «تيفكلييف» . أنقذ السفير الروسي حينذاك البطل بوجيمباي وقريبه البطل يسيت الذين رافقوا السفارة بعد ذلك حتى الحدود ... أما عن الهجوم على القوافل الروسية ! ألم يكن للحكام الروس الحق في أن يفكروا أن الخان أبو الخير نفسه هو من ينظم كل هذه الأفعال الخارجة على القانون ؟ فهناك ، عند الملكة ، يعتقد معظم المستشارين أن الخان يمتلك السلطة المطلقة ...



استيقظ الخان الغارق في التفكير ، وحول رأسه . فقد تنامى إلى سمعه صراخ وبكاء لامرأه يدميان القلب . لقد اجتاح الفرسان السهوب ، وأمامهم كانت تمتطي سهوة حصان عجوز أجرب امرأة مسنة .

- آه... آه ..

- آه ، كارثة ، كارثة ..

إذن فقد قتلوا شخصاً ما .. كيف لم يفهم على الفور! لقد استشهد في الليل أثناء المعركة مع الحاكم الجونغاري اثنان من جنود البطل تايمان . كان من غير الممكن أن يأتوا بهما إلى القرية حتى لا يكتشف سر الهجوم الليلي على النويون «سيرين دورج» ، ووضع الموتى على مشارف القرية .

لقد وجدوهم الآن ...

- آه يا قريبنا !

- الوحيد !

قام الكلب صائد الذئب الأسود بالكشف عن أسنانه ، واندفع إلى الأمام . وهرع الحشد الصارخ الباكي إلى مكان قريب ، ولكن المرأة واثنين أو ثلاثة من أقاربها توجهوا على خيولهم مباشرة إلى الخان . وعندما اقتربت ، نزلت عن الحصان ، وخدشت وجهها بأظافرها ، ونزعت شعرها من رأسها ، وزحفت إليه . أمسك الخان بالكاد بحزام كلبه المتوحش الذي حاول التشبث بحلق المرأة التعيسة . وهبت المرأة واقفة ، ورفعت يدها بإشارة اللعنة :

- أنا أعلم ... أنا أعلم .. أنه أنت يا خان أبو الخير من أرسلت ابني إلى الموت ... فلتحل عليك اللعنة ... وليحل عليك الشقاء في الدنيا والآخرة .. ولتصرخ وتئن في قبرك إلى الأبد!

قال الخان بهدوء :

- أمسكي عليك لسانك أيتها التعيسة ..! - ليس أولادك وحدك هم من ماتوا ...



أخذت المرأة تنوح بصوت أقوى من ذي قبل مرددة (أوى، باى، أوى) ثم قالت:

- فلتحل اللعنه على جدك وأب جدك ..! .

وفجأة تفلت الكلب صائد الثعالب من بين يدي الخان . وقبل أن يتمكن من القفز إلى حلق المرأة أصدر الوهق (الحبل التي يصطادون بها الحيوانات) الأسود أزيزاً في الهواء، وسقط الكلب ميتاً بكسرفي الجمجمة. فعل ذلك أحد الرعاة من فوق حصان رديء أحمر اللون .

في نفس اللحظة أصدر شيء ما صفيراً في الهواء ، وسقط الراعى من فوق حصانه عن طريق وهق مجدول ألقى عليه من مسافة بعيدة . فجاء أحد حراس الخان مسرعاً ، وصاح في الراعى :

- أه يا كلب يا عديم الأصل !.. وماذا لوقع الحبل على الخان؟!

صنع الخان علامة بيده . أطلق الحراس على الفور سراح الراعى . وقد ساعد هذا الرجل المرأة التي فقدت ابنها على الصعود إلى السرج ، وانصرفا دون النظر إلى الوراء ...

نظر الخان لحظة إلى كلبه صائد الذئب ، ثم ساربتثاقل إلى خيمته. وتنحى الحراس جانباً .

سار وما زال لا يستطيع أن يتذكر أين رأى هذا الراعى الذي قتل كلبه الوفي . وأخيراً تذكره هو والمرأة . نعم أنها هي تلك الفتاة ! .. لقد شن في سنوات عمره الأولى غارة صغيرة خاطفة على القرى الكاراكالبكية الواقعة عند مصب نهر جيحون داريا . وهناك أسر الفتاة وشقيقها . وقد أرادت الفتاة الهرب لتعود إلى قريتها حيث كان يعيش هناك خطيبها . لكنهم كانوا يقبضون عليها في كل مرة .

ثم بناءً على أوامر الخان زوجها لأحد الحراس . وأصبح شقيقها أيضاً واحداً من الحراس . ترملت المرأة ، وجاءت ذات مرة في الشتاء القارس تطلب مساعدة ما من الخان . وقام أحد كتبة الخان بكتابة الطلب لها . ولكن الشيء الطريف هل أعطوها شيئاً ما حينئذ ؟ ..



كان ابنها طويل القامة متين البنيان يدعى حسين . وكان يمكن أن يكون فيما بعد فارسا جيدا . لكنه دون حذر وضع في الظلام رأسه تحت السيف الجونغاري . وإذا قتل المحارب في معركة حقيقية ، فإن الحزن كان سيصبح أقل . لكن تم العثور عليه في أرض خالية خارج القرية فتساوى بذلك مع المشردين ، وسيدفن على هذا الأساس .

ماذا يفعل الآن؟ لقد وجهت إليه المرأة لوما شديدا . في الحقيقة لا أحد سمع بهذا الحديث . لكن ألا يسقط هيبتة هذا التساهل؟ ثم بأي كيفية يعاقب هذه المرأة وشقيقها؟

لم يستقيظ الخان أبو الخير من أفكاره ، إلا في وقت متأخر من الليل . انطفأت النار بالقرب من الخيام ، وشم رائحة الدخان الدافئة المصاحبة لذلك . نهض من فوق الحجر ، ورأوا فجأة أنه يجلس أمام دائرة سوداء كبيرة . في هذا المكان كانت توجد خيمة زوجته المرحمة نوربيكي ...



III

من الصعب التأريخ لفترة انضمام بلد الكازاخ إلى الإمبراطورية الروسية اعتماداً على وثيقة واحدة. لقد كانت عملية طويلة ، معقدة ومتناقضة امتدت لعقود . ولا يمكن ربطها باسم أحد الأشخاص أو حتى بضعة أشخاص . ومثل أية ظاهرة تاريخية عادية نجمت عن أسباب مختلفة لنظام اقتصادي وسياسي وعسكري ، وكان لها الكثير من المؤيدين والمعارضين الذين كانوا يختارون المواقف تبعاً للأسر الحاكمة، والنزاعات العشائرية، وداخل العشيرة نفسها ، والوضع السياسي والجغرافي لهذه أو تلك المجموعة من القبائل، والعشائر، والتوجه التقليدي . وبسبب طريقة حياة الترحال، والوضع العام غير المستقر في السهوب الذي تسبب فيه ، وعززه الغزو الجونغاري كان موقف زعماء القبائل يتغير طوال الوقت . كان معارض الإنضمام بالأمس يصبح غداً من المؤيدين المتحمسين والعكس بالعكس . ولكن على أية حال دارت عجلة التاريخ، وألقت بلا كلل من الساحة التاريخية كل من تخلف عن درب الحياة الذين يعيشون في الماضي، والراكدين، والمتحجرين . وكما هو الحال دائماً في مثل هذه الحالة تناثر رذاذ الدم من تحت هذه العجلة في جميع الاتجاهات . واقتحمت السهوب الكازاخية رياح التاريخ الحديثة الحادة ، عديمة الرحمة ، والتي لا يمكن مقاومتها ...

وفقاً للوثائق الرسمية تم إعطاء الخان أبو الخير مرسوماً صادراً من الملكة «أنا إيفانوفا» جاء فيه أننا نقبلك «أنت» أيها الخان القيروغيزي الكايساكي أبو الخير، والقوات التابعة لك تحت إمرتنا ...». وتماشيا مع هذا المرسوم ، تعين على أبي الخير أن يخدم الملكة بصدق وإخلاص ، ويخضع جيشه خلال الحرب للقيادة العامة الروسية، وألا يشن غارات على مستوطنات يايك، والقوزاق ، فضلاً عن الشعوب المنضمة لروسيا مثل الباشكيريين، والكاميك ، وغيرها ، وعدم نهب القوافل الروسية ، وإعادة الأسرى الروس فوراً إلى وطنهم.

في عام ١٧٤٠م عندما أقر الخان أبو الخير انضمامه ، وأقسم خان الجزء الأوسط «أبيلماميت» مع ابن شقيقه السلطان «أبلاي» يمين الولاء للإمبراطورة الروسية فأنتهم جميعاً ، وكذلك ٣٩٩ من «أصحاب النفوذ» ، بما في ذلك المحاربين بوجيمباي ، ويسيت ، تصور كل واحد منهم على طريقته ، معنى ، وأهمية ، وأشكال الدخول في الإمبراطورية



الروسية. كان الشيء الأهم أن بلد الكازاخ في ذلك الوقت كانت بالفعل تعتمد بشكل مباشر وصريح على روسيا وربطت مصالحها السياسية، والاقتصادية، والعسكرية مع مصالح الإمبراطورية الروسية. كان ذلك شيئاً حتمياً من الناحية التاريخية، وتطورت هذه العملية بسرعة أكبر، محطمة كل الحواجز في طريقها.

لم تظهر أية صعوبات في المستقبل (الأمر الذي لا مفر منه في مثل هذه العملية)، فقد توقف الغزو الجونغاري، وشمل التأثير المطلق للحاكم الجونغاري في ذلك الوقت مناطق الرعى الكازاخية فقط في الجنوب. وتوقف الضغط على بلد الكازاخ من قبل خانيات بخارى، وخوارزم، وفيما بعد، في القرن التاسع عشر، تخلصت الأراضي الكازاخية، بفضل الانضمام إلى روسيا، من اعتداءات الخان الإيراني «نادر»، الأمر الذي كان ينذر أيضاً بكوارث كبرى.

دارات عجلة التاريخ. وأقيمت بالإضافة إلى المدينة الروسية حصون روسية على طول نهري جايك وإيليك. وتم إرسال المزيد من القوات القيصيرية إلى خط الحدود. وجاء مع القوات مهاجرون من الأقاليم الروسية البعيدة، واستوطنوا الأرض. وفي مثل هذه الحالات تحدث مصادمات لامفر منها شجع عليها سراً الموظفون القياصرة، وكبار الإقطاعيين من البليات. كان الجانبان دائماً متحدين في التحريض على الكراهية العرقية. وفي ذلك الوقت البعيد خاصة بعد أحداث بوجاتشيف أدركوا أن ما يهددهم هو اتحاد طبقات الفقراء من الشعبين ...

نعم إن هذه سنة التاريخ. لقد أنقذ الانضمام إلى روسيا البلاد من الدمار، وأشرك شعبها في الدورة العالمية التاريخية الحديثة، وساهم في تسريع التنمية الاجتماعية والسياسية، وفي التوطين، والزراعة، وخلق أشكالاً جديدة من التجارة والصناعة. لكن هذه العملية بداية - في معناها الاجتماعي - تنقسم بطبيعة الحال إلى قسمين، وذهبت في اتجاهين. من ناحية صارت الطبقات المضطهدة، والمجموعة في البلدين تتقارب فيما بينها على نحو متزايد فقد تقاربت أولاً الطبقة الفقيرة المهاجرة مع العبيد، والعمال، والرعاة، وبعد ذلك تقارب «العمال» في «مصانع التعدين» القيصيرية، والمناجم، وأخيراً ظهرت في وقت لاحق مع تطور الصناعة والسكك الحديدية البروليتاريا المحلية وهي الأكثر ثورية،



واندمج جزء من الشعب الكازاخي بالفعل بشكل تام مع البروليتاريا الروسية . استمر هذا التقارب أكثر من قرنين من الزمان ، وتطور عرضا وعمقا ، متخذاً مجموعة متنوعة من الأشكال . فهنا جرت اللقاءات العديدة للمثقفين الروس التقدميين مع أشخاص تقدميين وتنويريين من السهوب الكازاخية ، وخدم ضباط من طبقة النبلاء الكازاخية مع ضباط حرس الحدود الروس الديسمبيريين ذوى التوجهات الثورية ، وأتباع الديسمبيريين ، وأخيراً ؛ كان هنا مكان الأشغال الشاقة القيصريّة ، والنفي ، والسجن حيث كان يختفي باستمرار الآلاف من طبقة الفقراء الكازاخية الثائرة والتي تشكل وعيها الطبقي تحت إشراف الثوريين الروس من ذوى الخبرة . وقد وصل الشعبان الكازاخي والروسي يداً بيد إلى الهدف العظيم ، وأخيراً حدث لم شمل حقيقي للأمم داخل دولة اشتراكية موحدة... من ناحية أخرى مهما كره بعض الخانات والسلطين السُلطة القيصريّة ، التي حرمتهم من إستقلالهم النسبي ، والعديد من الأملاك الإقطاعية . فأنهم كانوا يتقاربون منها بشكل حتمى ، ويصبحون الأكثر ولاءً ، وخدامها القساء . لقد رأوا في هذا التقارب خلاصهم من الموجة الثورية التي ترتفع كل عام أكثر وأكثر ، وفي هذا الصدد لم تكن السياسة الاستعمارية القيصريّة تمثل استثناءً . وكان هناك موظفون ، وجنرالات أذكى ، ومتعلمون ، ومفكرون قاموا بما لدى الشخصية الروسية من رحابة صدر بإنشاء المدارس والمستشفيات في الجهات التابعة لهم ، وطلبوا من القضاة ، والأطباء ، وعمال البريد والموظفين العاديين الآخرين التواصل يوميا مع «الأجانب» ، والتعلم الإجبارى للغة ، ومعرفة عادات وتقاليد السكان المحليين . وذهب هؤلاء الناس أكثر من مرة إلى سان بطرسبرج للدفاع عن حق «الأجانب» ، وحمائتهم من الطغيان والعنف . ويتناقل الشعب الكازاخستاني من جيل إلى جيل أسماء هؤلاء الأشخاص ، ويمجد ذكراهم . وهل هناك أكثر دقة وعدالة من الذاكرة الوطنية ! ...

لكن هؤلاء الناس كانوا مجرد استثناء يثبت القاعدة . فلم تكن فرق القوزاق الأول الذين جاءوا إلى الضفة البكر لنهر «إرتيش» أناس متحضرين عظماء في ذلك الوقت . ولم يكن المشرفون على عمليات التعدين القيصريّة يتميزون بالعدالة والوداعة . وكذلك المستوطنين على خط الحدود أيضا لم يكونوا كتلة واحدة متجانسة . وذهب مع المزارعين الفقراء ، الفارين في السهوب الكازاخية إلى أماكن جديدة بسبب الطغيان الفظيع ، واضطهاد الأقنان جميع أنواع المغامرين من كل لون وشكل . وقد قاموا هنا بتوطيين المحكوم عليهم جنائيا الذين قضاوا مدة عقوبتهم . وكان جميع هؤلاء الناس ،



حتى في بلدانهم الأصلية غير ملتزمين بالقانون . وهنا ظهرت أمامهم فرص عظيمة . فعندما طلب ، على سبيل المثال ، طبقا لأحد المراسم الملكية في القرن التاسع عشر من الإدارات ذات الصلة شراء زوجات في السهوب للنازحين بخمسة عشر روبل لكل واحدة من «الفتيات الأيتام» من «الأجانب» ، أصبح ذلك عند هؤلاء الناس حرفة حقيقية . وقد سجلت جميع الفتيات اللاتي تم الحصول عليهن بهذه الطريقة في الوثائق أيتاما . ومع ذلك ، فلا يجب أن نصاب بالدهشة . وهل كانت الفتاة الروسية من الأقتان ، والتي أبعدها عن والديها وباعوها لمالك دفع أكثر؟ ..

وإذا كان الاختلاس والرشوة وغياب القانون قد ازدهروا في الأقاليم الروسية الأصلية ، فقد تجلى ذلك بدرجة أكبر في البلاد المستعمرة . وإذا كانت المحكمة غير عادلة في سان بطرسبرج ، فأنها تكون غير عادلة بمقدار الضعف في كاراتال ، وكوتشيتاؤ .

وكلما بعدنا تصبح التناقضات أكثر حدة بين هذين الجانبين لتلك العملية التاريخية ، لانضمام كازاخستان إلى روسيا . وأنهما أديا سريعا إلى الثورة . وفي هذا يتلخص الواقع الرئيس التقدمي الموضوعي التاريخي . وفي هذا تكمن حكمة التاريخ .

في عام ١٧٣٧ م توفي الخان ساميكي ، وكان أبيلمامبيت الذي أصبح خانا للجوز الأوسط بعيدا جدا عن خطوط الحصون الروسية ، لكنه كان قريبا جدا من جونغاريا . وقد قرر تحسين العلاقات مع الحاكم الجونغاري . لهذا اعترف «أبيلمامبيت» بسلطته عليه ، وأرسل إليه أحد أبنائه كرهينة عنده ، وطلب منه كمكافأة أن يعيد له تركستان عاصمة أسلافه . وأرسل لهذا الغرض سفراءه إلى «جالدين تسيرين» الذي كان يوجد في ذلك الوقت في طشقند . غير أن أبيلمامبيت أجرى هذه المفاوضات في سرية . فلم يكن واثقا أن الشعب سيؤيده ؛ لأن الشاعر العراف «بوخار» قال له مباشرة :

لن يصبح صديقك القديم عدوك أبداً ،

لأن دمه اختلط بدمك أثناء القسم ...

ولن يصبح العدو القديم صديقا حقيقيا أبداً ،

لأن دمه أريق على يدك !



حينئذ، سارع حاكم أورينبورج الجنرال «نيبلويف»، بتعزيز علاقته مع قادة الجزء الأوسط السلطان الخان «أبيلمامبيت»، والسلطان «باراك»، والسلطان الشاب «أبلاي». وهذا ما أقلق الخان أبو الخير الذي كان يحلم بالسيطرة على الجزئين بدعم من روسيا. علاوة على ذلك، فإن سلطات أورينبورج لم تسمح له بناءً على طلبه باستغلال المراعي بين نهر الفولجا وجايك. ونتيجة لذلك، بدأ زعماء القبائل العسكرية بالجزء الأصغر في إظهار العصيان ضد الخان أبو الخير، وأخذت قبائل أرجين، وكيبشاك تورايجير، وكان، وكيديل، وأوتبي، وتاز، وكيركيملتيك، وأيديركي، وتاكشي، وباكاي الذين يعيشون في السهول الفيضية لنهر «تورجاي» والذين ينتمون إلى الجزء الأوسط، وغير خاضعين حتى الآن للخان أبي الخير يتحدثون بصراحة عن الرغبة في الخروج عن سلطته. كانوا يعتقدون أنهم بهذا، يضعفون مع كل عام الضغوط المتزايدة للمستوطنات القيصريّة على أرضهم. وطبقا لمرسوم «أنا إيفانوفا» كان حجم الضريبة على مناطق الرحل الكازاخية ضئيلاً. فقد كان كل من الجزئين يدفعان معا للخرينة الملكية فقط من ٢٠٠٠٠٠ قطعة من جلود الثعالب في السنة. وفي السنوات الأولى كانت هذه الضريبة تدفع من حين لآخر. والآن وبمناسبة بناء حصون جديدة صارت الحكومة القيصريّة تأخذ الضرائب في شكل مواد غذائية وماشية. وكان العبء الرئيس للضريبة يقع على عاتق قرى الجزء الأصغر المجاورة. علاوة على ذلك، تزايدت إساءات الموظفين. وبدأ التدمير. وقال الناس «إذا كانوا يأخذون منا الماشية الآن فماذا سيحدث عندما تبنى القلاع؟»

بدأ أن الخان أبو الخير قد هرم في هذا العام عشرين عاماً فوق عمره. لقد كان في الماضي قويا ونشيطا لكنه الآن يجلس لساعات طويلة وحده، ويحرق في نقطة واحدة. وقد برزت وجنتاه، وتهدلت خدوده، ولم يكن هناك دم في وجهه الأصفر. وانطفت الأنوار في عينيه التي كانت مشرقة في وقت ما، وظهرتا بسبب ذلك كأنها بيضاء تماما. وعندما كان يجلس هكذا لا يصدق أحد أن هذا الرجل العجوز الجاف هو نفسه الخان أبو الخير الذي كان يصب مع قواته الحمم على الجونغار مخترقا قواتهم المتشابكة بإحكام.

لكن على أية حال لم يكن الخان أبو الخير، ذلك الرجل الذي وضع نصب عينيه هدفاً عظيماً، ورأى انهيار خطته مثل نسر جريح يسقط من الأعلى، على الصخور ويلقى حتفه. لا، لم يكن كذلك، لكنه ظل يفكر في كيفية الزحف للوصول إلى القمة، وإذا لم يفلح في ذلك، فعلى الأقل ينتقم من أعدائه. في هذه الحالة الذهنية تكون جميع الطرق جيدة ...



التل الوحيد في السهوب الذي كان يفضله الخان أبو الخير ، كان هو ذلك التل الذي قتل عنده الحارس البسيط بحريته الحادة كلبه المحبوب صائد الذئاب . كان دائما ما يجلس هنا على سجادة خشنة تبسطها له الخادما ت ، وعند قدمه اليمنى يجلس ابنه البكر السلطان نورالي . تجاذبا أطراف الحديث لفترة طويلة جدا ، لكنهما لم يكونا سعيدين . ومن وقت لأخر كان نورالي يلقي نظرة جانبيه غير مباشرة على أبيه ، ولكنه هنا كان ينظر إليه فيقابل بنظرة أبي الخير الباردة مثل الثلج . ويقول المثل «إن لدي الخان ابناً طالما هذا الابن لم يرغب بعد في أن يصبح خانا . وحتى الآن يسيطر السلطان «نورالي» على كامل الإقليم المخصص له من قبل والده ، ولكن من ذا الذي يعرف ما تخفي نفس هذا الشخص المضطرب والمتململ على عكس والده ...

سأل أبو الخير ابنه مراقباً إياه بطرف عينه :

- إذن أنت تقترح أن أظهر في حديثي مع «نيبلييوف» الحزم وعدم التبعية ؟

- لا لقد فات أوان ذلك ... - وقد لوح «نورالي» بيده سلبا عدة مرات . - فات الأوان ... نحن الآن بحاجة الى التفاهم معه بقدر استطاعتنا .

- وهل هو الآن يريد التفاهم معنا ؟

- إذا كان لا يريد ذلك ، لم يكن ليدعوك إلى أورينبورج يا أبي .

ابتسم الخان أبو الخير بأسى وقال :

- أنه لا يشترق إلى نفس هذه الدعوات أرسلت ، كما أعتقد ، أيضا إلى الجزء الأوسط على قدم المساواة . لكن ألم تدعوني " أنا إيفانوفا « في مرسومها « بأبي الخير ، خان قبيلة القييرغيز - الكيساك كلها ؟! « وذكرت الإمبراطورة فيما ذكرت أن أرض الجزء الأوسط بمثابة أرض خاضعة لي . لماذا لا يعترف الآن محافظ الملكة بلقبتي اذا كان حقا يريد أن يتفاهم معي؟

- لكن يا أبي فكر في حقيقة أنه قد مرت سنوات عديدة... وأن قوتك ونفوذك الآن ليسا بنفس درجة خضوعهما في الماضي حين لم يخضع لك تماما «أبيلمابيت» والسلطان



«أبلاي». ولكي نجعلهما يتخاضمان مع المحافظ ، يجب علينا البحث عن طريق آخر! ..

- من الواضح أنك قد وجدته !

- على أية حال ، فلن يأخذ سيدي الخان بنصيحتي .

- وهل أنت تأخذ بنصائحي؟

- عندما يصبح لدى الطفل أسنان ، يصيبه الطعام الممضوغ بالضرر!

- كيف أمكنك أن تتحدث بهذه الطريقة !

صمت الأب والابن ... كان لدي كل منهما شيء يفكر به . فلقد دعا حاكم أورينبورج «نيبلويف» الخان أبا الخير للقاءه في المدينة الروسية الجديدة ، والتي تقع على مسافة واحدة من مقرري خاني الجزء الأصغر والجزء الأوسط على السواء . في السهوب يتعاملون مع هذه الأمور ببالغ الاهتمام ، وأدرك الكازاخ على الفور أن نائب الملكة يتعامل مع قادة الجزئين بنفس القدر من الاحترام ، بينما كان في وقت سابق كان يعطى الأفضلية دائما للخان أبو الخير . ودعى أيضا إلى هذا اللقاء السلطان الشاب أبلاي من الجزء الأوسط ، ولكن لم يدع السلطان نورالي الذي نصب نفسه خانا بشكل مستقل على العشائر التي تقطن سهول نهر جايك . ومع ذلك فلقد جاء هذا الأمر على هوى الخان أبي الخير الذي كان يدرك منذ فترة طويلة مطامع «نورالي» في الحصول على مكانه . كان يعلم أيضا أن «نورالي» يجري بعض المعاملات مع المسؤولين الروس الذين لم يعترفوا حتى الآن بخانيته المستقلة . لهذا ، ومن أجل أن يأخذ مكان والده ، كان «نورالي» مستعدا لفعل أي شيء . وإذا كان أبو الخير يسعى في مفاوضاته مع السفراء الروس أن يدافع على الأقل بشكل محدود عن استقلاله ، فإن نورالي يفكر في نفسه ، وكان على استعداد حتى في الغد ؛ ليسجل جميع سكان مناطق ترحال جايك كعبيد...

كرر الخان أبو الخير :

- كيف أمكنك أن تتحدث بهذه الطريقة !

وفجأة غلب عليه غضب عجوز أعمى . وامتدت يد الخان إلى العصا المطعمة بالفضة والأحجار الكريمة ليضرب بها وجه ابنه الكريه ، وعيونه الزائغة . لكنه لم ير أن يد



ابنه امتدت بهدوء إلى خنجره الخوارزمي المعلق في حزامه . لكن في هذه اللحظة سمع دوى أقدام حصان . التفت كل منهما ، ورأيا أن ابنة الخان «أبو الخير» الصغرى «جنات» ، وابنه «جنكيز» من زوجته الجونغارية يقتربان من التل ...

كانت «جنات» رشيقة ، داكنة البشرة ، وعجفاء مثل أبيها . وكان يرى في عينيها الرمادية التي تشبه عينا أبيها إرادته عنيدة . ومن الواضح أن هذه السمّة في شخصيتها تتغلب بشكل واضح على جمالها . لم تكن ترتدي فستانا بأهداب يليق بفتاه ، وإنما ترتدى ملابس رجال عسكريّة . هكذا كانت ترتدى في تلك السنوات بنات الجنود ، وزوجاتهم الخارجين معهم ضمن كتائب سلاح الفرسان السريعة ، والتي كانت تخوض عاما بعد عام حرب عصابات لا هوادة فيها ضد الجونغاريين . لم يكن هناك داع لتلبس هكذا ، خاصة وأنها ابنة الخان . كانت ترتدي سترة من القماش بأكمام قصيرة ، وضيقة من عند الخصر ، والسراويل واسعة بأساور مطرزة ، وفي الحزام خنجر في غمد فضي ، أما صفائر الفتاة مع قلادة رخيصة الثمن كانوا مربوطين على جانبي الحزام . كان من الواضح أنها في حوالي العشرين من عمرها ، الأمر الذي كان وفق قوانين السهوب في ذلك الوقت سناً متقدماً . ومع ذلك لم تكن متزوجة ، وتحدث الثنية المرة على الفم أنه من غير المرجح أن تزهر تلك الشفاه الجافة ...

ويشبه السلطان جنكيز بوجهه الجونغاري العريض ، وعيونه المائلة ، وجسمه القصير الممتليء المصارعين الأقوياء . وحول رداءه المصنوع من خيوط دقيقة بياقته المصنوعة من القطيفة السوداء ، يلتف حزام من جلد الجمل به خنجر معلق من الجانب .

بعد أن تلقى الخان التحيات الواجبة من أبنائه سأل بحزم :

- هل جئتما لأمر ما أم أنكي كنتما تتجولان في السهوب وسمعتما حديثنا ؟

لم يكن أحد يعتقد ، وهو ينظر في وجه الهاديء أنه كان منذ لحظات مضت على استعداد لقتل ابنه . تقدمت جنات إلى الأمام وقالت :

- لقد قلت اليوم في الصباح لعمتي «كاراكيز» أن تعد جنكيز للسفر . وقد جئنا لنعرف إلى أين ؟ ومتى ؟ وماهى مدة السفر ؟ ...



قام الخان عن السجادة وقال :

- حسنا ، فلنذهب !

وذهب الجميع إلى إرجيز برفقة الحراس الصامتين .

قضى الخان أبو الخير ليلة هذا اليوم في خيمة زوجته الوسطى «أكيليم آي» أجمل زوجاته بعد البائسة نوربيكي . وفي لحظة الوداع وعدها بأن يعيد من أورينبورج ابنها «كوجاخيمت» الذي يعيش هناك كرهينة . فلقد همست له في الظلام «سيدي الخان ألم يحن الوقت لتعيد ابننا الحبيب . فلترسل جنكيز ابن زوجتك التوكال نوربيكي بدلا منه . لقد كبر ، ولن يحدث له شيء!» فوعدها الخان بذلك ...

ليس مطلب المرأة وحده هو الذي جعله يتصرف هكذا . لقد فكر في أن عشيرة «جالبابلي» ذات السطوة والتي كانت تعيش من قبل على إمتداد نهر أوربي حرمت بعد بناء القلعة من العديد من المراعي ، وعبرت عن سخطها . كان على الخان أن يفكر في كل شيء ... «إذا تبولت الضفدعة فسيكون مستوى البحيرة أعلى» وعندما يرى «الجالبابليون» نجلهم من الجذر الخاني سوف يترثون ، ولن يتهمونهم علنا بأنه السبب في محنتهم .

ذهب الخان إلى خيمة زوجته الجونغارية ، ثم ترجل عن فرسه ، ودلف إلى الداخل بصحبة جنكيز وقال :

- سيغادر جنكيز لفترة طويلة ... وربما لن يتواجد في القرية لمدة عام أو عامين أو ثلاثة أعوام . قومي بتزويده بما يلزم للسفر على أكمل وجه !

شحبت كاراكييز ، وأحنت رأسها في صمت . وكان الكازاخ يجدون صعوبة في نطق اسمها «الجونغاري» الحقيقي لذلك عندما جاءوا بها إلى القرية أطلقت عليها النساء اسما جديدا وفقا للون وجهها الأسمر ، فدعوها «الفتاة السوداء»

وعندما رأى الخان أن ابنه قد شحب أيضا قال له :

- لا بأس عليك إنك الآن بطل كبير ! - وقد حان الوقت لرؤية بلدان أخرى ، ومعرفة كافة الأمور ، والحصول على التعليم ...



أدرك الجميع أنهم سيرسلون جنكيز إلى الملكة كرهينة ، وكما لو أنهم كانوا ينتظرون خروج الخان من الخيمة انطلق الفرسان الثلاثة من خلف التل ...

التفت الخان إلى جنات وقال :

سيقوم بهذا كوداباي ... - أما أنت فعودي إلى البيت !

كان من الواضح أن جنات لا تريد العودة ، لكنها اضطرت إلى ذلك . وبعد أن سلمت زمام فرسها لخادمتها ، ذهبت إلى خيمتها غير متوقفة عن النظر إلى الوراء . وقد كان لديها أسباب لذلك ...

«كوداباي» فارس وسيم عريض المنكبين ، ويعمل مترجماً وكاتباً عند والدها ، وقد نال إعجاب الفتاة الجريئة والحازمة منذ فترة طويلة . ولكن هل من الممكن أن يتصاهر التوريون الجنكيزيون مع عامة الشعب؟ لقد كانا يلتقيان سراً على الرغم من أنه من المعروف أن السرفي السهوب لا يبقى سراً . كان من المفترض في العام قبل الماضي أن يذهبوا بجنات إلى عريستها النبيل في مكان ما «بجيحون داريا» ، لكنها أصيبت بمرض التيفود . وفي العام الماضي لم ترغب في فراق «كوداباي» فمرضت مرة أخرى ، حتى أنهم ذهبوا بها للعلاج في خوارزم . غاب «كوداباي» لمدة أسبوع بتكليف من الخان فلم تجد لنفسها مكاناً تركز إليه مثل الدجاجة التي سوف تضع بيضها ...

كانت جنات تتميز على الآخرين بميزة عظيمة . لقد أفضى إليها الخان أبو الخير الصارم والكتوم بالكثير من الأسرار . والأب هو الحكم الذي يجور في حكمه على طفله ، وأدرك الخان أبو الخير بالغريزة أن ابنته - من الرأس إلى أخمص القدمين - تشبهه ، وتستقر الأسرار في مكنوناتها كأنها تقف في بحر بلا قاع . لهذا السبب ، ما إن تلقى دعوة «بيلويف» ، وعلم أنه قد أرسلت دعوات مماثلة في الجزء الأوسط لأبيلبامبيت وأبلاي بعث ابنته جنات مع خمسة عشر فارساً مرافقين لها إلى أورينبورج ، ولم يجروا على أن يعهد إلى أحد آخر بمثل هذه المهمة الخطيرة ...

كان في الحقيبة الجلدية حول رقبة جنات تقرير للحاكم نيلويف جاء فيه «أن الخان أبيلبامبيت على صلة بالحاكم الجونغاري . وإذا أعاد إليه «جالدين تسيرين» مدينة تركستان فإنه سيدخل في طاعته ، وسيُرسل إليه أبناءه كرهائن . وإننى



أنصحكم أن تطلبوا منه نفس الشيء والأيفرج عن «أبيلبامبيت» حتى وصول ابنه إلى أورينبورج ... وكل شيء ... وكل شيء يخص السراموكل إليها قالتها جنات . ولكن هل كان بمقدورها ألا تحكي عن ذلك لحبيبها «كوداباي» ...

أما «كوداباي» فقد كان كدجاجة لمن ينضج عنده الدخن أسرع من الآخرين . وقد كانت جذوع المكر تشتعل في روحه تحت ستار شخصيته المتألمة . وكان ضميره في مجال الكتابه يهتز بكأس من حليب الفرس المركز طيب الرائحة . فماذا يمكن أن يقال عن قدح من خمر الحبوب الجيد ، وقد كان من أوائل الناس في السهوب الذين تعلموا تناوله على يد السكارى الروس . وقد عهد الخان أبو الخير الذي بدأ في فقد حاسة الشم إلى مثل هذا الشخص التسلسل إلى خيمة خصومه الأقربين من الجزء الأوسط ، ومعرفة ما يجري إعداده هناك . وليس من العجيب أنه في اليوم الأول من وصوله إلى الجزء الأوسط عرف الخان «أبيلمامبيت» كل ما أفضى به من أسرار والد جنات المحاربة ...

انزلق «كوداباي» كما هو متبع عندهم بمهارة من فوق حصانه ، وجثى على ركبتيه أمام الخان أبي الخير .

قال الخان أبو الخير رداً على تحيته :

- مرحبا ، مرحبا ، يا نور عيني ! - ولمس جسد الرسول المؤمن مثبتاً ناظريه على الخنجر الفضى الجديد ، باهظ الثمن في حزامه .

لاحظ «كوداباي» ذلك ، فنزع الخنجر بسرعة من حزامه وقال :

- هل رأيتم يا سيدي الخان ماذا قدموا لي في الجزء الأوسط كرسول للخان أبو الخير !

- أرى ، أرى ...

لم يطرأ في بال أبي الخير ربط هذا الخنجر بالسر الذي ائتمن عليه ابنته . لقد اعتقد أنه إذا كان «أبيلمامبيت» والشاب «أبلاي» قد منحا مثل هذه الهدية لكاتبه فإن الأمور ليست بذلك السوء .



قال له عندما ذهباً سويلاً إلى الخيمة الوسطى ، وأصبحت هناك وحدهما :

- حسناً ، قل لي ماذا رأيت وسمعت؟

- لقد رأيت وسمعت الكثير ياسيدي الخان. ولكن الشيء الأهم ، أنهم لا يريدون أن يدخلوا في خصومة مع الملكة .

- أنهم كما فهمت يتحدثون مع الحاكم الجونغاري فقط لصرف الإنتباه !

- وهل سيذهب السلطان «أبلاي» مع «أبيلمامبيت» ؟

- نعم ياسيدي الخان !

- وماذا عن الشاعر «بوخار» ؟

- لم أراه هناك .

- كيف ذلك .. أنهم يعدونه عين الشعب ... فإذا لم يكن معهما ، ألا يعني ذلك أن الشعب لا يؤيد تماماً أفعال خاناته ؟

- لا أعرف . ببساطة لم يقيم الحاكم بدعوة الغرباء .

- ربما يكون الأمر على هذا النحو ...

هز الخان أبو الخير رأسه موافقاً ، وأغمض عيناه ...

في العشرين من أغسطس لعام ١٧٤٢م ، أمر حاكم أورينبورج بوضع خيام عسكرية كبيرة في منطقة «تاس أوتكل» بالقرب من القلعة الروسية ؛ لعقد إجتماع مع خانات الكازاخ . وبعد ثلاثة أيام من وصوله إلى هناك ، علم الخان أبو الخير أنه بالإضافة إلى «أبيلمامبيت» ، و«أبلاي» ، و«باراك» من الجزء الأوسط دعى أيضاً إلى الاجتماع السفراء الجونغاريين «كوشكو» ، و«بورون» ، وكذلك نظرائهم المحاربين الكاراكالبك «مومور» ، و«كوتشاك» . وفي نفس الوقت حضر بناءً على دعوة شخصية من الحاكم إلى الحدود الروسية اثنان من أبناء أبي الخير وهما «يرالي» ، و«نورالي» . وقد فات الأوان لتغيير أي شيء ...



وكان واضحاً مدى الأهمية التي أوليت لهذا الإجتماع . وقد عسكرت هنا بصفة مؤقتة فرقتان من سلاح الفرسان ، وكتيبة من مُطلقِي القنابل . وعندما كانوا يتجمعون كل صباح أو يقومون بإجراء تدريبات عسكرية كانت مقابض سيوف الضابط وخناجر بنادق الجنود تتلألأ في شمس السهوب بطريقة تعمي العيون . وكانت ستة مدافع كبيرة تطلق قذائفها من وقت لآخر ، وكانت قذائفها تفجر جبلاً كاملاً من الرمال على التلال البعيدة .

غير أن قادة الجزء الأوسط قد تأخروا . ولم يصلوا أيضاً في اليوم التالي . وفي الثاني والعشرين من أغسطس علم الحاكم الغاضب من أحد أفراد إستطلاع العديدين أن الخان «أبيلمامبيت» ، والسلطان «أبلاي» ، والسلطان «باراك» قد تقابلوا في منتصف الطريق إلى هنا مع كاتب ومترجم أبي الخير كوداباي ، ثم فجأة حولوا خيولهم إلى السهوب . ورجح أولئك النفر المحيطون بقادة الجزء الأوسط أن هذا حدث بسبب أن الخان «أبيلمامبيت» علم على نحو ما بوجود السفراء الجونغاريين لدى الحاكم ، وأنه لا يرغب في التفاوض أثناء وجودهم . ومهما يكن من أمر ، فتومينات (كتائب) الحاكم الجونغاري دائماً ما تكون على استعداد للانقضاض على مراعيهم ...

قال الحاكم :

نعم، من الواضح أن الأمر كذلك ! - ولكن كيف عرفوا بأمر أولئك السفراء الجونغاريين؟ وما هو دور ذلك المترجم ؟ .. فلنستدعيه إلى هنا ! ..

استدعى «كوداباي» ، فوراً للقاء الحاكم الرهيب . وبما أن الحاكم كان يسير في مقره بخطوات كبيرة وثقيلة ، وبما أن أطراف شواربه الحمراء ، كانت تنتفض أدرك «كوداباي» أن هذا الشخص لن يمزح معه .

صاح الكاتب باللغة الروسية وهو يمد يده المرتعشة ليصافحه :

- السلام عليكم ... سيادة ... سيادة ...

لوح الجنرال فقط بيده ، وأصبحت عيناه المنتفخة كالزجاج بلا حراك من الغضب

وقال :



- تكلم ، أيها المترجم، لماذا ذهبت من عند أبي الخير لمقابلة «أبيلمامبيت»؟!

على الفور لاح أمام ناظري «كوداباي» الماكر منظر «أبيلمامبيت» وهو يصل في نهاية المطاف ، ثم يحكى لهذا الجنرال الرهيب أنه على علم بشأن التوصية باحتجازه في أورسك ، ومطالبته بتقديم أبنائه كرهائن . أما عن تلك التوصية التي علم بها من جنات المترجم كوداباي فقد أفضى بها إلى قادة الجزء الأوسط . من الأفضل أن يحكي كل شيء للشخص الأكثر أهمية من الجميع ...

صاح من جديد وهو يخلط الكلمات الروسية بالكازاخية :

- سعادتك ، سيدى المحافظ ! - صحيح أنني قد أرسلت لمقابلة «أبيلمامبيت» والسلاطين . ولكن ، لم تكن هناك أية فرصة كي أبلغكم ! ..

واصل «يبلويف» السير في الخيمة . حسنا ، على ما يبدو ، أن المترجم يقول الحقيقة . لم يأت «أبيلمامبيت» بعد أن علم أنه من الممكن أن يحتجزوه هنا ، ويطالبوه برهائن . ويقول المترجم أنه قد حذر قادة الجزء الأوسط بتكليف من خان الجزء الأصغر أبي الخير . ولكن لماذا يقدم لى أبو الخير اللعين بأريحية نصيحة مخلصه ، ويحذر منها خصمه بنفس الأريحية ؟ من الواضح أنه ببساطة يخاف السلطانين الشايبين العنيفين من الجزء الأوسط ، وقرر أن يتراجع ... نعم ، من الواضح ، أن أبي الخير الماكر قرر أن يزرع بذور الشقاق بينى وبين الجزء الأوسط . إن هذا الأمر مفهوم لدينا ، أنه يرغب في أن أدير جميع الأمور في السهوب من خلاله فقط . حسنا ، دعونا نتظاهر أننا لانعرف شيئا عما يدبره ! ..

نظر الجنرال إلى «كوداباي» وقال :

- اسمع يا عزيزي ... سوف نقدر جهودك ، لكن يجب عليك أيضا أن تخدم جلالته الملكة يا عزيزي !

- سأبذل ما في وسعي سيادة ...

- حسنا ... وهل حكيت لى كل ما سمعته ؟



- أقسم على الخبز والقرآن سعادتك .

ابتسم «نيبوليف» ابتسامته عريضة وقال :

- نعم كلانا يعرف مدى أهمية القسم على القرآن ... - - وماذا سمعت عن أخت مولاك أبو الخير ... تلك التي من النسل الكاميكي ويخطبونها للحاكم الجونغاري؟

فغر «كوداباي» فاه من المفاجأة وقال :

- لا أعرف يا سيدي الحاكم ...

- حسنا ، الله معك ، يا عزيزي ...

كان من الواضح أن المترجم يقول الحقيقة . وفي الوقت نفسه علم الحاكم أن أبا الخير الذي غضب عليه قدرمى السنارة من خلال خان «خيوة» نحو «جالدين تسيرين» واعدأ إياه بتزويجه من شقيقته كاراشاش . لقد قص «نورالي» للحاكم كل شيء .

- تتبع هذا الأمر يا عزيزي «كوداباي» !

- سأبذل قصارى جهدي ياسيدي ...

- اذهب ، اذهب ...

بعد نصف ساعة ، أبلغ المترجم «كوداباي» الذي استدعى إلى خيمة الخان أبي الخير كل شيء عن خطبة كاراشاش .

قال «كوداباي» وهو يغالب الشعور بالاختناق - نيبوليف يعلم كل شيء ..! - فمن يبلغه أخبارنا؟!!

وعده أبو الخير الذي شحب لونه من كل هذه الأخبار ، قائلاً بشكل غامض :

- نعم سوف أعلم ذلك يوماً ما !



كان أبو الخير يعلم جيداً أن «كوداباي» على صلة بمكتب المحافظ . لكن الخان لم يكن يعرف شيئاً عن علاقة ابنته جنات بهذا الكاتب . وأصبح كثيراً مما يحدث في مقره معروفاً من خلال المترجم في أورينبورج . وعلى الرغم من أن الخان كانت تتكشف له أشياء أحياناً ، إلا أنه كان يخفيها في نفسه . فمن الأفضل أن تعرف الشخص الذي كلف بمراقبتك . إلى جانب ذلك أخبره «كوداباي» عن كل ما يحدث في مكتب المحافظ .

الشيء الأهم أن الخان علم أن ابنه يخونه . ولكن إلى أي مدى وصلت علاقته مع المحافظ ؟ أوريما بالفعل قد تقرر في مكان ما مصير الخان أبي الخير ، وغدا ستعترف الملكة «بنورالي» وحده خانا ؟! وكيف كان سيتصرف هو لو كان في مكان «نورالي» ؟ ..

طاطاً أبو الخير رأسه .

نظر «كوداباي» إلى سيدة نظرة الفطن ، وفكر في مصلحته . وكما يقول المثل : «من يصدق سيعطى ، ومن يشك يخاف للمس !» كان الموقف الأكثر راحة له . لقد أجزل الأطراف الثلاثة له العطاء ، فقد أولاه «يبلويف» إنتباهه والوعد بالمكافأة ، وأعطاه «أبيلمامبيت» خنجراً غالي الثمن ، أما الخان أبو الخير فقد أعطاه الحصان الرمادي الداكن السريع الذي كان يحلم به ليلاً ونهاراً .

قال الخان أبو الخير :

- خذ لك إلى الأبد ! - فإنني أرى أنك وفيأ لي ...

ومع ذلك أثناء قول تلك الكلمات ، أومض شيء ما في عيون الخان ، التي تشبه عيون النمر . ولكن على أية حال فالنمر عجوز ، ومخالبه ليست كما في السابق . والجانبان الآخران سيدافعان إذا لزم الأمر .

طارت أفكار «كوداباي» إلى السرج الضباطي الأحمر الذي كان قد رآه في باحة الحاكم . فقد كان مناسباً جداً للحصان فائق السرعة . لكن لكي يمنح هذا السرج ، يجب أن يعلم شيئاً آخر عن سيده ، ويبلغه لمكتب المحافظ . حسناً ، يجب أن ينظر ، ويسمع باهتمام ما سوف تهمس له به جنات المستشارة في الليل ...



لم يظهر حاكم أورينبورج الجنرال «يبلويف» أنه يشعر بالقلق إزاء عدم وجود قادة الجزء الأوسط . فقد أمر ببدء الاحتفالات ، وفي صباح اليوم التالي ، تم وضع الموائد الطويلة التي جلبت خصيصا لتلك الاحتفالات في ظلال الأشجار بالقرب من النهر . كان هناك كل ما يحبه الكازاخ ، والجونغاريون مثل اللحوم بأشكالها المختلفة ، وأفضل حليب فرس ، والبورسك (خبز تقليدي لشعوب آسيا الوسطى) . وتوجد كذلك بجوارها الأطباق الروسية والأوروبية ، التي أعدها طبخو المحافظ بالقلعه . وقد روعى الأيوضع على الموائد أطباق من لحم الخنزير . لكن النبيذ ، والفودكا ، والخمور ، والمشروبات الكحولية كانت توجد على الموائد بوفرة . كان المحافظ يعلم بالفعل أن أشرف القوم من «القيريغيز الكيساك» يرتكبون تلك الكبيرة التي نهى عنها النبي محمد بمتعة كبيرة . وكما لو كانت للعرض كان هناك حيث يتجمع البيات السمان قصير والقامة تقف على المائدة زجاجات خمور بندكتينين الروسية الضخمة والمستديرة أيضا .

غير أنه لم يكن هناك من كلا الجانبين في حفل الاستقبال الذي أعده المحافظ أحد ممن يلبسون الملابس الرثة .

قبل الوليمة أعد «يبلويف» لعبة الحرب ، فقد كان رماة القنابل من سلاح المشاة يرتدون ملابس احتفالية ، وينقضون على بعضهم البعض في صفوف متساوية ، أما الفرسان الشجعان فيقومون بألعاب الفروسية ، وقطع الكروم ، ويغيرون التشكيل العام أثناء السير .

- أحسنتم !

- هيا ، هيا يافارس !

- أوي باي ، ابتعد ، يا الله !

دوت هذه الصيحات مختلطة بعضها ببعض من صفوف الضيوف . شجع بعضهم وفقا لعادات السهوب راكبي الخيول . وقرر البعض الآخر أن المحافظ جمعهم ليقضي عليهم جميعا مرة واحدة ، وكانوا يجلسون القرفصاء من الخوف عندما يندفع الفرسان نحوهم شاهرين سيوفهم . ثم يطلقون النار من المدافع فتدوي صيحات سعيدة أو خائفة :



- أورا- آآه !

- أورا- آه آه !

- أوي باي !

- أستغفر الله !

أطلقت المدافع ذخيرتها أربعة وعشرين مرة ، فنهضت الخيول الخائفة بعد أن خلعت الأوتاد ، التي كانت مربوطة فيها بالانطلاق إلى السهوب على غير هدى . وقامت الكلاب الضخمة صائدة الذئاب بالعواء كأقرب ما يكون إلى الشكوى ، واختبأت وراء الخيام . وفي كل مرة كان النساء والأطفال يرتعدون ، ويبكون . ورداً على الأسئلة الذليلة قال «يبلويف» بغرور إن ثلاث رشقات نارية من ستة مدافع كافية لمحورية متوسطة الحجم من على وجه الأرض .

وأثناء حديثه الذي استغرق عشر دقائق ، تحدث «يبلويف» وهو يلتفت بالتناوب إلى الجالس على يمينه الخان أبي الخير ، وإلى السفراء الجونغاريين والفرسان الكاراكالباك الجالسين على يساره عن رغبة جلالته الإمبراطورة العيش في سلام ووثام مع الشعوب التي أتمنتها على مصيرها ، ومع دول الجوار على حد سواء .

قال الجنرال وهو يشرب أخر قطرات في كأسه ويضحك بصوت أجش :

- من لا يشرب على شرف الإمبراطورة ، فإنه يظهر أنه لا يحترم جلالتها !

قام البكوات الخائفون من هدير المدافع بشرب كئوسهم حتى آخرها ، فشرب بعضهم الفودكا ، وشرب بعضهم الخمر ، وشرب حتى أولئك الذين لم يشموا رائحة الكحول من قبل .

وكان هناك أشخاص يجلسون خلف الموائد الأخرى ، وضعوا كئوسهم جانباً في صمت . وقد قام مفتي المسلمين هناك والذي قدم من أورينبورج مع «يبلويف» الملاً أخوند «نسيب الله» وقال بصوت رخيم كالغناء :

- من لا يشرب من أجل صحة الإمبراطورة ، فهذا يعني أنه يتمنى لها المرض . - أوليس

خطيئة كبرى أن أتمنى الشر لمن وضعها الله فوق رؤوسنا ؟



وأمسك بكأس زجاجي ضخم من الفودكا ، ودس فيها أنفه الأسمر بسعادة ، لدرجة أن ضابط سلاح الفرسان الجالس في مواجهته جحظت عيناه حتى جبهته من المفاجأة . بعد ذلك لم يكن في مقدور أحد أن يرفض ، غير أن الأكثر خوفاً من الله حاولوا صب النبيذ أو الفودكا وراء ظهورهم . وقد عطس معظمهم ، وتأوهوا ، ولوحوا بأيديهم .

- أنها مرة في الداخل مثل السم !

- لقد أحرق حلقي دواء الكلب هذا ..!

- لا بأس لقد شرب الملا نفسه ألا نشرب نحن ...!

- لا ... قول لي يا «كيراباي» لماذا ... لماذا لا تحبني أيها الكلب؟!

- الآن تكون المرأة - الملكة والحاكم ذو الأهداب النسائية على الكتفين راضين عني ..!

- أتمنى لك الصحة يا «كيراباي» ..!

انقض البايات الكثيرون على الطعام . وهذا لم يتطلب اقناع من جانب الملالي . فبعد أن شمروا الأكمام إلى المرفقين انتزعوا على الفور من الأطباق عدة قطع من اللحم ، وبملاء راحة اليد قذفوها إلى أفواههم قائلين : «اللحم ... لذيذ جداً!» وتحولت في دقائق معدودة جميع أجزاء الاثني عشر خروفاً من الخراف السمان إلى أكوام من العظام البيضاء النظيفة . وطحنت الأسنان القوية العظام اللينة والغضاريف بصوت مكتوم ، ثم قالوا يا «كيراباي» أعطنا هذا الشيء المستدير! وعندما عرفوا أنها البطاطس ألقوا بها على الفور جانبا ، وقالوا : «ما هذا بطعام!»

- أه كم هي مرة ورقة العشب هذه !

- لقد أضافوا إليها كثيراً من الملح ... لكن الروس يأكلون كل ما يقع تحت أيديهم!

- لماذا تقولون هذا أيها المحترم ؟ فهذا الطائر المقلي ليس سيئاً على الإطلاق! ..

- أه ما بال هذا النبات ، فالدموع تنهمر من العيون ... هيا أدخله في فم صديقي

«كيراباي» ..!



لكن كان هناك عدد قليل فقط من المحاربين الصامتين ذوي وجوه حجرية أكلوا بدافع التأدب والاحترام قطعة كبيرة من اللحم، والآن يجلسون، وينظرون إلى الأمام مباشرة. وهكذا فعل ثلاثة أو أربعة ضباط روس. وكما لو أنهم قد عثروا على بعضهم البعض في هذا الحشد الماضغ، والشارب، فقد شرعوا في النظر إلى بعضهم البعض كأنهم يفكرون في ما ينتظرهم في المستقبل كلقاء في معركة وجهاً لوجه أو صداقة طويلة، صارمة، ورجولية...

وقف الجنرال «يبليوف» مرة أخرى، ورفع كأسه أعلى من رأسه وقال:

- السادة الضباط وأشرف قبيلة القييرغيزه الكيساك .. الآن أقترح عليكم أن نشرب من أجل صحة ورخاء الخادم الوفي لصاحبة الجلالة الإمبراطورية الأم «يليزافيتا بتروفنا» صديقي الشخصي الخان العظيم للقبيلة الصغرى أبو الخير!

رداً على هذا النخب، أحدثت الأصوات المختلفة ضوضاء تخللتها بعض الهتافات القائلة «مرحى!». وشرب البعض، وأكل البعض الآخر. لكن سمعت بوضوح أيضاً بعض الأصوات الغاضبة:

- فليتضاعف مجدك يا أبا الخير!

- كي تموت!

- نتمنى لسيدنا الخان السعادة وتحقيق انتصارات عظيمة جديدة!

- فليهو عمود خيمته في النار الأبدية!

- مهلا أيها الشيخ، أوستمع مالايريضيك!..

- حسناً فلتقل ماتريد .. لقد أجلسنا على مائدة واحدة مع الكفار. حتى أنا العاصي أجبروني على شرب المشروبات المحرمة. والآن نحن جميعاً كفار. أوه - باي - آه - أي! .. سوف تعوي في القبر يا أبا الخير! ..

- لقد باعنا للكفار دون ثمن كخروف أجب!.



- إخرس أيها الأحمق والإقطعوا لسانك القذرا!

- أن نجلس على المائدة مع الكفار، أفضل من أن نكون في القبر تحت حكم الشورشوتيين (الصينيين)!

لوح الجنرال نيبيلوف بيده وقال :

- العمر الطويل للخان أبو الخير!

ودوى كورس الأصوات المختلفة للتجار، والضباط، وشيوخ القوزاق قائلين «العمر الطويل». وقد قام بالغناء بصوت عال وفي غير وقته البايات السكارى حتى الثمالة والتجار المحليون. وقد كان صوت المفتي أعلى الأصوات التي قامت بالغناء. ثم أمسك أحدهم بآلة الدومبرا، وتدفقت عبر السهوب أغنية عالية مع تنويعات في الصوت في مدح الملكة البيضاء والمحافظ، والخان أبو الخير.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يشارك فيها الخان أبو الخير في هذه الاجتماعات، وكان يعرف كم عدد المرات التي يشرب فيها كي يحتفظ بعقله. وعندما ذهب للنزهة مع «يبيلوف» السكران إلى حد ما على ضفة النهر كانت خطوته ثابتة، وبصره حاداً.

خاطبه المحافظ قائلاً :

- غدا نبدأ بحث القضية يا صديقي. فمن الواضح أنك تشعر بالحرج من الحديث أمام أصدقائنا المشتركين من الجونغاريين؟ ..

- نعم وخاصة إذا بقوا صماً أمام مطالبي ...

- أي شيء يمكن أن يحدث ... لهذا أردت أن أتحدث إليكم مسبقاً.

- لدي ثلاثة مطالب. إذا تم تنفيذها فلن أتحدث عن المطلب الثالث ...

- وما هو أول طلب؟

- يقول أعدائي في السهوب إنك لاتساعدنى وقبيلتي الإقليلا . وما إن علم الخان»



أبيلمامبيت» وسلاطين الجزء الأوسط رغبتى الصداقة في الصداقة معكم إتهموني بالخيانة. أنهم ليلا ونهارا يسعون إلى الوحدة مع الحاكم الجونغاري. وأنتم تتلطفون معهم أما معي فلا ...

هدد الجنرال «بيلوف» بإصبعه بطريقة ماهرة قائلا :

- إن هؤلاء السلاطين أعداؤك !

- إننى أعتبر كل من يتآمر ضد المملكة الروسية عدواً لي !

- ولنفترض يا صديقي ... قبل عامين رفع الخان «أبيلمامبيت» ومعه السلطان «أبلاي» والسلطان «باراك» القرآن على رؤوسهم ، وأقسموا على الولاء أمام الجنرال أوروسوف . وقد قص عليّ الجنرال فاسيلي أليكسييفيتش أوروسوف كيف جرت المراسم . وقد أهدوهم كعلامة على قبول المواطنة الروسية سيوفاً ذات أعماق ، ومقايض فضية كتلك التي لديكم أنتم ولدى «توجيمباي» و «إيسيت» . وكذلك أقسم مائة وثمانية وعشرون من شيوخ الجزء الأوسط كما أقسم شيوخكم ... وعلى الرغم من أننى جئت بعد أوروسوف فأنهم لم يقسموا لي أوله ، وإنما أقسموا للإمبراطورة ! ..

- نحن شعب من الزحل ولايعتقد الجميع أنه من الضروري الالتزام بقسم أقسمه على الكتاب ...

- ولكنكم يا صديقي تؤمنون به !

- إننى شيء آخر.

- لكن «أبيلمامبيت» لم يحنث بعد بيمينه .

- سوف يحنث !

- ماهى الأسباب التي تجعلك تعتقد ذلك؟

- لماذا لا يأتي إلى هنا الخان «أبيلمامبيت» ؟

- هذا هو ما أفكر فيه ...



توقفوا عند منحدر النهر، وأخذ الخان أبو الخير يحكي بالتفصيل عن الخيانة المزمع ارتكابها في الجزء الأوسط. فقد وثق «أبيلمامبيت» وسلاطين الجزء الأوسط صلتهم بالحاكم الجونغاري، ولذلك لم يرغبوا في حضور الاحتفالات، وخاصة أنه يوجد عيون وأذان للحاكم الجونغاري ...

قال المحافظ وهو يبتسم :

- هذا شيء مثير للاهتمام .. ولكن ما هو طلبك يا صديقي؟

قال الخان أبو الخير :

- أعطني ثلاثة آلاف من الجنود ! . وليكن على الأقل ألف من الجيش الرئيس وألفان من الجيش المعاون من الكاميك والباشكير ...

أضأت أنوار السعادة في عيني «بيلويف». فبعد أن جاء بعد أورو سوف إتبع بالحاح لمدة عامين سياسة استدراج، إما خان القيروغيز الكيساك، وإما خان آخر. وكانوا يتشاجرون مع بعضهم البعض بسبب طبيته. وفي هذا كانت تكمن فكرته الرئيسة. ويملك التاريخ أمثلة قليلة عندما يصل المسؤول بدون أي جهد يذكر لهذا التكتيك الماهر. ولكن لأول مرة يطلب منه أحد هؤلاء الخانات قوات لقتال خان آخر ...

- وما هو المطلب الثاني أيها الخان ..؟

- المطلب الثاني يتعلق بابني «كوجاخميت» الذي تستضيفونه مدة سبع سنوات. إن أمه تريد أن تراه، وأن تكون معه، وسوف يذهب ابني الآخر «جنكيز» ليكون في ضيافتكم ...

الآن أفاق «بيلويف» تماما، ونظر إلى أبو الخير بريبة وقال :

- ابن من من زوجاتك هذا الابن الآخر؟

- ابن خانوم كاراكيز الكاميكه ...

كان ذلك ينبيء الجنرال «نيبلويف» بالكثير. فمن تقارير الجواسيس التي أكدها السلطان «نورالي» الابن الأكبر للخان أبو الخير كان يعلم جيداً أن «كوجاخميت» هو ابن الخان المفضل، في حين أن «جنكيز» لم يكن يحظى بحب والده. وبالتالي فإن هذا



الطلب يعني أن الخان أبو الخير العجوز لا يرغب لأسباب غير معلومة أن يترك في أيدي الحاكم الروسي تلك الرهينة الثمينّة . لم يلق «نيبوليف» بالا لكلمات الخان أبو الخير الهامة . اقترب «يبلويف» فجأة ، وخفض حاجبيه بشكل ملحوظ وقال :

- إن خدماتكم لجلالة الملكة عظيمة جداً يا صديقي أبو الخير . وكنت أود أن أنفذ طلبك على الفور لولا الوضع العسكري الصعب . فروسيا كما تعلمون في حالة حرب .
والآن ليس هو الوقت المناسب لكى تنتزع من الجيش حتى ثلاثة آلاف جندي . أما صراع الخان المجيد أبو الخير ضد الخانات والسلطين الخاضعين لنا فهو شأن روسي داخلي .

طأطأ أبو الخير رأسه رغماً عنه وقال :

- هكذا إذن لقد فهمت .. وهل تم قبول طلبى الثاني؟

- يجب أن نكتب خطاباً بهذا الشأن إلى سان بطرسبرج ، إلى جلالة الإمبراطورة إليزابيتا بتروفنا مباشرة ، لأن الإمبراطورة الأم تقدركم يا صديقي تقديراً عظيماً حتى أنها وحدها من يمكنها الاستجابة لطلبك ..!

- هكذا إذا ...!

- وما هو مطلبك الثالث؟

- الثالث لم يعد الخان أبو الخير قادراً على تمالك نفسه ، وفجأة أصبح صوته أجشاً .
- مطلبى الثالث يتلخص في أن الحاكم الجونغارى «جالدين تسيرين» المعروف لديكم يسعى لأن يتزوج أختى «كاراشاش» من نسل الكاميك . وحيث إننى لأملك خلفى سنداً مخلصاً ومستمراً فلاداعي لعدواته بشكل دائم ...

ابتسم «نيبوليف» مرة أخرى ابتسامة رقيقة وقال :

- حسناً مطلبكم هذا مجاب يا صديقي . لقد عقد صاحب الذكرى الخالدة بطرس الأكبر والد إمبراطورتنا معاهدة سلام مع القبائل الجونغارية . ومع ذلك ننصحكم بتأجيل هذا الزواج . فسوف نتفاوض مع الجميع ، وبعد ذلك كما نقول ، سيكون كل شيء على مايرام . ما وجدت فتاة إلا ، وجعل لها فتى طيب ! ..



في هذه اللحظة، أدرك الخان أبو الخير بوضوح أن «نيبوليف» يعلم كل ما يفكر به وما ينوي القيام به. وقد علم بكل ذلك عن طريق ابنه «نورالي». وكما لو كان لتأكيد ذلك قال الحاكم نفسه متحدثاً عن «نورالي» :

- سأقول لك بأمانه يا صديقي إن السلطان «نورالي» خلافاً لأبنائك الآخرين، على دراية عميقة وشاملة بشؤون قبيلة القيروغيز الكاسياك .

- نعم «نورالي» هو كل أمني . وإذا قدر لي الموت، فإن مطلبي الرئيس أن تجعلوه مكاني ..!

أخذ «نيبوليف» يفكر :

«يبدو أنه قد أدرك أن ابنه كان من البداية إلى النهاية، يبلغنا عن حيله . حسناً فليفعل ما يريد .!»

قال بصوت مسموع :

- أعتقد أن الإمبراطورة ستدعم رغبتك المشروعة!

أخذ الخان أبو الخير يفكر :

« يبدو أن هؤلاء الكفار، و«نورالي» يرغبون سويماً في أن أموت . لقد وافق على مطلبي بسرعة ..!»

لكن الجنرال «نيبوليف» تحدث بسرعة محذراً الخان قائلاً :

- لكننا نأمل أن لا نفقد قريباً المساعدة والدعم القيم في جميع تعهداتنا الحسنة، من جانب صديق محنك ومخلص مثل الخان أبي الخير!

فكر الخان «أبو الخير» مع بعض الارتياح :

«لن يمكنهم التخلص مني سريعاً!»



قال الخان أبو الخير :

- إن ابني «نورالي» يعلم جيداً كل ما يحدث في خوارزم .. كما أن القادة الكاراكالباكيين يحترمونه . فلو ساعدتموه بجيش، فإنه يمكنه بمساعدة سلاح الفرسان الكاراكالباكى أن يخرج من خوارزم، رجال الشاه ...

- ما زال من المبكر الحديث عن ذلك يا صديقي . الى جانب ذلك فقد سبق أن قلت أننا نخوض حرباً أخرى، وليس من الحكمة أن نقاتل الشاه الآن . وهذا هو السبب في أنني لم أمدك بالثلاثة آلاف رجل الذين طلبتهم مني ...

نظر الخان أبو الخير لأول مرة مباشرة إلى عيني نيبيلوف وقال :

- إننا لانطلب أى جندى من الجيش الرئيسى ! - أنهم سيكونون هناك فقط للإعاقة .
ولسوف يرفع المؤمنون في خوارزم راية العصيان . وعلى أية حال فجنودنا أقاربهم . وسوف يقابلون «نورالي» هناك بأذرع مفتوحة لأنهم يكرهون «نادرشاه» ...

فكر نيبيلوف :

«لماذا ذكر اسم نادرشاه خصيصاً - نعم يريد أن يورطنا في حرب كبرى كي يصطاد سمكته في المياه الموحلة!»

قال بحزم :

- بدون مرسوم من الإمبراطورة، لا يمكننا، القيام بأي تحركات على حدودنا !

أوماً أبو الخير برأسه . حسنا أنه يعلم وضعه الحالى . لاشيء يتم في هذه الحياة بلا ثمن . فسبب الانضمام والحماية من الجونغار حرم حق اتخاذ قرارات مستقلة . والآن لا يمكنه كما كان في السابق أن يظهر فجأة مع فرسانه على هذا الحد أوداك من السهوب، ويمسك هناك بزمام الأمور . كان لابد من الحصول على الموافقة على كل شيء، وكان ذلك يزعجه وهو المحارب العجوز . لكن هذا الوضع على ما يبدو كان يروق لابنه وخليفته الظاهر «نورالي» . ولكن كيف سيتصرف الأحفاد !؟



قال نيبوليف لكى يخفف من وقع كلماته السابقة :

- إننى وأنتم أشخاص تابعين لسياسة حكومية كبيرة .. وأنه لأمر جيد أن نفهم بعضنا البعض ...

بحلول المساء شعر الخان أبو الخير بمزيد من الذعر . فمئذ وصوله إلى هنا كان كالشخص الذي يتوقع إقالته يتابع بغيرة مع من يتحدث المحافظ . وقبل العشاء رأى المحافظ يتحدث مع البطل «جانبيك» ...

كان البطل «جانبيك» أحد أفراد قبيلة «شكشك» من فروع «أرجين» رجلاً محترماً جداً في الجزء الأوسط . وبعد أن تزوج إحدى بنات أبو الخير ساعد في وقت ما خان الجزء الأصغر في بسط نفوذه على بعض عشائر الجزء الأوسط . وكان لفترة طويلة مع البطل بوجيمباي ، والبطل تايمن دعامة أساسية . وليس من قبيل الصدفة أن الجنرال «أوروسوف» وخليفته «نيبوليف» يقدرون رأيه بدرجة لا تقل عن آراء العديد من صفوة القوم . وحسب تصورهم فإن الإمبراطورة قد منحت البطل «جانبيك» كأول شخص من «الأجانب» رتبة الطرخان العليا ، التي تمنح فقط من أجل الخدمات العسكرية الخاصة . ومع ذلك فقد ساعد في هذا الأمر الخان أبو الخير نفسه .

في الأونة الأخيرة ، لعب البطل «جانبيك» دوراً حاسماً في الحرب ضد خانات الكالميك القاطنين على ضفاف نهر الفولجا وهم أقارب وحلفاء الأمراء الجونغاريين . وكان الخان الرئيس للكالميك «دوندوق أومبا» يتصرف عادة وفقاً للمثل القائل : عندما يمسك العدو بالباب يتشبث الكلب بالأرض» فما إن بدأت موجة دورية من الغزو الجونغاري من ناحية الشرق حتى هاجم خان الكالميك مناطق الترحال الكازاخية من الغرب . فقرر الخان أبو الخير في عام ١٧٣٨م معاقبته على ذلك . ولم يصب الضرر كما يحدث عادة في مثل هذه الحالات الخان «دوندوق أومبا» ، بل تضرر من جراء ذلك الرعاة الكالميك البسطاء . شن الخان أبو الخير مع جانبيك هجوماً مفاجئاً ، وهزموا جيش الكالميك ، ومن ثم لم يكن هناك أسوأ من الجونغار الذين اجتازوا القرى الكالميكية . فقد سيقت ألفي أسرة كأسرى ، وبيع عشرة آلاف من الكالميك كعبيد في أسواق الرقيق في خوارزم وبخارى .

بعد ذلك أراد البجادور «جالدين نوربي» ابن «دوندوق أومبا» الذي كان يقود جيشاً قوامه عشرين ألف جندي شن ضربة إنتقاميه ، لكن منعه من فعل ذلك المنازعات مع والده . وبينما إستمرت تلك المنازعات قام «أوروسوف» المحافظ حينذاك الذي كان يخضع



له كازاخ الجزء الأصغر والكالميك بإجبارهما على التصالح . غير أنه لم يرد تحقيق سلام كامل بين الخانيتين ، وكان هذا السلام يعد ضرباً من المستحيل . فلم يكن يمر يوم دون اشتباكات بين الأطراف المتحاربة ، وسرقة الماشية ، والأسرى .

كان البطل «جانبييك» يؤيد بشكل كامل سياسة الخان أبو الخير ، وكان من بين هؤلاء الناس ذوى البصيرة الذين أيدوا منذ البداية الانضمام إلى روسيا . واليوم في وجود الكثير من الوجهاء يجب الإعلان عن منحه لقب طرخان الإمبراطورية الروسية . ولكن الآن عندما رأى أبو الخير صهره وحليفه يجرى محادثات سرية مع المحافظ نفسه انكمش قلبه . لقد كان «جانبييك» يملك الجزء الأوسط ، أما الجزء الأصغر فكان خارج نطاق سيطرته . فلماذا لا يدعوه الخان أبو الخير «نيبوليف» للمشاركة في هذه المحادثة ؟

ومرة أخرى كما لو أن «يبلويف» قد تكهن بحالته وتفكير أبي الخير فاقترب منه مجدداً ، وقال كما لو أنه يبرر شيء ما :

- إننى أعتبر البطل «جانبييك» ليس صهرك فقط يا صديقي ، ولكن يدك اليمنى !
- ولما لم يحضر خان وسلاطين الجزء الأوسط قررت أن أتحدث مع طرخاننا المجيد عن بعض الأمور . انظروا كم من الشيوخ والفرسان من الجزء الأوسط حاضرين هنا . نحن بحاجة إلى أن يقودهم شخص من الأشخاص المتميزين ...

- بالطبع ...

- انتقل الجنرال إلى حالة تشبه الهمس وقال :

فلندع السفراء الجونغاريون يرون أنه يمكننا حل قضايا الجزء الأوسط دون مشاركة «أبيلمامبيت» وسلاطينه !

إنتعش الخان أبو الخير لأول مرة خلال اليوم وقال :

- نعم هذا صحيح ! - لقد جئت إليكم من أجل هذا الأمر . لا يمكن أن يعهد إلى «أبلاي» وحده تقرير مصير الجزء الأوسط . إنني لا أقول هذا عرضاً . فعلى الرغم من صغر سنه فإن «أبلاي» أصبح الشخص الأهم هناك !



لم يتم تنظيف الموائد . فمن الصباح حتى المساء كان يقدم إليهم المزيد والمزيد من الطعام والشراب . وفي مكان ما وراء الأشجار كانت تعزف الأبواق ، وتقرع طبول الفيالق . شرب البايات والمسؤولون جميعا الفودكا المضاف إليها حليب الفرس . وأصبح السكارى يصدرون شخيرا على العشب الأخضر . وكان الخدم يمرون فوقهم ، ومن وقت لآخر يمكن سماع ثغاء الأغنام التي تساق للذبح ...

تفحص «بيلويف» الموائد بنظرة حادة ، ورفع يده بكأس مملوءة . فأصدر الذين لم يسكروا بعد علامات الاستهجان .

قال نيلويف :

- أيها السادة ! .. أرفع الكأس الختامي من أجل صحة الجالسين و ... جم ... جم ... والضيوف الذين يستريحون هنا ..

- غطت الصيحات المتنافرة على نخبه قائلين :

- مرحى... برافو، برافو..

- جاساسين...! مرحى

- ممتنون كثيرا لسعادتكم !

- نتمنى لكم الصحة والسعادة ... وعشرة آلاف سنة من الإزدهار ...

في اليوم التالي دعي من وقع عليهم الاختيار إلى خيمة الحاكم . وجرت على مدار إسبوعين مفاوضات صعبة . لكن القضية الرئيسية هي الاعتراف بحقيقة انضمام الأراضي الكازاخية إلى الإمبراطورية الروسية ، والتي كان ينبغي الحصول عليه من الحاكم الجونغاري .

وانقضت عدة أيام في توضيح العلاقات المتبسة بين روسيا وجونغاريا والخانات الكازاخية . وقد سعى الجنرال «بيلويف» بإصرار أن تحل جميع النزاعات بين جونغاريا



وجميع الأجزاء الكازاخية من خلاله فقط .

قال سفراء الحاكم الجونغاري :

- لقد جئنا إلى هنا ؛ لكي يدفع لنا الكازاخ الجزية ، ويقدموا لنا الرهائن .. أنهم مذبون في حقنا . بينما كنا مشغولين على الحدود مع الصين سُنت الكازاخ الغارات علينا !

قال الجنرال «نيبوليف» بحزم :

- وفقا لقوانين الإمبراطورية الروسية لا يسمح للشعب الخاضع لنا أن يدفع الجزية ، أو يقدم الرهائن للطرف الآخر !

قال الخان أبو الخير ، والطرخان «جانبيك» في صوت واحد نيابة عن الجزء الأصغر والجزء الأوسط :

- على الرغم من المؤامرات والمكائد من جانب أعدائنا ، فإننا لن نسمح بعصيان الإمبراطورة الأم ، كما أقسمنا لها على القرآن . - أما غاراتنا السابقة على مناطق الترحال الجونغارية ، فماهى إلا استمرار لتلك الحرب الطويلة التي بدأها الحاكم الجونغاري نفسه . وإذا لم تكن هناك حرب فإننا نقسم بأننا لن نعكس صفو السلام مرة أخرى ، وحضور محافظ الإمبراطورية الروسية قسمنا ، لهو أضمن من كل الرهائن في العالم ! ..

إعترض سفراء الحاكم الجونغاري بشدة وقالوا :

- خانات الكازاخ لا تفي بقسمها أبداً .. لقد أقسموا لنا أكثر من مرة على السلام والصدقة !

قطع «نيبوليف» حديثهم قائلاً :

- في هذه المرة إنني أتحدث معكم نيابة عنهم !



قال السفيران «كوشكو» و «بورون» :

- حينئذ مواصلة المفاوضات ، نطلب منكم إرسال الناس إلى «جالدين تسيرين» العظيم والمبهر مثل أشعة الشمس على الأرض!

لكن هؤلاء السفراء لم يغادورا على الفور . فقد وقفوا بصمت في الاحتفال المهيب يشاهدون كيف يقسم مائة وثمانية وسبعون شيخا وبيك وفارس من جميع الأصقاع الكازاخية على الخبز ، أمام أفواهم والقرآن فوق رؤوسهم أنهم يقبلون هم وأقاربهم طواعية بالمواطنة الروسية . أثناء ذلك استرق السفراء الجونغاريون النظر إلى المدافع الروسية الضخمة المنصوبة على حافة السهوب ...

وقد ألقى الجنرال الذي كان يرتدى حلته العسكرية بأشرطتها وأوسمتها خطابا شكرفيه المواطنين الجدد ، على الثقة التي أولوها للأمبراطورة ، ونيابة عنها أعطى جميع القبائل التي أدلت بالقسم التزاما باعتبارهم جميعا متساويين ، وأن يدافعوا عنهم ضد الأعداء الخارجيين . وقد ذكر بشكل خاص شيوخ وفرسان الجزء الأقدم والذين توجد مراعيهم تحت سلطة الحاكم الجونغاري . ويوجد أبناؤهم كرهائن عند الجونغاريين . كان هذا تحديا مباشرا وتهديدا صريحا للحاكم الجونغاري .

عندما غادر السفراء دعى «يبلوييف» الخان أبا الخير وجيرانه خانات الكالميك إلى حل كافة القضايا من خلال الوسائل السلمية فقط ، وبمساعدة الهيئات الروسية الشرعية التابعة للسلطة . ولكي لا يتحول الخان الغاضب أبو الخير عن روسيا ، سمح له المحافظ أخيراً ، بالترحال مع قراه وقطعانه على امتداد نهري إيليك ، وبيردا . وقد سمح للكازاخ بالاستقرار هناك بجوار الفلاحين الروس . وكان هذا يعد مصدرا لتياح كبير للجزء الأفقر من القبائل والعشائر . وسرعان ما ظهرت على هذه الأراضي زراعة القمح الكازاخية القديمة .

علاوة على ذلك ، سمح للخان أبي الخير الذهاب إلى أي قلعة روسية ليلاً أو نهاراً ، وتقرر إمداده وأفراد حراسته الشخصية من الآن فصاعدا كجنرال «بالمون الحكومية» في السهوب كان الحكام يفعلون ذلك مع خدمهم ، وبدلاً من الفرح شعر الخان فجأة بقطعة من الثلج في حنجرتة .



تم إقامة حدود إعتيادية فاصلة بين مراعي الكالميك، والكازاخ. ولم يسمح لأحد من الجانبين من الآن فصاعداً بالعبور إلى الجانب الآخر من النهر. وقد فات الأوان للحديث عن الأسرى الكالميك، الذين تم بيعهم في أسواق بخارى وخوارزم. وقد وعد المحافظ فقط أن يتشفع فيهم.

وهكذا فقد بقي سعيداً وحده البطل «جانبيك». فبعد التلاوة الاحتفالية لمرسوم الملكة بمنحه أعلى رتبة عسكرية، وهى الطرخان الأول لقبيلة القييرغيز-الكاسياك مع نقل هذا اللقب لاحقاً عن طريق الميراث، ضربت المدافع مرة أخرى، حيث إن طرخان الإمبراطورية كان بمثابة المشير. وتحدث المجتمعون بأصوات مختلفة وقالوا:

- كن دائماً سعيداً يا جانبيك!

- لقد ضاعفت من مجد عشيرة «شكشك»!

- فرسك حاز المرتبة الأولى يا «جانبيك» فلا تتجاهلنا نحن الصغار!

- وحيث إنك حققت هدفك يا «جانبيك»، فأقم وليمة للأجزاء الثلاثة!

بكى البطل «جانبيك» ذو اللحية الرمادية، أشجع فارس من أولئك الفرسان، الذين وقفوا بجانب خان الجزء الأصغر، والذي واجه الموت وجهاً لوجه، وكأنه طفل. حتى أن الجنرال «يبلويف» قد اندهش من مثل هذا التعبير المباشر عن المشاعر. وأخذ يفكر «يا إلهي أنهم بسطاء وساذجون مثل الأطفال. لقد أصبح من رعايا إمبراطورتنا شعب طيب!»

نظر المحافظ حوالياً. الآن فقط رأى كثير من الرجال الغاضبين الكارهين للمحظوظ «جانبيك».

كان لا يزال لدى الجنرال «يبلويف» عيون مرحة. «أنهم جميعاً مثل الأطفال يحسدون بعضهم البعض حتى الموت. إن حكم هؤلاء الناس هو السرور بعينه. فإذا أردت معاينة شخص ما فلتكافئه أمام الجميع»



قبل مغادرة الضيوف استدعى المحافظ المترجم «كوداباي» وقال له :

- هل تعلم يا عزيزي أن أبا الخير يطلب منذ فترة طويلة ترميم المدينة القديمة «جامكينت» في الروافد الدنيا لنهر «سير داريا» أو كما يقولون لديكم «سيحون داريا» ...

- نعم سمعت أكثر من مرة يا صاحب السعادة !

- لماذا يطلب هذا هل تعلم شيئاً عن ذلك ؟

- ربما يريد أن يكون بالقرب من الجونغاريين يا صاحب السعادة ..!

عند قول تلك الكلمات نظر المترجم الماكر إلى المحافظ بعيون بريئة . كان الجنرال يتحدث معه بشكل متزايد في الآونة الأخيرة ، وبدأ تدريجياً يعتاد على هيئته الرهيبة، وصوته الرعدي .

- لا بأس ، هذا لن يعوقنا ... وتأرجح الجنرال «يبلوييف» بعض الوقت من أخصص قدميه إلى كعبه ثم قال : لترميم المدينة المدمرة أو بالأحرى بناء مدينة جديدة مكانها ينبغي إرسال المساحين وغيرهم إلى هناك . سوف يذهب إلى مقر خارك من عندنا الملائم «إيليا مورافيف» . وبالإضافة إلى أعماله العلمية سوف يكون رئيسك المباشر . هل فهمت؟

- سأفعل ذلك بسعادة يا صاحب السعادة ..

- حسنا إفعل ... ولكن إلى أن يصل الملائم ، لاتغفل عن الخان . وإذا حدث أي شيء فأبلغني على الفور !

وفجأة تجرأ «كوداباي» للتعبير عن أفكاره الداخلية فقال :

- ربما يا صاحب السعادة ، لسنا بحاجة إلى الضابط ... فإنني أيضاً تعلمت كل العلوم .
كما أن الشكوك حولي ستكون أقل ...



نظر «نيبوليف» باهتمام إلى المترجم الموهوب وقال :

- حسنأ ، كن في خدمتنا ، ولن تخسر . سوف تصبح غنيا ، ومن أصحاب الرتب مادمت
وفياً لنا . لن يشكل لك الضابط عائقا . إذهب ! ..

بعد نصف ساعة حصل «كوداباي» من الخان أبي الخير على قبعة من السمور ،
وقفطان مطرز بالذهب كان قد وعده بهما . أثناء ذلك علم أبو الخير من مترجمه أنه لن
يتوانى في مراقبة الملازم الروسي القادم إليه .

في مساء ذلك اليوم كتب محافظ أورينبورج إلى هيئة الشؤون الخارجية في سانت
بطرسبرج : «على الرغم من أن أبا الخير قد أعطى ابنه كرهينه لذا لن يكون قادراً على
فعل أي شيء علنا ضد روسيا ، ومن المستحيل الثقة به لأنه منافق ومتغطرس».

وبالفعل لم يتم الاستجابة لأى مطلب من مطالب الخان أبي الخير المهمة . وعلى الرغم
من أنه قد وعد «بالمؤنة الحكومية» ، وحق زيارة جميع القلاع ، والقيادات العسكرية
للإمبراطورية الروسية ، فقد كان هناك شيء يحترق في داخله من الاستياء ، وسافر عبر
أراضي وطنه كما لو كان يتلمس طريقه في ظلام الجب ...

في الوقت نفسه أرسل الخان «أبيلمامبيت» الذي يعتقد أن روسيا ستعطي الأفضلية
لخان الجزء الأصغر أبي الخير ، وأنها تريد أن تجعله الخان الرئيسى على جميع الكازاخ
ابنه ووريثه «أبيلفايظ» إلى الحاكم الجونغاري كرهينه . وقد وصلت الأخبار أن الجزء
الخاضع له قد مثله في الاجتماع الذي عقده المحافظ «يبلويف» البطل «جانبيك» الذي
تم منحه لقب طرخان . وقد عجل قراره بالخضوع للحاكم الجونغاري تأكيدات «جالدين
تسيرين» أنه سيتم إرجاع تركستان ، والإثنين والثلاثين مدينة المتاخمة لها إلى الكازاخ .
وقد لعب دوراً هاماً في ذلك أيضاً أنه في ذلك الوقت كان السلطان الشاب «أبلاي» يوجد في
حوزة الجونغاريين كأسير . على أية حال بهذا القرار ساعد خان الجزء الأوسط أسوأ عدو
في شأن الإستعباد الكامل للأراضي الكازاخية.



واقتناعاً منه بخطورة فعل الخان «أبيلمامبيت» بدأ «جالدين تسيرين» بالفعل في عام ١٧٤٥ م في بناء طريق عسكري عبر المستنقعات السهبية المالحة، ووضع على الحدود مع الأراضي الكازاخية الخاضعة لروسيا جيش قوامه عشرين ألفاً من قوات النخبة. وقد هاجمت الطلائع الجونغارية مناطق الرحل الكازاخية الحدودية على نحو متزايد، ونهبتها، واقتادت منهم أسرى.

عبرت موجة جديدة من اللاجئين السهوب الكازاخية، ولكن وفقاً للمعاهدات كان يحظر على القرى الكازاخية الترحال إلى الشاطيء الغربي لنهر جايك. وأولئك الذين وفقاً للعادة السهبية القديمة لم يلقوا بالأمان إلى الحدود المتفق عليها، واخترقوا هذا الحظر، وعبروا نهر جايك. وقد تمت محاكمتهم بموجب مرسوم من مجلس الشيوخ يوم ٥ مارس عام ١٧٤٤م والذي قضى على هؤلاء الجناة «بالقبض عليهم، وإرسالهم من أورينبورج إلى روجوفيك أو إلى سيبيريا للعمل في مناجم، ومصانع «نيرشينسك». علاوة على ذلك في رسالة مؤرخة في ١١ مايو ١٧٤٧م أمر مجلس الشؤون الخارجية بحرق كل العشب على الضفة اليمنى من نهر جايك حتى بحر قزوين. قبل وقت قصير من ذلك، أصدر مجلس الشيوخ في ٢٠ سبتمبر ١٧٤٣م مرسوماً بشأن نقل حماية خط الحدود لجيش يايك القوزاقى. في الحقيقة أصبح لشيوخ يايك القوزاق في هذه الأثناء السيادة الكاملة. كما تم تسليم الجيش القوزاقى في سيبيريا كل الخط الحدودي «المر» على طول نهرى توبول، وإرتيش، وإيشيم. وقد تدهورت على الفور حالة القبائل، والعشائر الكازاخية القريبة من هذا الخط. وقد بدأت المرحلة الأولى من السياسة الاستعمارية القيصريّة، والتي تضرر منها في المقام الأول الطبقات الفقيرة من السكان الرحل. وتزايد القمع القيصري حتى في مناطق التهجير الروسية. ولم يكن حال الرعايا القوزاق بأفضل منهم. واقتربت إنتفاضة بوجاتشيف والتي تأخى فيها لأول مرة في التاريخ الشعب الروسي وشعوب المناطق الحدودية، وكانوا جنباً إلى جنب ضد القيصريّة عدوهم الأساسى.

وللحقيقة فإن الجنرال «نيبلوف» كان يدرك أن أكثر الطرق الصحيحة للمزيد من استعمار المنطقة هو المفاوضات السلمية، والتوسع في التجارة. حتى أنه كتب في تقريره إلى هيئة الشؤون الخارجية «أنه لمن الضروري البحث عن طرق لإخضاع هذا الشعب ليس فقط من خلال العنف، والتهديدات، ولكن أيضاً عن طريق الأعمال النافعة من خلال توسيع العلاقات التجارية» ولكن بالإضافة إلى ذلك فإن «نيبلوف» هذا لم يترك



فرصة إلا وطلب من قائد الجيش اللفتنانت جنرال «شتوكمان» على طريق أويلسكي تخصيص ألفي رجل من القوزاق، وخمسة آلاف جندي من قلعة أورسك لإخضاع السكان الكازاخ بالقوة إذا أبدى هؤلاء أى مقاومة. وإذا دعت الحاجة إلى ذلك تم اقتراح تخصيص عشرة آلاف رجل مسلح آخر من بين الخاضعين لروسيا من «الأجانب» مثل الكالميك، والباشكير، والتتار، والتشيرميس، وغيرهم.

والى أين ستسحب العشائر والقبائل الكازاخية، إذا كان يقف على الجانب الآخر على أتم الاستعداد مع سلاح فرسانه الحاكم، الجونغاري الدموى؟ لقد وجد الخانات والسلاطين طريقهم بانضمامهم إن لم يكن لهذا الجانب فللجانب الآخر، أما الشعب التعييس فقد كان بدأ يتأرجح مثل الحيوان في الفخ، ويتحرك بحماس وعلى غير هدى في اتجاهات مختلفة ومع كل حركة يفقد الدم والقوة. ومرة أخرى ظهرت مئات الوحدات الكبيرة والصغيرة، والتي كثيراً ما كان يقودها فرسان من غير الأشراف، أو مجرد رعاة. وهاجمت هذه الوحدات القيادات القيصرية العسكرية والعربيات، وقطعان، ومراعي البايات الغنية. وكانوا يطلقون عليهم في مختلف الوثائق لصوص، ولكن المرحلة الأولى من المقاومة الشعبية غير المنظمة حينذاك دائماً وفي كل مكان ما تتخذ هذه الأشكال. فقد كانت حركة «ستيبان رازين» (زعيم الثورة الفلاحية من القوزاق «١٦٢٠-١٦٧١» - المترجم) أيضاً تضم في فترة معينة مثل هذه الحشود من الفلاحين.

واصلت الكتائب التي يقودها البطل «بايان»، والبطل «مالياسارى»، والبطل «يليتشبيك» وآخرون، شن ضربات متواصلة على أراضيهم التي استولى عليها الأمراء الجونغاريون. وفي السهوب اشتعلت نار الحرب الشعبية ...

بمرور الوقت كان الخان أبو الخير يبتعد عن مباشرة أمور الحكم. فبعد فشله في الحصول من حاكم أورينبورج على قوات نظامية تكون تحت إمرته، وحرمانه من التصرف المستقل في الجنوب ضد نادر شاه، ومن المراعي وراء نهر جايك، أو حتى عودة ابنه من الإحتجاز كرهينة فقد نفوذه سريعاً في السهوب. وربما لم يكن هذا سوء تقدير من جانبه، بل كان سوء تقدير من المحافظ نفسه؛ لأن الخان أبو الخير قائد السهوب عن جدارة، والقائد العسكري الذي تبنى سياسة الانضمام إلى روسيا.



الآن يتنقل خان الجزء الأصغر الذي تقدم في السن عبر السهوب ولا يدري ماذا يفعل. لقد وصل إلى أنه شرع في دفع بعض القبائل الكازاخية إلى الخروج إلى أراضي خانات آسيا الوسطى. وكان يأمل في أن المحافظ ما إن يرى عصيان الرعايا الجدد ، حتى يدعوه مرة أخرى ، ويعطيه القوات لرد الهاربين. وعندما لم يفلح ذلك الأمر لأن القرى الكازاخية كانت تشعر أنها أكثر أمناً في الأراضي الخاضعة لروسيا ، بدأ خان الجزء الأصغر يناوئ السلطات الروسية سرا ، ثم بعد ذلك علانية.

في منتصف فصل شتاء أعوام ١٧٤٦-١٧٤٧ م عبرت كتيبستان من الجنود الكازاخ على الجليد عبر نهر جايك بتحريض من الخان أبي الخير ، وفي منطقة «كزيل جار» حطموا مضارب رحل الكالميك وقرى الصيادين الروس ، وسرقوا الكثير من الماشية ، واقتادوا أكثر من ستمائة أسير كان من بينهم مواطنون روس . وفي أعقاب ذلك وصلت الفرقة الكازاخية الكبيرة إلى نهر الفولجا مجتاحة في طريقها عدداً من المستوطنات المسالمة . ولكن في طريق العودة تعرض الجنود المفعمون بالحيوية لكمين ، وقد نجوا بالكاد بعد أن فقدوا الكثير من القتلى والأسرى ، الذين حوكموا بعد ذلك وفق قوانين زمن الحرب . وفكر الخان أبو الخير الذي يتلوى عبر السهوب الشاسعة في حملات كبيرة جديدة على الحصون الروسية التي سمح ببنائها في زمن ما . بدأ زعماء القبائل الغاضبون من حوله يتوحدون ، وبدأت في الاقتراب منه فرق الفرسان السريعة ...

مع ذلك كان الخان أبو الخير يدرك جيداً أنه من المستحيل التغلب على دولة عظيمة مثل روسيا . وقد قام بكل تلك العمليات على أمل تعزيز مكانته في المساومة مع المحافظ . لذلك تحديداً وأخذاً كذلك في الاعتبار أن ابنه «كوجاخميت» مازال عند الروس رهينة أمر بالبحث والإفراج الفوري عن جميع الأسرى الروس . وقد كتب الجنرال «بيلوفيف» لهيئة الشؤون الخارجية الروسية « بعد أن أدرك أبو الخير عدم جدوى أفعاله ضد روسيا ، أصبح أكثر خضوعاً عن ذي قبل .» ومن جديد فهمت السلطات الروسية الخان أبا الخير بصورة خاطئة .

في هذا الوقت تشكلت أوضاع الجزء الأوسط بشكل مختلف . لقد أدرك القادة المحليون أنه لا يمكن الوثوق دون قيد أو شرط بالحاكم الجونغاري ، الذي يرغب في استغلال الأرض الكازاخية إلى الأبد . وكانت روسيا هي القوة الوحيدة القادرة على الوقوف في وجه الغزاة الجونغاريين . والآن عندما أصبح واضحاً أن أبا الخير لن يحصل على



الدعم الروسي الكامل في تطلعاته نحو الانفراد بالحكم لأسرته بدأ «أبيلمامبيت» وجميع سلاطين الجزء الأوسط في الميل تجاه روسيا. بدوره ذكر المحافظ «بيلوف» بلباقة قادة الجزء الأوسط من خلال القسم على الولاء للملكة، ولم يفوت الفرصة في التلميح للسلطان «بارك» الذي يُعد أكثرهم عنادا أنه غير راض عن أبي الخير العجوز. وكان «نبيلوف» على علم بالشجار المباشر الذي نشب بين الخان أبو الخير، والسلطان بارك. فقد نهب جنود أبو الخير مؤخراً قافلة كبيرة عن آخرها أرسلها من خوارزم ابن السلطان بارك إلى أبيه. ولمعرفة مزاج السلطان بارك الحاد بقي فقط انتظار تطور الأحداث.

ما إن حصل خان الجزء الأوسط على جميع الرهائن من الحاكم الجونغاري حتى قطع جميع العلاقات معه. بدوره استدعى «جالدين تسيرين» جميع سفرائه من الجزء الأوسط، وهو ما يعني إعلان حرب. قرر الخان «أبيلمامبيت» والسلاطين بشكل نهائي أن يصبحوا رعايا لروسيا، وحينئذ ترك جميع فرسان الجزء الأصغر من غير الأشراف مثل «تايمان» و«أتاي» وكثيرون غيرهم أبا الخير، وانضموا إليهم. لم يهتم هؤلاء الناس كثيراً بالمشاحنات الناشئة بين الخانات والسلاطين، وكانوا يعرفون منذ البداية أن العدو الرئيس هو الحاكم الجونغاري والشورشوتيون الذين يقفون خلفه. وبالاعتماد على روسيا فقط، كان من الممكن مواجهة هذا العدو. وعلى الرغم من أنه أصبح واضحاً من كل الشواهد أن النير القيصرى لن يكون سهلاً، فإنه أفضل من الموت تحت السيوف الجونغارية. وقد ظهر لدى البعض أصدقاء من بين المهاجرين الروس، وظهر في السهوب الفارين الأوائل من جنود القيصر، وسرعان ما وجد الرعاة البسطاء والجنود المتطوعون لغة مشتركة معهم.

كان للتجارة أهمية كبرى. الآن تم السماح للكاзах جزئياً بالذهاب إلى جميع الأسواق التجارية الروسية لبيع الصوف، والسجاد، وشراء القمح، والمنسوجات، والأدوات المنزلية، والمعاول، والفؤوس، والسكاكين، والأواني من أجود الأنواع وبأسعار أقل بكثير مما عليه تلك السلع في أسواق بخارى وخوارزم. علاوة على ذلك، أصبحت الطريق إلى تلك الأسواق آمنة بفضل وجود الحاميات الروسية. وظهر أول تجار كازاخ وحتى رجال صناعة. ووجد العديد من الجنود الفقراء لأنفسهم عملاً دائماً في المناجم، والملاحات، وبناء الطرق والجسور...



قرر الخان أبو الخير بعد أن رأى هذا التحول في الأحداث ، وهو الذي يعد نفسه أول شخص في السهوب أقسم على الولاء للمملكة تجاوز المحافظ ، والتوجه بمطالبه مباشرة الى سان بطرسبرج . وللقيام بذلك كتب في البدايه خطاباً إلى «تيفكلييف» المعروف جيداً لديه يشكو فيه من «نيبلويف» ، وطلب مشورته . كتب الرسالة ، وأحضرها ، كما جرت العادة ، إلى أورينبورج المترجم «كوداباي» . وفور وصوله ، وبعد أن أزال غبار الطريق ذهب إلى المحافظ .

سأله الجنرال «نيبلويف» :

- ماذا جلبت لنا من هناك يا عزيزي؟

- رسالة خاننا أبو الخير للجنرال «تيفكلييف» في سانت بطرسبرج يا صاحب السعادة.

- جم .. جم ...

- يجب أن ترسلها في أول فرصة مناسبة !

- ربما تعرف ماهو مكتوب في هذه الرسالة ؟ ..

كان حاكم أورينبورج الجنرال «نيبلويف» محارباً جيداً ورجلاً شريفاً . ومن غير المرجح أن يقدم على قراءة رسالة شخص آخر ، في مكان ما داخل حدود روسيا . إن قواعد الشرف الأرستقراطي قد تعلمها منذ الطفولة . ولكن هنا على خط الحدود ، هل يمكن أن تطبق على مراسلات أحد الخانات الكاسياك !

كان «كوداباي» لا يعرف مثل تلك «الأحكام المسبقة» ، وحكى للحاكم بالتفصيل محتوى الرسالة كلمة كلمة . فقد كانت ذاكرته قوية .

قال «نيبلويف» وهو يبتسم من سذاجة الخان العجوز :

- لا تنس أن ترسلها في أول فرصة مناسبة كما أمرك بهذا أبو الخير الجليل !

- قفز «كوداباي» كي يذهب لتنفيذ التعليمات ، ولكن نيبلويف أشار إليه بإيماءة من رأسه .



سأله المترجم :

- بماذا تأمرون أيضا يا صاحب السعادة ؟

- أنت يا عزيزي على ما يبدو ، تفهم أنه لم يعد بإمكاننا الاعتماد على الخان المجيد أبي الخير ...

تجهم كوداباي الذي كان يأمل في الحصول على شيء ما من سيده الخان وقال :

- ولكنه قد يتوب ويصبح كما كان من قبل ، يخدم الإمبراطورة بصدق وإخلاص ..

- هذا لا يمثل الآن أي أهمية . فكما هو الحال دائما ، ظهر رجال أكثر شبابا وقدرة من القرغيز - الكاسياك ...

قال المترجم في نفسه :

«الخان نورالي ابن أبي أبو الخير!» - لقد أحسن التصرف منذ البداية . فإذا كانوا قد التهموا في جلسة واحدة ذنباً كبيراً مثل الخان أبي الخير فإنه بالنسبة لهؤلاء الناس أرنب صغير لا حول له ولا قوة ...

استجمع «كوداباي» شجاعته وسأل الحاكم :

- وكيف يفكرون في إزاحة خاننا ؟ - ربما ستصدر الإمبراطورة مرسوماً بذلك .

أجاب المحافظ بنبرة جافة ، فتأمل بثبات بنظرته الرهيبة إلى المترجم وقال :

- لا أعتقد ذلك السلطات لا تهتم بشأن أبي الخير هذا . لقد خلق بنفسه الكراهية بين بعض السلاطين ، وليتحمل الآن الرد . ونحن لن نتدخل في هذا الصراع !

فكر المترجم بشكل محموم :

« ومن ذا الذي ينبغي عليه أن ينفذ هذا ... مغادرة الخان للحياة ؟ . ماذا يريد الحاكم

مني ؟ »



قال «كوداباي» وهو يتجمد من الرعب :

- إن من بين السلاطين المعاديين لأبي الخير السلطان «باراك» ، الذي لا يحبه بشكل خاص .. والخان «أبيلمامبيت» لا يحبه أيضا ، ولكنه لا ... لا يستطيع ...

- والسلطان باراك ؟

قال المترجم :

- بالطبع يستطيع ! - إن السلطان باراك يتهم أبا الخير منذ مدة طويلة ، بأنه يخون الملكة البيضاء ...

وبعد أن أدرك أنه تحدث أكثر من اللازم ، أغلق فمه بيده ، لكن «نيبوليف» لوح بيده مشجعا إياه على الكلام :

- لا بأس ، لا بأس ، تحدث ... الرجل الأنسب هو باراك . إذا كان لا يحبنا هكذا بشدة فإننا لن نتأسف عليه ! ...

- بماذا تأمرونني يا صاحب السعادة ؟

- لا شيء ... فكر أنت بنفسك يا عزيزي !

- ولكن ... ولكن الحاكم الجونغاري هو من سيسعد فقط بذهاب الخان أبي الخير . وسوف تقوم بعض عشائر الجزء الأصغر والجزء الأوسط بالانتقام من السلطان باراك ... ومني أنا أيضا ! ..

- ولماذا ينتقمون منك ؟ فهل ستثرثر بهذا الهراء ... لا تقلق . وطمنن باراك أيضا حال فعله ذلك . سوف يكون في الجزء الأصغر خان آخر ، ونحن ... نحن ، كما قلت لن نتدخل في عمل الآخرين . فالخلافات بين الأقارب لا تعيننا ! ..

- نعم ، نعم ، هم بأنفسهم ...

فهم «نيبوليف» ما يدور في خلد المترجم ، وقال عرضاً ، وكأنه قد تذكر شيئاً :



- هناك عند الصراف ، تراكم راتبك لمدة نصف عام . فإنك تعمل لدينا يا عزيزي براتب .
وسوف تنهال عليك الرتب ، وستنال المجد ...

- سأفعل ذلك بسعادة يا صاحب السعادة ..

- حسناً ، اذهب ، اذهب ... سأنتظر الأخبار ..

بعد عشرة أيام ، ظهر المترجم في خوارزم في ضيافة البطل «جولبارس» ابن السلطان باراك . وقد تحدثوا مطولاً عن شيء ما ، وعند الوداع تم منح «كوداباي» معطف خوارزمي مطرز أخذه من على كتف مضيفه ، وكذلك حصان أكحل تيكوي . وسرعان ما ظهر المترجم في مقر أبي الخير ، ولم يفتأ أن حصل منه على بعض الهدايا . لم يتحدث بطريقتة مباشرة عما دار بينه وبين المحافظ ، ولكنه كان يلمح إلى أن يأخذ الخان حذره ، ولا يسافر عبر السهوب وحيداً .

كانت المسألة تقترب من الحل بشكل قاطع . ففي صيف عام ١٧٤٨ م وصل الجنرال «تيفكلييف» نفسه إلى أورسك قادماً من سان بطرسبرج لإجراء محادثات شخصية مع أبي الخير ، وقال لمحافظ أورينبورج :

- صديق قديم أفضل من صديقين جدد ياسيد «نيبلويف» !

قال «نيبلويف» :

- يا صاحب السعادة ، مضطر وأنا أجلس هنا ، أن أختار لنفسى أصدقاء حسب الضرورة !

أسرع الخان أبو الخير مع عائلته وحاشيته الهزيلة إلى أورسك قاصداً الجنرال تيفكلييف بعد أن أدرك أنه في الإمبراطورية الروسية تعادى الشخصيات المرموقة بعضها البعض ، وتهلك بعضها البعض بطريقة لاتقل سوءاً عما يفعله الخانات والسلاطين الكازاخ تجاه بعضهم البعض . وقد أسرب كل الإساءات التي حدثت له إلى الشخص الذي أقنعه بالانضمام إلى روسيا . وقد فعل «تيفكلييف» أحد الرجال الأكثر ذكاء في عصره كل ما في وسعه ؛ لكي لا يضطر الخان العجوز أن يعدل عن سياسته . وأعرب عن اعتقاده أن



مثل هذا التصرف تجاه أحد أبرز شخصيات الانضمام، ستؤثر سلباً على سمعة الإمبراطورية الروسية في الشرق كله .

وعد الخان أبو الخير «تيفكلييف» بصدق أنه من الآن فصاعداً سوف يخدم روسيا بصدق وإخلاص . ومن بين الرهائن عاد إلى الخان ابنه المفضل «كوجاخميت» ، ولكن بدلاً منه ذهب إلى أورينبورج ابن أخوه «أيوتشوفاك» . وأخذ «تيفكلييف» على عاتقه بشكل كامل تسوية العلاقات بين أبي الخير والمحافظ . وعاد الخان العجوز إلى مقر إقامته في إرجيز طائراً من الفرحة ومستعيداً شبابه .

أما المحافظ «يبلويف» فقد إلتزم الصمت في محادثاته مع «تيفكلييف» فليس من شأنه التدخل في الاقتتال السلطاني الداخلي .

قال نيبلويف :

- أنهم يقطعون بعضهم البعض مثل الذئب ياصاحب السعادة - كيف يمكنني ردعهم عن مثل هذا الأمر الوحشي؟!

غادر الجنرال «تيفكلييف» إلى سان بطرسبرج يساوره القلق على مصير الخان أبي الخير وعلى سياسته روسيا كلها في السهوب الآسيوية الكبرى . وكان عنده من الأسباب لذلك أكثر مما يكفي .

ومع ذلك ، فإن الجنرال «يبلويف» لم يجاف الحقيقة عندما تحدث عن إستحالة منع الاقتتال الداخلي بين القبائل في السهوب ، فقد كان عدد الجنود على الخط الحدودي لا يزال قليل جداً . ولم يسع الحاكم كثيراً إلى ذلك الأمر .

قامت قوات الخان «أبو الخير» أكثر من مره بنهب مناطق ترحال تلك العشائر التي تخضع للحاكم الجونغاري طوعاً أو كرهاً . ولكن كان يحدث أن الخان كان يصفي حساباته العشائرية الخاصة ، حيث إنه كان يتعقب باطراد عشيرة جالير كلها من الجزء الأقدم ، والتي وجدت لها ملجئاً عن الكاراكالباكيين في سنوات «المحنة الكبرى» . لقد عبر جنود «أبو الخير» مرارا نهر «سيحون دارييا» ، ونهبوا قرى



الجالاير ، و الكاراكالباكيين في نفس الوقت . وقررقادة العشيرة خوفاً من الفناء الكامل ، البحث عن مأوى في الجزء الأوسط عند الأرجين . وسارت قافلتهم الكبيرة ، والتي كانت تضم أيضا قريتين من الكاراكالباكيين إلى تورجاي عبر أراضي أبي الخير . ولكنها تعرضت هنا للهجوم من قبل كتيبة أخ السلطان باراك الشقيق «كوتشوك» الذي ، انفصل عن الجزء الأوسط ، وأعلن نفسه بدون وجه حق خاناً لعدد من العشائر والقبايل . وقامت خيالة السلطان «كوتشوك» بنهب قافلة اللاجئين بالكامل مبررين ذلك أن «الجالاير» ربما يريدون أن يغيروا وجهتهم ، ويذهبوا إلى الجونغاريين . وقد نجا فقط خمسون شخصا من الكاراكالباكيين ، فهربوا في اتجاه أورينبورج ، وتقابلوا في الطريق مع الخان أبي الخير العائد توأ من المفاوضات . وعلى الرغم من أنه كان يرافقه فقط مائة وخمسين فارساً فإن أبا الخير سعى خلف السلطان «كوتشوك» . ولكن حدث أن السلطان باراك الذي كان متواجداً هناك ، هب لنجدة شقيقه بطريقة غير متوقعة .

نصح المقربون من الخان أبي الخير خانهم قائلين :

- لن نستطيع التغلب على السلطان باراك- دعنا نعود إلى إرجيز من أجل المدد !

صاح الخان العجوز بغضب عارم قائلاً لهم :

- إنكم لستم محاربين بل نساء! وأمرهم بتعقب السلطانين .

وغادر السلطان باراك ببطاء ، وفي كل مرة يظهر فيها على التلال القريبة كان يثير لدى الخان أبي الخير نوبات جديدة من السعار . وكان من الواضح أنهم يستدرجون الخان العجوز بعيداً في السهوب .

وأخيراً أدرات رحى المعركة المصيرية . واكتسح الجيش الموحد للسلطانين الأخوين بسهولة على الشاطيء الصحراوي للغدير السهبي «أولكيك» المائة والخمسين فارساً التابعين لأبي الخير . وبالمناسبة كما كان يحدث غالباً في ذلك الوقت غير المستقر ساعد السلطانين الجالاير والكاراكالباك من القافلة المنهوبة ، والذين إنحازوا إلى جانبهما بسرعة . فقد كانوا يرغبون منذ فترة طويلة في تصفية حساباتهم مع الخان أبي الخير . قام الخان «أبو الخير» نفسه بتقطيع بعض الأعداء ، وبعد أن رأى السلطان باراك قادماً نحوه ، عرف مصيره فخفض سيفه وأغمض عيناه . أوقعه السلطان من فوق حصانه ، وقفز على صدره ، وغرس في صدره سكيناً كازاخياً مستقيماً . وفجأة بدأت السماء الزرقاء الساكنة تتحرك ، وتدور ، واكتست بلون الدم الأحمر القاني .



همست بلاصوت شفتاه الشاحبتان - لقد انتهى كل شيء....! ومثل النار أحرقت للحظة وعيه الفكرة التالية: «يالك من حكيم يا شعبي الصغير .. فيما عداك، فيما عداك أنت أيها الكازاخي لم يطلق أحد على هذه الدنيا اسم «جالجان». أحيانا يطلق الكازاخ على الحياة اسم «جالجان». من الصعب ترجمة هذه الكلمة التي تعنى الحالة العابرة بسرعة، والخادعة.... حقا، أنت أيتها الحياة خادعة، عابرة... مثل لحظة واحدة...»

هتف السلطان باراك سلطان قائلا :

- أيها الخائن يا عدوى الأبدى! كما أقسمت ذات مرة، ها قد فعلت. لقد ذبحتك بيدي، وشريت من دمك. وإذا كنت مذنباً في شيء ما، فإن رقبتى ستتحمل حبل العدالة!

قال السلطان باراك ذلك، ثم ضرب فرسه بسوطه، وانطلق دون أن ينظر حواليه ...

في أقل من سنة أصدرت الإمبراطورة «إلى زافيتا بيتروفنا» مرسوماً بالموافقة على تعيين السلطان «نورالي» خاناً للجزء الأصغر...

الجزء الثالث



I

كانت أعشاب المروج الكثيفة ذات الرائحة العطرية ، تصل إلى الخصر. وعلى مسافة بعيدة كما لو أن طيور النورس البيضاء هبطت بشكل عشوائي ، على صخور جبل «سيريمبت» كانت الخيام السلطانية البيضاء . وكان هناك أيضا العديد من الخيام الأخرى السوداء، المدخنة المليئة بالثقوب. ولكن كان من غير الممكن رؤيتها من هنا لأنها كانت مخفية في حفرة تحت الجبل . لقد كانت تلك قرية منفصلة يعيش بها الكثير من عبيد وخدم الخان «أبلاي» .

كان الناس يهرولون على حد سواء بجانب الخيام السلطانية ، وفي القرية السوداء في الأسفل. وفي الجانب في الساحة الدائرية ، كانوا يسلخون الأغنام ، ويضعون المراحل. كانت الشمس قد أشرقت لتوها ، وعندما تصل إلى أعلى نقطة لها ، سوف تبدأ وليمة عظيمة . فالיום قاموا بختان السلطان «قاسم» وريث أبلاي البالغ من العمر سبع سنوات من زوجته ، شقيقة الحاكم الجونغاري العظيم «جالدين تسيرين» . لقد كان ذلك واحداً من أهم الأعياد في السهوب ، وخصوصا عندما يتعلق الأمر بأحد أفراد التوريين الجنكيزيين .

قبل عشر سنوات ، عندما كان السلطان «أبلاي» لا يزال صغيراً وقع للمرة الثانية في أيدي الجونغاريين . وقد مكث في مقر الحاكم الجونغاري بطشقند مدة ثلاث سنوات لأن الجونغاريون كانوا يتعاملون باحترام مع التوريين ، الذين يشاركونهم نفس الدماء . وفي عام ١٧٤٣م أطلق سراحه بطلب من عمه الخان «أبيلمابيت» ، وتدخل المحافظ الروسي الجنرال نيبولوف . وحل محله كرهائن في مقر الحاكم الجونغاري السلطان «أبيلفايز» ابن «أبيلمابيت» نفسه ، وابن السلطان «باراك شاجاي» .

لكن السلطان «أبلاي» لم يعد وحيداً من الأسر الجونغاري . فقد قام المحنك جالدين تسيرين بعد أن راقبه ، ولاحظ شجاعته وذكاءه وحسمه اللذين لاغنى عنهما للحاكم الحقيقي ، ووفقا لكل قواعد الدبلوماسية الشرقية قام بتزويجه من أخته خوتشا المحاربة. ولشجاعته في الحرب والمشاركة في شؤون الدولة أطلقوا عليها من سن الثلاثة عشر البجادور خوتشا ، ولدى وصولها إلى السهوب الكازاخية أطلقوا عليها البطلة خوتشا .



أنجبت أولاً طفلة، سرعان ما توفيت من مرض الحصبة، وفي عام ١٧٤٦ م أنجبت خوتشا ابنها «قاسم» صاحب احتفال اليوم.

بحلول ذلك الوقت، كان «أبلابي» يتمتع بالفعل بشهرة ضخمة في السهوب الكازاخية وخارجها. ولم يخطيء الحاكم الجونغاري، عندما توقع له مستقبلاً عظيماً. وساهمت الشجاعة والذكاء والحصافة الجديرة بكبار السن في أن أبلابي، وإن لم يكن يملك لقب الخان، أن يملك سلطة غير محدودة في الجزء الأوسط، وكانوا يوقرونه في كل مكان حينما يتصدى للخطاب الكازاخي. فقط أخطأ الحكيم «جالدين تسيرين» في شيء واحد، فعندما تزوج أبلابي من شقيقته لم يصبح تابعاً له، وانتهج سياسة مستقلة. فرغم كل التقلبات التي كانت تحدث في السهوب، كانت رؤوس حربة تلك السياسة موجهة نحو التحرر من النير الجونغاري.

كان السلطان «أبلابي» لا يزال حتى الآن الزعيم الرسمي لبعض العشائر الأرجينية بالجزء الأوسط، بما في ذلك عشائر أتيجاي وكاراؤل كبيرة العدد، والذين يعيشون على سفوح جبال كوكيتشتاوي، وتقاربوا مع أبلابي من خلال بناتهم اللاتي تزوجن أبلابي. في الواقع أقام أبلابي البالغ من العمر أربعين عاماً هذا الاحتفال بنية خفية من أجل تجنيد المؤيدين. لقد حدد هدفه منذ البداية، وهو أن يصبح خاناً لجميع الكازاخ وسعى نحو هذا الهدف، مستخدماً جميع الوسائل. وإذا اقتضت الحاجة يكون هادئاً وسياسياً لين العريكة، ولكن عندما كان من الضروري أن يمر فوق الجثث، كان يمر فوقها غير ناظر حوالياً.

قبيل المساء جاء إليه الشاعر الشهير بوخار الذي كان أبلابي يعرفه منذ أن كان شاباً يافعاً يدعى أبو المنصور وهرب من الأسر، واختبئ في خيمة الراعي السوداء مع العبد العجوز أوارز.

حينئذ قال للشاعر بوخار إنه سيتسمى باسم جده السفاح أبلابي.

قال أبلابي:

- إنك عابس اليوم يا شاعري - حدثنا عن شيء يعلمنا ...



- لهذا السبب جئت . - صمت الشاعر بوخار ملياً . لقد حان الوقت لأخبرك عن جدك «يسيم خان» . إننى أعلم أنك تحترم ذلك الاسم ياسلطان ، وأود ألا تكرر أخطائه ...

- نحن نستمع إليك أيها الشاعر ...

وعلى الرغم من أن الشاعر كان متعباً من الطريق إلا أنه بدأ يحكى ...

- لقد إنهالت على الشاب «يسيم خان» الكثير من المتاعب بعد وفاة توكل . أولاً وقبل كل شيء ، كان من الضروري حل المشكلة الملحة للعلاقات مع كاشغر وقادة مغولستان السابقين والسلاطين ، الذين قاتلوا بعضهم البعض على ميراث الخان عبد الرشيد . ومع ذلك طالبوا بالعديد من الأراضي القرغيزية . وقد انقسم صفوة القوم القيروغيز بدورهم إلى أنصار للقبيلة البيضاء التي تمت لهم بصلته القرابة وإلى أنصار لكاشغر . لم يستطع «يسيم خان» قليل الخبرة تحاشي هذا الصراع التافه ، وتورط فيه . وحدها أرغمت الهجمات المتكررة للحكام الجونغريين بتحرير من الأباطرة الصينيين ، الأشراف المتمردون على الانضمام إلى «يسيم خان» . وقد أحسوا بالفعل في الأنهار السبعة بالنفس الساخن للثنين الصيني ... وكما في المرات العديدة السابقة اعتقد الحكام الجونغريون أن الكازاخ والقرغيز سوف يتحدون ضد الأعداء الشرقيين .

والآن قرر يسيم خان بناء على نصيحة من الأشخاص المعنيين التدخل في الاقتتال الكاشغري الداخلي ، ودعم «شاليش» أحد أبناء الحاكم عبد الرشيد ، وتورفان أحد أبناء الخان عبد الرحمن . وقد تم توضيح ذلك رسمياً أن أم «عبد الرحمن» كانت من قبيلة ويسون الكازاخية المحلية ، وأنه عادة ما كان يأخذ جانب القبيلة البيضاء . وقد خصص له «يسيم خان» خمسة آلاف فارس لمساعدته في حربه ضد سائر ورثة عبد الرشيد . وكان على رأس هذا الجيش البطل «تويك» .

بعد يوم من الاحتفالات على شرف الخان الراحل توكل ، أمر الخان الشاب يسيم البطل تويك بالمشول أمامه في القصر . كان يسيم خان حار الدماء ، والنشيط ، وصاحب العيون العسلية السريعة تقريبا في طول العملاق تويك . وبحركة حادة ألقى بنفسه للفارس وسادة ، وكان يعد ذلك أسماً تعبير عن المودة ، وعلى الفور ، بدأ يخبره عن المهمة القادمة .



وأنهى كلمة الوداع قائلاً :

- يجب أن نضم إلى صفنا اليوسون ، وجميع القبائل الكازاخية في الأنهار السبعة وتركستان ! ثم قال له : - إقسم أنك ستنفذ إرادتي !

أجاب البطل تويك بهدوء :

- إرادة الخان تكون مقدسة تقديساً مضاعفاً عندما لا تخالف إرادة الشعب .
- ولكننا جميعاً بشر ، واسمح لعبدك أن يعبر عن رغبة واحدة خفية .

- تكلم أيها المحارب !

- الإيمان بالسعادة هو الزورق الذي يحمل الفارس عبر أنهار الحياة المضطربة والواسعة .
وعندما يكون الإيمان قوياً ، تشتعل في قلب الفارس نار الشجاعة ، ولا يتعثر حصان الفارس أبداً . وسعادتي كلها تماماً في يديك يا سيدي الخان ...

- أكمل حديثك أيها المحارب !

- إذا كنتم قد تنازلتم لحد الاستماع إلى ابن الجارية فإننى سأحدث حتى النهاية . هل أنتم راضون عن خدمتي في جيشكم ؟ وهل أعمالى على قدم وساق مع الأعمال العسكرية للمحاربين الآخرين أيا كانت أصولهم شريفة؟!

قال يسيم خان بفارغ الصبر :

- أقسم بالله إنك وأخاك المتوفي قد فقتكم الجميع في الحرب الماضية ! - لكن تكلم بسرعة أيها المحارب !

- لقد سمعت الكلمات المقدسة من فمك يا سيدي الخان . فما هي يدي وهما قلبي .
زوجتي «أكتورجين» أرملة أخيك ! ..



ارتجف الخان الشاب ، وإحمر وجهه كما لو أن أحداً قد صفعه ، حتى أنه قد ترنح من وقع المفاجأة وقال :

- مهلا ... ما الذي تتحدث عنه؟! -

- لقد أقسمت بالله أنني لست أسوأ من الآخرين ياسيدي الخان ..

أصبح وجه الخان الشاب الأسمر، أسود مثل الليل . هز رأسه وكأنه حصان بري قد ألقى عليه حبل خانق بشكل غير متوقع . بالطبع لا يوجد في السهوب مثل هذا القانون الذي بمقتضاه تدفن الأرملة في القبر مباشرة بعد وفاة زوجها . ولن تبقى زوجة الخان توكل أرملة إلى الأبد . لكنها الآن كنته الخان . وهل يمكن السماح لها بأن تتزوج من ابن الجارية . سوف يتحدث العالم كله عن هذا العار الذي لايمحى !

قال البطل توباك :

- أكتورجين أرملة شقيقك أيها الخان تطلب منك ذلك أيضا !

تحدث يسيم خان ببرود ، وعيناه تحديق بعيداً :

- هذا يعني .. هذا يعني أنكما كنتما تتأمران سراً حتى قبل وفاة أخي عالي المقام! -

إذن سوف تعاقبان ثلاثة أضعاف !

- ليس الأمر كذلك ياسيدي الخان !

- اصمت أيها العبد !

لم يكن الخان الشاب «يسيم» إنساناً سيئاً أو قاسياً . ولكن بدا له مطلب أحد الفرسان ممن لا أصل لهم ، أن يتقارب معه ولو بشكل غير مباشر ، وهو التوري الجنكيزي وقاحة غير مسبوقه ... وكان هناك شيء آخر ، زاد من غضبه . في الحقيقة كان الخان الشاب يختلس النظر إلى الأرملة الجميلة ، ويتطلع إلى مشاركتها السرير . لقد كانت جميلة ، أرملة أخيه ، وقرر في نفسه أن يتخذها طبقاً للقانون زوجة له على الرغم من فارق السن . كانت أكتورجين تكبر الخان بعشر سنوات ، ولكن بجانبها كانت كل الحسنات تبدو كبقع باهتة ...



انتفض بشدة ، ودق الجرس الفضي في يد الخان . هرع إليه الحراس فقال لهم :

- خذوه إلى السجن... تحت الأرض!

انتشر على الفور في جميع أنحاء تركستان ، خبر سجن البطل الشهير والقائد الحربي في زنزانة كريمة الرائحة في الساحة السوداء خلف قصر الخان . وبحلول المساء علم ذلك سكان القرى المجاورة ، وبعد ثلاثة أيام تحدثت عن ذلك الأمر جميع السهوب الكازاخية.

ضفرت أكتورجين ضفائرها الرائحة ، عندما أبلغها خادمها الصغير الراكض أنهم اقتادوا البطل تويك مقيداً بالسلاسل إلى الساحة السوداء . شحب لونها ، وأمسكت بقلبها ، ولكنها تماكنت نفسها وقالت :

- إستدعوا البطل جوليمبيت !

كان البطل «جوليمبيت» ، الذي قاد أفضل كتيبة فرسان الجزء الأصغر بمشابة عمها . أدركت أكتورجين أنها لن تطلب العفو من الخان . ولن يؤدي ذلك إلى نتائج حميدة . وفقاً للقوانين القديمة غير المكتوبة ، كان يجب عليها حتى آخريوم في عمرها أن تكون ملكاً لهذا الخان الصبى ، ويؤزره في ذلك القانون ومحكمة الشيوخ . كان الأمر سيكون على خلاف ذلك لو أن الخان كان أكثر ذكاء وخبرة . فلم يكن يقدم على الشقاق مع الفرسان الوطنيين ، ومعها بشكل مباشر ، وبالتالي مع كل الجزء الأصغر من أجل نزوته . وماذا يمكنها وهي التي تخطت الثلاثين من العمر فيما عدا النزوة العابرة أن تلهم ذلك الخان الصغير ... علاوة على ذلك ... علاوة على ذلك ، أصابت قلبها نظرة البطل تويك المتحفظة ، المليئة بالقوة الرجالية الخفية . وعندما ساعدها لتترجل من فوق الحصان ماداً إليها ذراعه الكبير ، لم تكن تريد أن تتأى بركبتها عن هذه اليد! ...

قالت للبطل جوليمبيت القادم إليها :

- لن أمكث تحت رحمة هذا الخان ... - يجب عليّ الآن أن أعود إلى وطني . إننى بحاجة إلى الاختباء ، مادام جنودك بالمدينة . ويبدو أنك صديق للبطل تويك . علاوة على ذلك



أنت عمي . أخرجته من السجن في الوقت الذي سيطاردونني فيه . وليقرر مصيرى معه بكوات بلاد النوجايلي !

لم يستطع البطل جوليمبيت التصرف خلاف ذلك . بعد وفاة خاك نزار ، تم تزويج أكتورجين لتوكل خان كعربون وفاء الجزء الأصغر للقبيلة البيضاء . والآن تمت الإساءة إلى الجزء الأصغر بأكمله في شخصها . فكيف يتثنى لمحاربى الجزء الأصغر تمرير مثل هذه الإهانة ! أما فيما يتعلق بالبطل تويك ، فأنهم لن يبكون على الشعر إذا نزعوا الرأس . بعد أن قام جوليمبيت بإطلاق سراحه تلقى الدعم من جميع الفرسان من غير الأشراف ومن عامة الناس . وكان في هذا الوضع الغامض الذي نشأ في السهوب قوة هائلة . على أي حال فإن «العظم الأسود» كان قد أحبط الخان توكل في بخارى...

في ذلك الوقت ، كان المتهم الرئيس في تلك الفضيحة البطل تويك يجلس في حفرة حجرية مظلمة ذات ثقب ضيق في السقف . ومن وقت لأخر كان يقعع بسلاسله الثقيلة... بدأ كل شيء منذ اللحظة التي إرتدت فيها أكتورجين بحسم درع زوجها الراحل ، وامتطت سهوة جواده ، وانطلقت الى المعركة . حينئذ ولأول مرة ساعدها على الجلوس في السرج ، واضعا كف يده تحت ركبته . أحس على الفور بدفع تلك الركبة المستديرة ، ورفع عيناه إلى أعلى . نظرت إليه المرأة من مكان ما في السماء ، وكانت عينها أكثر إشراقا من النجوم... بعد ذلك أبعد عنها عشرات الحراب الموجهة إلى صدرها ، وبضربة واحدة من سيفه الرهيب أطاح بكل الأعداء الراغبين في قتلها . وبعد المعركة ساعدها مرة ثانية على الترتل من على الحصان ...

لدى وصوله إلى تركستان ، لم يرها مرة واحدة خلال وليمة الميت التي إستغرقت أربعين يوما . لكن في اليوم الحادي والأربعين جاء إليه صبي وطلب من البطل أن يتبعه . ذهب البطل تويك دون أن يسأله عن أي شيء ، ولم يندهش عندما رأى نفسه في غرفة أكتورجين .

سألته أكتورجين :

- هل يمكنك أن تروض لي هذا الحصان في يوم واحد ؟ أو ما برأسه كأنه في حلم غير

مصدق من فرط سعادته . يقولون في الأسطورة القديمة إن الملكة قبل أن تعطي قلبها للفارس البسيط من ذوى الأصل المتواضع ، كانت تختبره على هذا النحو . لقد كانت هذه



إشارة واضحة لميل امرأة إلى رجل ، وللإقدام على ذلك كان ، الأمر يتطلب الكثير من الشجاعة . على أية حال كانت أكتورجين تتحلى بما يكفي من الشجاعة...

كان الحصان ضخماً وجميلاً ، وبلغ من العمر سبع سنوات ، لكنه كان غير مروض تماماً ، وكان قد أرسل كهدية من أقاربها الباشكيريين . عند الفجر قفز عليه البطل تويك ، وأمسكه بركبتيه القويتين ، وأقله الحصان إلى السهوب وأرتفع سهيله المسعور . وقرب المساء ، عاد أدراجه على حصان مطيع وهاديء . وعندما وضعت أكتورجين قدمها في الركاب بمساعدة البطل تويك ، لم يتحرك الحصان .

قالت :

- شكر لك يا فارسي!

وفي وقت متأخر من المساء ، جاء الولد من أجل الفارس ، وقاده عبر ممرات مظلمة إلى قصر الخان الصغير . وهناك قابلته مربية كانت قد جاءت مع زوجة الخان من بلاد النوجايلى . قادته إلى باب صغير ، وبقيت في الخارج . ورأى الفارس في العتمة أياد بيضاء ممدودة إليه ، وسمع صوتاً يقول له :

- اقترب يا فارسي!

اقترب دون أن يتنفس ، ولمسته بأصابعها الرقيقة .

- ماذا تطلب ، أيها البطل ، لقاء ترويضك حصاني؟

بقي صامتاً غير قادر على التفوه بكلمة واحدة .

- حسناً دعيني أقبلك لقاء ذلك ...!

وقفت على رؤوس أصابعها ، فقاربت فقط صدر البطل . وكما في حلم رائع سمعت ضحكاتها الفضية ، ثم قالت :

- لماذا لا تمد يدك أيها البطل الشجاع؟

حينئذ مد يده الكبيرة كما فعل ، حينما كان عليها أن تجلس في السرج . وقفت



على كفه بركبتها الساخنة العارية ، ووصلت إلى شفتيه. تحرك كل شيء ، ودارت حواليهما الغرفة ، والقصر، والسهوب ، وحياته كلها . ولم تسمح له بالذهاب حتى الصباح ..

حملت أكتورجين غير أن الملابس الحريرية الفضفاضة التي كانت سائده في البلاط الخانى ، وعدم تعرض نساء صفوة القوم للنظرات الوقحة ، ساعدا على إخفائه بضعة أشهر حتى موعد وليمة الذكرى الثانية الرئيسة للخان توكل . الآن انكشف كل شيء، والهرب وحده هو الذي يمكن أن ينقذها من العار ...

قالت لعمها جوليمبيت لحظة الوداع :

- إما الموت، وإما البطل تويك !

تحت جناح الظلام ، اقتربت كتيبة صغيرة من فرسان الجزء الأصغر من بوابات تركستان الغربية.

سأل رئيس الحرس :

- من أنتم وبأمر من ؟

قال البطل جوليمبيت ، وقد اقترب من الضوء :

بأمري أنا ! فتراجع قائد الحرس باحترام إلى البوابة . وسارت الكتيبة مع خيول جديدة مشدودة العنان في هدأة الليل. وفي وسطها انطلقت أكتورجين على حصان أبيض ملفوفة في قفطان...

في الصباح تجهز الخان يسيم للمطاردة ، لكنه كان يعلم أنه شيء لا طائل منه . لذلك أمر الخان بتشديد الحراسة على البطل تويك في السجن . فأخبروه أنهم حاولوا خلال الليل الإفراج عنه ، لكنهم لم يفلحوا في ذلك فقط ؛ لأنهم نقلوا السجن من المساء إلى حفرة أخرى تحت جدار القصر...

في ذلك اليوم أرسل الخان البطل جوليمبيت بدلا من البطل تويك إلى تركستان الشرقية ؛ لمساعدة الخان عبدالرحمن ...



في أقل من ستة أشهر، عاد البطل جوليمبيت بالنصر . لكنه لم يحارب إخوة الخان عبد الرحمن الكاشغريين ، بل اضطر لمحاربة خصم أكثر خطورة . بتحريض من المستشارين الصينيين ، شنت الكتائب الجونغارية غارة دموية على كازاخ الأنهار السبعة والقيرغيز . وحين عادوا عبر الحدود مثقلين بالغنيمات إنقضت عليهم كتيبة البطل جوليمبيت التي يبلغ قوامها خمسة آلاف جندي ، ففرق جنودهم ، وأطلق سراح الأسرى ، واستولى على الكثير من الخيرات . لم يحصل الجنود على رواتبهم لمدة ستة أشهر نظير الخدمة ، فوزع المحارب عليهم الحصص العسكرية للخان . انتهزوا الفرصة ، وأبلغوا يسييم خان عن ذلك الأمر ، مبالغين في مقدار الغنائم بعشرة أضعاف . غضب الخان على البطل . ولكن الشيء الأكثر أهمية حدث في يوم عودة الكتيبة . في هذا اليوم بالذات أصبحت الحفرة الحجرية ، التي حبس بها البطل تويك فارغة . وشهد الحراس أن جنود البطل جوليمبيت قد سرقوا السجن ليلاً ...

في اليوم نفسه - يوم عودته من الحملة الصعبة - وضع البطل جوليمبيت في السلاسل ، وحبس في نفس الحفرة التي كان بها البطل تويك قبل هذا . وتطايرت عبر السهوب أنباء تفيد أنهم يستعدون لقطع رقبة البطل المجيد ...

هذه المرة جاء الشاعر «جيينبيت» بنفسه إلى قصر الخان . وكان من المتعارف عليه في السهوب أن المغني الشهير يملك الحق في أن يأتي إلى الخان في أي وقت . لاسيما وأن جيينبيت كان المغني العراف للخان الراحل توكل . لم يكن هناك وقت للانتظار لأن كل شيء كان جاهزاً في الميدان الرئيس في تركستان مقابل قصر الخان لإعدام البطل جوليمبيت . وتحسباً للاضطرابات التي يمكن أن تحدث ، أمر يسييم خان حراسه الشخصيين بتطويق الميدان ...

أدرك الخان الشاب على الفور سبب مجيء الشاعر فقال بازدراء واضح :

- مرحبا بالمغني العظيم ! - من الواضح أنك كنت في عجلة من أمرك . هل كل شيء على مايرام في وطنك ؟ ..

لم يجب الشاعر الفخور الخان بكلمة ، وأمسك بالدومبرا ، وشرع في الغناء :

هناك حيث تنجب السلطة القسوة فقط



تختفي الحكمة في الخوف ياسيدي الخان ...

كلا إن مشاعرك لن تجلب لك الخير

أما فيما يخص قتل البطل ..

فتذكر أنك الخان

أما جوليمبيت الذي يشبه النمر، فإنه ليس وحيدا في هذا العالم .

فعشيرة «باي أولى» بفروعها الاثني عشر، يقفون خلف ظهره

وكل فرع سوف يشتاق للفارس المقتول بيديك ! ..

وإذا كنت تبكي على نصيبك من الغنيمة

فإننا سنرد لك نصيبك ثلاثة أضعاف .

وفي الباقي نأمل فقط في وجه الله ! ..

حتى يسيم خان الشاب حار الدماء أدرك التهديد الكامن في كلمات الشاعر .

قال الخان :

- إنك تغني بشكل جيد أيها الشاعر، ولكن كان يجب قبل ذلك أن تلقي السلام !

أثنى «جيينبيت» ركبته مثل المحارب وقال :

أتمنى لك الصحة والرفاهية، ولخانيتنا الكبيرة يا سيدي !

لمعت عيون يسيم خان وقال :

- حسنا أيها الشاعر ... أهبك حياة البطل جوليمبيت !

قال الشاعر بارتياح :

- أحمد لك حكمتك الخانية يا سيدي ! - الآن أظهرت لكل السهوب، أنه ليس عبثا

أنهم قد رفعوك على البساط الأبيض . لقد أطلقوا عليك اسم «يسيم» عند ميلادك وهو



ما يعني «الحكمة». وهذا يعني أن والديك لم يوفقا في اختيار الاسم. إن أسمى أنواع الشجاعة الخائبة عدم الخوف من أن تكون حكيما !

نعم ، لقد كان هذا «اليسيم الكبير» هكذا ، كما كان يسمى من قبل الشعب ذكياً بما فيه الكفاية ، سريع الغضب ، ولكن سريع الرضى . وقد ظل هكذا في أغاني الشاعر.

سأل «أبلاي» عندما أنهى الشاعر العراف قصته عن يسيم خان :

- لماذا قصت علي هذا أيها الشاعر؟

أجاب الشاعر بغموض :

- ربما غدا سوف تفهم هذا !

- ولكن غدا ، هو يوم عيد تكريماً لابني .

- من منح السلطة يجب أن يكون حكيما حتى في الأعياد !

وها قد حل الصباح ...

درس أبلاي جيداً كل ترتيبات الاحتفال القادم ، وكل إيماءة له ، وكل كلمة سوف يقولها فيه . وخرج من خيمته في معطف أسود فضفاض من القطيفة ألقى على كتفيه ، وقبعة من السمور ، وحقق في الشمس الساطعة دون أن يغمض عيناه . كان الطقس ملائماً للاحتفال . وبعد أن أجال أبلاي ببصره على جميع الأماكن الخلابية المحيطة ، تقدم خطوة باحترام نحو الفتى المتجمد ، الذي يمسك في يده الإبريق النحاسي ، وعلى كتفيه فوطاة مطرزة ، ولكنه فجأة أظهر اهتماماً بالغاً مثل الصقر، الذي رأى الفريسة .

انطلق فارسان على حصانين رغويين من الوادي وراء الجبل ، وانطلقا بشكل مائل، مثل العويسق الأحمر (نوع من الصقور) عندما يلمس بالكاد قمم العشب . ثم تحولوا فجأة إلى الخيام البيضاء ، ودوى النفير السهبي الأبدي : «إنذار .. العدو قادم !»

عندما اقتربا انفصلا عن بعضهما البعض . ذهب أحدهما ، والذي كان يضع عمامة بيضاء بسيطة على رأسه إلى الجنود ، أما الآخر الذي كان يرتدى معطفا قصيرا من صوف



الجمال الأبيض وغطاء رأس ، فقد كبح جماح فرسه عند أقدام أبلاي . ترجل عن فرسه ، ورفع غطاء رأسه ، ووقف على ركبة واحدة . لقد كان جندياً صغير السن ذى شوارب سميكة جميلة فوق فم محدد بوضوح .

صاح فرد الاستطلاع :

- خمسة آلاف فارس من الأرجين قادمون إلى هنا!

سأله أبلاي دون أن يحرك حاجبه :

- هل سمعت حديثهم؟

- نعم يامولاي السلطان ... أنهم أشرار مثل كلاب البرية الوحشية . يقولون : «نمضي لقطع رأس أبلاي مقابل موت بوتاخان!»

- ومن يقودهم؟

- بيكبولات بيك الابن البكر لكزاداويستي كازيبيك .

- وأين البيك الكبير؟

- لقد تحدثوا فيما بينهم أنه مريض منذ بداية فصل الربيع . ولكن بأي مرض قد أصيب ، لم أسمع من مكاني وسط نبات الديس . لقد قالوا فقط أنه أصبح في «وزن حافر الحصان» . لكن بيكبولات كان غاضباً جداً ، ويحثهم على المضي قدماً ! ..

- وإذا سرعوا من حركتهم فمتى سيكونون عندنا هنا؟

- عند الظهر! ومعهم أيضاً هذا

طأطأ الجندي رأسه ، ولم يجرؤ على الكلام .

- من ! تكلم أيها الجندي !..

- البطل أولجيباي مع ابنه بالتبني الشاعر كوتيشم ...



حول السلطان أبلای رأسه رغما عنه . هذا أمر خطير جدا ، إذا كان معهم أولجاىای المحب للحقیقة ! .. لقد اشتهر البطل أولجاىای من عشيرة كارجاس بأنه عاش حتى سن الأربعین ، ولم یستطع أن یقرر بصفة نهائیة هل یصبح محارباً أم شاعراً . فی الواقع ، لقد كان لمدة عشرين عاما واحداً من أشجع محاربي الجزء الأوسط ، ولم تكن هناك معركة خطيرة واحدة ضد الجونغاریین ، إلا وشارك فیها . ولكن بالإضافة إلى ذلك ، كان « أولجاىای » یعرف عن ظهر قلب كل أساطیر السهوب ، منذ عهد كوركوت الأسطوری حتى یومنا هذا . كان یمكنه أن یقطع نصف السهوب على فرسه السریع إذا علم أنه ظهر فی قریة ما شاعر حكاء جدید مثير للاهتمام . ودائما ما یتخلل حدیثه أمثلة من الحكایات والأساطیر القدیمة ، وكل كلمة فی لغته ، كازاخیة كانت ، أو عربیة أو فارسیة أو روسیة یفحصها سماعا ، ویکررها عدة مرات ، ویجد نغمات صوتیة قدیمة ومشاركة لجمیع الشعوب . وقد أكد أكثر من الآخیین الرأی المتبع فی السهوب أن الأرجین ینجذبون منذ العصور القدیمة إلى العلوم والفنون .

هكذا كانت حیاة البطل أولجیبای ، الذی ما إن یمسك فی یدیہ آلة الدومبرا الموسیقیة لتألیف شیء ما ، إلا ویهرع أحد الجنود على حصان رغوي ویبلغ أن الجونغاریین یسنون هجوما على مناطق الترحال المجاورة من جدید ، ویطلب منه الأقارب المساعدة . لم یكن البطل یستطیع أن یرفض فی مثل هذه الحالات . وكل صیف كان یتتحق مع جنود آخیین بكتیبة أبلای الدائمة ، والتي كان یقوم معها بحملات طويلة ضد الجونغاریین . وعندما وقع أبلای الشاب فی الأسر أفلت أولجیبای من الثلاثة الجونغاریین الذین هاجموه ، وانطلق إلى السهوب .

وعلى الرغم من سنه ، یخبر البطل أولجیبای الجمیع فرادی وجماعات أنه قریبا سوف یرمی سیفه ، وسوف یذهب عبر السهوب كشاعر بسیط . وما زال یعبر حتى الآن عن حبه للفن حیث یرعى ویساعد كل الشعراء الكبار والصغار على مساحة ألفی فرسخ حوالیه ودائما ما یعیش عنده أحد المراهقین الموهوبین ، الذی سرعان ما یصبح شاعراً شهیراً . والآن یعیش معه كوتیش المتبنی الیتیم ، الذی یفوق بغنائہ الرنان وذاكرتة الجیدة العدید من رواة القصص البارزین .

وربما لغرابة أطواره أو حبه الكبير للحقیقة والعدالة ، كان هذا الفارس الطویل الرشیق بصفیرته السوداء المسدلة حتى كتفیه ووجهه المفكر دائما یستدعی الاحترام



لاإراديا في كل قرية كازاخية. كان دائما المساعد الوفي للسلطان أبلاي في جميع معاركه ، وكانت كلمته تلهم الناس .والآن يجيء إلى هنا البطل أولجيباي مع أولئك الذين يريدون سفك دم أبلاي !

ربما دفع هذا أبلاي إلى اتخاذ قرار غير عادي .

أوماً أبلاي برأسه ، واقترب من خادمه ، ووضع يديه تحت تيار نظيف لامع من المياه الساخنة. وبعد أن قام بغسلها نشف بالمنشفة يدها وعنقه ووجهه ، ثم رمى المنشفة المستخدمة على منصة خشبية ، وتحول فجأة إلى خادمه الذي كان ينتظر أوامره قائلاً :

- اضرب على ألة الدايبيل ! وكل من يدعون نفسه رجلا ، ليأت إلى هنا في وقت مساو لوقت حلب الفرس !

في نفس اللحظة أمسك اثنان من الجنود الأقوياء البنية ، نصف عراة ، بمضربين خشبيين بمقابض طويلة ، وشرعا بانتظام في الضرب بهما تارة على معدة البقرة الضخمة المنفوخة عن آخرها ، والمعلقة على قضيب ، وتارة أخرى على طبلتين صغيرتين . كان وقت حرب ، وكانت الخيول الحربية عند الجنود دائما مربوطة في الحزام الرئيس للخيمة ، أو مقيد بعض أقدامها ، ترعى في مكان قريب. كان حمل الأسلحة والقفز عليها يستغرق عدة دقائق . وسمع صفير شبابي ، وبدأ الغبار يتصاعد من كل جانب ، ودوت الأصوات النسائية الفزعة من الخيام .

لم يكن هذا فزعا طارئاً . بل كان يحدث في كثير من الأحيان أن يتم العقاب بين الرجل خلال الاحتفال . كان أهل قبيلة كاراكيسيك يحتفلون بالوليمة الفاخرة التي أقامها أحد زعمائهم . وقد أصبح تقليداً منذ القدم أن يحضر الوليمة العديد من المشاهير من الأجزاء الثلاثة . وكان من بينها ، بطبيعة الحال ، أبلاي مع جنوده الشجعان .

كان كل شيء كالمعتاد : مسابقات الفروسية ، مصارعة الفرسان المسماة «كازاشكا كوريس» أي الرماية من القوس على كيس الذهب ، وفي خضم الاحتفال ظهر بالقرب من أبلاي طائفة المهرجين الشعبيين والتي بدونها لا يقام أي احتفال في السهوب.

صاح أحدهم بشكل مرح :



- ماذا سيفعل السلطان إذا أسقطوا قبعته ؟

أجاب آخر :

- لم تكن لتبلغ الأرض إلا وقد طارت رأس من يجرو على فعل ذلك !

- أما أنا ، فأجرو على فعل ذلك !

ومع هذه الكلمات لوح المهرج بسوطه ، كما لو كان بطريقة غير متوقعة فأسقط قبعة أبلاي . لم يعر السلطان ذلك أى إهتمام .

قال ، ولم يرفع قبعته :

- الحق يقال إنه في الوليمة الكبيرة سكر كبير !

غير أنه في العام التالي حين أقام الجنرال القيصرى كيندرمان أول معرض في المدينة التي تم بناؤها حديثاً في منطقة كيزيل جار ، والتي سرعان ما أطلق عليها بترابافلافسكى ، وحضره مجموعة كبيرة من الناس من قبيلة كاراكيسيك والسلطان أبلاي ، الذي يملك تلك الأماكن المحلية ، أمر باعتقال اثنين من طائفة المهرجين الذين أساءوا إليه ذات مرة ، وخاصة جاناي ، وبوتاخان . وتذكر الناس أن هذين الاثنين كانا يضحكان بصوت عال على السلطان المهان .

حاول المقربون من السلطان وأصدقائه أن يقنعوه قائلين :

- أنها مزحة عادية . - أظهر سعة صدرك وفهمك للمزاح ياسلطاننا !

أجاب أبلاي بجديّة :

- الويل والشقاء للسلطان الذي يفهم النكات ! وأمر برمي أحد المعتقلين ، وهو بوتاخان في قبر حفر خصيصاً لهذا .

قضى بوتاخان عدة أيام في القبر، حيث كان من المستحيل عليه الخروج منه ، وعندما جاء أبلاي وقال إن هذا يمكنه «الخروج من القبر، قال بوتاخان المهان والذليل ، «إذا دخل الإنسان القبر مرة ، فلن يخرج منه أبداً» ومع هذه الكلمات شق بطنه بسكين .

وهاهم الآن ، كل رجال قبيلة «بيسمايرام» قد ركبوا خيولهم للانتقام لابن بلدهم.



لم يتمكن فرد إستطلاع أبلاي من رؤية كل شيء . في الطريق إنضم إلى رجال قبيلة «بيسمايرام» العديد من المجموعات الغاضبة في أوقات مختلفة من الناس العاديين من القبائل الأخرى ، وبلغ عدد الكتيبة القادمة ما لا يقل عن خمسة آلاف فارس . وكانوا جميعا يتحرقون شوقا للانتقام .

إصطف ثلاث مئة فارس في الميدان أمام خيمة السلطان . لقد كانوا يشكلون جميعا جيش أبلاي . ومع ذلك كانوا جميعا جنودا مخضرمين ، لأنه لم تمر عليهم سنة واحدة دون حرب . ولكن هل تتغلب كتيبة صغيرة على جيش كامل؟ حينئذ قال أبلاي :

- فلنذهب ...

ضح كبار السن والنساء والأطفال على الفور قائلين :

- وماذا سيحدث لنا؟ إلى أين نفر من غضب بيكبولات وشعبه؟ ويل لنا ! ..

أشار أبلاي إلى القدرور المدخنة في الجانب وقال :

- لا بد أن تطعموا الضيوف لحما وحليب فرس . - كم من اللحم طهوتهم هناك . مهما يكن فنحن جميعا أقارب . وأنه لأمر سيء أن نستقبل الأقارب دون طعام ! ..

هذه حملة جديرة بأبلاي ! أنه لم يفكر في الهرب بطريقة مزريّة . لقد ترك كل شيء في مكانه . فقد كانت الخيام البيضاء تقف في شكل مهيب ، كما كانت في السابق . وقد تم تنظيف أغطية الفراش والأواني المنزلية بدقة كما لو كان الضيوف قادمين . وفي القدرور الضخمة ، كانت تطهى اللحوم الدسمة . وكانت كل الحيوانات توجد بالقرية وليس بالمراعي . أما في القرية فقد كان ينتظر الأعداء فقط كبار السن من الرجال والنساء والأطفال ...

كان السلطان أبلاي يعرف الناس جيدا ! فلنستعدّ الحشود الغاضبة ، التي يتكون منها الجيش القادم على الفور لدى رؤيتها قرية مسالمة . وفي كل مكان دائما ما يوجد رجال حكماء ، سوف يفسرون ما يحدث بمثابة اعتراف طوعي بالذنب من قبل السلطان أبلاي . فرح الجنود المتعبون والجياع لكرم الضيافة ، وتصادقوا بسرعة مع طهارة اللحم من



سكان القرية . فمن سيرفع يده على أولئك ، الذين يقابلونك بطعام لذيذ وبابتسامه !

وعندما تناول الجنود الطعام ، ترجل السلطان أبلاي عن فرسه على مشارف القرية . وقد كان معه فقط حليفه من قبيلة «بالتا كيري» الفارس «تورسونباي» . فقام واحد من الضيوف الأعداء وهو ابن عم المتوفي الرامى الشهير «كابان ميرجين» بامسك بندقته القديمة ، وبدأ يصوب . ولكن هنا دوى صوت «بيكبولات» قائلاً :

- إن قضية قتل الكازاخي الحريقررها المجتمع .. فاستوى «كابان ميرجين» واقفا على مضض .

سار السلطان أبلاي ببطء خلال جموع الناس مرحباً ، كما ينبغي ، بجميع معارفه . وإذا أخذنا في الاعتبار أن الناس في السهوب يعرفون بعضهم البعض شخصياً لمسافة ألف فرسخ ، فإنه لا يوجد هنا أناس غير معروفين له ...

وفجأة قفز من بين جموع الناس فتى يمسك في يديه آلة الدومبرا الموسيقية المزينة بريش البومة ، وغنى بصوت عال :

يابوتاخان ، أيتها الضحية البريئة ، أسأل القاتل ،

لماذا صب عليك جام غضبه الظالم ؟

يا سلطاني ، الذي ارتكب العار مع رعاياه

لقد جئنا لتغسل بدمك حزننا !

وها هو بيتك الذي بنيته يحترق يا أبلاي ..

ولكن قبل أن تدفع ثمن كل شيء أجبني :

فيما أذنت بحقك قبيلة ميرام ؟ ...

لتقتل واحداً ، وتأسر الآخر ؟ ..

ولتحضر إلى المحكمة «جاناي» الذي تركته أنت على قيد الحياة .



والإسيصبح أطفالك أيتام وزوجاتك أرامل ..

لقد غنى هذا الشاعر «كوتش» من قبيلة «سويونديك»، وبقيت أغنيته خالدة على مرالزمان . لقد كان يبلغ من العمرسبعة عشرعاما فقط ، وكان شرف كبير له أن يتكلم باسم الشعب موجها الاتهام للسلطان العجوز أبلاي .

وهنا في الميدان بدأت خطابات البايات من كلا الجانبين وسط حشد من الناس يقدر بالآلاف . اعترف أبلاي بذنبه دون أي مشادات من جانبه ، وكفرد عادي من بنى البشر، دفع عن وفاة بوتاخان ك وفاة ثلاثة من الذكور البالغين أي دفع ثلاث مرات تسعة رؤوس من المشية المختلفة من الأبقار والخيول والأغنام ، وثلاثة من الإبل البيضاء ، وحصان حربي بسرج وقفطان مطرز بالفضة لوارث المقتول . وقد أهدى المتجادلين فيما بينهما - سواء بقتل أبلاي على الفور أم عدم قتله - الفارس «بيكبولات» والقناص «كابان ميرجين» فرسا لكل منهما من قطيعه الخاص ولكل منهما معطف من فرو السمور نزعها من على كتفه . بعد ذلك جلس كل من حضر من شيوخ العشائر والقبائل المتواجدين حول مائدة واحدة ، وبدأ الاحتفال تكريما للطقس الذي سينفذ في هذا اليوم على ابن أبلاي البالغ من العمر سبع سنوات . ووفقا للقانون لايمكن لأحد أن يرفض هذه الدعوة ...

ويقال إن أبلاي أكد فيما بعد أكثرمن مرة أن الشعب ، مثل الأسد ، يجب أن يبقى في قفص حديدي . وليزار ، وليجري ، وليقفز ماشاء على القضبان ، فليس لديه على أية حال من العقل ما يكفي لمد مخلبه ، وفتح القفص من الخارج ، حيث إن عقل وفطنة الحاكم هي تلك القضبان الحديدية .

وقال السلطان أبلاي أيضا إنه عندما يصاب الشعب بالاستياء ، ويصبح كأسد جريح في الطريق ، فلا يجب أن تقف في طريقه . بل يجب أن تهدأه ، وتطعمه و... تدفعه إلى القفص . حيث إن الشعب القلق أشد فضاحة من كل الأعداء الخارجيين .

بعد سباقات الخيل، واحتفال الكوكبار ، والرمي بالسهم ، ومسابقات الشعراء اللازمه في مثل هذه الحالات ، والتي نسى خلالها تماما الكثير من الناس أسباب قدومهم إلى هنا ، عاد «العظم الأسود» إلى قراهم ، وتبادلوا الإنطباعات على الطريق ، عن الاحتفال السلطاني العظيم ، الذين شاهدوه بأعينهم . واتضح أن المضيفين السعداء قد دعوهم



جميعا إلى هذا الاحتفال ليسمعونهم .

لكن جميع رؤساء وفرسان قبائل أرجين بقوا لحضور المجلس الكبير . كان هؤلاء هم ضيوف السلطان أبلاي الحقيقيين . وبالإضافة إلى الذين لم يرحلوا ، دعا أبلاي كثيراً من الناس الآخرين من مناطق ترحال كوكيتشيتاوا القريبة ، أمثال كارا أوتكيلي ، وأتباسار ، وكيزيل جار . وليلا ونهارا كان يصل إلى قرية أبلاي فرسان جدد . وعندما رأى أشرف و صفوة القوم أنه يجلس معهم العديد من الفرسان من ذوى الأصول المتواضعة ، وجنود شجعان من الكتائب الجوالّة ، أدركوا أن الأمر ليس مجرد إحتفال بالختان .

وفي اليوم الثاني من الاحتفال دعا السلطان الجميع في منزله المشهور ذى الاثني عشرة جناحا .

قال أبلاي بهدوء ، وبصوت منخفض ، كما لو كان يتحدث أنه سيقوم وليمة أخرى :

إن حمای النبیل «جالدين تسيرين» جمع خمسة وعشرين ألف فارس على الضفة الأخرى من نهر إرتيش ! فسرت على الفور البرودة في قلوب الجالسين . كان يجلس هنا أناس من مختلف الأعمار ، ومختلف الرتب ، ولكن كان عند الجميع شعور كأن ثعباناً قد زحف على جسد عار . كانت الذكريات الرهيبة عن «سنوات المحنة الكبرى» لاتزال ماثلة أمامهم . ولكن إذا كان في ذلك الوقت قد حدثت غارات جونغاريتة هنا فقط ، وذهبت تومينات الحاكم الجونغاري الرئيسة جنوباً إلى تركستان ، فإن مقر جالدين تسيرين الآن يوجد منذ عدة سنوات مقابل مناطق الترحال الرئيسة للجوز الأوسط .

واصل الإمبراطور «جيان لون» الذي شغل عرش الإمبراطوية الوسطى (الصينية- المترجم) لسنوات عديدة سياسة أسلافه . فقد كانوا يسلبون القبائل الجونغاريتة المتباينة مرعى وراء مرعى ، وكان يتم قمع أدنى مقاومة من جانب الجونغاريتين بواسطة قوات الجيش الصيني النظامي التي تفوقهم بأكثر من عشرين مرة ، والذي وإن كان متخلفاً في ذلك الوقت ، إلا أنه كان متفوقاً في مجال التكنولوجيا العسكرية والإستراتيجية على جيش الحاكم الجونغاري من الزحل .



وعندما قام الحاكم الجونغاري بحملة دورية على بلاد الكازاخ ، حصل الأمراء الجونغاريون من الصين فوراً على الدعم اللازم من الذخيرة ، والمواد الغذائية ، وخاصة الأرز. وقد كان يتم على نطاق واسع تقديم الذهب كرشوة مباشرة للأمراء الجونغاريين الأكثر تأثيراً ، والذين يعتمد عليهم توجيه الكتائب الجونغارية إلى أي مكان يشاءون.

وقد زار أبلاي مؤخراً البطل بايان من قبيلة أويك كيرى ، والتي تقع مراعيها على الحدود مع جونغاريا . وقد أكد فقط ذلك الشيء الذي يعرفه أبلاي نفسه من خلال جواسيسه المنتشرين على أرض الحاكم الجونغاري . إن «جالدين تسيرين» ينتظر اللحظة المناسبة للهجوم على الكازاخ ، ويأمل بعد أن رأى عدم جدوى المقاومة أن يسانده أبلاي . والآن يملك أبلاي في الجزء الأوسط تأثيراً أكبر من الخان أبيلمامبيت نفسه ... وكان «جيان لون» يرغب في انحياز أبلاي إلى الجونغاريين . فإذا تم تحييد الجزء الكازاخي الأوسط فإن المدن الروسية ستصبح عارية . وكان هذا شيئاً ضرورياً للسياسة الصينية . وعاجلاً أم آجلاً ، لا بد أن يتقابل النسر والتنين وجها لوجه ...

لم يعرف أحد فيما كان يفكر فيه السلطان أبلاي . الآن بعد أن إنتهز فرصة الاحتفال بمناسبة إتمام الطقس لابنه دعا إلى المجلس كل أصدقائه ومؤيديه ، وقد جاء إلى هنا وشارك في المجلس أعداؤه ومعارضوه . وحدث ما كان ضرورياً فقد اجتمع معاً جميع الرجال الأكثر تأثيراً في مناطق الترحال الكازاخية القريبة من الجونغاريين لمناقشة الوضع الراهن ...

- أين الشاعر بوخار؟

- العراف العظيم هنا منذ مدة طويلة!

كان السلطان «أبلاي» الذي يعرف العادات ، ويفهم أنه في مثل هذه اللحظات يستطيع الشاعر الكبير المغني والعراف إقناع ، وتوحيد الشعب جالساً على الوسائد ، فقام واقفاً على قدميه ، وعندما ظهر في كوة الخيمة الجسم الطويل ، والملمح للمغني العراف ذهب لمقابلته ، وأسندته من تحت ذراعه ، وأجلسه على الوسادة بجانبه .



كان الشاعر الشهير بوخار يبلغ من العمر ستين عاماً ، وقد انحدر من أسرة كارجاس العريقة في بايانا أولسكي . كانت جميع السهوب الكازاخية تعرف لسانه الحاد ، وطبعه الهادر . لم يكن يخشى أحداً ، ويتدخل في كل الأمور ، ويمكن أن يلقي كلمات الإدانة في وجه الخان نفسه . كان صفوة القوم يخشونه لذلك كان الشعب يحبه ، ويكرر نكاته الحادة والمرة . وعلى عكس العديد من الشعراء العرافين الآخرين ، كان يضع نفسه مع الجميع على قدم وساق ، بغض النظر عن أصلهم ، وهذا ما عزز نفوذه وشهرته .

ألقى الشاعر «بوخار» على الحاضرين نظره تقيمه سريعة ، ولاحظ على الفور أنه اجتمع هنا أشخاص لم يشاهدوا معاً على مائدة واحدة أكثر من نصف قرن . وأشرقت عيناه على الفور وقال :

- مرحبا يا مشاعلي !

قال الذين لم يروا الشاعر بوخار من قبل :

- هل أنت بصحة جيدة يا نسر أرجين الجبلي .. وهل كانت طريقك إلى هنا سهلة ؟

- لم تكن سهلة جداً ، لأنه قد طارت مع الطيور القرى التي كانت تبني على أرضنا . وسمعت في الطريق ما يقوله الناس ...

- وماذا يقولون ؟

- هؤلاء الروس الذين بنوا المنازل والطرق يسمون مستوطناتهم خط جوركي . ويبدو أن الشخص البسيط لن يعيش بسهولة في جوارهم . فهم يزرعون القمح حتى لا يموتون جوعاً ، ويعيشون عيشة سيئة مثل خدم الخان ...

صاح أبلاي بفارغ الصبر :

- وما شأنك أنت بهم ؟

- وكيف تفكر أنت يا سلطان ؟ ألا أكثرث بما يجري على أرضنا ؟! إن أرضنا كبيرة ، وإذا بدأت في إنتاج القمح فإنه يمكن إطعام جميع الناس في العالم . لقد تحدثت



مع فقرائنا الذين لا يملكون أية ماشية ...

انتبه أبلابي وقال :

- ثم ماذا! ...

- يروق للكثيرين منهم العمل في المدن والقرى الجديدة . وأنه لأمر جيد أنه يمكنهم الآن إطعام أطفالهم ...

- وماذا يقولون عن كل هذا في قرى السهوب ؟

- يقول الناس إنه منذ أن خضت الحرب ضد الجونغاريين ، فإنهم يثقون بك أكثر . ويعتقد بعض الناس أنك تصرفت بشكل صحيح عندما سمحت ببناء المدن والطرق على أرضنا ، والبعض الآخر يتشكك في ذلك . ولكن ظهر الخبز عند الفقراء . لقد رأيت بنفسى حرثاً للأرض من الكازاخ ...

- كل هذا صحيح ، أيها الشاعر، ولكن ألا يفسد أبناء شعبنا ، عندما يختلطون بالفلاحين الروس؟ فالتمرد من سمة هذا الشعب! ..

- وهل قراك دائماً مطيعة لك؟! ليست القضية في هذا الأمر . إن ما يقلقني ليلاً ونهاراً هو هل تصرفت بشكل صحيح عندما سمحت ببناء قلاع أجنبية على أرضنا ...

قال أبلابي :

- إن الفرس والمعطف الفرو ينتظرون مالكم منذ فترة طويلة - إنهما سيكونان ثمناً لائقاً نظير تفسير حلمي . لقد رأيت قبيل الاحتفال ، ومنذ ذلك الحين لا أستطيع أن أخلد إلى الراحة والهدوء! ..

- حدثنا عن حلمك يا سلطان ... وإذا سمح لي ، أنا الرجل البسيط من عامة الشعب، أن أفسر حلم واحد من التوريين الجنكيزيين ، فإننى سأبدل قصارى جهدي !

- حلمت يا شاعرنا ، أنني كنت مستلقياً على فراش الموت . ورواية الأجزاء الثلاثة الكازاخية فوق رأسي يحاول نزعها ثلاث مجموعات من الناس . وعلى جانبي تابوتي



يجلس أسد وتنين ، وعند أقدامى يجلس كل ورثتى الكثيرين . أولئك الذين خرجوا من نسل ابني «والي» يدعون لي . وأبناء ابني «قاسم» يقفون والخناجر في أيديهم . وأنا - بين الأسد والتنين - أفكر كيف أقوم من بين الأموات ...

جلس الشاعر بوخار صامتا بعض الوقت ، وهز رأسه ثم قال :

- حسنا يا سلطاني ... ولكن تذكر أن تفسير الحلم مثل صيد الثعلب إما أن تقفز قفزة صغيرة لاتصل إليه ، وإما أن تقفز فوقه بعيداً عنه .

- تكلم أيها الشاعر!

- من يحلم بموته في مقتبل العمر ، يعيش عمراً مديداً حتى أزرل العمر . وأما أن الرأية فوقك فستصبح خاناً للأجزاء الثلاثة . ولكن في يوم موتك ، سوف تتفرق هذه الأجزاء الثلاثة في ثلاثة اتجاهات ...

سأل أبلاي بصوت جاد :

- وهل تفسير الأسد والتنين سهل ؟

- نعم ستقضي كل حياتك بينهما يا سلطاني ...

- حسنا وماذا يعنى حلمي بشأن الأبناء ؟

- فرع من الأبناء سوف يمجدونك بعلمهم ، والفرع الآخر بمعاركهم الدامية !

كان ذلك صحيحاً أم لم يكن ، لكن بقيت عند الشعب أسطورة تقول إن الشاعر العراف خمن الحياة المستقبلية كلها لأبلاي ، ومصير ذريته . وأنه لم يكن من الصعب التخمين لأن هذا الرجل التوري الجنكيزي الأصل جمع بين النقيضين الذكاء الحاد ، والعناد الغبي ، التعطش للمعرفة ، والإيمان بالشامانية ، والنبيل والمكر ، وإظهار النوايا الحسنة مع القسوة الذنبية المتناهية . لقد كان ابناً حقيقياً لقرنه الرهيب عندما كان مصير بلد الكازاخ مشوباً بالغموض . وكان الثمين والغث يسيران جنباً إلى جنب في ذلك العصر ..



صاح الشاعر العراف وهو يلاحظ كيف أومضت العيون الباردة للسلطان الفخور :

- سيبقى اسمك على الأرض يا أبلابي !

كان الجميع يتذكر، رد أبلابي الشهير على سؤال حماه في المستقبل «جالدين تسييرين» .

سأل الحاكم الجونغاري أسيره رفيع النسب :

- ما هو أسوأ شيء على وجه الأرض ؟

أجاب السلطان الصغير:

- أسوأ شيء على وجه الأرض أن تكون موزعاً لطعام قليل وحاكماً لإقليم صغير !

يقول الكازاخ إن « الرجال من عمر ٤٠ إلى ٦٠ سنة يزداد ذكاءهم ، ويقل بعد الستين» كان أبلابي يبلغ من العمر واحد وأربعين عاماً . وكان يحلم أن يمتلك على الأقل نصف العالم . لقد كان في ذلك سلطاناً جينكيزياً بكل ما لهذا العائلة من متطلبات . ولكن حدث أنه اضطر إلى أن يدفن الأوهام القديمة للحكام الرّجل ، ويتحول مع كل السهوب الكازاخية إلى المستقبل . وقد أريقت أنهار من الدماء أثناء هذا التحول ، وأمام الأحفاد تظهر دائماً شخصية أبلابي في الدم ...

كان أبلابي يفهم الكثير في ذلك الوقت . فقد كان ينطلق دائماً من حقائق واضحة لزعيم رحال . أما الشاعر «بوخار» الذي كان مسئولاً فقط أمام السماء عن أغانيه ، فإنه لم يرد أن يعترف بالعالم الذي يتغير مع كل ساعة . لقد كان يغني فقط عن الرغبة في رؤية السهوب بكل جوانبها متاحة للفارس الراكب على فرسه . كان يريد أن يرى الأرض كلها فارغة ، وحره ، ومليئة بالهواء ، والشمس ، والعشب الأخضر . لقد كان بالفعل شاعراً ...

أمسك برفيقته الأبدية ، والوفية آلة الدومبرا المصنوعة من الصنوبر ، وضرب الأوتار بشكل محموم وبشراسته ، وغنى بصوت عال وحاد عن حماية أحجار السهوب للسهبوب الحرة ، ويبكي القلب في صدر الرحالة . لقد طلب من جميع القادة ، وخاصة من أبلابي التفكير مرة أخرى . وهز الجالسون من القادة والفرسان رؤوسهم على إيقاع خطابه



المنعم . لكن عقل أبلاي كان بارداً ، ومثل الشوكة بقي في الذاكرة الخبر الذي أتى به مؤخراً البطل «بايان» . إن السلطان أبلاي الذي عاش فترة طويلة في منزل «جالدين تسيرين» ويعرف مؤامرات الشورشوتيين ، كان يدرك أفضل من الجميع الخطر الذي يخيم على مخيمات الكازاخ الرُحل . أراد بعض الناس ذلك أم لم يريدوا ، لكن فقط بوجود تلك الحصون الروسية خلف ظهورنا يمكننا التصدي للثنين الشورشوتي الذي يدمر كل شيء في طريقه . حسنا ولكن هناك ... هناك سيتضح كل شيء !

صاح الشاعر بالكوبليه الأخير، ورمي آلة الدومبرا بكل قوته ناحية الباب . أمسك الدليل الشاب والحارس الشخصي الذي كان يعلم تلك الطريقة بالآلة ، وهي طائرة في الجو ، ولم يدعها ترتطم بالأرض . وفي الهواء ظل عالقا صوت الوتر الطويل الشاكي .

نظر الشاعر «بوخار» بحزن إلى أبلاي وقال :

- نحن نعول عليك يا أبلاي . إنك تبحث عن ملجأ لك من الشورشوتين (الصينيين) تحت معطف الكفار . إن بناء هذه الحصون في سهوبنا لا تخلو من غرض ما يا سلطان!

استمع أبلاي في صمت مع شفاه مضغوطة بقوة ، غير أن عيونه الحادة كانت تلاحظ باهتمام خلجات وجوه الحاضرين . نعم لقد كانت السهوب منزعجة . ففي ذلك الوقت بدأت الحكومة القيصريّة استعماراً واسعاً للمنطقة . حتى أنه في عام ١٧١٣ م كتب الحاكم العام لسيبيريا إلى القيصر بطرس عن ضرورة بناء حصون روسية على نهر إرتيش . وفي عام ١٧١٨ م تم بناء حصن «سيميبالاتينسك» القديم ، وفي عام ١٧٢٠ م بنيت قلعة «أوست كميناجورسكي» . وفي أعقاب ذلك بين العشرينيات والثلاثينيات بنيت حصون أكمولينسكي ، وبايانا أولسكي ، وكاركارالينسكي . ومنذ عام ١٧٢٧ م تم البدء في بناء الطريق العسكري من «كوكشيتاو» إلى «أكمولينسك» . وقد سيق عشرة آلاف شخص ممن يسمون بفلاحى الدولة مع أسرهم من الأقاليم الروسية البعيدة لبناء الطريق ، وتم الانتهاء منه خلال عشر سنوات . وعلى امتداد الطريق استقر المستوطنون . وعندما كان يحدث نزح للأراضى والمراعى أثناء بناء الحصون والمستوطنات تبين دائماً أن ذلك لا يمس مصالح السلطان ، والبايات ، والشيوخ من صفوة القوم . كانت المراعي تنزع في المقام الأول من الناس الأقل ثراءً . وكما هو الحال دائماً كانوا يتعرضون لظلم مضاعف من حكامهم القبليين ، ومن حكام الملك . وكان على هؤلاء الفقراء



تحديداً أن يكونوا أول من يستوطنون بجوار الفلاحين الروس . ولا عجب أنهم في أقل من نصف قرن انضموا جنباً إلى جنب مع هؤلاء الفلاحين إلى كتائب بوجاتشيف ، وقد أرسلت الكتائب العقابيه ضدهم من كلا الجهتين من القلاع الملكية ، ومن مقر ذلك السلطان أبلاي .

خلال هذه الفترة أوما صفوة القوم من الجزئين الأصغر والأوسط برؤوسهم في اتجاه الحصون الروسية مفسرين ظاهرة الجوع الزاحف على السهوب والمشاكل الأخرى بسبب تواجدها على أرضهم . ويعتقد الناس بيقين في ذلك ، وعكست أغاني الشاعر بيوخار أمزجة الناس . لم تكن العامة تعرف أن أفضل كتائب الحاكم الجونغاري تنتظر الإشارة لتجلب الحرائق والموت مرة أخرى إلى أسفل بلد الكازاخ .

والآن كما لو أن الناس نسوا رسالة البطل «بايان» ، فقد إستسلموا لأغنيه الشاعر الغاضبة الذي لم يسمع بعد عن التهديد الجونغاري الجديد . كان الجميع ينظرون إلى أبلاي وينتظرون الرد . فهو الذي الذي منذ الولادة يجب أن يكون حاميههم والمدافع عنهم لقد أقسم في عام ١٧٤٠ م على القرآن والخبز مع «أبيلمامبيت» على الولاء للمرأة - الملكة أنه أبلاي الذي بعد إطلاق سراحه من الأسر الجونغاري مباشرة ، أرسل أخاه غير الشقيق للحاكم مع خطاب «الولاء للعرش الروسي والرغبة في التجارة مع روسيا» . وعلاوة على ذلك ، كتب في ١٧٤٥ م رسالة إلى توبولسك الحاكم العام سوخاريف برجاء ضم عشيرة «وسون» من الجزء الأقدم للمواطنة الروسية . ومن غيره يزور بانتظام كل المعارض التي تقام في المدن الروسية الجديدة . أوليس هو أبلاي الذي حضر في زي احتفالي كامل للمشاركة في جنازة الخان أبي الخير الخادم الأول للكفار ، أما الجنرال نيبيلوف فقد أرسل رسالة وصف فيها السلطان باراك «بالوعد» . أليس هو الذي يؤيد أبناء أبا الخير الملعونين الخانين «نورالي» و «يرالي» الذين يخدمون الكفار بإخلاص ...

ولكن هل يستطيع السلطان أبلاي الذي أخذ على عاتقه رعاية جميع هؤلاء الناس أن يكشف الآن أمام العالم النقاب عن أفكاره؟ ألن تكون كلماته معروفة على الفور في أورينبورج ، وتوبولسك ، ومقر الحاكم الجونغاري ، ثم في قصر البوجد يخان الشورشوتي؟ ولكن ينبغي الرد ، وبدأ يحول رأسه ببطء نحو الشاعر وقال :



- هل تتهمني أيها الشاعر أنني أقسمت للكفار ... ولكن ألم أقسم للحاكم
الجونغاري؟ واليوم كما ترى أفكر في الطريقة المثلى لمواجهة كتائبه ...

سأل الشاعر :

- في هذه الحالة ، لماذا لا تفكر في نفس الشيء ، عندما تنظر في الاتجاه الآخر؟

هز رأسه ببطء وقال :

- مهلا إن روسيا ليست كجونغاريا .

- ولكن بلاد الشورشوتيين (الصين) كبيرة وقوية.

- نعم لذلك ، نسمح ببناء قلاع في السهوب ... بدون روسيا لن نتغلب على التنين
الشورشوتي . إنني أعلم من الحاكم الجونغاري نفسه ما أعده لنا الشورشوتيون . ولن
ينجو الجونغاريون منهم ! ..

قال الشاعر بتجهم :

- لكن البوجد يخان الشورشوتي لا يبني حصوناً على أرضنا .

قال أبلاي بحدة :

- لوبناها ، فلن يبقى أي كازاخي على هذه الأرض !

خيم صمت مطبق . لقد كان هؤلاء الناس يسمعون قصصاً عبر القرون عن قسوة
الأباطرة الصينيين . فحيث كان يمر جنودهم لم يكن يبق هناك شيء . فقد اختفت أمم
بأكملها من الوجود ابتلعها التنين .

سأل الشاعر العجوز :

- فما العمل إذن ؟

نظر إلى أبلاي بعينين نصف مغمضتين . وبداله أنه قد فهم هذا الرجل . نعم أنه يريد
تصفية حساباته مع «جالدين تسيرين» ، حيث إنه المذنب أمام بلاد الكازاخ ، والمخطط



لمؤامرات جديدة . وبعد ذلك سيتوجه إلى القلاع الملكية . الآن لا يستطيع السلطان أن يتكلم مباشرة ، فلدى الذئب الثاني أذان بالفعل ...

في الوقت نفسه ، بسط السلطان فجأة أمامه خريطة جلدية ، كانت ملفوفة وقال :

- هنا تقف كتائب الحاكم الجونغاري ، حماي الماكر . لكن عاجلاً أم آجلاً سوف يقودهم إلى هنا إلى إرتيش . وإذا جاءت قوات من الأجزاء الثلاثة فلن يجد الجونغاريون لهم أية فجوة للخروج من هذا الفخ الذي نصبوه بأنفسهم . فهم لا يعتقدون أننا سنسبقهم إلى هناك ، ونكون المبادرون بالضرب . فقد كانوا منذ عهد الخان دايان هم المبادرين بالقفز على ظهورنا !

قال البطل «سيريمبيت» من قبيلة باسينتين :

- لا أعتقد أن جميع فرسان الجزء الأصغر ، سيهرعون إلى هنا لقتال الجونغاريين عند إيرتيش .

قال فارس سمين ، وقصير من عشيرة تاراكتا :

- ثم إن فرسان الجزء الأوسط ، يحاربون الكالميك عند نهر جايك !

- فمن حارب منكم هناك ؟

- حسناً ، على الأقل البطل جانيبيك الطرخان الحالي !

صار لون البطل «سيريمبيت» الضخم عريض المنكبين ذو الصدر المفتوح المشعر أحمر من شدة الغضب وقال :

- لقد كان ببساطة يدافع عن مصالح صهره ! . جانيبيك هذا الذي يخصك ، يحمل فقط لدينا لقب المواطن المجيد للجزء الأوسط ، وتقع أملاكه عند نهر إرجيز بالقرب من الجزء الأصغر . فحق له أن ينزعج ! ..

أخذ أبلاي يفكر بعمق ، وخفض رأسه التي بدأ الشيب يدب فيها . لقد كان هذا مألوفاً له . فبمجرد الحديث عن هذا الأمر كما هو الحال الآن يقولون : «جزؤك وجزئي ..



إرتيش الخاص بك ، وجايك الخاص بي !» في منتصف كل جزء يوجد عراقك ، مثل الذي يحدث لدى الكلاب من جراء عظمة . ألم يجتمعوا هنا فقط بطريق المصادفة؟! حتى كلاب القرى تتوقف عن العراقك ، وتتحد لدى رؤيتها الذئب . أوليس العدو هنا أسوأ من الذئب . فجالدين تسيرين يتعلق بذيل التنين الشورشوتى !

خفتت الضوضاء والاتهامات المتبادلة فجأة . فلقد عادت فرق الاستطلاع التي أرسلت قبل أسبوع إلى ضفة نهر إرتيش . وقالوا إن جنود الحاكم الجونغاري لم يظهروا بعد في المخيمات الساحلية . ولكن الناس يقولون أقوالا مختلفة ...

إن الحاكم الجونغاري ، كما هو الحال دائما ، لا يسمح بأن يؤخذ على غرة . فلم يقد كتائبه إلى أي مكان معين ، حيث يمكن توجيه الضربة إلى اتجاه واحد فقط . وتواصل القوات الجونغارية تواجدها في العمق . فهم يستطيعون مستغلين قوة التحمل الغير عادية للخيول الشعثاء الشريرة التنقل من مكان لأخر فجأة ، وخلال ثلاثة أو أربعة أيام يمكنهم أن يتواجدوا في أي اتجاه مثل تركستان ، وأرال ، أو يضيرون هنا عبر إرتيش قرى الجزء الأوسط . من الممكن عند إمتلاك الجيش الموحد للأجزاء الثلاثة أن يوزعه على الاتجاهات الثلاثة ، وينتظر الجونغاريين بهدوء . ولكن الآن ليس هو عهد الخان الأسطوري قاسم ، الذي يمكنه في أسبوع واحد جمع مائتي ألف جندي ؟ لقد صدأ ، وتثلم سيف الكازاخ المسحور الذي كانوا يقطعون به ، لوقت طويل كل ما يعترضهم ، أو ببساطة كانوا يقطعون به الحطب ! ..

لقد تقرر في المجلس عند أبلاي إختيار مكان تجمع الميليشيات الكازاخية لمناطق بحيرة تيليكول ، التي تقع تقريبا على مسافة واحدة من كل الأجزاء الثلاثة . وعلى الرغم من أن المحيطيين بأبلاي كانوا يدركون أنه بعد مقتل الخان أبي الخير بيد السلطان باراك ، فإن جيش الجزء الأصغر لن يأتي إلى هنا ، ولكن الأيوجد الكثير من الفرسان المحاربين ، الذين سينضمون مع كتائبهم على الفور إلى الميليشيات . حتى لو انضم الطرخان جانبييك وساردات الجزء الأوسط الآخرين المنضمين حاليا إلى الجزء الأصغر فلا بأس أن يحدث هذا . أما ما يخص الجزء الأقدم ، فأنهم يتحرقون شوقا للتخلص من نير الحاكم الجونغاري .



قام السلطان أبلاي على الفور، بإبلاغ الخان أبيلمامبيت بقرار المجلس. كان الخان أبيلمامبيت لا يزال على الرغم من مرضه خان الجزء الأوسط، ويتواجد حالياً في أعماق السهوب على ضفاف نهر ساريسو. ولقد انتقل أبلاي نفسه مع قراه إلى مرتفعات «كوكيتشيتاو» على ضفاف بحيرة بوراباي. وكانت القافلة الضخمة تمتد على مدى يوم سفر. وعلى الجانبين تحركت القطعان السلطانية التي لا تعد ولا تحصى من الخيول الرمادية وذات البقع الداكنة الشهيرة، التي تم اختيارها من حيث اللون بدقة. كانت ثروة السلطان أبلاي معروفة ليس فقط في السهوب، ولكن أيضاً خارج حدودها بمسافة بعيدة.

كان عهداً غامضاً ومخيفاً. ولكن لا يمكن لأحد أن يصدق ذلك، وهو ينظر إلى قطعان الأغنام مع الحملان تتجول ببطء عبر السهوب وعلى الأبقار التي ترعى بأمان خلال فترة التنقل، وعلى الأطفال الذين يركضون بكل قوتهم ويصيحون بين القوافل. فقط كان الجنود الذين يشكلون مجموعات متشابكة بإحكام على جوانب القافلة بدروعهم وخوذاتهم الحديدية الوامضة تذكر بالحرب. وكان يتم إرسال فرق إستطلاع من ذوي الخبرة إلى المعابر الثلاثة أو الأربعة في الأمام والخلف، وكذلك على جانبي مسار القافلة.

وصلوا إلى واد أخضر فسيح يقع بين التلال معروف باسم «ميدان أبلاي». وهنا تم نصب منازل اليورت البيضاء والسوداء، وأبقوا من يقوم على حمايتها، ثم سار أبلاي مع كتيبته الرئيسية إلى مكان التجمع العام في تيليكول.

لقد كانت طريق طويلة ومتعرجة تبلغ ألفي ميل تقريباً. لكن أبلاي لم يختار تلك الطريق الملتوية مصادفة. والحقيقة أنه كان يعيش على هذه الطريق العديد من قبائل وعشائر الجزء الأوسط القادرة بشكل أساسي على نجاح الميليشيات، وإحياء الغائبة الكازاخية الموحدة التي كان يطمح إليها أبلاي منذ البداية. كوكشيتو، وسانديكتاو، أتباسار، وضفاف نهر إيشيم، وتركستان، وجبال ألتاو المقدسة، وضفاف نهر كارا كينجير، وجيزدى، وبعد ذلك ساريسو الملتوية، ومنها تمتد الطريق المباشرة المؤدية إلى تيليكول. والآن تشكل قرى عشائر أرجين، وكيبشاك، ونايمان، وتاراكتا، وأويك، وكيري، وكثير غيرها بعد عشر سنوات من الغزو الجونغاري الجزء الأكبر من سكان بلاد الكازاخ ...



«يمضي أبلاي إلى الحاكم الجونغاري!» حددت هذه الصرخة بشكل كبير مسار كتيبته ، ومع كل ميل ، كان يكبر جيشه مثل كرة الثلج . هذه الأماكن لم تخضع للحاكم الجونغاري ، ولكن لم يكن يمر عام إلا وتعرضت لهجمات شديدة من جانب الأمراء الجونغاريين . والآن حان الوقت لدفع ثمن ذلك ، وعندما اقترب أبلاي من تيليكول تدفق معه بحربشري لا حدود له . فضلاً عن الكتائب المساعدة فإن أبلاي لديه الآن أكثر من ثلاثين ألف فارس ، وهو أكبر جيش كازاخى تم تجميعه بعد الغزو الجونغاري .

تجمع أكبر عدد من المحاربين في مقر تيليكول . وكان لوصول الطرخان جانبيك أهمية خاصة وهو ما يعني أن المحاربين الحقيقيين ينسون كل الضغائن في مواجهة العدو المشترك . وقد جاء معه إلى أبلاي من بلغ «عمر الأنبياء» أى سن الستين ، وهم أشهر المحاربين من عامة الناس وهما «توجيمباي» ، و«كارا كيرى كاباتباي» وزوجته جوهر التي ترافقه في جميع الحملات منذ أقسمت له على الولاء في تركستان المحاصرة . وكان يتواجد هنا غيرهم فرسان أرجين المعروفين مثل تايدجيكيك ، وباسبولات ، ودجاناتاي ، وأولجاباي ، ومالياساري ، وأورازيمبيت . وجاء من بعدهم بفترة وجيزة البطل المسن تايمان .

مع ذلك فقد أصاب القلق أبلاي . فحتى الآن لم يظهر هنا البطل «بايان» الذي ترك على الحدود . وقد كان يعد مع بطل آخر وهو جابيك - الواقع بالأسر الجونغاري مع أبلاي من قبل - المستشار الرئيس والسند للسلطان الذي وضع نصب عينيه ، توحيد جديد لدولة الكازاخ .

لم يقلق أبلاي عبثاً . فالبطل بايان سليل البطل الأسطوري من عامة الشعب سايان ، والذي استقر في نهاية حياته في قرى عشيرة أويك كان يشبه سلفه العظيم رفيق الخان الموحد للبلاد جانبيك في كل شيء . فما إن خيمت السحب المعادية على السهوب ، حتى كان البطل «بايان» أول من جهز للحرب فرساً . ومع ذلك فقد كان هذا الوقت الذي لا يجب فيه نزع السرج عن الحصان . والآن لا يزال هذا البطل غائباً ولم يحضر بعد ...

يبلغ البطل بايان الآن حوالي أربعين عاماً ، وهى أفضل وأنضج سن للمحارب . كان يستطيع وهو الضخم ، الأشقر ، ذو العيون الملونة ، و الشارب الكث القاسي على وجه



مفتوح بضرية واحدة من مقمعه أن يدفن شخصاً عادياً في باطن الأرض. ومع ذلك كان يملك روحاً سمحة وطيبة غير معهوده في محاربي ذلك العهد القاسي. وكانت شمس هذه الروح شقيقه الأصغر «نويان» الناجي الوحيد من أقاربه العديدين بعد الغزو الجونغاري.

إن نويان البالغ من العمر خمسة عشر عاماً، لم يشارك في المعارك بعد ضد الجونغاريين، ولكنه بصق على يديه أكثر من مرة عندما كان يجرب مقمعة البطل المحارب. وكما لو أن هذا المراهق قد خلق من اللهب. فهو متحمس وفخور، وكان يحلم بالمعارك كل ليلة، مخوفاً بذلك أخاه الأكبر. قال له البطل «بايان» سوف يأتي دورك. - تعلم أن تسيطر على السلاح، وعلى نفسك، ولكن تذكر أن الشخص لا يستخدم هراوته إلا عندما تقع كارثة. لقد خلق الله البشر لشيء آخر!»

في الصيف الماضي قامت كتيبة البطل «بايان» المكونة من خمسمائة شخص بشن هجوم مضاد على القرى الواقعة خلف نهر «إيلي» إنتقاماً للغارة التي شنت عليهم. وفي المعركة الشرسية مع الجونغاريين المحتمين بأسرهم، وبيوتهم قتل أكثر من نصف الفرسان الكازاخ، واختبأ الناجون في مستنقعات كثيفة بالمناطق الساحلية. وفجأة رأوا أن القرى الجونغارية على طول الساحل يرحلون عن أرضهم، ويتجهون عشوائياً نحو الشرق إلى صحرائهم. ثم علموا أن واحداً من فرسان كتيبتهم من الجرحى والأسرى قال للجونغاريين إن قراهم قد هاجمتها فرقة استطلاعية فقط، وأن الجيش الكازاخي الرئيس على وشك القدوم إليهم.

ارتفعت روح جنود البطل «بايان» المعنوية لدى رؤيتهم هروب الجونغار غير المفهوم لديهم بعد، فانقضوا فجأة على آخر قرية جونغارية هاربة. وعلى حين غرة، تم في لحظة تقطيع القادة والجنود. وهرع الناجون على ظهور الخيل والجمال إلى النهر المنتفخ بسبب الفيضان، ولكن لم يصل إلى الشاطئ إلا الأخر سوى القليل. ومن القرية الجونغارية التي لم تكن غنية بشكل كبير استولوا على القليل من الماشية والنساء.

نظر البطل «بايان» بوجهه القاتم إلى الغنائم، وفكر في غياب عدالة الحرب. ليس هؤلاء التعساء الذين تناثرت على الأرض ممتلكاتهم الهزيلة من قاموا بغزو بلاد الكازاخ. لكنهم يدفعون الثمن كاملاً، في حين ينام الآن الحاكم الجونغاري وأمرأه السفاحيين على الوسائد الحريرية بعيداً عن السيوف المنتقمة!



توقف البطل بايان فجأة واتسعت عيناه من الدهشة .

قال همسا لصديقه البطل جابيك :

- أنها ربما تكون حورية وليست من البشر!

لقد كانت مثل السمور بين الأرناب . لقد كانت فتاة بين الأسرى الجونغاريات
الأخريات .

سأل البطل بايان :

- من هي؟

قال جنوده :

- أنها ابنة ذلك البجادور خورين الذي أرسل بالأمس بطلنا «دجاناتاي» إلى أسلافه ،
واليوم أرسلته أنت بضربة من مقمعتك ليلحق بضحيته !

اقترب البطل بايان من الفتاة ممسكا بعنان فرسه وقال :

- ما اسمك يا شامواه (غزالة الجبال) ؟

قالت وهي مندهشة كيف عرف البطل الكازاخي الوسيم اسمها :

- أنا أدعى هكذا كورالاي !

قال البطل متفكرا :

- إذن فقد خمنت اسمك ! - إذا فهو القدر...

كانت عيون كورالاي التي يعني اسمها «الشامواه» واسعة لاقرار لها . وبحسب تلك
العلامات كانت تطلق الأسماء بين الرحل من قبل السيدات العجائز . أما وجه الفتاة فقد
كان باهتا ، ونظيفا ، وأبرز الشحوب الذي يرى بالكاد جمالها الرائع . كان شعرها
الأسود كالفتحم الذي يكاد يصل إلى الأرض ، يداعب طول الطريق خصرها الدقيق
كوخز الإبر.



اندلعت شرارة ما في عيني الفتاة رداً على نظرة البطل المباشرة . فما هذا هل هو شعور متبادل أم كراهية؟ لكنه لم يعد يتمالك نفسه . مد البطل بايان ذراعه اليمنى ممسكا سوطا ، وصاح في جميع أنحاء السهوب قائلاً :

- هذه الفتاة غنيمتي!

صمت الجميع من وقع المفاجأة ؛ لأنه لم يحدث من قبل أن شارك البطل بايان في إقتسام الأسيرات ، بل كان دائماً يرحل عندما يبدأون ذلك الأمر .

قال البطل جابيك وهو يضم كتفاه :

- فليكن ذلك ! ثم صاح في جنوده : أنتم ، حافظوا على هذه الشامواه كحرصكم على قرة عيونكم ؛ كي لا يلتقطها نسر كطعام . أنها غنيمته «بايان» نفسه ... أسمعتم ! ..

أجاب الجنود القلقون دائماً عند إقتسام النساء :

- سمعنا !

سمعت «كورالاي» كل شيء . لقد رأت قبيل هذا بأم عينيها كيف أن هذا البطل ذا العيون الصافية قد طعن والدها البجادور «خورين» برمح ضخم في جنبه ، وسمعت زئيره المنتصر والمتهلل . والآن يهتف بنفس الصوت المتهلل : «هذه الفتاة غنيمتي !» - وارتجفت كأنها فرخ في فخ . هل سترتكب هذه الخطيئة المخزية بأن تستسلم لقاتل والدها ! عقدت الفتاة يداها على بطنها على الطريقة الجونغارية ، وهمست قائلة : «أقسم أن لا أكون غنيمتك أيها القاتل ذو العيون الملونة .. أقسم أن أنتقم منك ، أقسم بحليب أمي !» وصار الناس شهوداً لتنفيذ قسم هذه الفتاة ...

كان البطل «بايان» كمن يحترق في النار ، وهو ينظر صوب القافلة التي بها «سلو كورالاي» حتى أنه نسى الثلاثمائة جندي الذين لاقوا حتفهم أثناء تلك الغارة . لكن كانت حواجب رفاقه مقطبة .



ظلت «كورالاي» هادئة. أكثر من ذلك كانت تستجيب لنكات الجنود الذين يحرسونها. وقد علمت منهم ، أنه ليس لدى البطل «بايان» أحد سوى أخاه الأصغر «نويان» الذي يحبه حبا جما . تسللت إلى رأسها فكرة رهيبة ، ولم تدعها تركز إلى الهدوء . كانت كل ليلة أثناء الاستراحة تحلم بوالدها وهو في سكرات الموت ...

سُمعت من مسافة بعيدة صرخات وبكاء أقارب الجنود الذين لاقوا حتفهم . وحسب عاداتهم ، فقد كان رسل الأحزان في مقدمة الركب يبلغونهم بهلاك أزواجهن وأبنائهن . وهنا آخرون البطل «بايان» على الحملة الناجحة والغنائم . وبعد أن قام البطل «بايان» تدريجيا بتسريح كتيبته ، توجه أخيراً مع عشرين فارساً إلى قريته التي كانت تقع آنذاك على نهر أوباجان .

- يا كوكي كم هورائع أنك عدت حيا وسالما !

- يا وحيدي هل أنت بصحة جيدة؟!!

كانا الأخوان - البطل بايان والمراهق نويان - دائما ما يتبادلان هذه الكلمات عندما يلتقيان . نظرت الأسيرة «كورالاي» إليهما باهتمام من خلف الستارة .

فجأة التقى «نويان» الذي قفز على حصانه بهذه النظرة المشرقة الحارقة لعيون أنثوية مائلة وواسعة . شعر ببعض الضعف ، وكاد يهوي من فوق حصانه .

اندهش البطل «بايان» وقال :

- ما خطبك؟

سأل «نويان» مشيراً بإصبعه صوب «كورالاي» :

- هذه ... من هنالك على الجمل؟

ولسبب غير مفهوم ، ارتبك البطل الكبير ، ولم يستطع أن يقول إنها زوجته القادمة والثالثة من حيث العدد .

- إذن هي جارية من الرقيق ...



أما «كورالاي» فقد شعرت أيضا فجأة أنها لا تستطيع أن ترفع عينها عن هذا الفتى الرشيح الوسيم القوى السابق لعمره والذي يشبه قاتل أبيها ومع ذلك فهو لطيف. بدأ قلبها يخفق. وتلاقت أعينهما، وتضرج وجههما بالحمرة. وقد عرفا في أنفسهما رغم أنهما لم يدركا هذا بعد، أنهما قد خلقا من أجل بعضهما البعض.

رفع «نويان» رأسه فجأة وقال :

- كوكي إننى أطلب منك هدية !

كان هذا الطلب مثل سكين حاد نفذ في صدر البطل بايان . أنه يعرف بالفعل ماذا سيطلب منه شقيقه الوحيد ، ولم يخطيء في ذلك . ولم يجد في نفسه الحزم ليعطي إجابة مباشرة.

قال البطل بايان :

- يا أخي العزيز يا قرّة عيني إنك ما زلت صغيراً لتتلقى مثل هذه الهدايا - عندما تكبر سوف أهديك حورية من الجنة ..

قال «نويان» بحزم وعيناه مثبتتان على الفتاة الجونغارية :

- أنا لا أريد الحور العين ! - إعطنى هذه الأسيرة ..

قالت الفتاة بصوت لطيف ، ورقيق :

- يا كوكي جان .. اسمحوالي أن أدعوكم بهذا الاسم لأنني أيضا فقدت أبي ...
تنازل عني لأخيك . إننى أيضا أطلب منك ذلك أيضا !

تحدثت بشكل غير صحيح وبلكنة جونغاريتة صارخة، لذلك كان صوتها أكثر لطفاً . اقترب نويان منها أكثر رغماً عنه ، ومد يده إلى الستارة .

أحدث البطل «بايان» صريراً بأسنانه وتمتم قائلاً :

- حسنا نتحدث عن ذلك فيما بعد ! ثم ضرب حصانه بالسوط .



سهل «تولباركوك»، وانطلق يعدو ساحباً خلفه الخيول الأخرى، بما في ذلك حصان الفتى .

لم يعد «نويان» يستطيع العيش دون «كورالاي». وكان يقضي الليل والنهار بالقرب من خيمة الأسيرات . كانت تخرج إليه كأمسيات الخريف الدافئة لكنها لم تسمح له أن يلمسها . كانت تحب، وتتعذب ، لكن كانت لوحة مقتل والدها البشعة تتراءى لها دائماً . ثم شاهدت والدتها التي ضربت على الرمال الساحلية ، ومدت يداها إليها وقالت : «ابنتي ، لا تدعى أي رجل يلمسك حتى ألقاك وأقبلك على جبينك وفقاً لعاداتنا» وكانت «كورالاي» خاصة في الليالي المظلمة تردد همسا هذا القسم الرهيب ...

كان البطل «بايان» يحترق على نار هادئة . فلقد رأى الحب المشتعل من جانب أخيه للأسيرة ، لكنه لم يستطع أن يفعل شيئاً تجاه نفسه . كان تخليه عن حب «كورالاي» كإعادة تشكيل سيف دمشقي ثم وضعه مرة أخرى على النار . كانت نفس البطل «بايان» مثل ذلك . كان هناك شيء واحد فقط يمكن ان يساعده ، وهو الموت والولادة ك شخص جديد .

غير أن قلب البطل «بايان» كان رحباً ، وسمح لشقيقه «نويان» بالزواج من «كورالاي» ...

كانت علاقات الفتى والفتاة من الكازاخ الزحل بسيطة، ونظيفة، وبريئة . وكانوا ينصبون على حافة القرية ، في أمسيات الصيف الدافئة والخريف الجافة «ألتيباكاني» أي مراجيح تصنع من أعمدة قوية . وهناك عادة ما يلتقي العشاق . وكانت «كورالاي» مثل كثير من الأسيرات الأخريات اللاتي لم يتزوجن بعد، تتمتع طبقاً للتقاليد السهبية القديمة بجميع ميزات فتيات القرى . وهنا عند الأرجوحة حكى «نويان» الذي كان يرتجف من الفرحته لحبيبتة عن سعادتهم المنتظرة . لكنه لم ير السعادة ، بل رأى الدموع في عينيها .



لقد تذكرت في هذه اللحظة بوضوح النذر الذي قطعتة على نفسها، وهى أن تجعل البطل «بايان» يبكي، بل يعوي من الحزن مثلما كانت الأمهات الجونغاريات اللاتي فقدن أطفالهن يعوين في تلك الليلة الرهيبة . لكن «نويان» كان قد احتضنها بالفعل، وأخذها بعيداً إلى الظلام ، حيث كانت الشجيرات تصدر حفيفاً ، وقد سمع للعشاق ضحكا سعيداً ...

وهناك في مرج العشب الكثيف حين يبدو كل شيء حولهما كما لو كان في الحلم أقسم لها الفتى الذي أذهب الحب عقله ... قسما رهيبا !

سألها نويان :

- ماذا عليّ أن أفعل؟

قالت «كورالاي» بحزم :

- لا بد لأمي قبل ذلك أن تقبلني في جيبني والآن أكون سعيدة ! - فإذا كانت على قيد الحياة نحصل على إذنها . وإذا كانت في عداد الموتى من الحزن والأسى نضع على قبرها زهوراً حمراء ...

وافق «نويان» الذي أعجب بفيضان وقوة مشاعرها على تلبية طلبها . لم يفكر في أن مغادرة وطنه ، والفرار مع الأسيرة إلى معسكر عدو شرس ، يعد جرماً لا يغتفر . وكنسر طائش كان ينظر إلى العالم من الأعلى ، لكنه لم يكن يرى الهاويات والمستنقعات ...

قال الفتى لحبيبته :

- مع ظهور نجم الشمال في السماء إنتظريني هنا !

التزم بوعده . فما إن ظهر نجم الشمال الساطع في ليل السهوب حتى اقترب «نويان» من «كورالاي» المنتظرة إياه راكبا سهوة جواد أصيل أحمر داكن ، وممسكا بعنان جواد آخر مثله تماما . كان الجوادان شقيقين للجواد «تولبار كوكا» الشهير في الأغاني .



همس «نويان» قائلاً بعد أن لمس الجوادين :

- فليكتب الله لنا السلامة في سفرنا هذا ! . وكتمت الأعشاب الطويلة قعقتهم
المبتعدة ...

في فترة ما بعد الظهر فقط ، علموا أن «نويان» شقيق البطل بايان قد أخذ جوادين
عندما قاد الرعاة خيولهم للشرب . واختفي من الإصطبل زوجان من اللجام الفضي كان
البطل قد إشتهرهما خصيصاً لتلك الجياد . وقال الصياد الذي كان يحمل نسراً ذهبياً
على كتفه أنه رأى بعيداً في السهوب اثنين من الفرسان على خيول حمراء داكنة تعدو
بأقصى سرعة ، نحو المخيمات الجونغارية خلف نهر إيلي . الآن لم يعد أحد يشك في ما قام
به ، وقرر الشيوخ إبلاغ البطل بكل ما حدث .

قالوا وهم يدخلون خيمته : يركوتشكى ، يركوساى ، أيها البطل «بايان» لقد
رفعت روحنا القتالية إلى عنان السماء ، ومجد عشيرتنا أويك ! - هذا المجد أسقطه أخوك
الصبي «نويان» من السماء إلى الأرض . هذا الأمر يخصك ، أيها البطل المجيد ، فبت فيه
بنفسك ! ..

كان البطل واثقاً من أن نظرة واحدة من الجميلة الجونغارية ، كفيلة بأن يفقد
الملاك براءته ، لذلك لم يسأل عن شيء . كانت آلاف الشياطين تمزق وتعذب روحه :
مرارة فقدان الأخ الوحيد ، الذي كان يحبه أكثر من الحياة ، والغيرة ، والخزي ، والعار أمام
الناس ، والغضب العارم ، والغیظ . لقد شعر بنظرات المواساة من جانب الأصدقاء ، وأحس
بفرحة الأعداء الكثيرين . لم يرتد البطل «بايان» الدروع العسكرية ، وقام بنزع
القوس من على جدار منزل اليورت ، ووضع في جعبته سهمين بأنصال تم تقويتها على
النار . ثم زرع حزامه الواسع ، وخرج من منزل اليورت ، وجلس بصمت على حصانه «تولبار
كوكا» . رافقته نظرات القرية بأكملها حتى اختفي خلف الأفق الممتوج ...

لم يمنعه أحد ، ولم يقل له أحد : «توقف يا بطل !» انطلق «تولبار كوكا» القوي
والرشيق في عدو سريع سلس . انطلق يوماً بلييلة ، ثم دخل في اليوم الثانى ... وفي
اليوم الثاني عندما بدأت الشمس تميل نحو الغرب ، ورأى البطل «بايان» أمامه نقطتين
سوداوين . لقد علم هويتهم ، ولم يضاعف من سرعة حصانه . فمهما كانت سرعة



الجوادين الأحمرين الداكنين اللذين يمتطيانهما «نويان» ، و«كورالاي» فأنهما لم يتدربا على العدو لمدة طويلة. وعلاوة على ذلك ، فأنهما لم يكونا تحت السرج منذ مدة طويلة ، واكتسبا دهونا زائدة من مراعي «أوباجان» الخصبة ...

علم الهاربان أيضا بشأن الفارس الذي يطاردهما ، وأدركا أنه يعتريه غضب غير بشري .

همست «كورالاي» :

- أسرع ... أسرع !- وحمسا الخيول المتعبّة .

كانت الشمس لا تزال معلقة فوق الأفق ، عندما ظهرت في الأمام منطقة «جولدى أوزيك» . لقد كان مكاناً بائساً ومغضوباً عليه من قبل الله وهو ليس إلا أرض جرداء غير مثمرة يحده ، شجيرات المروج الصلبة كوراي وباياليش . لهذا السبب لم يطلق عليه الشاعر أسان كايجي أسان جورميكا «جولدى أوزيك» بل «كاندى أوزيك» والذي يعني «الوادى الدامي» . ولم تأت عائلة أتيجاي التي تمتلك هذه المنطقة ، ويتملكها رعب خرافي إلى هذا المكان أبداً .

أدرك «نويان» بعد أن رأى الوادي الدموي أمامه أن مصيره إلى الموت . ف جذب زمام فرسه بحدة ، وحوله صوب أخيه .

قال للجونغارية التي بدأت في جذب حصانه :

- لا تتلكأ ! - . إنج بنفسك أما أنا ف سأواجه مصيري كما يليق ببطل ..

ترجل عن حصانه ، وذهب أعزل من السلاح لملاقاة أخيه ثم قال .

- إغفر لي يا كوكي !

ومد كلتا يديه للأمام ، وظهرت ابتسامته خفيفة على شفثيه الطفولية الممتلئة .



بدأ السهم الذي أطلق من قوس بخارى يغرد بقوة ولمدة طويلة . وبعد أن كسر الطرف الملتهب الضلع نفذ في قلب نويان الدافئ .

- ياكوكى جان ماذا فعلتم !..

طارت «كورالاي» ، وارتمت على الفتى الواقع على الأرض مع صرخة طائر جريح أصيب بجرح مميت . وقف البطل على الركاب ، ونظر إلى وجهها بعيون دامية ، وأطلق السهم الثاني . وسقطت الفتاة بجانب حبيبها بقلب مجروح .

قام البطل «بايان» بالدوران حول جثث القتلى دورة كاملة من فوق حصانه ، ثم سقط على الأرض . ومع بكاء مكتوم سقط على جثة شقيقه الوحيد ، وارتعد سائر جسده ، وعوى مثل ذئبة فقدت صغيرها . «يا ويلي ، يا ويلي !» - كان يزار ، ويضرب رأسه باللكمات . وفجأة تجمد في مكانه ، وأصيب بالذهول . فقد كانت «كورالاي» الجونغارية تنظر إلى معاناته بعيون مشرقة وحية . وفي ابتسامتها الرهيبة فتح قليلاً فمها القرمزي ، وأشرقت فرحة الانتقام المرضى على وجهها المتجمد . وللمرة الأولى في حياته يغمض البطل «بايان» عيناه في رعب . ربما بدا له كل هذا محنة عظيمة مكسورة . لأنه بعد أن سمع البطل أنيناً خافتاً فتح عيناه فابتسمت في وجهه بحزن دون غضب وقالت ...

- ياكوكى إدفنى مع نويان ، ولا تجعل أى شيء من الأرض يحول بيننا !..

قالت ذلك ، ثم أغلقت عينها الناعسة الجميلة ، كما لو أنها كانت تتعجل اللحاق بالشمس الغاربة .

جثى البطل «بايان» طوال الليل بلا حراك على الجثتين ، وحالما ظهرت الشمس بدأ في حفر أرض الوادى الدامى المرة المالحة بخنجره . كان قبر العشاق واسعاً وعميقاً . لقد وضعهما معا ، ولم يكن هناك بينهما أية حفنة من التراب ...

بعد وفاة العشاق مكث البطل بايان ثلاثة أيام في الوادى الدامى . ثم عاد إلى قريته مسوداً ، ومتضخماً ، وكئيماً ، وأمر على الفور بسرج الخيول الحربية . وهذا ما فسره تأخيره .



فرح الجميع في «تيليكول» بوصوله ، ولكنهم كانوا مندهشين من وجهه المسود . وقالوا أنه مريض ، ولكن لا أحد حقا عرف ما حل به . أمر البطل بايان جنوده بكتمان أي شيء مما حدث ، وإحترامهم العميق لزعيمهم فأنهم إتزموا بكلمتهم .

فقط على انفراد إعترف البطل بايان لأبلابي بما فعل .

قال وقد خفض رأسه :

- لا أعرف لماذا فعلت ذلك ربما كان ذلك إنتقام رجل مرفوض . على أية حال ها هي رأسي فاقطعوها !

- كنت سأفعل ذلك إذا كنت تصرفت على نحو آخر . فلتكن معاناتك لك وحدك ، ولكن ذهاب الفتى الكازاخي للعدو ليس له عقاب عندنا إلا الموت .

في مثل هذه الحالات ، كان أقرب الأقباء يصدرون الحكم ويقومون بتنفيذه . وإذا رفضوا فعل ذلك كانوا يعاقبون بالإعدام . ذاك قانون قديم ، ولن نسمح الآن بالتخلي عنه .

تكلم أبلابي بصوت خافت وغضوب . ونظر إلى مكان ما بعيد من فوق رأس البطل ، ولسبب ما ، صبح البطل أكثر هدوءا وقال :

- نعم يامولاي السلطان إنكم تقولون الحقيقة . - لكن ما زال في صدري جرحاً مفتوحاً . ولن يشفيه إلا الدم . دم شخص آخر أو ... أودمي !

قال أبلابي بهدوء :

- حسناً ستتاح لك هذه الفرصة غدا !

في اليوم نفسه ، وبعد التشاور مع الخان أبيلمامبيت ، الذي وصل إلى هنا ، ودون إنتظار قدوم جيش الجزء الأصغر بقيادة الخان «نورالي» حرك «أبلابي» الذي تلقى من أفراد الاستطلاع المعلومات اللازمة عن الموقع الحالي لكثائب «جالدين تسيرين» خيالته إلى



تركستان ، والى المخيمات بالقرب سير داريا المحتلة من قبل الجونغاريين . حدث هذا في بداية الشهر الثاني «جيلتوسكان» وبلغ قوام جيش أبلاي أكثر من أربعين ألف فارس . وكانت هذه أول حملة هجومية لجيش كازاخي منذ « عهد المحنة الكبرى».

كان الجيش الكازاخي وفق ما تمليه التكتيكات العسكرية الترحالية في ذلك الوقت ينقسم الى ثلاثة أجزاء تقليدية ، والتي تحركت في ثلاثة اتجاهات . وقاد الجزء الأول من الجيش البطل الأكثر خبرة القائد العسكري الكانجيجالي «بوجيمباي» والذي تغنى به الشاعر الشهير أومبيتاي فقال :

أيتها الجبال والوديان الحبيبة :

بايناؤل ، كيزلتاو ، وأبرالي

كوزي مانراك ، كوي مانراك ، ودجينكيزتاو

كم جال بينكم اللصوص الجونغاريون ! ..

وأنت يا بوجيمباي كمعلم مبجل أشرت لهم

إلى المكان القديم

إلى الجانب الآخر من إرتيش الأسود ، حيث عاشوا هناك لفترة طويلة.

لقد أرجعتهم إلى الخلف عبر النهر، عبر جبال ألتاي

وأقمت مخيماً للشجعان والأوفياء في أك - شاؤول.

وما إن سمعوا صيحتك ، حتى توافد الفرسان إلى هناك مثل الطيور

ولقد ضربتم معهم الأمراء الجونغاريين ...

يا «كابانباي» و«بوجيمباي» أيها الأبطال العظماء ! ..

إن الأرجين والنايمان يتغنون بمجدكم

لأنكم أعدتم إليهم أراضيمهم القديمة والمراعي ! ..



الآن تحرك البطل «توجيمباي» بسرعة على رأس عشرة آلاف فارس إلى سوزاك ، والتي كان «جالدين تسيرين» الحاكم الجونغاري ينوي الخروج منها لاقتحام أوليتا والمركز السياسي القديم للسهب الكازاخية . ومع هذا الجيش كما هو السائد منذ زمن قديم ذهب «المؤرخ» الشاعر أومبيتاي .

وقاد الجزء الثاني من القوات الطرخان الشهير «جانبيك» ، وتحرك إلى الروافد الدنيا لنهر سيحون داريا . وتواجد في الكتائب التي قادها أول طرخان كازاخي ، بالإضافة إلى فرسان الجزء الأوسط العديد من الأبطال والفرسان من عشائر شيكتا ، وتابين ، وتام ، وأداي من الجزء الأصغر . لقد كانوا يتحرقون شوقاً أن يحرروا من الغزاة أراضيهم على ضفاف نهر سيحون داريا . وكان المغني - «المؤرخ» في هذا الجيش هو الشاعر الشهير تاتيكار من قبيلة الكاميك .

وكان على رأس الجيش الثالث الرئيس أبلاي نفسه . وقد توجه هذا الجيش مباشرة إلى تركستان عبر «شيلي» ، و«جان كورغان» . وقد انخرط في هذا الجيش كقادة عسكريين الأبطال المشاهير في ذلك الوقت أمثال بايان ، وماليساري ، وجابيك ، والبطل كابانباي الذي يلاحق الجيش في السير . والآن لاترافق البطل العجوز زوجته المحاربة الشهيرة جوهر ، ولكن ترافقه ابنته الشابه الجميلة «ناظيم» التي تشبه أمها في كل شيء .

لم يستطع الشاعر «بوخار» الذي تعدى الستين عاماً ، ولم يكن لديه حصان للحرب أن يشارك في هذه الحملة الشهيرة ، وصار يعيش في قرية صديقه البطل «بايان» . وبدلاً منه أخذ أبلاي معه «كمؤرخ» الشاعر «كوتيش أكين» البالغ من العمر سبعة عشر عاماً ، ذلك الذي اتهمه بجرأة في هذا الصيف بالقتل العمد لبوتاخان .

مثل تيارات فصل الربيع تدفقت الكتائب الكازاخية إلى المنخفضات الثلاثة مغرقة السهب . وعلى الرغم من أنها كانت تفوق الكتائب الجونغارية عدداً إلا أن الانضباط والتسليح والتدريب كان أقل بكثير مما لدى الجونغاريين . كانت الميليشيات الوطنية تضم في تشكيل واحد محارباً ذا خبرة ، وراع عادي ، وأراعي قطع من القطعان . وبالتالي تجنب أبلاي منذ البداية اصطدام القوى الرئيسية . وتعين سقق ، وتدمير الأمراء الجونغاريين واحداً تلو الآخر . وتم تقسيم الجيش الكازاخي إلى ثلاثة أجزاء أيضاً من أجل سقق القوات الجونغارية ...



لكن الحاكم الجونغاري الرجال الماكر الذي خاض طوال حياته حروباً ضد الكازاخ الزحل ضمن بسرعة فكرة أبلاي . أدرك على الفور أن جيش البطل «توجيمباي» المتجه إلى سوزاك ، وجيش «جانيبك» المتجه إلى الروافد الدنيا لنهر «سيحون دارايا» ماهو إلا تشتيت للقوات . كان الخطر الرئيس على الجونغاريين يتمثل في الجيش الذي يقوده «أبلاي» إلى تركستان . واعتقد نفس الشيء أفراد الاستطلاع الجونغاريون ، والذين كانوا على مقربة من كل جيش كازاخي .

أرسل «تسيرين دورجي» الذي أصبح في هذا الوقت حاكم جونغاريا ، قوات مساعدة فقط إلى سوزاك وكازالينسك ، في حين أنه قد مرع مع خمسة عشر ألف رجل من المحاربين المختارين لملاقاة أبلاي . وقد تمكن من الاستيلاء على منطقة «جان كورغان» حيث أنه قد سبق القوات الكازاخية التي كانت تتحرك بتوذة . في المنتصف تم وضع الجزء المترجل من الجيش مع خمسة عشر مدفعاً ، وبنادق صينية . ونصب المدافع الخفيفة على ظهور الإبل العملاقة ، والتي يمكن تحريكها في أي لحظة إلى الاتجاه المطلوب . وعلى الرغم من أن الحيوانات كانت «قاذفات» إلا أنهم كانوا يضعون في آذانهم حشوات من القطن . وعند إطلاق النار كانوا يضعون الجمال على بطونها مثل سفينة راسية ، ويربطونها من ثلاث جهات بالحبال والأوتاد . وعلى الجناحين كالعادة نشر «تسيرين دورجي» خيالاته الجونغارية الرهيبة .

غضب أبلاي مؤخراً ، بعد أن علم أن «تسيرين دورجي» أصبح الحاكم الجونغاري بدلاً من «جالدين تسيرين» وأن جيشه قطع الطريق إلى تركستان . فهذا الأمير من عشيرة تشوراس الجونغارية كان دائماً عدوه اللدود . وقد طالب في زمن ما بإعدام «أبلاي» الشاب الواقع في الأسر ، وأصر مؤخراً أن تقوم الكتائب الجونغارية بتوجيه الضربة الرئيسة للكازاخ من إرتيش أي مباشرة ضرب ممتلكات أبلاي ، والجزء الأوسط بأكمله . وقد أخفي «دورجي» نفسه السلطان بارك الهارب إثر قتله لأبي الخير ، والذي كان لا بد أن يحاكمه مجلس البايات الكازاخي . وفي وقت لاحق أمر «تسيرين دورجي» بدس السم للسلطان بارك ، على الرغم من أنه كان متزوجاً من شقيقته . وعلى الرغم من أنه بوفاة السلطان «بارك» أصبح أبلاي مالك الجزء الأوسط بلا منازع ، غير أن كراهيته للرجل السفاح من جراء ذلك لم تقل . والآن أصبح هذا الأمير المحارب الحاكم الجونغاري ، ويغلق طريقه إلى توحيد البلاد والمجد !



وهنا وفقا للتقاليد قسم أبلاي جيشه إلى ثلاثة أنساق . وأصدر تعليماته بالاستيلاء على قلعة «جان كورغان» إلى البطل «كابانباي» ، الذي كان يمتلك خبرة اقتحام المدن ، وكان في كتيبته خمسمائة من أفضل الرماة الكازاخ . وقاد البطل «ساريمبيت» الجناح الأيمن ، أما البطل «بايان» فكان على رأس الجناح الأيسر . وأمام الجناحين تم نشر ثلاثة آلاف فارس ، وخلفهم وقفت القوات المساعدة تحت قيادة البطل «أوريزيمبيت» ، والبطل ماليساري حاملة الحراب ، والهروات ، وبنادق الفتيل الروسية . أما «أبلاي» وابنه «جاناي» البالغ من العمر سبعة عشر عاماً ، فقد شغلوا الوسط خلف جنود «كاناباي» . وكان تحت إمرة «أبلاي» مفرزة منتقاة يبلغ قوامها ألف محارب من حرسه الخاص .

بدأت المعركة في وقت مبكر من صباح يوم الأربعاء . وقد تم مسح السهل أمام هذه المنطقة بالكامل من جانب أفراد الاستطلاع اللذين تم إرسالهم من كلا الطرفين إلى جميع الجوانب ، لذلك كانت الحيل غير واردة في الحسبان . وقد حلت شجاعة وبسالة المقاتلين كل شيء . وفي نفس اللحظة كانت الفرقة التابعة لكلا القائدين تضرب بالمدافع والبنادق الثقيلة ، وتطلق السهام ، وتقرع الطبول . وكان عشرات الآلاف يهرعون نحو بعضهم البعض حاملين السيوف ، والسيوف الحادة المعكوفة . وارتفع الغبار الأحمر الذي نشرته الآلاف من حوافر الخيول الحادة إلى عنان السماء فحجب الشمس ...

كان جحيما حقيقا ملتهبا ، تنبعث منه رائحة الدم البشري . واختلط صهيل الجياد المتوحشة مع صرخات الجرحى والمسحوقين تحت سنابك الخيل ، ومع صيحات الأبطال والبيجادورات الذين تحولوا إلى وحوش ، وصياح الجنود ، وطحن العظام ، والأصوات الحديدية . وعندما ينهزم أحد الجيوش في مكان ما ، ويبدأ في التراجع كان القادة من كلا الجانبين يرسلون على الفور إلى هناك ثلاثمائة أو أربعمائة فارس من غير المتعبين . وأوشك اليوم على الانتهاء لكن القتال لم يتوقف ولو للحظة واحدة .

أقدم أبلاي على الحل الأخير . كان يجلس طوال اليوم على حصانه ، ناظرا إلى الضباب الأحمر ومستمعا إلى صوت المعركة . في كل دقيقة كان يأتيه الرسل ويخبرونه ما يحدث في ساحة المعركة التي تبلغ مساحتها ثلاثين فرسخا . وبحلول نهاية اليوم ، فرد أبلاي فجأة كتفاه ، ووقف في الركاب ، وصنع علامة بيده .

- أتآن ... إلى الأمام !



ومثل الانهيار الحجري في الجبال اندفعت إلى الأمام كتيبة حراسه البالغ قوامها ألف جندي . وفي المقدمة انطلق الأبطال الشباب «ساجمباي» و«كاناي» من حرس السلطان الشخصي على خيول أكحل تيكي . وكالسيف شقوا المنطقة الجونغارية الأمامية، ووصلوا إلى التل الذي نصبت عليه خيمة الحاكم الجونغاري ذات الراية الذيلية . ولكن من جديد أطلقت نيران المدافع والبنادق محدثة فجوة واسعة في صف المهاجمين . دارت الخيول في أماكنها ، وسقط الناس من السروج على الرمال . واستمر الفرسان في الخلف يضغطون على الفرسان في الأمام ، محدثين مزيداً من الفوضى والارتباك . في هذا الوقت وضع رجال المدفعية الجونغارية القذائف الملتهبة في مدفيعتهم . وبعد دقيقة أو اثنتين دارت عاصفة ناربية جديدة بين الفرسان الكازاخ . وخلف خيمة الحاكم الجونغاري شمر حراس «تسيرين دروجي» الأكمام إلى المرفقين ، وحثوا الخيول الجاهزة لمطاردة الهاربين...

صاح أبلاي وقد وقف في ركاب جواده :

- ألا يوجد في جيشنا بطل لايهاب رعد المدفع !

فجأة أمسك ابنه «جاناي» ذيل الحصان السلطاني القبلي ، واندفع إلى الأمام قائلاً :

- أبلاي .. أبلاي ..!

لكن الحصان حمله إلى مكاناً آخرأ بجانب التل الذي يوجد به الحاكم الجونغاري مع مستشاريه . وقد أبطأ المائة فارس الشجعان الذين كانوا ينطلقون خلفه السير رغماً عنهم عبر شجيرات الأدغال . لكن لم يكد السلطان «جاناي» البالغ من العمر سبعة عشر عاماً يخرج من هناك ، حتى ظهرت في الجانب الآخر من أرض المعركة أمام خيمة الحاكم الجونغاري فتاة صغيرة هشة على جواد أسود ضخم بدون سرج ، حاملة في يدها سوط فقط وتقول :

كابانباي .. كابانباي ..!

عرفها الجميع على الفور- أنها ناظيم الجميلة- ابنة البطل كابانباي والمحاربة الشهيرة جوهر .

أبلاي .. كابانباي ..!



انضم إليها أخيراً ، الفرسان الشباب الخارجين من دغل الشجيرات الشوكية بقيادة السلطان جاناي. وكانا معا - الفتاة والفتى - على جيادهما أمام المدافع الرهيبة على التلة. وقد أثرت شجاعتهما تحديداً ، على الجيش الكازاخي حتى أن الجرحى قاموا في لحظة من على الأرض ، وأمسكوا بأسلحتهم .

- أبلاي .. كاباتباي !..

- أوراخ !..

وفي عاصفة رهيبة واحدة انطلق إلى الأمام الأبطال والجنود من جميع العشائر ، والقبائل ، والأجزاء وقالوا :

- أبلاي !

- أتياجاي !

- أكجول !

- كاراكيبشاك قوبلاندي .. أوراخ !..

- كاباتباي .. أبلاي !..

- أبلاي ! أبلاي ! أبلاي !

انطلق السلطان أبلاي نفسه مع مجموعة من المحاربين ، يرتدون الدروع لشن هجوم مباغت ، وبدأ معاونوه على التل بسرعة طوى خيمة الحاكم الجونغاري . وارتعشت الراية الجونغارية ذات الذيل مع التنين الشورشوتي الأسود على الحرير الأصفر ثم سبحت إلى الشمس الغارية

قتل أكثر من نصف القوات الجونغارية في هذه المعركة الدامية. استمرت هذه الحرب مدة شهرين ، ولأول مرة منذ «عهد المحنة الكبرى» منيت الكتائب الجونغارية بالهزيمة تلوا الهزيمة. وحرر أبلاي القلعة ومنطقة «جان كورغان» التي تعد مفتاح تركستان ، وتحرك ببطء إلى العاصمة الكازاخية القديمة مزيجا كافة العوائق الجونغارية من



طريقه . وظهرت كتائب البطل بايان على ضفاف نهر تالاس مبشرة بتحرير وشيك لعشائر وقبائل الجزء الأكبر والمخيمات القيرغيزية من النير الجونغاري . في الوقت نفسه ، استولى البطل «توجيمباي» على مدينتي سوزاك وسايرام . أما الطرخان جانبييك فقد طرد الغزاة من الأراضي الكازاخية والكاراكالباكيه في منطقة بحر آرال ، وطالب «تسرين دورجي» بالسلام ...

وافق أبلاي على هذا السلام . فقد كان الجيش المتعب ، الذي فقد أكثر من نصف أفراده يحتاج إلى الراحة . بالإضافة إلى ذلك كانت ميليشيات ، وكان لدى كل فارس في «ساري أركا» البعيدة أشغاله الخاصة . فلقد بدءوا يفكرون بعد أن تخلصوا من الجونغاريين ، وقضوا على التهديد بغزو جديد في كيفية إطعام أنفسهم وأسرههم في الشتاء المقبل .

تواجد في مقر أبلاي لمدة شهر كامل سبعة سفراء مخلصون من قبل الحاكم الجونغاري «تسرين دورجي» . وبعد مفاوضات مطولة اتفقوا نيابة عن الخان الجونغاري على إعطاء خان الجزء الأوسط أبيلمامبيت المدن المحررة بالفعل سوزاك وسايرام ومانكينت وشيمكنت ، وخلال فصل الشتاء يناقشون عودة الولاية التركستانية كاملة مع قلعة تركستان وضواحيها إلى الكازاخ . وعادت أيضا مساحات شاسعة على طول أنهار سيحون داريا وتالاس ، أما الأراضي الكازاخية التي بقيت تحت سيطرة الحاكم الجونغاري ، فقد تم تخفيض الجبايات والضرائب على السكان المحليين بشكل ملحوظ . وقبل عام واحد فقط ، كان الحاكم الجونغاري سيضحك ضحكة شريرة إذا عرض عليه الزعماء الكازاخ تلك الشروط ...

قال أبلاي بحدة وهو يسرح أفراد قواته :

- لقد انتهت الحرب في هذا العام !

وتوجه برفقة الناس المخلصين والأبطال البارزين إلى سوزاك ، حيث كان لا يزال هناك مقر الخان أبيلمامبيت . وهناك على شرف النهاية الموقفة للحرب ، كما جرت العادة ، أقيمت وليمة كبيرة . ولكن في ذروتها سقط على السعيد أبلاي خبر رهيب ، مثل الرعد في السماء الصافية . فقد اندفع الشاعر الشاب كوتيش دافعا الحراس إلى قاعة قصر حاكم سوزاك حيث أقيمت الوليمة . جلس على الجانب ، وعزف على الدومبرا لحنا



كئيباً مقبضاً للقلب .

قال له أبلاي وقد شحب وجهه فجأة :

- لماذا موسيقاك شاكية إلى هذا الحد يا شاعري ؟ - هل ابني جاناي بخير ؟

انحنى كوتيش الشاب على الدومبرا ، كما لو أنه يستمع إلى صوتها ، وغنى قائلاً :

من يفرح في السهوب لغروب الشمس المشرقة ؟

من من بين الناس يفرح لمقتل البجعة البيضاء؟ ..

غرب كالشمس المشرقة ، وسقط على الأرض كأنه بجعة جريحة

ابنك أصابه سهم جونغارى ! ..

سُمع في الصمت التالي بكاء الشاعر ، الذي كان صديقاً لجاناي المماثل له العمر .
وخلف ظهره مسح دموعه خلسة المحب الكبير للحقيقة ، البطل أولجاباي الذي قام على
تربية السلطان جاناي ...

توقف الاحتفال ، وأصبح السلطان أبلاي الذي كان يجب ابنه المقتول بكمين حياً
جماً ، طريح الفراش من الحزن . وكما لو أنه يتهم البطل أولجاباي أنه لم يحافظ على
ابنه لم يعرض عليه البقاء . وجاء من «سارى أركا» البعيدة الباي «كازيبك» الملقب
بصوت الأوزة . ومن الجزء الأقدم الذي كان العديد من عشائره ممتنين لأبلاي ، لتحريرهم
من الجونغاريين جاء تولى بيك ، وجاء من الجزء الأصغر بالايك . وكان قدوم ثلاثة من
أهم الناس من جميع الأجزاء لتعزية سلطان عادي في وفاة ابنه يعنى اعترافاً ضمناً بأنه
القائد العام في هذه الحرب.

لم يتوان أبلاي المخلص لنفسه إزاء هذه المرارة المفهومة لفقد ابنه الحبيب في استغلال
هذا الحدث لصالحه ، في سعيه إلى العرش الخانى . وعن هذا تحديداً ، قال له الشاعر
تاتيكارا مباشرة أمام عينيه في أغنيته مخبراً السلطان بالقرار المتخذ .



اجتمع لفترة طويلة فيما بينهم

رجال الأجزاء الثلاثة

ولم يتفقوا بعد

على أن يولوك عليهم خانا !

لكن حزنك طويل جدا وعميق .

فهل حقا كل أبنائنا المقتولين

فضلت عليهم ابنك وحده ياسيدي الخان؟

فلتقطعوا حينئذ ذيل الحصان الذي يربطنا بهم ! ..

ولتركبوا الخيول المبقعة

ولتفلسوا كلية هذا الخان الأثاني ! ..

قال أبلاي :

- نعم أنت على حق أيها الشاعر الحكيم !

وفي صباح اليوم التالي ، دخل الشاعر الشاب كوتيش بهدوء ، وجلس القرفصاء ، ولس أوتار الدومبرا . لم يغن ، ولكنه شرع فجأة في البكاء .

اندهش أبلاي وقال

- ما خطبك أيها الشاعر الشجاع ؟!

- البطل أولجاباي ... وافته المنية ...

حكى الشاعر كوتش كيف حدث ذلك ... لقد سافرا معا عبر ليل السهوب ، وفجأة سمعا أغنية . كانت أغنية رائعة ، لكنها لم تكن كإخوتية بل جونغارية . حول البطل أولجاباي على الفور حصانه إلى النار المشتعلة .



قال له الشاعر كوتيش هما :

أنهم الجونغاريون .

قال البطل :

- لا تقلق فإنه بيننا وبينهم سلام ... - وأنهم يغنون أغنية رائعة ..!

في نفس اللحظة إخرق سهم طائر من الظلام حلق البطل أولجاباي . وقفت الخيول على قوائمها الخلفية وذهبت بهم بعيدا عن الجونغاريين المغنيين في الظلام . أمسك البطل أولجاباي بالسهم العالق في حنجرته ، وقال بصوت أجش :

- لا بأس ، يا شاعري ، يقولون إننا نتكرر في الجيل السابع ... وربما يتكرر جي للأغنية ...!

مع هذه الكلمات نزع من حنجرته السهم الأسود ، وتدفق الدم كالنافورة على الحصان وعلى الأرض ، وعلى الشجيرة حوالينا ، وغمر الشاعر كوتيش من رأسه حتى أخمص قدميه ...

الآن فقط نظر السلطان أبلاي إلى كوتيش ورأى أن الشاعر الشاب المحب للحقيقة مغطى بدم ناصع .

قال أبلاي :

- نعم كان يحب الأغاني !

قام السلطان أبلاي من فراشه ، وأمر بإعطائه دروعا وأسلحة ...

بعد سبعة ، أجيال ولد في عائلة كارجاس صبي ، أسموه طبقا للتقاليد المحافظ عليها بقدسية باسم سلفه البطل ، الذي كان أكثر الناس في العالم حبا للأغاني . وقد أصبح هذا الصبي شاعراً ...



II

في عام ١٧٤٥ م توفي الحاكم الجونغاري «جالدين تسيرين» . لكن قبل عامين من وفاته أصبح ابنه الأوسط «تسيرين دورجي» حاكما لجونغاريا . وفي عهده تزايد الصراع الدموي على السلطة والذي كان دائما سمة من سمات هذه البلاد . وفي نهاية عام ١٧٥٣ م قُتل «تسيرين دورجي» من جانب شقيقه «لاما دورجي» ، الذي تولى منصب الحاكم الجونغاري العظيم ، لكن ابن أخيه أمورسانا إنتزع رقبته . وسرعان ما استغل أبلاي الوضع لصالحه . فتارة يساعد أبا المنصور الذي أنجبته امرأة كازاخية ، وتارة يناهز إلى «لاما دورجي» . ونتيجة للحرب الأهلية والحملات الكازاخية نزت جونغاريا دماً . وفي النهاية حاز أمورسانا منصب الحاكم الجونغاري العظيم ، بدعم من المسؤولين التابعين لإمبراطور المانشو الصيني الشاب .

باتت أيام جونغاريا معدودة؛ ففي عهد الدولة الوسطى القوية تغيرت الأسرة الحاكمة ، لكن بقيت السياسة كما هي .

وكان النبلاء المانشو بمجرد أن غزوا الصين ، وثبتوا أسرة تشينغ على العرش ، واتحدوا مع أكثر القادة الصينيين رجعية بثوا قوى جديدة في السياسة العدوانية القديمة للإمبراطورية الصينية . ولأكثر من قرن من الزمان قررت النخبة الحاكمة الصينية أولاً ثم المانشو الصينية لاحقاً والتي أبعدت بشكل منهجي القبائل الجونغارية، وحرضتهم على الكازاخ أنه قد حان وقت التحرك . ففي تصورهما أن الكازاخ والجونغار قد أدموا بعضهم البعض بما فيه الكفاية ، وقد حان الوقت لتنظيف الساحة من «النمور الجريحة» وينبغي أن يتم ذلك في أقرب وقت ممكن ، بينما روسيا منشغلة بالاضطرابات الداخلية ، ولم تتمكن من التدخل في شؤون آسيا الوسطى بكامل قوتها...

استغلت الجيوش المانشو صينية الضخمة بقيادة الجنرالين «فو دي» و «تشاو هوي» ذريعة الصدام الدوري للقبائل الجونغارية مع القوات الصينية ، التي تضغط عليها باستمرار لغزو جونغاريا . لم تكن حرباً تقليدية . ففي غضون شهرين قامت جحافل



الغزاة ، الذين يتفوقون في العدد عدة مرات ، على الكتائب الجونغارية المتناثرة بتدمير كامل لشعب كبير ولدولته . وبناءً على مرسوم خاص تم اعتبار الجونغاريين خارجين على القانون ، وقتل تلقائياً كل شخص سواء كان رجلاً مسناً أو طفلاً ولد للتو . قتل أكثر من مليون شخص بلا رحمة ؛ نتيجة لهذه الحملة الرهيبة . وفر من بقي من الجونغار على قيد الحياة إلى أعداء الأمس بالسهب الكازاخية ...

هرب الحاكم الجونغاري أمورسانا تحت حماية أبلاي . وقد وفر له المأوى هنا أقارب والدته الكازاخية ، والذي كان بالأمس فقط ينوي تدميرهم ونهبهم . وقد خصص له ماشية ، وخصص له منزل يورت ، وعينه حاكماً لأولوس (منطقة) صغير تجمع فيه الجونغار- التورجوت الناجين من الإبادة الصينية . سرعان ما مات من الجدرى الذي قدم إلى السهب الكازاخية مع القوات الصينية .

زالت جونغاريا من الوجود . ولأشهر طويلة حامت حول المخيمات البدوية السابقة على الجانب الآخر من الجبال ، سحب من الغريان السوداء ، وحملت الرياح من الشرق رائحة الجيف النفاذة . هدا الزعماء ، وأوقف بايات العشائر والقبائل الكازاخية قتالهم الداخلى مدركين ماهية الكارثة التي تتهددهم من الشرق . وإذا كانت مخيمات الزحل الجونغارية تقع فيما مضى بين الصين والخانيات الكازاخية ، فالآن وصل الزفير الساخن للتنين الدموي إلى الأراضي الكازاخية ...

للمرة الثالثة على التوالي ، فرجنود القائد المنشوري الشهير «فودي» عبر ممر «أتين إيميل» بطريقة عشوائية . لقد كانوا جنود مشاة من ذوي الخبرة ومسلحين بشكل جيد . لكن عندما ترجلت على صخور الوادي الضيق خيالة أبلاي السريعة ، وقدم الجنود الأقوياء أمامهم الحراب الصلبة الطويلة أصبح الجنود الصينيون عاجزين عن فعل أي شيء . وبينما كانوا يتحركون عند الحائط الحى المحيط بالوادي الضيق ، قام أهالى الجبال من الكازاخ العابرين للقمم الشاهقة المسببة للدوار والذين طالما قاموا بالصيد هنا مع النسور والصقور المدرية ، بالقاء الصخور الجرانيتية الكاملة على رؤوس الشورشوتيين .



لم يكن الأمراء الجونغاريين من دخلوا حدود دولة الكازاخ القديمة هذه المرة ، بل القوات الإمبراطورية النظامية . لقد كانت الإمبراطورية السماوية (الصين) تعد نفسها دائماً مركز العالم ولذلك لم يعترف جيشها بأية حدود . ببساطة أرسل ابن السماء - الإمبراطور - عبیده المطيعين إلى مشارف دولته ؛ لمعاقبة بعض الرحل المتوحشين العصاة .

عندما فر الشورشوتيون للمرة الثالثة ، لم يكن أبلاي سعيداً جداً . فلقد كانت هناك مرتان قبل ذلك وفي المرتين خرجت الجحافل الصينية الجديدة في أعمدة رمادية رتيبة من الوادي ، كأنه لم تكن هناك مذبحه . كان هذا يشبه عش النمل في مدينة «ساري أركا» فمهما تدوسه بالأقدام ، يزحف المزيد والمزيد من النمل إلى السطح . فمن أين يمكن الحصول على الماء و النار من أجل عش النمل الذي لا يعد ولا يحصى ؟ وقد أبلغ البطل «ديربيلاي» رئيس أفراد الاستطلاع الآن أنه يقترب من الجانب الآخر من الجبال ، جيش صيني جديد تحت قيادة القائد «تشاو هوي» .

ليس هناك وجه للمقارنة بين الفارس الشورشوتي على حصانه القصير ، وبين الفارس الكازاخي ، ولكن عندما يكون في مقابل فارس واحد عشرة أو عشرون من هؤلاء المحاربين ، فلن تقوى يده على رفع الهراوة كل هذا الكم من المرات . علاوة على ذلك فليس جيوش البوجد يخان من سلاح الفرسان من تمثل الخطر ، بل سلاح المشاة العنيد صاحب العزيمة والإصرار والذي لأياً به بالخسائر .

ينبغي القيام بكل ما هو من شأنه عدم إتاحة الفرصة لتوحد هذين الجيشين الصينيين ، ومن أجل هذا ينبغي الإسراع إلى الجانب الآخر من الجبال . وإذا لم يتم عمل ذلك فسوف تأتي تحت راية التنين الشورشوتي إلى هذه الأراضي الكازاخية كارثة ، ستبدو معها «عهود المحنة الكبرى» كأنها الجنة . ومثال الجونغاريين ماثل أمام أعيننا . ولكن ماذا يمكن أن نفعله إذا كان القدر نفسه ضدنا . وورقد الجمل الأبيض قبل هذه الحملة في وضع يدعو للشك ! ..

من بداية المعركة في الوادي الضيق ، لم يستطع أبلاي أن يتخلص من هذا الهاجس . وظهر الجمل الأبيض له بعد الحملة الجونغارية التي قتل خلالها الابن المفضل له أول أبنائه جاناي . في صباح ذلك اليوم خرج أبلاي من منزل البيورت ، ولما يبرأ بعد من الحزن ، ورأى على حافة القرية جملاً أبيض غير عادي واقفاً على قدميه . لقد كان ضخماً ويصل شعره



الأبيض بخصلاته الطويلة إلى الأرض . وعندما اقترب السلطان منه ، لم يخف الجمل وإنما حدق فقط بعينين نصف مغمضتين . كانت خياشيم الحيوان لاتزال على حالها ، أي لم يثقبها الجمالون ، ولم يكن على ظهره آثار من جراء حمل الأثقال . وكانت كل الشواهد تدل على أنه الجمل العربي أروانا البري . وعندما رفع أبلابي يده ، رفع الجمل نفسه فجأة ، ثم ولى هاربا .

في صباح اليوم التالي ، كان «أك بورا» الجمل الأبيض «في نفس المكان ، كما لو كان في انتظار إستيقاظ أبلابي المكلموم . ولم يستطع أبلابي كواحد من الزحل إلا أن يربط هذا الحدث مع وفاة ابنه . وفي الشتاء التالي كله ، ظهر هذا الجمل في قرية السلطان ، وفي هذا الشتاء لم تقتل الذئب أي جدي في قطاعان السلطان . ومرة بسلام وكان ذلك شيء نادر الحدوث ، وهذا أيضا ربطوه «بأك بورا» (الجمل الأبيض) ...

في الربيع أظهر الجمل الأبيض كل قوته ... قرر السلطان أبلابي قتال الجونغار مرة أخرى . لكن المجلس الذي عقده من بايات وقادة العشائر والقبائل ، لم يتوصل إلى رأى واحد . فقالوا ضد من سترسل خيالنا إلى الجونغاريين التورجوتيين عند نهر إرتيش ، أم ضد الأويروتيين عند نهر إيلي . وهنا جاء دور الجمل الأبيض . فكما تحكى الأسطورة عندما خرج أبلابي من منزل اليورت في الصباح ، ورأى أن الجمل الأبيض لا يضع رأسه كما جرت العادة ناحية الغرب ، بل إلى الشرق فكر ، وقال «ماذا يعني هذا؟» وتذكر أن التوفيق جاء له مع الجمل . وخرج مع جيشه في الاتجاه الذي أشارت إليه رأس الجمل العراف ، وأنتهت الحمله كالعادة بنجاح .

منذ ذلك الحين كان السلطان أبلابي دائما ما يأخذ الجمل الأبيض أينما ذهب . والآن من الصعب القول إن السلطان أبلابي كان يؤمن بشدة في القوة الغامضة لأك بورا . غير أن الجمل الأبيض شغل مكانا لائقا في الروايات عن ذلك العهد . ويقولون أنه ذات مره أظهر السلطان أبلابي العناد ضد الجمل الذي أرسله له القدر . فلقد صاح ذات مره «هل حقا يعتمد مصيرى على هذا الحيوان!» وقاد الجيش في الاتجاه المعاكس لذلك الاتجاه الذي أشار إليه الجمل الراقد . وغني عن القول إن الجيش سقط في فخ ، ونجا بالكاد من الدمار وذلك بفضل وجود أك بورا فيه .



في هذه المرة وقبل الذهاب لملاقاة الجحافل الصينية السائرة مع تيار نهر إيلي . نظر أبلاي في صباح المعركة قبل كل شيء إلى الجمل الأبيض . كان الجمل مستلقياً على نحو غامض ؛ فقد كانت رأسه لا تشير مباشرة إلى الممر الجبلي ، حيث قرر السلطان من هناك وقف الغزاة الشورشوتيين ، الذين توغلوا في أرض الكازاخ . كان من الواضح أن هذا العمل لن يكلل بالنجاح لكن لم يكن باليد حيلة . فإذا عبر الشورشوتيون الممر الجبلي فإن طردهم فيما بعد ربما يستلزم عدة قرون ! ..

والآن على الرغم من أن الصينيين قد تراجعوا للمرة الثالثة ، لم يشعر السلطان أبلاي أنه في أفضل حال . فقد كان يعلم دون جمل ، مدى تفوق الشورشوتيين على قواته ، من حيث العدد . ومع ذلك فقد قرر المضي قدماً لملاقاة الجنرال الصيني «تشاو هوي» ومهاجمة جيش «فودي» قبل قدومه .

أصدر أبلاي تعليماته فقال :

- لتذهب كتيبة البطل «بايان» إلى الغابة ! - أما البطل «ساريمبيت» فليختبئ هناك وراء تلك التلال . واحرصوا على ألا يراكم الشورشوتيون . وسيكون الاشتراك في المعركة بإشارة مني !

بعد أن توقف المحاربون الكازاخ عن المطاردة حولوا خيولهم ، وبدأوا الانتشار في أنحاء الغابة ، والاختباء في البساتين الواقعة على ضفاف الأنهار ، وبعد بضع دقائق اختفوا عن الأنظار تماماً ، كأنهم ذابوا في ضباب نهر إيلي . وقد بقى فقط في الأخاديد الجواسيس المتخفيين عن الأنظار ، وسمعوا كيف يحث أهل الجبال من الصينيين القوات لشن هجوم جديد .

لم تكن المرة الأولى التي يلتقي فيها الكازاخ مع الجيش الإمبراطوري الصيني في قتال متلاحم . فمنذ العهود السحيقة سعى العديد من الأباطرة الصينيين إلى الاستيلاء على هذه الأرض والشعوب القاطنة بها . وعلى إمتداد الحافة الشرقية من السهوب وخاصة في أراضي الجزء الكبير ، يمكننا أن نرى الأنقاض القديمة والحرائق التي ، أشعلها هنا



الشورشوتيون . ولفترّة طويلة من الزمن لم يحاول الغزاة الصينيون مجرد قهر تلك العشائر والقبائل فقط ، بل تحويلهم إلى صينيين . وعندما لم يفلح ذلك الأمر ، فعلوا بشعوب كاملة ما فعلوه الآن بالجونغاريين .

حدثت المأساة الجونغارية ، وقام الشاعر بوخار الغاضب الذي لا يزال يهاجم في أغانيه «الكفار الروس» ؛ لقيامهم ببناء الحصون داخل السهوب الكازاخية بشد أوتار الدومبرا وغنى :

في الكتاب المقدس «الإنجيل»

الذي يتكون من أربعة كتب

مرسلة للناس من قبل الله

جاء ذكر الشورشوتيين

يشورون وراء الجبال فتهتز الجبال ...

وإذا جاء هؤلاء الشورشوتيون إلى العالم

فأنهم سيأكلون الجثث

بعد أن يخرجونهم من القبور ! ..

لابد من القول إن الشاعر الحكيم يعرف جيداً الطبيعة الوحشية للأباطرة الصينيين . وقال إنهم أكثر جشعا من أبناء آوى الجائعين ، ودعا الكازاخ إلى شحذ الحراب .

في هذا الوقت خيمت كارثة جديدة على العشائر الكازاخية من الجنوب . فما إن سقطت جونغاريا حتى قامت خانية كوكاند ، التي ورثت سياسة بخارى بالاستيلاء على طشقند ثم المدن الكازاخية تركستان وأرريس . وتحركت الكتائب الكوكاندية نحو مصب «سيحون داريا» مستولية على مدينة واحدة تلو الأخرى .

تمكن أبلاي بالقوات الواقعة تحت قيادته من وقف زحف الكوكانديين ، لكن لاح في الأفق تهديد كبير من ناحية الشرق . فبعد أن هضم التنين أكل لحوم البشر



جونغاريا قبض بمخلبه الرهيب على جزء من المخيمات الكازاخية التابعة للجزء الأكبر،
والتي كان يسيطر عليها من قبل الحاكم الجونغاري . وامتد المخلب الثاني للثنين من
أجل إرتيش الأسود إلى أراضى الجزء الأوسط ...

حينئذ قام أبلاي بعد أن أجل الحساب مع الكوكاندين ، إلى وقت مناسب بجمع
مليشيا ضخمة . تحركت تلك الميليشيات التي كان على رأسها الأبطال الأكثر شهرة في
ذلك الوقت ، والذين كان الكثير منهم من عامة الشعب من البحر الأزرق - بحيرة بالخاش -
إلى الشرق . وهناك بعد أن قامت الجيوش المانشو الصينية التابعة للجنرالين «فو دي»
و«تشاو هوي» بالقضاء على جونغاريا ضمت قوات جديدة ، وتجهزت لفتوحات جديدة . لم
يمن أبلاي نفسه بالتغلب على الإمبراطورية الصينية ، لكن كان في وسعه أن يفشل
حملتهم هذا العام والعام المقبل . إزاء ذلك وفقا لتفكير السلطان أبلاي سيتوحد الكازاخ،
وأنه عاجلا أم آجلا سيكون الخان عليهم .

لم يعد هناك مخيمات كازاخية متفرقة ولم يعد هناك شيء غير الوحدة . وقد أظهر
مثال جونغاريا أن الحكام الصينيين لن يقدموا الكعكة للقبائل والأجزاء واحدة تلو
الأخرى أو يحرضون بعضهم ضد البعض الآخر . سوف يبتلع التنين كل شيء دفعة واحدة
وحتى العظام لن يلفظها من فمه . ولا عجب أن المثل القديم يقول «ستكون نهاية العالم
عندما تتحرك الصين السوداء من مكانها» . وستكون الحرب وحشية وطويلة . ويمكن
أن يحدث أي شيء ، وهنا غنى الشاعر بوخار فقال :

إذا جاء الشورشوت فلا تبق في مكانك

ارحل إلى سيحون داريا

هناك سوف تجد دائما مياهاً للشرب ...

ومن ذا الذي يعرف إلى ماذا يرمز الجمل الأبيض الذي قبل هذه الحملة ، كما لو كان
قد رفع عن نفسه المسؤولية عندما وضع رأسه في اتجاه غير محدد ...



سأل أبلابي الشاعر بوخار الذي كان يقف بجانبه :

- هل رأيت يا شاعري كيف حول «أك بورا» رأسه هذا الصباح بطريقة غير واضحة. نظر المغني العجوز، كما لو أن التنين الشورشوتي الأخضر الداكن، قد خرج من الوادي الضيق للمرة الرابعة. وقد أنهار خط الجيش الكازاخي لعدم قدرته على تحمل فحيح التنين. في هذه المعركة كان هناك عشرون جنديا مقابل فارس كازاخي واحد. لقد كانوا ضعاف البنية بسبب سوء التغذية لمدة طويلة، وسيقوا بالقوة إلى هذه الجيوش الضخمة من قبل أسيادهم من المانشو وشركائهم من الخانات العظام، وقد ذهل الفلاحون التعساء، وخافوا إلى درجة غير إنسانية. كانوا يعرفون شيئا واحدا فقط أن من ينسحب من أرض المعركة ينتظره الموت. وكانوا يسبغون إلى الأمام بإصرار وذل، ملاقين هذا الموت تحت الهروات الكازاخية ...

أجاب الشاعر بوخار :

- إذا كان الراعي نفسه، لا يثق في سلامة القطيع، فإن الذئب تصبح شبعى.. تخلص من الشكوك يا سلطان؛ أو الويل لك ولنا جميعا ..!

- كيف يمكنني التخلص من الشكوك؟!!

- هذا مرض خطير لا يشفيه إلا شيء واحد ...

- تكلم أيها الشاعر... لماذا صمت؟!!

- الموت وحده يخلص من الشكوك !

- فماذا أفعل أيها الشاعر؟

- أن تبحث عن موتك !

نظر أبلابي إلى الشاعر باهتمام، وحقق في كلا الاتجاهين. سمع الكثير من الناس حديثهما. اعتدل السلطان أبلابي في سرجه، ونظر حيث يتجمع العدو، وركض أخيراً الجنود الكازاخ.



إذن يجب أن أبحث عن موتى .. حسنا لقد عثرت على العلاج الصحيح لمرضى أيها الشاعر ..

رفع أبلاي قوائم جواده ، وأطلق العنان لجواده المطيع .

ترجل الشاعر بوخار عن فرسه ، ووقف على ركبتيه مع حزام متدل حول عنقه ، وبدأ يدعو بصوت عال . كان أي مفتى سيجن من الغضب عندما سيسمع هذا الدعاء ، لأن نصف الكلمات فيه كانت تعاويذ أرواح السماء والأرض التي كان الباكسيون الوثنيون يتلوننها في هذه البقاع عبر القرون .

أبلاي ... أبلاي !

مع هذه الصيحة عاد الفرسان الهاريون ، وشاركوا في المعركة مرة أخرى . كان أبلاي المترجل عن فرسه بينهم في الصف الأول . لقد كان هذا الرجل شجاعا . فقط عندما بدأ الهجوم الأول من قبل الصينيين يضعف عاد إلى التل ، حيث كان الشاعر بوخار يدعو . كان أبلاي مغطى بدمائه ودماء غيره .

صاح أبلاي عندما كان يقترب :

- لم يعد لدى أدنى شك يا شاعري الحكيم - أنهم ليسوا في حاجة إلى الحاكم !

وعندما اختل توازن الخط الدفاعي الكازاخي عقب بعض الوقت ركب السلطان جواده . لكن في هذه المرة أمسك الشاعر بوخار المثابر زمام فرسه كأنه فهد وقال :

- لا تغرأ الموت يا سلطان ... إن الكأس يكسر مرة واحدة فقط ..

صاح أبلاي :

- ولكن لم يعد لدى أية شكوك يا شاعري !

- وهل تعتقد يا سلطان أن الله في كل مرة سوف يلبي كل ما أطلبه منه في دعائي؟!

- غضب الرجل العجوز، وضحك من كان حاضراً .



كان لدى الكازاخ كما لدى جميع الشعوب الرّحل ، مغنون عرافون يتمتعون بشهرة واسعة. بألسنتهم كان قادة العشائر الاقطاعيين يدافعون عن حرياتهم أمام سلطة السلاطين والغان نفسه . لكن أكثرهم شهرة بين الناس أولئك الذين وسعوا إطارات قصصهم خارج القبيلة وبدءوا يتحدثون نيابة عن الشعب كله . وكان أكثر الحكام إستبداً يأخذ برأيهم في الحسبان . هكذا كان الصادق المخلص لأبلاي الشاعر بوخار الذي كان في كثير من الأحيان يقول للسلطان الرهيب ، ما لا يجرؤ على قوله أقرب المقربين منه . كان يستمع إليه أبلاي حينئذ بوجه حجري ، ولم يكن هناك شيء ينبىء عن انزعاجه . لقد شكك هذا الرجل العجوز للتو ، علنا في صلابة أبلاي ، وأثبت أيضاً على الملأ أن الغان المستقبلي للكازاخ لا يعرف الشك . فقد كان إيبرام (الرعاع) كما كان جميع أجداد أبلاي وهو نفسه وجميع ذريته يطلقون على الشعب بازدراء يسعون فقط خلف الرجل الذي لا يعرف الشك ...

استمرت المعركة ، وخرج المزيد والمزيد من قوات المشاة الصينية من فم الوادي الضيق الأسود . وبعد غطوا الأرض بالحث ، تحركوا خطوة خطوة إلى الأمام ، وبدا هذا الجيش كسحابة من الجراد لا نهاية لها ، تدفقت على السهوب الكازاخية الواسعة . أصاب سهم طائر من مكان بعيد ذراع الشاعر بوخار ، وأمر أبلاي بإرجاعه إلى الخلف . وبدلاً منه شغل الشاعر تاتيكارا المكان المناسب للمغني الرئيس للجيش .

نظر أبلاي إلى الشمس التي كانت تميل ناحية الغرب . وكان واضحاً أنه لن يضطر اليوم إلى إطلاق الخيالة المختبئة في الكمين . فليدع الشورشوتيون يتكاثرون في الوادي الضيق خلال الليل كي يضربونهم بالهروات ذات الرأس الحديدية وشفرات السيوف التي صنعت في أكوار الحدادة السهبية ...

رفع السلطان فجأة وبسرعة كلتا يديه إلى رأسه العارية . فلقد طارت من فوق رأسه بلطف ، قبعة الثعلب ووقعت على الأرض من جراء سهم طويل وثقيل اخترقها . قفز أحد الحراس من فوق حصانه ، والتقطه ، وأعطاه للسلطان . كانت هناك قطعة من الجلد



الفتاح مربوطة في نهاية نصل السهم . فتح أبلاي الرسالة ... «كن حذرا يا سلطان ... اليوم في المساء سيعمل أحد المقربين منك على أن يحرمك من الحياة!»

طار السهم من اليسار من جهة شجيرات جيدا . فكر أبلاي «يا لها من تسديدة رائعة!». من الواضح أنه فاعل خير مخلص . فلو لم يكن كذلك ، لما كلف نفسه عناء أن يخفض السهم في لب قوسه نصف ظفر إلى الأسفل . ابحت عنه في وقت لاحق في هذه الشجيرات .

سأل الباي بيكبولات :

- ما هو المكتوب على هذا الجلد؟!

نظر أبلاي في وجهه الذي شحب فجأة وضم كتفاه بلامبالاه وقال :

- لاشيء أنه يكتب عن قسوة الحرب .

هز الباي بيكبولات رأسه لكن من الواضح أنه لم يصدق حديث أبلاي .

كان رؤساء العشائر يخشون من زيادة سلطة أبلاي أكثر ، كلما مضى أكثر للأمام . لقد رموه بالسهام من الكمين أكثر من مرة . كان البايات وأقرباءه الكثيرون من التوري يخشون وصول سلطان قوى الشخصيه إلى حكم الأجزاء الثلاثة . كان يروق لهم دائما الحكام ضعاف الشخصية الخاضعين . ولم يكن عندهم شك في أنه ما ! ن يصل للحكم سوف يقلص من سلطاتهم على الفور . وفي صراعه معهم ، كان أبلاي يستخدم على نطاق واسع المغنيين العرافين أمثال الشاعر بوخار ، الذين يعبرون عن رأى عامة الناس . فمن الممكن الاعتماد تحديدا على الإمبرام - الحشد الشعبى - في الصراع مع بايات العشائر الأقوياء .

وها هو بيكبولات بيك أحد أعداء أبلاي الرئيسين لم يسأل مصادفة عما كتب في الرسالة التي أرسلها السهم . فهذا الباي ووالده القوى كازبيك - صوت الأوزة - الذي تخطى التسعين عاما لم يكتما موقفهما السلبي حيال رفع السلطان أبلاي فوقهما . لكن حين جاء خبر الشورشوتيين أدرك كلاهما - الأب والابن - أن أبلاي وحده الآن القادر على قيادة



ميليشيات القبائل الكازاخية . فمهما كان ، فقد كانت قطعان الباي بيكيولات ترعى تقريبا عبر كل الحدود مع جونغاريا السابقة . أما شراهة الجنود الشورشوتيين فقد كانت معروفة منذ زمن طويل في السهوب ...

- إذا عادى ستة أفراد بعضهم البعض ، فأنهم حتما سيكونون ضحية السابع !

هكذا قال الباي بيكيولات لأبلاي ، وهو ينضم بكتيبته إلى الميليشيات . فلماذا إذن قد شحب لونه لدى رؤيته السهم مع الرسالة ؟ .. نظرأبلاي مجددا إلى الشمس التي تجري بسرعة إلى الأفق . وفي عمق الوادي الضيق ، بدأت الطبول الصينية الكثيرة تدق معلنة نهاية المعركة .

قال أبلاي بمرح :

- حسنا سنمثل لإشارتهم هذه المرة ! - ثم ضرب فرسه بالسوط ، واندفع إلى منازل اليورت القائمة في السهوب .

دوت الطبول الكازاخية . في نفس اللحظة ألقى الجنود السلاح ، وأداروا ظهورهم لبعضهم البعض ، وذهبوا في اتجاهات مختلفة . وفي ضوء القمر ، خرجت من الميدان عربات عالية تحمل جثثا منتقاة . كان عليهم أن يعملوا طول الليل ...

كان مقر أبلاي يقع على أحد روافد نهر إيلى الصغيرة ، وهو الخور الجبلى كوركريوك . في المنتصف إرتفعت منازل اليورت البيضاء الخاصة بأبلاي وأحاطت بالمقر من جميع الاتجاهات خيام العديد من البايات والأبطال . وكان يوجد لدى كل منزل يورت سارية بعلامة القائد العسكري للعشيرة أو القبيلة .

كان من عادة السلطان أبلاي بعد أن ينفذ مجلس الحرب القصير أن يخلد فوراً إلى النوم . ورغم أنه ينام بحذر ، إلا أنه كان ينام على الفور ما أن تمس رأسه الوسادة . كان ينام كما كان متبعاً في الحملة دون أن يخلع ملابسه .. فقد كان يرخى حزامه قليلا ، ويضع القوس والسهم بجانبه وكذلك سيف خارج غمده . لكن ما إن هدأ ضجيج المعسكر حتى فتح أبلاي عينيه ووقف بخفة على قدميه . فليس من قبيل العيب أن حذره رامي السهام المجهول من الخطر المحدق به .



غير أن أبلاي لم يسع لتعزير الحراسة. جلس أبلاي للتفكير بضع دقائق، ثم ابتسم ابتسامة عريضة، وردد مجدداً على السجادة السميكة الخشنة التي لم تسلم من الرطوبة أو من عناكب السفوح السامة. أخذ يفكر «لوقدر لى اليوم أن أموت فإن ملك الموت سوف يجدني حتى لو كنت في صندوق ذهبي!» ثم نام مجدداً. كان السلطان أبلاي يؤمن بالقدر حتى آخر يوم في حياته.

رأى في الحلم جملاً عربياً أساود بحجم الجبل. أراد أن يضع الأنشطة حول عنقه لكن الجمل تحول فجأة إلى تنين شورشوتي وفتح فاه الدموي ...

أبيكي .. يا سلطان أبلاي!

تمكن أبلاي من وضع الأنشطة حول رقبة التنين ثم فتح عيناه. وأمسكت يده بسيف الأجداد .

- أنه أنا يا سلطاني ... أنا نورجان

ألقى أبلاي المقبض الفضي. أزعجه شقيق زوجته الوسطى كاشمات من عشيرة كاراؤل .

- ماذا حدث؟

- لقد قطعتم الهواء بالسيف ..

- من معك في الخيمة؟

- أنا ومالك ..

ذهب النوم. رقد أبلاي، وأخذ يفكر في التحذير الذي تلقاه. لقد ذكر بوضوح وتحديداً هذه الليلة، وأن الإغتيال سيقوم به شخص من الأقارب. كان يقف بجانب الباب وحول الخيمة أقرب الناس من عشائر أتيجاي وكاراؤل الأوفياء. وكذلك ... مالك! ..

لا يمكن أن يكون مالك على الرغم من أنه من العشيرة الباشكيرية. لقد أرسله كاراسكال بنفسه. أليس كذلك؟ ألم يرسل كاراسكال إليه هذا الرامي البار والفراس الشجاع؟ كان يتوجب علي أن أسأل عن ذلك البطل العجوز كabanاي!



كان كاراسكال أحد زعماء القبائل البشكيرية التي ، ثارت على الملكة . وبعد أن أبعدته القوات النظامية ، ذهب إلى السهوب الكازاخية وعاش في كنف أقاربه . وقد عاد كثير من الباشكيريين الذين غادروا معه ، من عامة الشعب في وقت لاحق إلى وطنهم وانضموا إلى وحدات «سالافات يولايف» ليشاركوا مشاركة فعالة في حركة بوجاتشيف . وقد أطلق كاراسكال أو كاراخان كما كان يسميه المقربون منه للتخلص من الإضطهاد من قبل الجنرالات القياصرة ولكنى يرفع في الوقت نفسه من نفوذه في هذه الأثناء على نفسه اسم «شونودورجي» الأخ الأصغر للحاكم الجونغاري سيبان رابتان . ومع ذلك فقد كان يزعم أنه فر من جونغاريا بسبب إضطهاده من قبل ابن أخيه المغتصب للسلطة «جالدين تسيارين» ...

لم يسلمه الكازاخ إلى الحكومة القيصيرية ، التي عرفته باسم كاراسكال أو إلى الحاكم الجونغاري ، الذي كان يعرف أنه دجال . وقد فر جميع أعداء الجونغاريين إلى السهوب الكازاخية ، والتحقوا أيضا بكتيبة المدعى «الشهيد شنودورجي» مضعفين بالتالي العدو الرئيس للكازاخ . وقد قام على حماية هذا المحتال ، البطل الشهير كابنباي . وقد إشتهر فرسان كاراسكال بشجاعتهم ، وشارك مرارا في معارك الشعب الكازاخي ضد الحاكم الجونغاري ثم ضد القوات النظامية الصينية . وبعد الاستيلاء على جونغاريا تضاعف جيش كاراسكال بسبب الفرسان الجونغاريين الذين نجوا من التدمير .

منذ فترة قريبة أرسل إليه كاراسكال ، الذي يحظى بثقة خاصة من جانب أبلاي واحدا من الفرسان المقربين إليه ، وهو مالك . وقد نال مالك على ثقة السلطان ؛ لمهارته العسكرية وبراعته في الرماية . وفي الأونة الأخيرة ، كان مالك يقف على مدار الساعة عند يورت أبلاي مع أكثر الناس وفاءً .

وجدت سحابة ممزقة زرقاء على سطح القمر فأخرج مالك سكيناً بارداً . توترت اليد تحسبا لضربة رهيبية مباشرة في المعدة ، والتفت إليه نورجان ابن عم السلطان بالجانب المناسب عندما سمع فجأة صرخة مكتومة من الخيمة البيضاء التي يحرسونها . أزاح نورجان الستائر ، وبدأ يوقظ أبلاي الذي كان يحلم بالتنين الدموي . إستمع مالك بقلق إلى ما يقولون في منزل اليورت ، وهو ممسكاً بالمقبض العظمي للسكين ...



إن مالكاً هذا لم يرسله، وإنما أرسله أشخاص آخرون... كان حكام خانية كوكاند يتابعون منذ فترة طويلة نجاحات أبلای. وقرروا بعد أن تخلصوا من التهديد الجونغاري، ووقوف كتائب أبلای كحاجز بينهم وبين الفحيح القاتل للثنين الشورشوتی حتى الآن الاستفادة من الوضع والإستيلاء على أكبر مساحة ممكنة من الأراضي في المجرى الأوسط لنهر سيحون داريا، وإذا تم لهم ذلك فيمكنهم الاستيلاء أيضاً على روافده الدنيا. كان السلطان أبلای وحده يمثل مع جيشه حينئذ في السهوب الكازاخية قوة سياسية وعسكرية. وبموته كما كانوا يأملون سوف تنهار الخانية الموحدة المزمع إقامتها مرة أخرى إلى آلاف القطع التي يمكن ابتلاعها واحدة تلو الأخرى دون مواجهة أية مقاومة جدية. وجاء القاتل الأجير مالك الماكر والمخادع كالثعبان إلى أبلای بتكليف منهم. وقد وعد بخير كثير في حالة اتمام المهمة بنجاح...

الوقت لا ينتظر. في الصباح أصدروا له أمراً مباشراً من كوكاند بالإسراع. وكان هناك حصان بسرّج مغطاة حوافره بالخيش وعلى خطمه جوال من الخيش ينتظر مسافة نصف ميل من معسكر السلطان. نعم لقد إستقيظ أبلای في الوقت غير المناسب!

وربما لم يكن هذا من قبيل الصدفة أي حذر نورجان الذي تصادق معه مالك ظاهريا منذ فترة طويلة، واستيقاظ السلطان. لقد بدا السلطان اليوم حذراً. أم أن هذا مجرد خيال؟

جاء مع مالك فقط جندي سانس للخيال أصم وأبكم إلى مقر السلطان أبلای، ربما من عند كاراسكال. كان جندياً بشكيرياً هارباً، وقد بقى ولداه في خانية كوكاند. لم يكن الأصم يعرف بأي تكليف أرسل سيده مالك، لكنه رأى في هذا الصباح رسول كوكاند يسلمه رقعة عليها بعض السطور المكتوبة. هل من الممكن أن يكون الأصم قد اطلع على هذه الرسالة عند تنظيفه الخيمة بينما كان مالك يتحدث مع القادم؟ لا إن هذا مستحيل فالخادم أمي وأصم ..

فجأة ارتجف مالك. فقد خرج السلطان نفسه من الخيمة. وبدأ جسده القوي في ضوء القمر شبه المعتم أكثر طولاً وأكثر قوة. عرف القاتل بنظرة فاحصة أن السلطان لا يحمل سلاحاً. ربما يحمل سكيناً في حذائه لكن من غير المرجح أن يخرج في وضع الحركة.



مشى السلطان دون أن يلتفت وقال :

- سوف أنتزه في الهواء الطلق !

قال مالك :

- سوف أذهب معكم يا سلطان... ثم أوماً إلى نورجان قائلاً : - وأنت يا نوريكى ، ابق

هنا للحراسة ..

لم يرمالك كيف ابتسم السلطان ابتسامة عريضة . ألقى سيفه على الأرض ، وأسند قوسه على منزل اليورت لأنه وفقاً للقانون القديم كان من المستحيل أن يمشي رجل في الليل بالقرب من الخان حاملاً سلاحه . وكان أبلاي بالفعل يعد الخان بطريقة غير علنية ...

سارا في ضوء القمر الشفاف - أبلاي في المقدمة ومالك متأخر عنه قليلاً . وهاهو يسرع الخطى ومن جديد ارتعشت اليد الحاملة للسكين البارد . لكن أبلاي التفت إليه بشكل حاد وقال :

- ما هذا يا مالك ..

ظهرت يد السلطان في الظلمة .

ارتجف صوت الحارس الشخصى وقال :

- هذا ... الجمل الأبيض ... أكبورا ..

- ولماذا أتى إلى هنا ..؟

- لا أعرف يا سلطانى . منذ المساء وهو يرقد بعيداً خلف الخيام ! ..

- هيا، هيا، يا قدرى ..

اقترب السلطان أبلاي من الجمل الأبيض . بدأ الجمل ينهض ببطء على قدميه ، ورأى أبلاي في الظلام كيف شب الصوف الأبيض الطويل إلى الأعلى . كان الأمر فظيماً حتى أن أبلاي تراجع خطوة إلى الوراء . وفجأة ارتفعت إلى السماء الحوافر العملاقة ، وسقطت في مكان ما وراء أبلاي . وفي نفس اللحظة شقت سكون الليل صرخة رهيبية من الألم



واليأس . صاح الحراس ، وتحركوا على غير هدى ، وأشعلوا المشاعل في جميع أرجاء المعسكر الضخم .

- أوي باي ، هل أنت على قيد الحياة يا سلطان!؟

رأى «نورجان» أول من حضر بعيون مفتوحة على مصراعيها ، كيف أن الجمل الأبيض يمزق بأسنانه ، ويدوس في الأرض جسداً ممزقا لأحد الأشخاص . هرع لإنقاذ هذا البائس ، لكن أبلاي أوقفه بعلامة من يده قائلاً :

- لا تفعل يا نورجان ، فالرجل قد فارق الحياة !

لمع شيء في ضوء المشعل . انحنى «نورجان» ، وأخذ من يد مالك المداس خنجر خوارزمي مستقيم . قام الجمل وهو مازال يهدر ، ويصدر شخيراً ثم مشى في الظلام . وتبدت أسنان الهالك مالك في ابتسامته رهيبته.

قال نورجان وهو ينظر إلى الناس الذين حضروا :

- أنه ... أنه أراد أن يطعنك يا سلطان . - إن أك بورا قد أنقذ حياتكم . أنه رسول من عند الله ! ..

التفت أبلاي بصمت ، وذهب إلى خيمته . هكذا تروي الأسطورة عن هذه الحالة . لكن لم يرد فيها فقط أن السلطان الذي نجا بهذه الطريقة الإعجازية ابتسم في ظلام الليل بطريقة شريرة . لكن أحداً لم يرهذه الابتسامته . ذهب السلطان ، وفكر في الرسالة الملقاة إليه مع السهم ، حيث كتب في زاوية بحروف عربية صغيرة اسم الشخص الذي يجب عليه أن يسلبه حياته في مساء اليوم .

بعد ذلك جاء العبد الأصم الأبكم إلى جثة ابن قبيلته ، وحمل رفاته . وقد دفنه هنا وفقاً لقوانين شعبه القديمة . ولم يعلم أحد في معسكر أبلاي أن العبد الأصم البائس يعرف القراءة والكتابة ، ويستطيع أن يرمي السهام بطريقة جيدة من القوس الباشكيري المقوس .



في الصباح أحضروا إلى الخيمة البيضاء العبد الأصم الأبكم للهالك مالك ، وتركوه وحده مع أبلاي . نظر السلطان في وجه العبد الغامض ، ثم أخذ قطعة من الطباشير وكتب على لوحة من الخشب المغطى بالشمع وقال :

«هل أنت من أطلقت السهم على قبعتي يا رجل؟»

أخذ الأصم الأبكم الطباشير من يد السلطان بهدوء وكتب :

«نعم» .

«أشكرك على الرمية الرائعة»

«أشكر نجمك يا سلطان!»

«من أين جئت أنت وسيدك؟»

«من كوكاند» .

«ومن أرسلكما؟»

«البايات» يرددين و «ناربوتا...»

«لماذا؟»

«في كوكاند يخافونك يا سلطان!»

هز أبلاي رأسه ، ونزع من الرف العلوي لمنزل اليورت قفطان الاحتفالات المطرز بالذهب وقبعة الفرو وألبسهما العبد . وعندما أشرقت الشمس انطلق خمسة من الفرسان إلى الغرب . وكان عليهم أن يشتروا من خلال تجار موثوق بهم في كوكاند أطفال الأصم الأبكم ، وتخليصهم من العبودية .

وانتشرت بين الشعب بشكل متزايد أساطير عن أن القدر في هيئة جمل أبيض يحمي السلطان ، وهذه علامة صادقة على أنه وحده يجب أن يكون الخان للأجزاء الثلاثة . وقد بقيت حتى يومنا هذا تلك الأساطير عن «أك بورا» الخارق للعادة .



دوى من حلق الوادى الضيق أزيرمكتوم متواصل ، ولم تكن الشمس قد ظهرت بعد فوق الجبال . وبدا أن النهر القوى يهيج ، ويخرج عن ضفافه . أبلغ أفراد الاستطلاع في وقت واحد أن الوحدات الأمامية للجنرال الصيني الآخر تشاوهوي تقترب .

قال قائد الاستطلاع البطل تورسونباى :

- في الغالب هذا سلاح الفرسان يا سلطاني ... - وجيادهم ليست صغيرة كما كانت من قبل ولكنها جيادنا السهبية . ومن الواضح أنهم قد نهبوا في كاشغر ومخيمات الجزء الأكبر ...

قال أبلاي متفكرا :

- ورغم ذلك فالمشاة عند الشورشوتيين أكثر ..! - هل تعتقد أنهم سوف يهاجمونا اليوم؟

لا يا سلطاني . أولئك الذين جاءوا هذه الليلة أصابهم التعب . لكن جنود الأمس قد تعبوا أكثر . على أية حال فقد جمعت عرباتهم في الليل حوالى سبعة آلاف جثة ... والآن يشعلون نيران ضخمة ، ويظهون بمقدار الضعف من الأرز بدلا من الدخن . وهذا يعنى إقامة «احتفال الوصول» . وحمل السلاح فقط من ذهب إلى السياج .

أمر أبلاي بإقتضاب :

- ليجتمع جميع القادة العسكريون !

انطلق الرسل على خيول مسرجة ، وذهبوا إلى جميع الأماكن التي تناثرت بها في السهوب خيام الأبطال المهمين . جلس السلطان أبلاي وحده على الوسائد في منزل البيورت الرئيس الخاص به . كان عليه أن يقرر في هذا الصباح ما ينبغي عمله لاحقا . وعندما يقرر يضع الجمل الأبيض رأسه في الاتجاه الصحيح ...

يجب إتخاذ القرار بصورة عاجلة . فلعدة أيام تعمل مفرمة اللحم اللعينة في الوادي الضيق . وإذا كانت خسائر الشورشوتيين أكثر بمقدار عشرة أضعاف ، فهذا أمر غير ملحوظ بالنسبة إليهم . وسوف يفرح موردو غذائهم أنهم سيأكلون بنسبة أقل .



لكن بلاد الكازاخ التي لم تستعد نصف سكانها بعد «المحنة الكبرى» ، ترغب في المحافظة على كل رجل فيها . وما هذا إلا الجيش الصيني الثاني فقط قد جاء من الجانب الآخر، ولن يجدي معه أي كمين . ولنفترض أنه حتى لو تغلب على جيشي «دي فو» و«تشاو هوي» فسيظهرنا الجيش الثالث ، ومن بعده الرابع والخامس ... أنه ليس في مقدورنا الآن مقاومة كامل التنين ذي الألف رأس . فلتصبر القبائل والعشائر الكازاخية الواقعة في فمه . وينبغي عليهم أن يقفزوا إلى الأرض ، ويتواروا في شقوق الجبال والخوانق الجبلية . أما نحن فبعد أن نرى التنين أن المزاح معنا سيء نرجع بجيشنا كاملا أمنا إلى السهوب . وإذا قرر الشورشوتيون أن يطاردوننا فلن يحالفهم النجاح في السهوب . فخيالتنا هنا تتحرك بطاقتها الكاملة بخلاف الحركة في مثل هذه الجبال . لكن على ما يبدو أنهم لن يقدموا على هذا ، وسوف نتفرق كما في السابق .

أما الجيش فيجب الحفاظ عليه بأي ثمن . وليس من قبيل المصادفة أن حكام كوكاند أرسلوا إليه وتحديداً الآن السفاح مالك . وتقديرهم للموقف بسيط جدا ففي حين يكسر الشورشوتيون الجيش الكازاخى يقتله القاتل الأجير أى يقتل الخان القادم . وحينئذ من سيكون له القدرة على التصدي لجنود كوكاند ؟ وسوف يقتسمون بلاد الكازاخ كما يقتسمون الثور المذبوح ، وبطبيعة الحال ، فقد أعد حكام كوكاند لأنفسهم الجزء الأكبر . ولا عجب أن قواتهم قد ظهرت بالفعل في مخيمات آرال . أنهم لا يفكرون في التنين الشورشوتي أملين في رحمة الله . وفي هذا الوقت تقف الميليشيات الكازاخية وحدها حاجزا بين هذا التنين والخانية الكوكاندية . وينسى خدم نادرشاه الخوارزميين ذلك التنين الذي لا يشبع . ولا يمر يوم دون أن يرهبوا الحدود الكازاخية . أنهم لن يكونوا عوناً في الحرب ضد الشورشوتيين . ولو حدثت حتى معجزة ، وانضموا إلى جيشه فلن يوقفوا التنين النافث للنار الذي عاجلا أم آجلا سوف يزحف إلى كل ما يقع عليه ناظره من السهوب والوديان . ثم ...

قال أبلابي بهدوء عندما دخل القادة العسكريون واحدا وراء الآخر ، وجلسوا على الوسائد المخملية في شكل هلال :

في مساء هذا اليوم سوف نجتمع منازل اليورت الخاصة بنا !



ساد الصمت . وجلسوا في ذهول جراء هذا القرار غير المتوقع .

صاح البطل العجوز كإبلاي :

- ولكن هذا هروب !

أجاب إبلاي بحزم :

- لأنه تراجع !

- إن رجالنا الذين يقاتلون الشورشوتيين لعدة أيام لا يريدون أن يتراجعوا !

قال إبلاي بهدوء :

- إذن بعد عشرين يوماً ، لن يبق على قيد الحياة أحد سوانا أنا وأنت اليوم دفن جامعو

الجثث ٧٠٠ شخص . وبالأمس قطعت أيدي وأرجل ٢٢٤ فارساً ثم قطعت رؤوسهم . احسبوا

عدد الأيام الكافية لنهلك جميعاً !

ألقى البطل جانبيك سوطه أمامه كعلامة على بدء الحديث :

- إبلاي يتحدث بشكل معقول . لكن في أي اتجاه سوف نتحرك ؟

ضحك المهرج الشهير كاناي وقال :

- إلى تورجاي - ومن هناك ليس الطريق بعيداً إلى أورينبورج !

وحتى الآن عندما ينبغي قتال الشورشورتيين بشكل متلاحم ، يفتقد الكثيرون

لللبصيرة . قال المهرج كاناي بصوت عال ما يدور في أذهان الكثير من أعداء إبلاي . أنهم

لسنوات عديدة ليلاً ونهاراً يتهمونه بالتقارب مع روسيا . ولكي يعرفوا ما ينتظرهم

مستقبلاً فإن مصير الجونغاريين مائل أمام أعينهم . وللأسف فإن الملكة الجديدة لا

يمكنها التعامل مع الاضطرابات في إمبراطوريتها ، وإلا لكان قد تكلم الآن مع

الشورشوتيين بطريقة مختلفة ...



قال أبلاي بحزم :

- لن نتراجع أبعد من البحر الأزرق !.. - وسوف نبقى أحد الأبطال مع كتيبته كدرع لنا ثم نتحرك .

نظر الحاضرون إلى بعضهم البعض ، ثم نظروا إلى الأسفل . فلم تكن هناك من قبل مثل هذه الحالة التي تؤخذ فيها مثل هذه القرارات المهمة دون موافقة أغلبية المجلس . لقد كان عادة ما يلقي كل باى ، وبطل ، كعلامة اتفاقه مع الزعيم ، سوطا يدفعه أمامه من مقبضه . لكن أبلاي في هذه المرة لم يسألهم عن شيء . كان التصرف على هذا النحو حق حصري لخان الأجزاء الثلاثة المنتخب .

قال البطل بايان في الصمت الزاحف :

- سوف أغطيكم أيها السلطان ويا أيها الأبطال !

قام أبلاي عن وسادته وقال :

- حسنا بقی فقط أن ننتظر تنبؤات أك بورا !

ذهب جميع الحاضرين خلف السلطان على حافة السهوب ، حيث كان يرقد الجمل الأبيض . وقف الجمل لدى رؤيته حشد الناس المقترب منه . وقف أبلاي على مسافة عشر خطوات منه . التفت أك بورا ببطاء ، ثم رقد جاعلا ذيله تجاه السلطان أبلاي ، ورأسه نحو البحر الأزرق ...

استمرت الاشباكات طوال اليوم في الوادى الضيق ووقف أبلاي مع أبطاله على تلة يراقبها بهدوء . أما في المساء كما في الأيام السابقة أشعلوا نيراناً ضخمة في السهوب كلها . ولو مر أحد من هنا في منتصف الليل ، لراى أنه ليس هناك منزل يورت واحد في السفوح ليس هناك خيمة واحدة ، ولم يبق غير الخدم من المراهقين يقذفون الأعشاب الجافة في النيران ...

اجتاز الجيش الكازاخي الرئيس على الخيول خمسة عشر ميلاً صوب بحيرة بالخاش . كان فرسان الميليشيات الراكبون في تشكيل متعاقب ينظرون إلى بعضهم البعض



بدهشة ويقولون :

- يبدو أننا نهرب !

- نعم إذا حكمنا من خلال السرعة... ويقولون إن أهلنا خلفنا ، ثاروا على الشورشوتيين.
من الجزء الكبير ...

- كيف ثاروا دون السلاطين؟

- كأننا لم نهزم الجونغاريين دون السلاطين !

- هل يعلم أبلاي أن اليوجور والكازاخ قد ثاروا في سنجان ؟

- وكيف عرفت ؟

- يقول الناس ذلك ...

- وماذا سأقول لأبناء عشيرتي .. لقد كان من الأفضل أن نموت في المعركة؟!!

- سيكون لديك متسع من الوقت أيها المحارب ...

- نعم لا حاجة لعقل كبير لاتخاذ مثل هذا القرار ، وليس من الضروري أن تكون
سلطاناً لإعطاء أمر الفرار !

حدق الشاعر «تاتيكارا» الذي كان راكبا بجوارهما في الوجه الكئيب للجندي
صاحب العبارة الأخيرة وقال :

- حسنا لاتحزن - الذئب الذكي دائما مايفر من أمام عشرة كلاب . ويلتفت إليهم
بأنيا به ، عندما تتباعد الكلاب في الصف ! ..

في توقف الليل حين بقى على الفجر وقت قليل ، جاء إلى أبلاي كل من المغنيين
تاتيكارا ، و كوتيش .

قال الشاعر تاتيكارا :



- اسمح لى ياسلطان أن أسري عن الجنود بالأغاني ..

- غنيا أيها الشاعران !

ما إن تمكن الجنود من ربط أرجل الخيل ، حتى دوت في مقدمة الجيش ، ثم في مؤخرته أفضل أصوات دومبرتين (الدومبرا آلة موسيقية) في عصرهما ، تلاحقان بعضهما البعض. وحلقت فوق السهوب أصوات حادة وقوية . ترك الجنود نيرانهم التي أوقدوها وهرعوا إلى تلك الأصوات .

لمعت النيران الحمراء القوية في عيني الشاعر تاتيكارا :

احذروا أيها الفرسان !

أتذكرون ذلك الشورشوتي السمين

كيف اهتزت بطنه عندما فر من جاباي !

وعلى الرغم من أن جاباي انطلق مثل ملاك الموت عزرائيل

إختفي بعد لحظة خلف الأفق الجندى الشورشوتي !

ولا أحد من الذين عاشوا في أوقات مختلفة

رأى بعد مثل هذه السرعة .

كأفضل جواد في القطيع فر الشورشوتي المهم

وصفرت الريح من الكعوب البراقة ...

وحتى إذا الحق بنا الشورشوتيون ، فلا تحاولوا الهرب

لأنه لا يضاهاى الشورشوتيين أحد في الجرى !؟

دوى في السهوب ضحك ألف صوت ...

نام الفرسان واضعين رؤوسهم على السرج ، كما نام في هذه السهوب من قبل أجدادهم



وأسلافهم منذ ألفين، وثلاثة آلاف، وأربعة آلاف سنة. وتماما كما هو الحال الآن، زحف إلى هنا من وديان الأنهار البعيدة التنين الشورشوتى الشره ذى الألف رأس، أملا في إبتلاعهم ومص الدم، وبصق العظام؛ كى لا يبقى ذكر للشعب العريق الذي يعيش في هذه السهوب. لكن في كل مرة تنكسر أسنانه ويزحف عائدا أدراجه عبر الصحراء الحجرية. عن هذا غنى اليوم الشاعران الكازاخيان، وفي نومهم رأى الفرسان النصر القادم على هذا التنين المتعطش للدماء. صرخوا في نومهم، وأمسكوا بسيوفهم.

عند الفجر امتلأت السماء بالغيوم، وتساقط المطر البارد. ورحل الناس بصمت عبر السهوب المظلمة الزلقة وهم مبتلين تماما. وعندما وصلوا إلى نهر صغير في وقت مناسب، رأوا أن المياه السوداء فيها تغلي، وتفور، أما الجانب الآخر فيرى في مكان ما في الأفق.

شاهد الفرسان بحزن كيف تلقي الأمواج الباردة الرغوية صخوراً بحجم الجمل على الشاطئ الرملي، والأشجار الكاملة التي كسحها التيار الطيني في مكان ما في الجبال، جاءت إلى هنا مع جذورها. وانتفتخت الجذور في الماء بطريقة مخيفة كما لو كانت تنانين بأقدام مكففة. وبينما هم ينظرون إلى هذا التيار الهائج، جاء إليهم الألف فارس التابعين للبطل بايان. لقد هاجموا كما تم الاتفاق معهم الصف الأمامي للشورشوتيين وأثاروا بينهم ذعرا كبيرا. ومع ذلك فإن سلاح الفرسان الصيني التابع لتشاوهوي انطلق خلفهم، وهكذا علم القادة العسكريون الصينيون بتراجع الميليشيات الكازاخية. وغني عن القول أنهم اجتازوا الممر الضيق المميت ويتجهون إلى هنا. وهنا سوف تهلك الميليشيات المطغوطة إلى النهر حتى أخر فرد فيها ...

ازداد هدير النهر، وفاض الماء. تراجعت الخيول والجمال عن النهر، وارتعشت آذانها بصورة رهيبية. حينذاك تقدم للأمام مجددا الشاعر تاتيكارا، ولمس الأوتار، وشق صوته العالي الحاد الضجيج والهدير:

لنبات الديس هدب ناعم وجذر طويل ...

النهر أمامنا وخلفنا التنين! ..

وأبطالنا لا يعرفون إلا التلويح بالسيوف؟

أين أنت يا «جانبيك شكشاك أولى» برمحك الثقيل؟



وأين «باكيي» فخرعشائر ساجير و بولات ؟

وأين ديربيسال وماندالاي من كيبشاك؟

ومالي لا أرى ساري وبايان من أوياكوف !

لقد خفتم من الماء ، ووضعتم رؤوسكم بين أكتافكم !

إن أطول شجرة في الغابة هي الصنوبر ...

فأين صنوبر جيشنا بوجيمباي ؟

أما البطل الرهيب جاباي من عشيرة يمينالي كيري

فلايستطيع إلا أن الذي يتحكم برمحه ! ..

هز الهدير المدوي من جديد السهوب الرطبة والباردة . أما الأبطال حتى أولئك الذين لا يستطيعون السباحة تقدموا على الفور إلى الأمام . وارتفع رذاذ كثيف فوق الأشجار الساحلية . وكان البطل «بايان» أول من ألقى بنفسه مع حصانه في النهر حتى دون نزع الدروع . فمنذ ذلك اليوم الذي قتل فيه شقيقه على يديه كان البطل يبحث عن الموت في كل ساعة .

قذف التيار فقط عدداً قليلاً من الفرسان مع خيولهم . وسرعان ما استعاد الجيش النظام، وجفف نفسه بجوار النيران . وفي نفس الوقت عندما ظهر الجواسيس الشورشوتيون على الكاشغريين المقهورين من فترة قريبة ، تحرك للأمام . وعلى ضفة النهر التي تسمى «كوركريوك جروخاتشوشى» بقى الألف فارس من جنود البطل بايان . أمر السلطان أبلاي بالوقوف هنا ، وعدم إخافة الشورشوتيين .

انتظر الفرسان من كتيبة البطل بايان الجيوش الصينية لمدة أسبوع كامل . لكن لم يأت إلى هنا أحد منها . فقد أبلغ الجواسيس الذين أرسلوا إلى ذلك الجانب أنه بقى فقط في الممر الضيق كتيبة للتغطية ، أما الجيش الرئيس للغزاة فقد عاد إلى أعماق الأرض الجديدة «سنجان» . وسرعان ما أصبح واضحاً أنه ما إن تحرك جيش «تشاوهوى»



إلى السهوب الكازاخية حتى اندلع التمرد من جديد في الأراضي التي غزاها الصينيون من قبل أولئك الذين يعيشون فيها منذ أمد بعيد من الإيغور والكازاخ. وانطلق إلى هناك الجنرالات الصينيون مع جيوشهم الذين طبقا للعداات تشاجروا مع بعضهم البعض. وهذا قد أنقذ السهوب الكازاخية من غزو وشيك، والذي كان يمكن أن يكون أسوأ بكثير من الغزو الجونغاري. لكن لاشيء أنقذ المتمردين. فقد ذهبت الميليشيات الكازاخية لأسباب غير واضحة إلى بلخاش ...

في نفس اليوم، عادت الكتيبة المكونة من ألف فارس التابعة للبطل «بايان» أدراجها عبر النهر الذي أصبحت مياهه ضحلة، وبحلول الليل أصبح بالقرب من ممر ألتين إيميل. وقد أبلغ الجواسيس الذين أرسلوا إلى الأمام أن فرقة التغطية، التي تركها الصينيون لاتقل عن عشرة آلاف من المشاة وألفين من الفرسان. وبعد أن أوى فرسان كتيبة البطل «بايان» إلى غابة وارفتة ناموا، واستراحوا. وما أن حل الليل حتى عاودوا المسير.

في الممر الضيق كان هناك كل عشرين خطوة نيراناً موقدة وحراساً. ولم يعبر الفرسان الكازاخ الممر الضيق. في الليل سبجوا مع خيولهم نهر إيلي، وساروا عبر مسارات محددة معروفة تقريبا فوق رؤوس الحراس الصينيين إلى الجانب الآخر من الجبال. كان الظلام لايزال مخيماً عندما دق فرسان البطل «بايان» البالغ عددهم ألف رجل إسفيناً حربياً (تشكيل عسكري لاختراق صفوف العدو - المترجم) في ذلك الجانب الذي لم يتوقع الغزاة أبداً أن يأتيهم الهجوم منه، أي من جانب الصين.

همس أحد الفرسان من خلف البطل بايان قائلاً :

- هل سيكون أبلاي راضياً عن قرارك أيها البطل ؟

صاح «بايان باتير» بطريقة مختصرة ورهيبته ممتطياً صهوة جواده «تولبار كوكي»، وواقفا على رأس الإسفين قائلاً :

- أرواح

- يا ... أرواح !.... يا ظل الأموات هنا من الأسلاف ..

- أكجول !



- أوينيباي !

- كارا جودخا !

- أبلاي ! ..

انطلق الفرسان الكازاخ من مكانهم إلى الأمام في ركض عسكري كالحمم التي تجتاح كل شيء في طريقها. انطلقوا كالحريرق في السهوب ، واحترق كل شيء اقتربوا منه لأنهم ألقوا السهام الحارقة على المعسكر النائم مائة تتبعها مائة. وقد فر الشورشوتيون في الغبار والدخان عراة ومحروقين . وقد أصابتهم ، وقطعتهم السيوف الصلبة ، وسيوف الأجداد الطويلة ، والهراوات البسيطة. وقد سمع عويل ولعنات ما قبل الموت هنا وهناك .لقى المئات من الجنود المدفوعين من قبل حكاهم الى بلاد بعيدة لغزو سهوب لم تكن أبدا ملكا لهم ، حتفهم في أرض أجنبية . ورأوا قبل وفاتهم الأنهار الهادئة ذات المياه الوافرة والمعابد الخفيفة ، وأشجار النخيل الخضراء على الضفة المنحدرة من المحيط . كان الوطن يتراءى لهم في مخيلتهم ...

في تلك الليلة ، تم قتل أكثر من ثلاثة آلاف من الغزاة . وحالما أفاق القادة الصينيون من الهجوم المفاجئ ، وجمعوا ونظموا قواتهم اختفي المهاجمون . وبدأ أن الجن الليلى هاجم المعسكر الصيني غير أن الجرحى والقتلى من الأبطال الكازاخ الجاثمين على الأرض مع ضحاياهم ، لم يدعوا مجالا للشك فيمن شن هذا الهجوم .

استعدت كتيبة البطل بايان للعودة . ولكن عندما أحصوا خسائرهم الخاصة إتضح أنه لا يوجد أكثر من ثلاثمائة فارس .

قال بايان باتير :

- أنه لأمر سيء أن نترك رفقاءنا في أيدي الشورشوتيين . - فكلكم تعلمون ماذا يفعلون مع الأسرى!

صمت الفرسان الذين لم يترجلوا عن جيادهم المتعبة طوال الليل . ويقول المثل «في المأدبة الواحدة لا يقدمون الهدايا مرتين» . القدر لا يحب التكرار ، وبالقدر يؤمن دائما أهل السهوب ...



قال أحد فرسان المليشيات :

- هيا ، يا بطل ، فلنوكل أمر من بقي في يد العدو إلى الله ، أما الموتى فهم على أيتة حال في كنفه ! - لقد تعبنا وفقط ، سنتكبد خسائر لا داعي لها . فالشورشوتيون ينتظروننا ...

أيده رجل أخر فقال :

- وهل لدينا حل آخر؟

- سيغفر لنا الشهداء !..

ثم فجأة تقدم رجل إلى الأمام ، رافعا يده اليمنى ثم قال :

- أنا مع البطل بايان !

وقد انضم إليه رجل ثان ، وهو نفس الرجل الذي شكك في عدم معقولية هجوم جديد على الصينيين :

- وهل أنت فقط الذي ولدتك أمك رجلا !..

- وأنا !..

- أنا معكم أيها البطل !

بعد دقيقة انضم الجميع إلى البطل بايان . لوح البطل بيده وقال :

- فلنتحرك الآن عبر واد آخر ، فلنمضي إلى هناك !

غمغم نفس الرجل من خلفه وقال :

- أيها البطل بايان هل سيكون السلطان راضيا عن كل ماتفعله؟!

قال البطل بايان :

- لا أعرف ... ثم أمسك البطل سيفه الرهيب ، وأشار إلى الدخان على مرمى البصر قائلا :



- إلى الأمام !

- أرواح !

- أكجول !

- أما نجول ! بوريباي

ومن جديد كأن أسلافهم قد قاموا من هذه الأرض ، وانطلقوا معهم للقاء العدو . لكن جنود الإمبراطور قابلوهم ببوابل من نيران بندق الفتيل الصينية . جلسوا على ركبة واحدة ، ووضعوا رماحهم أمامهم ، واصطفوا في صف واحد . ورغم ذلك ، فقد تم اختراق هذا الصف ، ومرة أخرى فر الغزاة إلى اتجاهات مختلفة كما تفر الصراصير من الماء المغلي .
وها قد أنشد الشاعر عن هذه المعركة في أغنيته الملحمية مايلي :

لكن الدم كان يغلي في عروق المحاربين الكازاخ

وعلى الرغم من أن الموت المحقق كان أمامهم

وكان في مقابل كل واحد منهم ، مائة من الشورشوتيين

فقد هجموا على العدو! ..

ولم يكن عرقاً ، بل كان دماً خرج من مسام الجسم

وسالت الدماء من سيوف المحاربين

لكن مثل ملايين العناكب السامة

أحاط بهم الأعداء الشورشوتيين ...

كان هناك تفاوت كبير جداً في القوات . فلقد امتد المعسكر الصيني لأميال عديدة ، وجاءتهم التعزيزات من جميع الجهات . أما قوة الفرسان الكازاخ فقد تلاشت ، ولم يبق منهم على الخيول أكثر من مئة . نظر البطل بايان حواليه ، ورأى أن النهاية قد اقتربت . ورأى أيضاً أن جميع السفوح حواليه قد أصبحت سوداء جراء جثث الغزاة . فكر البطل وقال :
«إننا لن نموت عبثاً ... - وستظل هذه الأرض السوداء في ذاكرة الشورشوتيين إلى الأبد . وربما ستترأى لهم عندما يعودون لاحتلال أرضنا !»



هرع إليه رجل ضخم عريض المنكبين من المانشو ، ومعه رمح حديدي طويل . انتزع البطل بايايان بيد واحدة هذا الرمح من بين يديه ، وفي طرفة عين رباطه بعقدة ، ثم أمسك سيف جده ، وقطع الشورشوتى الغازي المذهول إلى نصفين . وفي نفس اللحظة أحس بأن حديدة باردة دخلت جانبه ، واخترقت القلب البطولى الضخم .

أرواح !.. اهجموا على الشورشوتيين ..

أحدثت صيحة البطل بايان الرهيبة صدى في السفوح ، وتكررت عدة مرات ، وانطلقت عبر الجبال إلى السهوب مسقط رأسه ...

جلسوا مقابل بعضهم البعض - خان بلاد الكازاخ أيلمامبيت ، وأبلاي أحد سلاطين الجزء الأوسط - . نعم لقد كان هذا هو الوضع على الرغم من العديد من الانتصارات التي حققها أبلاي على الجونغاريين والشورشوتيين وعلى الرغم من شهرته ومجده . لقد كان على أية حال في عيون البكوات المسنين الذين يقصدون القوانين الثابتة لأسلافهم ، وفي أعين جميع العشائر الكازاخية ، وفي أعين الجماهير مجرد سلطان بسيط . وعلى الرغم من أنهم في السهوب وخارج حدودها يعرفون اسم أبلاي أكثر بكثير من اسم هذا الإنسان المريض ، إلا أن الوسادة الخانية الكبيرة لاتزال على أية حال تحت مقعدة «أيلمامبيت» . ويجب على أبلاي المتين ، والقوى ، والمتعطش للسلطة أن ينظر إلى عمه من أسفل إلى أعلى ...

ولو كان أبلاي منفردا بنفسه ، لكان قد ابتسم . فقد كان يدرك جيدا لماذا جاء فجأة هذا الخان المريض إلى مقره على شاطئ البحر الأزرق قاطعا مسافة ألف ونصف ميل غير آبه بالأمه ومعاناته . لقد أتى الخان «أيلمامبيت» للاحتفال بالانتصار العظيم على الشورشوتيين ، والذي أحرزه أبلاي أحد سلاطينه الكثيرين !

لم يحدث ما كان يرغب فيه أعداؤه . كان السلطان أبلاي ومازال الشخص الأول في بلاد الكازاخ ، وكان القرار يرجع إليه فيما ما ينبغي أن يكون إما السلم أو الحرب . فلو كان قد دخل مع جيشه في مفرمة اللحم الشورشوتيه لضاع كل شيء . لنفترض أنه هب لمساعدة قبائل الجزء الأكبر الثائرة ، ونجح بمساعدتهم في دحر الجيشين الصينيين لرقد



الآن أكثر المحاربين ولاءً له هناك في الخيمة السوداء على حافة المعسكر ، حيث يرقد جسد «بايان باتير» الذي جيء به من أرض المعركة ، ملفوفاً في سجادة بيضاء ، ولبقى أبلاي دون جيش يساعده عندما يصبح خان القبيلة الكبيرة أي الأجزاء الثلاثة . على أية حال ، ليتحقق ذلك كان ينبغي أن يذهب إلى العالم الآخر في الوقت المناسب عمه الذي يعامله معاملة جيدة أي هذا الخان المريض أبيلمابيت .

أنه يعرفهم جيداً ، أولئك الذين يحيطون بالخان من قادة القبائل مثل البكوات والشيوخ وحاملو لقب بطل بالوراثة . لكل واحد منهم مصالحه الخاصة ، ومخاوفه كبيرها وصغيرها ، وعواطفه . وفي عقل كل واحد منهم إذا لم يراوده حلم أن يصبح خانا للأجزاء الثلاثة ، شخص يمكن أن يكون جيداً بالنسبة إليه على البساط الخانى الأبيض . هكذا هم التورى - الجنكيزيون ومن يعرف أقاربه أكثر منه !

أنهم يتابعون كل خطوة من خطواته ، منتظرين مثل الذئب ، عندما يتعثر . لقد إتهموه بكل أنواع التهم عندما حصل على الجنسية الروسية . وقد انقلب عليه بعض الشعراء ، وأشاروا الرعاع ضده . أوليس هو ذلك الرجل العجوز الذي يفرك الآن يديه قد حكى حينئذ قصة عن أحد الجيران الماكرين . قال الرجل الماكر : «أعطني دليلاً على الصداقة قطعة أرض بحجم جلد ثور» . وعندما وافق الجار الساذج قطع هذا الرجل الجلد شرائط رقيقة وأخذ أرض حتى الأفق . وقد فعل الجنرالات الروس الشيء نفسه ؛ فقد طلبوا فقط أرضاً لبناء قلعة ، ثم زرعوا حدائق وخضروات حول القلاع ، ثم زرعوا القمح في جميع الأنحاء ، وجلبوا عبيدهم من الفلاحين ...

هكذا قالوا جميعاً . والآن بعد أن أطبق الشورشوتيون على حلق السهوب ، لم يعودوا يعتقدون أن أبلاي قد باع نفسه للكفار ، وأنه قد دفع الخان نفسه إلى ذلك . إن هذا التنين أكثر خطورة من السحلية الجونغارية ، وسيكون من السهل التحدث معه عندما تملك وراء ظهره القلاع الروسية .

إن التورى الجنكيزيين لا يمثلون بعد الدعم الرئيس . فقد قام الأبطال من غير الوجاه أو ببساطة أشخاص مجهولى الأنساب بإثبات أنفسهم بالسيف وبالحرية في هذه السنوات المضطربة . وتقف خلفهم كتلة مجهولة الهوية من عامة الناس ، والذين يطلقون عليهم إمبرام (الرعاع) . وهؤلاء الناس يستخدمهم الحكام الأذكياء منذ عهد سحيق للاستيلاء



على العرش . ومن الممكن أن يعد الحاكم هؤلاء الناس بكل شيء ، ويفعل ما يحلو لك . أنهم لا يطلبون منه تقريراً عن أفعاله ، لكنهم يتبعونه عميانا . إن السلطان أبلاي ليس الأول ولن يكون الأخير . هكذا كان يفعل دائماً حكام السهوب ، وهكذا فعل جده أحمر اللحية الذي زلزل الكون في زمانه ...

هاهم يجلسون على يمين ويسار سيدهم وخانهم المقبل أبلاي ... العجوز المقعم بالقوة بوجيمباي ، وخلفه «جاباي باتير» من عشيرة يمينالي كيرى والأبطال الكيبشاك ديربيسال، ومانداى ، والدولاتى بوكي ، و «سارى باتير» من أويك وغيرهم والذين يردد الناس من جميع القبائل والأجزاء أسمائهم في السهوب . كانت وجوههم عابسه لأنهم كانوا يحلمون بالانتصار على الغزاة الشورشوتيين ، واضطروا إلى التراجع . بالإضافة إلى أنهم أحضروا من «التين إيميل» جسد «بايان باتير» ملفوفاً في سجادة . غير أنه لم يعترض أحد على الأمر، ولم يطلب أية تفسيرات .

ربما كان من الممكن التغلب على الشورشوتيين ، وتخليص تلك العشائر والقبائل الكازاخية التي يضغط عليها التنين ببطنه . لذلك السبب هبت مليشيات جميع الكازاخ . وكان الثائرون في المخيمات الكازاخية خلف الجيوش الشورشوتية ينتظرون المساعدة . لكن التصرف على هذا النحو في الوقت الراهن لم يكن مفيداً له أي للخان العظيم القادم . وما هو مفيد له من الآن فصاعداً يجب أن يكون قانوناً للجميع في السهوب .

لا أحد من الجالسين هنا يعرف أنه في مساء ذلك اليوم ، حينما إخترق السهم قبعته كان هناك اثنان من الدراويش المتجولين في معاطف قذرة ومرتقة في يورته (منزله) الأبيض في التين- إيميل . لقد منحاه من خلال حراسه كوباً فضياً عليه حرف هيروغليفي واحد فأمر على الفور بإدخالهما . خلع أحد الدراويشين بصمت وبعين دامعة ثوبه وفك عمامته من على رأسه . سرى برد خفيف في ظهر أبلاي عندما عرف هذا الرجل العجوز ذا العينان الخاليتان من التعبير . فحينما كان أبلاي واقفاً في الأسر الشرفي لدى الحاكم الجونغاري ، حضر مرتين أو ثلاث مرات هذا الرجل الصيني . وقد شحب الحاكم الجونغاري المنتفخ والمستبد ، والذي يعتبر نفسه الحاكم الشرعي لنصف العالم ، وانخفض صوته وهو يتحدث مع هذا الشخص . ثم عرف السلطان أن هذا الرجل العجوز الذي يجلس أمامه الآن في ملابس قذرة قد دمر جونغاريا العظمى ...



لم يستغرق الحديث مدة طويلة في يورت (منزل) السلطان الأبيض . وعندما ركب الدرويشان حميرهما ، وغادرا إلى اتجاه غير معلوم ، أمر أبلاي بترك الممر الضيق إلى البحر الأزرق . كما أن الجمل الأبيض أك - بورا الذي أنقذ السلطان من الموت في ذلك اليوم ، قد وضع رأسه بسلاسة صوب بلخاش ...

نعم لقد اختار هذا الطريق . لم يكن مفيدا له كى يصبح خانا للأجزاء الثلاثة الانتصار على الشورشوتيين الآن في ألتين - إيميل . فلو أضعف التهديد من جانبهم ، فإن جميع هؤلاء البكوات أصحاب الفم الذهبي ، والساسة الماكرين ذوى الخلفيات السمينية ، وحكام القبائل والقضاة سوف يتحولون عنه ، ويتآمرون ، ويتشدقون . ومن يستطيع أن ينتصر عليهم في المناقشات ، في أيام السلم ! فطالما بقى السيف الشورشوتي مسلطا فوق الرأس فإنه هو وحده - السلطان أبلاي - يمثل القوة الحقيقية . وعندما يصبح الخان العظيم ، يمكن حينذاك العودة إلى ألتين - إيميل .

في غضون ذلك سوف يتزلج بين الأسد الروسي والتنين الشورشوتى محافظا على قواته وواضعا القيود في رقبة أبناء أوى الكوكانديين «يردين» ، و«ناربوتا بك» . وليس هناك وضع أكثر راحة حين يهتم بك كلا الجانبان . فقد إعترف بالجنسية الروسية منذ مدة طويلة . والآن يعترف ببعض التبعية للبوحد يخان (الإمبراطور الصينى) . ولم يطلب الرجل العجوز الذي جاء إليه أكثر من ذلك .

أنه ليس قصير النظر ؛ كى لا يفهم غرض هذا الرجل العجوز ذى العيون المريضة . إن هذا العجوز الرهيب يريد أن يجعل مصير الأجزاء الثلاثة كمصير جونغاريا . فلا زالت الإمبراطورية الشورشوتية حتى الآن تمضع جونغاريا . ولكن عندما تتجشأها ثلاث مرات وتكتظ الأراضى الجونغارية المحروقة بأناس ، تدفعهم إليها من أعماق الصين حينها سوف يأتى الدور على بلاد الكازاخ . حينئذ ستكون القلاع الروسية التي سمح هو وجميع الوجهاء من الأجزاء الثلاثة ببنائها في السهوب مفيدة . وبحلول ذلك الوقت يكون قد أصبح الخان !

في غضون ذلك ، سوف يسعى بإطراد إلى هدفه ، وفي ذلك اليوم الذي سيرفعه على سجادة اللباد البيضاء على السهوب ممثلو الأجزاء الثلاثة فإن هذا الهدف يكون قد تحقق . والويل لمن سيقف في طريقه إلى سجادة اللباد الخانية . وعلى جميع من يجلس هنا الآن



- من الوجهاء أو غيرهم ، أن يطيعوه طاعة عمياء . والا ... والا فأناهم ، سوف يواجهون مصير بايان باتير. لقد أدرك من نظرة «بايان باتير» أنه قد خمن سبب التراجع من ألتين - إيميل. لذلك طلب أن يكون في كتيبة التغطية. وعرف أبلای أن البطل سوف يخالف أوامره بعدم التورط في معركة مع الشورشوتيين. ويعلم الجميع أن «بايان باتير» تصرف من تلقاء نفسه. وحدث كل شيء كما كان متوقعا. لقد علم الشورشوتيون مدى قوة ضربة الفرسان الكازاخ ، وسوف يفكرون مرتين قبل أن يتجروا على مهاجمة أبلای. لقد حان الوقت ليموت «بايان باتير» اليد اليمنى للسلطان القوى ، والذي لا يعرف الخوف. لكنه لم يكن ليقدّر أن يكون اليد اليمنى للخان العظيم أبلای .

ولسوف يقطع لاحقا دون أسف ، تلك الأيدي والرؤوس التي تريد أن تتصرف وتفكر من تلقاء نفسها . وما يمكن أن يقال لسلطان بسيط ، لا يمكن أن يقال لخان حقيقى حتى ولو في المنام . لكن أولئك المحاربين الأفاذا الذين معه لا يحبون كثيرا جميع البكوات والتورى . أنهم سيكون دائما معه ، وكلمته ستكون لهم قانونا ! ..

لم يبدأ المجلس الخانى الكبير ، كما ينبغي ، على الصورة المثلى وفقا للقانون. وبعدما قيلت جميع الكلمات المتعارف عليها رفع الخان «أبيلمابيت» يده ببطء ؛ كى يعطى الكلمة لأكثر البكوات احتراماً من حيث السن والثروة كازيبيك - صوت الأوزة - ، وفجأة وضع الصامت بوجيمباي يده الضخمتين على بعضهما البعض ، ومدهما أمامه قائلاً :

- ياسيدي الخان ويا كبراء الأجزاء الثلاثة ... دعونا ندعوا لرفيقنا بايان باتير...!

بدأ أحد المحاربين من غير الوجهاء بعد أن أغلق عيناه بشكل غير كامل يقرأ بصوت رخيم ، كلمات القرآن شبه المنسية منذ وقت الطفولة . فلم يكن أحد منهم يصلى في السنوات الخمس والعشرين الماضية غير نفر قليل . لكن على أى حال اضطر الخان نفسه إلى رفع يديه والإستماع إلى الدعاء . و جلس الشيوخ والسلاطين والبكوات بوجوه حجرية بعد أن رسموا عليها الحزن . وكان السلطان أبلای أخر من رفع يده ... وبعد أن إنتهى البطل من قراءة القرآن لمس وجهه بيديه قائلاً :



- آمين !

وكرر الآخرون معا قائلين :

- آمين !

بعد الدعاء ألقى البطل الأسطوري «بوجمباي» يد السلطان أبلاي اليسرى ، والذي شاب شعره في المعارك السوط أمامه والتفت إلى أبلاي قائلاً :

- لماذا يا سلطاني لم نهب لنجدة إخواننا من الجزء الكبير ، الذين ينزفون دما في مشنقة الشورشوتيين ..؟

ساد صمت طويل في يورت (منزل) الخان ذى الاثني عشرة جناحا . أخيراً أرخى السلطان شفتيه وقال :

- لم أكن أعرف أن عشائر كاشغر والأنهار السبعة قد ثارت على الشورشوتيين ..!

تفحص أبلاي محاربيه بنظرة متمهلة . هل يعلم أحد منهم أنه أول من علم منهم بانتفاضة القبائل الكازاخية واليوغور في سنجان والأنهار السبعة؟

كانت وجوه المحاربين عابسة .

في المجلس الخانى الكبير تقرر عدم قتال الصين . لم يتكلم السلطان أبلاي . وأبلغ الخان «أبيلمامبيت» بنفسه ممثلي الأجزاء الثلاثة ، أنه قد حضر سفراء صينيون رسميون لاجراء محادثات . غير أن جميع الحاضرين كانوا يعلمون أن ما يقوله الخان هو من بنات أفكار أبلاي . وقد تقرر وفقاً لإصراره على الرغم من الإتفاق مع الشورشوتيين بدءاً من الربيع المقبل زيادة الجيش النظامي وتجميع الميليشيات من جديد .

قال أبلاي :



- سيكون هذا في صالح الشورشوتيين . وليعلم حكام كوكاند أيضا ، أن سلاح الفرسان لدينا على أتم الاستعداد للهجوم في أى يوم . لقد جمع «يردين» و «ناربوتا بك» أعداداً كبيرة جدا من الجنود قرب طشقند . وكما يقول المثل : «عندما يفسد اللحم من الممكن أن تغمره بالملح ، ولكن ما العمل إذا فسد الملح؟!»

وافق «أفضل الناس» من الأجزاء الثلاثة على اقتراح أبلاي على مضض . فقد كانوا يعرفون جيدا ماذا يعني جيش كبير في أيدي السلطان أبلاي . فكل مئة فارس زيادة في جيشه تقرب أبلاي المتهور من البساط الخاني .

غادر الجزء الأكبر من الميليشيات إلى أماكن ترحاله . وقد قرر أبلاي الذهاب مع كتيبته ومليشيات بعض عشائر الجزء الأوسط إلى كوكشيتو . ولكن ما إن وضع رجله في ركاب الجواد حتى سمع أحدهم يصرخ . انزلق رسول قادم إليهم من فوق حصانه ، ووقف على ركبة واحدة أمام الخان أبيلمابيت ، الذي كان يودع أبلاي وقال :

- ياسيدي الخان .. إن عشرة آلاف يورت (منزل) تابعة لعشيرة سادير يزعمون ترك مخيماتهم على نهر ليبسا ، والهجرة إلى أقاربهم في أنديجان!

سأل أبلاي بحدة :

- وما هو السبب ؟ فالتفت إليه الرسول .

لقد كانت قرى عشيرة سادير يسكنون على حدود جونغاريا ، التي احتلها الشورشوتيون .

- لا أعرف شيئا عن ذلك الأمر!

- وماذا تعرف يا فرد الاستطلاع؟!

- أنا أعرف فقط ، أنه قد أتى إليهم رجل من قبل الأمير ناربوتا من كوكاند وقال لهم :



«تعالوا إلينا . فإنه إذا لم يقض عليكم الشورشوتيون ، فلربما يذبحكم أبلاي !»

سأل أبلاي بصوت عال ؛ وهو يدرك أنه غدا سوف يعلم جميع سكان السهوب ما قاله :

- لماذا أقتل رعايانا ؟ - وهل حقا يصدق تاسبولات باتير رئيس عشيرة سادير هذه الخزعبلات ؟! أو يعتقد أنه إذا فر إلى أنديجان ، فسوف يفلت من أيدي الشورشوتيين ؟ أنهم سيلاحقونه حتى في فرغانة ! ..

- لقد تحدث الرجل من كوكاند عن عداء قبيلة أرجين القديم مع عشيرة سادير ...

لوى أبلاي سوطه بيده حتى شحب لونها ثم قال :

- حسنا ... حسنا حينئذ يجب علينا ...

قال الشاعر بوخار الذي كان حاضرا هذا اللقاء بهدوء :

- لا تقل شيئا وأنت غاضب يا أبلاي !

- لكن إذا سمحنا لعشيرة سادير ، بالرحيل فإن جميع النيمانين بالأنهار السبعة سوف يتبعونهم في فزع !

- أعطني عشرة فرسان فقط يرافقونني ، ولن أذهبهم يذهبون إلى أي مكان !

فكر أبلاي ، وأوما برأسه قائلا :

- حسنا يا شاعري . ولكن علينا البقاء هنا حتى عودتك.

غادر الشاعر بوخار ... لم يكن ذلك أمرا سهلاً . ففي خلال «المحنة الكبرى» بحثت عشيرة سادير النيمانية عن مأوى عند جبال أرجيناتا ، غير أن بكوات أرجين لم يخصصوا لهم أية مراعى . وهناك وقعت اشتباكات بين العشائر . ولعدة قرون يتذكرون هذه الإهانة في السهوب ، أما هنا فلم يمض وقت طويل . وفي المعارك مع الجونغاريين قضى رئيس العشيرة جوماتر باتير نحبه مع تسعة من أبنائه . ورأس العشيرة من بعده الابن العاشر تاسبولات باتير الناجي من الموت بأعجوبة . وخوفا من مذابح القنات الصينية وكازاخ سنجان قرر الترحال مع رعاياه إلى خانية كوكاند حيث يقطنها خمسة عشر ألف



أسرة من عشيرة سادير . وهذا إن حدث سيجعل الجزء الأكبر من الحدود عاريا . ولاشك أن العشائر النيامانية الأخرى ، ستحدوا حدو تاسبولات . ومن ثم تعطى الشورشوتيين أرضا خالية....

عندما وصل الشاعر بوخار ومرافقون إلى قرية السادير الرئيسة كانوا قد إنتهوا بالفعل من وضع منازل اليورت على ظهور الجمال .

سأل الشاعر بوخار أول من قابله :

- أين تاسبولات باتير؟

قال له :

- هناك في هذا اليورت (المنزل) الكبير ، الذي لايزال على حاله !

ذهب الشاعر الذي كان ينتفض من الغضب إلى هذا اليورت . وضرب على أوتار الدومبرا وهولايزال على حصانه ، وغنى لكل السهوب :

إلى أين تذهبين يا عشيرة سادير

هل تذهبين إلى نهر ساريسو؟ ..

لكن لن يمكنك أن تفتلي مني

فخيول الانتقام أسرع من الريح!

ومثل عاصفة ثلجية

سوف أغلق طريقك...

ولماذا هويت بهراوتك

على رأس فارسنا أكمورزا!؟

لم يأت الشاعر بأمر من الخان إلى زعيم العشيرة الخاضعة له وإنما جاء بطلب لدفع فدية أكمورزا باتير المقتول في إشتباك بين العشائر . كان ذلك منذ فترة طويلة . في صيف



جاف ، تجول والد تاسبولات مع قطيعه في مراعي عشيرة أرجين ، ناحية جبل أرجيناتا. طالبت عشيرة أرجين البطل ، أن يذهب مع قطيعه إلى جبال أوليتاو . وخلال الاشتباك قتل «جومارت» البطل الأرجيني أكمورزا ، ورحل إلى نهر بورونداى . ومنذ ذلك الحين دبت العداوة بين عشيرة سادير ، وعشيرة أرجين . ولوعاقب السلطان أبلاي هذه العشيرة فقط من أجل رغبتها في الذهاب إلى أقاربهم لثارت السهوب كلها ضده . لكن الحديث دار عن محاكمة عادلة ، جزاء القتل الذي ربما تحاول عشيرة سايدر بسببه ، أن تترك ديارها والقانون السهبي القديم في هذه الحالة في جانب أبلاي . لم يكن «تاسبولات باتير» يستطيع أن يفعل شيئاً سوى أن يؤجل الرحيل . لقد خرج بنفسه من اليورت ، وساعد الشاعر الشهير في النزول من على حصانه .

تحدثوا نصف يوم عن شروط المحاكمة المقبلة ، بينما كان أفراد عشيرة سادير يفرغون حمولة الجمال . وأقام بعضهم منازل اليورت من جديد . فعلى ما يبدو لم يكن أحد يرغب في مغادرة موطنه .

سأل الشاعر بوخار كان الأمر خطر فجأة على باله :

- لماذا كل منازل اليورت في قريتك مفككة؟

قال «تاسبولات باتير» :

- لقد جاء الشورشوتيون ... ويركض الآن نحونا الكازاخ من سنجان !

- لكن يوجد أبلاي مع جيشه !

- وأين كان هو عندما حرق الشورشوتيون قرانا على الجانب الآخر من الجبال؟!

قال الشاعر:

- لم يحن الوقت بعد لقتال الشورشوتيين .. ولكن ليس هذا هو الوقت المناسب للهرب

منهم أيضا !

- وماذا يجب علينا أن نفعل؟

- مافعله بايان باتير!



فكر تاسبولات باتير للحظة ، ثم هز رأسه بحزم قائلاً :

- حسنا سنبقى !

سمع بعض الارتياح في صوته . كان من الواضح أنه لم يكن من السهل عليه اتخاذ قرار الرحيل . فلم يكن من المتوقع أن تنعم عشيرة سادير بعيشة مريحة في خانبة كوكاند .

سأل تاسبولات باتير وهو يودع الشاعر بوخار :

- ولكن إذا جاء إلينا الشورشوتيون فهل سيساعدنا أبلاي ؟

أجاب الشاعر بتدبر :

- كان بايان باتير سيأتي ... - وهذا يعني أن بوجيمباي سيأتي ، وجاباي باتير سيأتي ، وكذلك ساري باتير . وستبقون هنا كأفراد استطاع بلاد الكازاخ ...

نظرت تاسبولات باتير طويلاً في إثر الشاعر العجوز . فكر في كلماته . لماذا لم يجب هذا على سؤاله عن أبلاي إجابة مباشرة ؟ فقد كان الشاعر بوخار حتى الآن يعد فم أبلاي في السهوب ...



III

كان الخان «أبلاي» في حالة معنوية ممتازة . فقد أصبح الخان العظيم لبلاد الكازاخ . وقد رفعه صفوة القوم من الأجزاء الثلاثة الذين إجتمعوا ، كما ينبغي أن يكون ، على ضفاف بحيرة تيليكيول على سجادة اللباد البيضاء . وللحقيقة لم يكن هناك ممثلين لعشائر كثيرة من الجزئين الأصغر والأصغر والأكبر ، لكن الآن لم يمثل ذلك أية أهمية . وأولئك الذين لن يطيعونه سيحولهم إلى قرن كبش .

والآن يجنى الخان العظيم أبلاي ثمار جهده . يحنى الجميع هاماتهم أمامه عندما يمر عبر السهوب على رأس خياله . والآن أرغم فرسانه قبيلة بوجبان من عشيرة كونراد على الطاعة والتي كانت قد تحالفت مع الكوكانديين ، وثاروا ضده . وقد فاز بأعلى غنيمة . فلقد وضع شيوخ كونراد في سريره أجمل فتاة لديهم لتهدئة غضبه ، وإنقاذ صفوة القوم من الموت . إضطجع معها ، وشاهد باهتمام جهودها لإرضائه . كانت تبلغ من العمر خمسة عشر عاما فقط ، لكن الخالات الخبيرات وضحو لها كل شئ ، وقد إتبعن تعاليمهم بكل ما أوتيت من قوة على الرغم من أن فعل ذلك كان بالنسبة لها مؤلم ومخيف . ولكن الأيتعين على الحاكم الحقيقي أن يرغم الشعب كله على التصرف على هذا النحو ! فليتألوا جميعا وليخافون ، ومع هذا الخضوع الكبير سوف يقبلون سلطته عليهم .

لا يجب عليه أن يتنازل لهم عن شيء ... وعندما يستلقى الخان المتعب على ظهره سوف يسعد بسماع الصراخ والأنين المكتوم من خلف الجدار السميك اللبادي لليورت الأبيض . وبينما كان يلهو مع الجميلة الكونرادية قام جلاذوه التولينجوت بربط زعماء قبيلة بوجبان المذنبين بحقه بذيول الخيول ، ودفع الخيول في اتجاهات مختلفة ، فمزقت الجناة إربا . ولسوف يفعل نفس الشيء في المستقبل ! ..

سمع أبلاي الفتاة تنتحب بهدوء ، وتهتز من العبرات المكتومه . لأبأس سيهدئها شيء ما ، ولسوف تنسى حزنها . وستنسى إخوتها الذين تجرهم الآن في الغبار خيول يستحثها



التولينجوت ... ولكن ماهذا الضجيج؟

- أتان.... أتان

أثناء هذه الصيحة بدأ المتفرجون الذين تجمعوا لمشاهدة إعدام المذنبين في الهرب. وفر الأطفال ، واختبأوا في منازل اليورت ، وغاصوا تحت البطاطين القطنية السميكة كما لو أنها يمكن أن تحمي من العدو الذي شن هجومه فجأة على القرية...

إرتدى الخان ملابسه ببطء ، وتقلد سيفه ، وخرج من منزله . جاءت سلسلة الفرسان من الجنوب . وتنبىء الصيحة التحذيرية التي أطلقها أول رجل دخل القرية أن الأنباء ليست حسنة .

وصل شابارمان الفارس ذو اللحية الحمراء يرافقه خمسة عشر فارسا إلى يورت الخان، ثم ترجل عن جواده ، وجثى على ركبته وقال :

- أيها الخان التقدير هناك خبر سيء !

- تكلم يا شابارمان!

- بعد أن علم «عليم» خان كوكاند بحل الميليشيات أسرج خيوله نقضاً للمعاهدة التي أبرمها معكم . وكذلك أسرج خيولهم جميع أمراء أنديجان ، وناما نجان ، ومارجيلان. وفي ولاية طشقند ثارت عشائر شانشاكلي وكانجلى الذين نسوا فضلك عليهم ! ..

- وماذا يقولون؟

- يقولون أننا ذاهبون إلى المدن التركستانية!

- وكم يبلغ عددهم؟

- وفقا للتقدير العام ستين ألف حربة!

أخذ أبلاي يفكر . كان يتوقع ومضات العداء تجاهه ولكن ليس بهذه السرعة. فبعد أن أصبح أبلاي خاناً تخلى عن قوات أمراء كوكاند ، وأعاد جميع الأراضي والمدن



التي استولوا عليها في «سنوات المحنة الكبرى». وكان ينبغي على طشقند أن تدفع ضرائب للخان أبلاي. وعادت العشائر الكازاخية: دولات ودجاليار، وبستانبالي، وسوان من الجزء الكبير، وكونراد من الجزء الأوسط مرة أخرى إلى دولته. غير إنها لم تكن جميعها راضية عن يد أبلاي المستبدة، ومن ثم بدأت القلاقل. وقد قمع لتوه إحدى هذه القلاقل.

والآن قرر «عليم» الخان الشاب لكوكاند، خوض غمار حرب جديدة. على ما يبدو فقد أدخلت السرور إلى قلبه الأبناء التي جاءت به بأنه لا يوجد الآن في مقر الخان سوى كتيبة واحدة قوامها ألف فارس، أما الكتائب الأخرى المساعدة المكونة من فرسان الجزء الكبير فمن غير المحتمل أن يظلوا أوفياء للخان أبلاي إلى النهاية.

في الحقيقة، فقد شارك في الحملة ضد أمراء كوكاند، كتائب مختارة من الأجزاء الثلاثة. وعندما إنتصر أبلاي أمقوات الجزئين الأوسط والأصغر بالعودة إلى ديارهم، وترك في مقره ميليشيات من الجزء الكبير، وعلل ذلك على النحو التالي: «منذ العصور القديمة فإن أراضي الأنهار السبعة، والروافد الوسطى لنهر سيحون داريا، تنتمي لعشائر الجزء الكبير وعشيرة كونراد. ودائماً ما دافعت هذه العشائر بصلافة عن أراضيهم من الأعداء الخارجيين. وقد تميز الدولات والجاليار والكانجالي والشانشاكلي والألبان والبستانبالي وغيرهم بالشجاعة النادرة. وفي السوب دائماً ما تنتمي الأرض للعشيرته التي تدافع عنها. وبعد أن عادت الأنهار السبعة وشواطئ سيحون داريا مرة أخرى على يد هذه العشائر، صاروا أصحابها والمدافعين عنها. وهذا سيمنحهم الفرصة ليجدوا أنفسهم...» لذلك سحب أبلاي فرسان الجزئين الأوسط والأصغر ...

وفجأة وردت مثل هذه الرسالة! الأعداء مثل المياه يتسربون إلى هناك، حيث سيجدون الفجوة. أي أن أمير كوكاند وجد هذه الفجوة! لكن أين هذه الفجوة! ..

وإذا كان من الممكن الشك فقط في أهل عشيرتي كونراد، ودولات فبان أبلاي يعرف جيداً شعور العشائر الكازاخية شانشاكلي وكانجلي. وقد فرض خان كوكاند كل عبء الضريبة على طشقند على هؤلاء المرتدين. والآن ينزع «كوش بيغي» الطشقندي عنهم طبقتين من جلودهم موضحاً أن ذلك بتعليمات من أبلاي. حسناً، إن الأمر بالنسبة إليه سيان، فعشيرتي شانشاكلي وكانجلي يستحقون



مثل هذا المصير . وهذا المصير ينتظر كل أولئك الذين يتجرأون على الفرار من بين يديه ! ..

سأل أبلاي :

- أين مكان تجمع الكوكانديين؟

- في هذا الجانب من نهر تشيرتشيك عند المنحنى .

- حسنا حالما يصلون تركستان نكون قد جمعنا قواتنا ... نظر أبلاي إلى السماء، وألقى نظرة على جبال كازيجورت ، ثم تشاءب . في البداية ، فكر أن يبعث الرسل إلى القرى القريبة من «سارى أركا» يدعوهم إلى المساعدة ، لكنه بعد ذلك عدل عن رأيه «ينبغي على عشائر الجزء الأوسط والكونراديون أن يخوضوا المعركة بأنفسهم . وهكذا سيشعرون أغلب الظن بدورهم في القبيلة الكازاخية» .

رفع الخان يده وقال :

- حسنا ، أبعثوا رسولا إلى السيرجالينتس إلى «يلتشييك باتير» نفسه ، وأبعثوا الرسل إلى دولات ، وجلاير ، وبيستنبالى ، وسوان ، وألبان ؛ كى تكون كتائبهم بعد يوم عند كازيجورت ! ..

أشار رسول الخان بيده ، فانطلق على الفور عشرون رجلا من الشاربامان على خيولهم . لقد كانوا دائما على استعداد للسفر ، وكل فرد منهم يعرف إلى أين يسافر . وبعد دقيقة بدأت أعمدة الغبار تحلق فوق السهوب ، وابتعدوا سريعا في اتجاهات مختلفة .

إعوجت شفتا الخان باحتقار وقال :

- إقطع الشعبان إلى ثلاثة أجزاء يتغلب على السحلية على أية حال . فهل لا أستطيع أن تغلب بثلاث قواتي على كوكاند الرضيع؟!



رجع إلى الخلف في ظلام منزل اليورت ، لكنه لم يخلع ملابسه . أنه يبلغ الآن من العمر ستين عاما وليس في الثامنة عشرة من عمره ، فيجب عليه الحفاظ على نفسه من أجل مصيره . خلع الخان أبلاي قبعته ، وفك حزامه ، وأسند ظهره إلى كومة من البطاطين المطوية . في الظلام كانت الكونرادية الصغيرة تنتحب بصمت ، وتسكب الدموع ، وقد أسعده ذلك ...

أخذ أبلاي يفكر ... فليقل حساده مايشاؤون . إن الكثيرين يدعونه قاسياً وسفاحاً ولكن لن يقول أحد إن بلد الكازاخ قد خسرت أي شيء في عهده . ولا يزال كما في السابق ينزلق بشكل حاذق بين الأسد والتنين ومكشرا عن أنيابه في كل مرة صوب كوكاند . وإذا كان كثير من الناس يخافون منه لدرجة أنهم كانوا على استعداد ليهربوا إلى أي مكان ، فهذا ماينبغي أن يكون . أليست أرض الكازاخ ووحدة الخانية أكثر أهمية من أي شيء في العالم؟ ..

بعد المعركة في ألتين - إيميل مباشرة أرسل أخاه جولبارس إلى البوجد يخان الصيني . لقد كان يعلم أنه في الصين تدور حرب أهلية ، وليس هناك وقت أفضل من هذا لعقد المعاهدة . وحصل من الإمبراطور «هونغ لي» على لقب أمير ، ومعطف السمور ، وسجاد من الحرير بألوان نادرة ، وأشياء أخرى كثيرة . حتى التقويم الإمبراطوري الشخصي قد أرسل إليه من بكين ؛ لكي يعرف الكازاخ الثقافة الصينية ، ويحسبون الوقت وفقا للتقويم الشورشوتي .

بعد ذلك بعامين في عام ١٧٥٨ م بالتقويم الروسي ، زحفت القوات الصينية مرة أخرى إلى السهوب بعد أن قمعت الكاشغروالكازاخ في سنجان . في هذه المرة ، نزلوا من جبال تارباجاتاي ، ودمروا السهوب كلها حتى البحر الأزرق . وكما في «سنوات المحنة الكبرى» فرت من أمامهم جميع القرى الحدودية . وكان عدد الشورشوتيون هائلا لدرجة أنه لم تبق عشبة واحدة على الأرض . وربما لم تأكل الخيول وحدها هذه الأعشاب ، بل الشورشوتيون أنفسهم ، وقضموها بأسنانهم اللحاء من الأشجار ...

خرج «أبلاي» لمواجهتهم ، ودارت في أياجوزرحي معركة كبيرة . ومرة أخرى لم يرغب في طحن جيشه المختار فتراجع وترك البطل مالياسارى للتغطية . وقتل البطل العظيم مالياسارى كما قتل بايان باتير من قبل . وهناك الآن جبل رملى يحمل اسم مالياسارى .



لكن لم يستطع الشورشوتيون أن يرغموا الخان على قطع علاقته بروسيا. بدأ يتراجع بعيداً في السهوب مستدرجاً التنين إلى حيث تقف القلاع الروسية كمنحلب أسد في وسائل ناعمة. غير أن التنين شم الهواء، وبدأ الزحف إلى الخلف خلف الجبال ...

في هذا الجانب لم يكن هناك في المقدور فعل أي شيء للتنين، وفي العام نفسه تم تجميع جيش صيني ضخم قوامه ١٨٠ ألف جندي على حدود منطقة سنجان. في هذه المرة استهدف الشورشوتيون كل آسيا الوسطى، والاستفادة من أن الأسد الروسي حتى الآن ليست لديه ذريعة أو فرصة ليتدخل في هذا الشأن. نسيت على الفور جميع الإساءات القديمة التي لا تعد ولا تحصى. وبدأت خوارزم، وكوكاند، وبخارى، وأفغانستان بدعم من العالم الإسلامي الاستعداد للمقاومة. ومثل الرياح الساخنة طارت الأنباء عن الحرب المقدسة ضد الشورشوتيين. وفقاً لقوانين الدين لم يكن أبلاي أو نورالي خان الجزء الأصغر يستطيعون التخلف عن هذه الدعوة.

أشار الخان «نورالي» فوراً إلى التبعية المباشرة لروسيا والتي ليست في حالة حرب مع الصين. كما أن الشورشوتين بعيدون جداً عن الجزء الأصغر. لكن أبلاي وجد لنفسه ذريعة لعدم الانضمام إلى الجهاد. أولاً أنه أيضاً تابع لروسيا، ولا يجزئ على الدخول دون رضاها في حروب كبيرة. ثانياً قدم ثلاثون شيخاً برئاسة «أودارشى بك» نيابة عن أبلاي ثلاثين حصاناً أيضاً هدية للإمبراطور الصيني، وإعترف الإمبراطور بأبلاي «كحاكم على كل الكازاخ» والآن ليس من المناسب قتاله لأن ذلك يعد حثاً بالعهد. في الواقع كان الخان أبلاي على غرار أسلافه لا يأخذ على محمل الجد أية معاهدات، وخاصة المكتوبة على الورق. كان يقلقه جداً تحالف خانيات آسيا الوسطى بقيادة المحارب الأفغاني أحمد خان. لقد جمع أحمد خان سبعين ألف رجل بين طشقند وسمرقند، ومن يعرف إلى أين يمكن أن يتحرك هذا الجيش إذا لم تحدث إشتباكات مع الشورشوتيين. وهل يمكن للزحل الكازاخ الشاحبين بسبب عقود من الكوارث والحروب المستمرة التصدي لمثل هذا الجيش! سيكون من الأفضل إذا لاقن الشورشوتيون أمراء كوكاند والأمراء الآخرين الذين يطالبون الآن بمدن تركستان درساً قاسياً. بالطبع فإن الجوار الشورشوتي غير مرغوب فيه لكنه من جديد يرغمنا على الولاء المزدوج. وإذا أساء الشورشوتيون الأدب فسيزار الأسد الروسي. فالقلاع الروسية لا توجد فقط في السهوب الكازاخية، وإنما في الشرق وعلى طول الحدود الصينية حتى المحيط الكبير.



في غضون ذلك ، أرسل الخان أبلاي سفارة أخرى كبيرة إلى بطرسبرج للملكة كاترين الثانية ، برئاسة نجله توجوم بطلب باعتماده خاناً على الأجزاء الثلاثة . وعلى الرغم من أن الشيوخ رفعوه على سجادة اللباد البيضاء ، وحموه وفقاً لجميع القواعد بحليب المهرات البيضاء ، لكن القيصرية الروسية بحكمة أي توري محترم لا تريد أبداً أن تعترف به في ذلك المنصب . لم يكن ذلك فقط لأن العديد من زعماء عشائر الجزئين الأصغر والأكبر يعارضون استحواذ أبلاي على السلطة ، بل لقد كان من المفيد للحكومة القيصريّة في المقام الأول تحسباً للأحداث القادمة ، التعامل مع خانات كل جزء على حدة فلو حصل أبلاي العنيد والمستبد على السلطة الكاملة في السهوب فمن الواضح أنه سيظهر العصيان ويفرض شروطه . والآن على الرغم من أنه لم يعتمد رسمياً ، فإن جميع المطربين الشعراء في السهوب ، والعديد من المسؤولين الحدوديين القياصرة يعدونه الخان الرئيس للكاخاخ .

نام أبلاي بعمق في تلك الليلة ، ونهض في وقت مبكر . ولا زالت الكونرادية تجلس القرفصاء على حافة السرير عند جدار اليورت . إتسعت عينها أكثر . وغطى شعرها المحلول الطويل والسميك كل جسدها الكائن في رداء أبيض . وبدا وجهها من جراء هذا الشعر والعيون الداكنة أشد بياضا من الرداء .

سأل الخان :

- هل تريدين شيئا مني؟

- لدى مطلب واحد فقط ...

- تكلمي!

- لا تقتل إخوتي ..

- حسنا من بقي منهم على قيد الحياة سيعيش ...

- لقد أخطأوا عندما رفعوا راية العصيان ... الآن لن يفعلوا ذلك أبداً!



ضحك أبلاي وقال :

- نعم ، إنه كذلك!

أرجع رأسه للخلف ، وأخذ ينظر طويلا إلى السماء المشرقة من خلال ثقب مستدير في السقف ... بالأمس عاقب بقسوة بعض الكونراديين العنيدون الذين حاولوا الفرار من سلطته . والآن سيكون الاختبار فكيف سيتصرف الكونراديون الآخرون ، ومعهم الووسون ، والجاليار ، والدولات وألبان ، وسوان والقبائل والعشائر الأخرى من الجزء الكبير . هل شعروا بحديد يديه ، وهل وافقوا على أن يكون الخان الرئيس . إن الغالبية العظمى منهم الآن في جيشه ، والذي سوف يقاتل أعدائه الدائمين وهم أمراء كوكاند الذين لم يألوا جهدا في استدراجهم إلى جانبهم بكل الوسائل . وماذا يكونون في أنفسهم هل يكون الاحساس بوحدة جميع الكازاخ أم سيكونون مثل المياه ينسكبون من إناء إلى إناء آخر ...

قالت الكونرادية ، كما لو أنها خمنت أفكاره :

- إن الطيور لاتضرب أبداً من يعود إلى السرب ...

قال أبلاي بصوت مكتوم :

- هذا يتوقف على نوع الطيور ..! - فمنها النسور ، ومنها الغريان !

- والبجع أيضا ...

حدق أبلاي في وجهها ، ولم يقل كلمة واحدة ، بل نهض وخرج من البيورت . وبعد أن توقف الخان عند المدخل نظر إلى السماء الصافية . فكرأبلاي ونادى على حارسة بإيماءة حاسمة : «لم أربجعا في السهوب منذ مدة طويلة !»

- هل هناك أخبار من الرسل ؟

- نعم أنهم بدءوا في العودة !

نظر أبلاي نحو جبال كاراتاو . وهناك في السفح ترى مجموعة صغيرة من الفرسان تتجه من جميع الجوانب إلى مقر الخان . دخل القرية مائة فارس بأقصى سرعة وعندما



انقشع الغبار أوماً أبلاي برأسه بسعادة . لقد حضر البطلان الكييشاكي مانداي والكيريتسي جاباي باتير . اتضح أنهما لم يذهبا إلى موطنهما ، وإنما نزلا كضيفين على أقربائهم المحليين . وبعد أن سمعا صيحة «أتان» هرعوا إلى «أبلاي» .

سأل أبلاي :

- هل أرسلتم إلى الشاعر بوخار؟

ارتبك الحارس الشخصي للحظة واحدة ، وعبس الخان أبلاي . أصبحت علاقته بالشاعر العراف الذي كان مواليا له في وقت ما بروحه وجسده من سوء إلى أسوأ . وبالأمس احتجاجاً على عنفه ضد الشعراء الكونراديين غادر مقره دون أن يودعه ...

مرة أخرى تصاعد الغبار في الشرق . وجاء إلى يورت الخان رسول آخر ، وترجل عن فرسه ووقف على ركبتيه ، ثم قال :

- يا سيدي الخان حوالي ٤٠٠ أو ٥٠٠ رجل فقط ، من عشيرة جالايير مستعدون للانضمام إليك ...

- والآخرين؟

- يحزمون منازلهم ؛ ليبتعدوا عن الكوكانديين !

قال المسئول عن الرسل :

- نفس الأنباء وردت أيضاً من عشائر الجزء الكبير ياسيدي الخان !

- وإلى أين يذهبون؟

- صوب الأكلول .

صرخ أبلاي في غيظ قائلاً :

- يعنى تحت السيوف الشورشوتية...!

غير أنه قبل الظهيرة أصبح واضحاً أن الأمر ليس بهذا السوء . فرغم أن العديد من



القبائل كانت حانقة على أبلاي إلا أن الكوكانديين، والشورشوتيين كانوا على أية حال أشد سوءاً منه. وسرعان ماذكروا أن شيوخ عشائر ألبان وسوان تعهدوا بأنهم بحلول الظهيرة، سوف يحضرون بكامل ميليشياتهم تحت راية أبلاي البيضاء. ثم جاء رسول من عند عشيرة دولات بخبر مفاده، أن خمسة آلاف جندي من هذه العشيرة في طريقهم إلى مقر الخان، ويقودهم البطلان بوكي وسادير. ولم يشك الخان في ولاء «يليتشبيك باتير» مطلقاً.

سأل الخان المبتهج :

- كم بقي من المذنبين في قبيلة بوجبان ؟

- لقد ألقينا خمسة من الداعين للخروج من تحت قبضتك، بين الخيول يا سيدي الخان. وهناك اثنا عشر شخصاً ينتظرون قرارك مقرنين في الأصفاد الخشبية ...

- أطلقوا سراحهم !

بعد عدة دقائق فرك رجال قبيلة بوجبان، الذين أطلق سراحهم أيديهم التي أثرت فيها القيود الخشبية، وركضوا إلى منازل اليورت الخاصة بهم .

غنى شيوخ قبيلة بوجبان عن بعد كالجوقة :

- ياخاننا الكريم .. إنك أنت العدالة ذاتها !

فكر أبلاي «أنهم يمجدونني؛ لأنني ربطت أولاً خمسة منهم في ذيول الخيول ! ولو أطلقت سراحهم جميعاً دون إراقة دماء لكانوا قد لعنوني»

فجأة سُمع نداء خافت : «جانبيك .. كانبيك ..!» هكذا نادى الجميلة الكونرادية على إخوتها الناجين عندما خرجت من الجانب الآخر من منزل اليورت. توقف الرجلان اللذان أطلق سراحهما، واقتربا منها على استحياء، وسألا عن شيء ما. ثم ذهباً بسرعة ...

فكر أبلاي في نفسه «ربما كان لا يجب إطلاق سراح هؤلاء ...» لكنه نسى هذا الأمر بعد برهة. واضطر إلى أن يتذكره بعد أسبوع عندما اقتنع أن القسوة تدفع الكراهية فقط إلى الداخل، وتنتج مثل هؤلاء الأعداء الذين لا يولدون من تلقاء أنفسهم ...



في تلك الأثناء ، كان لابد من حل لهذه المشكلة . أراد أمراء كوكاند مستغلين عدم إنضمام أبلاي إلى الغزوة (الجهاد) القضاء عليه مرة واحدة وإلى الأبد . إن الحق الآن في جانبهم . ولا يحق الآن لأى من المسلمين تحت تهديد اللعنة الأبدية والموت ، أن يساعد الخان أبلاي . لكن كانت للسهب الكازاخية دائما قوانينها الخاصة القديمة ، التي هي أشد قوة من تكاليف العقيدة . والآن شدت إليه الرحال غالبية عشائر الجزء الكبير من جميع الجهات رافعة رأيته على الرغم من النداءات الصاخبة التي تدمى القلب من جميع مآذن كوكاند وسمرقند وبخارى .

صاح أبلاي :

- أنت يا تروماتى شابارمان ! .

انطلق إليه أسرع رسول عنده ذو العيون المشرقة والحواجب الحمراء الزاهية قائلاً :

- نعم يا سيدي الخان !

- اذهب مرة أخرى إلى قرى عشائر جالاير وأخبرهم بالإسراع إلينا . وقل لهم ألم يحن وقت

قدوم البكوات الجالاير بعدما علمتم بأمر أمراء كوكاند ! ..

- وإذا لم يتكلموا ؟

- هاك سوطي ... ألقه إليهم وعد إلينا !

غادر الرسول على الفور .

دبت الحياة في السهب . ومن هنا أمام التلة أمام جبال كازيكورت كانت ترى من مئات الأميال حولها . حول الخان أبلاي رأسه ناحية الشمال عدة مرات ، وبدأ أنه ينتظر بقلق شخصاً ما . وكان كل من حوله يعرفون حقيقة الأمر ، لقد كان أبلاي ينتظر الشاعر بوخار ...

على الرغم من أنه كان شاعراً عجزاً وابناً للبطل الشهير في زمانه كالكامان ، إلا أنه لم يكن يملك شيئاً . وقد أهدوه أكثر من مرة معاطف فرو ثمينة لكن الرجل العجوز أعطاهم لجيرانه وارتدى بعناد معطفه القديم . وفي فصل الشتاء كان يرتدي معطف



فرو قديم كتلك المعاطف التي يرتديها عادة أفقر الرعاة . لم يكن يملك منزلاً خاصاً به ، وكان طوال حياته يتنقل من منطقة ترحال إلى منطقة ترحال أخرى ، ويقابل بترحاب من جميع الناس ، صغاراً وكباراً . ولسنوات عديدة كان يساند أبلاي في كل ما يفعله ، ولا يخجل من أن يقول له الحقيقة أمام جميع الناس . غير أنه في السنوات القليلة الماضية أخذ الشاعر الشهير يتحدث بشكل متزايد ، عن قسوة وظلم العديد من القرارات الخائبة . وأصبح يظهر قليلاً في مقر الخان ، وهذا ما أقلق أبلاي أكثر من كل شيء . كان يدرك أن صوت الشاعر العجوز هو صوت الشعب ، الكتلة المجهولة التي مع ذلك تفهم وتردد أغاني الشاعر .

في زمن ما إنتقد الشاعر الخان ؛ لتحالفه مع روسيا . وبعد أن أدرك الشاعر العجوز أن هذا الاتحاد قد أنقذ مناطق الترحال الكازاخية من التهديد الشورشوتي لسنوات عديدة أصبح أكثر تعلقاً بأبلاي معتبراً إياه الخان الجديد الموحد . لكن لكي يحقق أهدافه بدأ أبلاي في إراقة المزيد من الدماء ، وأصبح الشاعر بوخار يتجنب الخان . بالأمس تخطى أبلاي كل الحدود . بالأمس قامت الخيول بتمزيق خمسة من الرجال ؛ لرغبتهم فقط في الإبتعاد عن أيدي الخان . ولا بد أن الشاعر بوخار قد علم بذلك . في عشية ذلك اليوم ، أمر أبلاي من أجل تهدئة المغنى بإرسال قطيع من أفضل خيوله البيضاء إليه . كان يعلم أن الخيول الجيدة كانت نقطة ضعف الشاعر العجوز . والآن هذا الرجل العجوز غريب الأطوار والمتمرد الذي بإمكان أغنية واحدة له أن تغير مزاج الأجزاء الثلاثة ، يقترب من مقره على رأس مجموعة صغيرة من الخيالة ..

استطاع أبلاي أن يرى على بعد ميل أن الشاعر بوخار يركب حصانه البني العجوز . لقد كان ذلك تجاهلاً كبيراً لهديئة الخان ، مما ينبئ بالكثير . وعادة ما كان الشاعر على البعد يلمس أوتار الدومبرا ويغنى شيئاً مبهجاً . لكن جاء في صمت تام ، وترجل عن فرسه بصعوبة ، واقترب وانحنى :

- مرحبا يا خان أبلاي !

- هل أنت بصحة جيدة يا شاعري .. كيف كانت طريقك حتى قدمك علي ؟



- لقد غمرتني دموعها ياسيدى الخان!

- أنت لا يعجبك أني عاقبت العصاة؟

- قريبا ستبدو لك السهوب كلها عاصية ياخان أبلاي !

- وماذا كنت ستفعل لوكنت في مكاني أيها الحكيم العجوز؟!

- على الأقل كنت سوف أسأل الناس لماذا يريدون ترك موطنهم ... تذكر يا أبلاي أنه

لن تصمغ خانيتك بالدم وحده . فهذا الغراء لايدوم طويلا !

- أنت على مايببدو تعلمني حكم الناس!

- لا لم آت من أجل هذا ، ولكن لمساعدتك في شيء أستطيعه ...

- وما ذاك؟

- أساعدك في إبقاء الناس في وطنهم . فإن غيوما ثقيلة جداً تجمعت فوقه الآن!

- حسنا سوف أقبل مساعدتك في هذه المرة يا شاعري ..

في المساء اجتمع مجلس الحرب في يورت الخان ذى الاثني عشر جناحا . أصبح كل شيء واضحا في هذا الوقت . جاء أفراد الاستطلاع الكثيرون الذين أرسلوا ناحية العدو لعرض تقاريرهم . لقد أجرى أمراء كوكاند منذ مدة طويلة محادثات مع القادة العسكريين الصينيين ، لكنهم حتى الآن أرسلوا الجزء الرئيس من جيش آسيا الوسطى العام نحو السهوب . كان ذلك بتحريض من الشورشوتيين وهم يدفعون خان كوكاند الشاب بكافة الوسائل في هذا الاتجاه .

كان جيش كوكاند من حيث العدد أكثر عدة مرات مما يمكن أن يجمعه أبلاي حالياً ، لكنه كان جيشا هجينا ، ولايضارع سلاح الفرسان الكازاخي في الإعداد الحربى . علاوة على ذلك كان في الكتائب الكوكاندية الكثير من الكازاخ الذين نهضوا ضد إخوانهم على مريض . وتقرر أن القوات الرئيسة في الميليشيات الكازاخية من الجزء الكبير بقيادة الأبطال بوكي وساجير وجاباى ، سوف يخوضون حربا ضد الكوكانديين عند نهري أريس ، وبادام ، ويستدرجونهم بعيدا في السهوب . وفي نفس



الوقت سوف يأتي الخان أبلاي مع جيشه المعزز بكتيبة يليتشيبيك باتير من الخلف ويدخل طشقند . ولعل أشد مقاومة يمكن أن توقعها ستكون من جانب القبائل الكازاخستانية المحاربة شانشاكلي وكان نجلى الحربية التي انضمت في وقت ما إلى ولاية طشقند . ولكي لا يحدث هذا تم إرسال الشاعر بوخار الذي يحظى بتقدير الجميع مع مجموعة من الشيوخ كبار السن من أجل التفاوض ...

عندما عاد أبلاي إلى يورته (منزله) تجمد فجأة عند الباب . بالأمس لم يكن لديه الوقت ، لينظر جيداً إلى الفتاة الكونرادية . الآن فقط في وضوح النهار ، رأى جمالها الباهر . وكان من المستحيل أن يحول عيناه عن جمال وجهها المتلألئ .

قال أبلاي بهدوء :

سورشا كيز - «أيتها السمراء» ... هل كنت مخطوبة لأحد من قبل ؟

لوحث بشكل غير عادي برموشها الطويلة قائلة :

- لا ... وهل الخان لا يستطيع ... لا يستطيع ...

مد أبلاي يده أمامه وقال :

- الخان يستطيع أن يفعل كل ما يريد ! - ستكونين زوجتي الثانية عشرة ..!

نظرت إليه سورشا - كيز بحدة كوحش جميل ، وفجأة أدركت على الفور سلطتها عليه . وأومضت الأضواء الساطعة في عيونها اللوزية الممدودة .

- سأكون جاريتكم أيها الخان ..

دوى الانتصار في صوتها ، واختفت في الليل في مكان ما إلى الأبد الفتاة الخائفة المرتجفة من الألم . لقد أصبحت بالفعل التوكال القادمة أصغر وأحب زوجة ، والتي لا ينبغي لأحد كائنا من كان أن يتشاجر معها ، وإلا سيكون في خطر عظيم . والآن سوف تنتقم من باقي العالم جزاء تلك الليلة الرهيبة من الألم والمهانة . كان الخان أبلاي المحنك والذي لم يثق بأحد في حياته ينظر إليها بعشق كرجل أعمى ينظر إلى الشمس ...



خرجت وراءه ، وفعلت ما يسمح به فقط للزوجة . فقد ساعدته في الجلوس على الجواد الخاني الشهير جالين كويرك . اندهش الجميع من ذلك الأمر ، لكنهم إتزموا الصمت . غير أن أحد الحراس من غير الأذكياء ، قال لها بعد أن ودع بعينيه الخان الراحل بصوت غير لطيف :

- ياهذه خذى أشياءك من هنا فقد غادر الخان !

لم تنظر سورشا . كيز حتى ناحيته ، ولكنها أشارت لقائد الحرس قائلة :

- اضرب هذا مائة عصا وضع قدماه في القيود الخشبية حتى قدوم الخان ، والذي سيأمر بسحب لسانه ..

أمر «جامانتاي باتير» رئيس حرس الخان بوضع الحارس في القيود الخشبية . أما سورشا . كيز فقد استدعت رئيس حرس الخان الشخصيين وقالت له :

- إعد لى المهرة البيضاء وزينها بالفضة . فسوف أركبها لأقابل الخان أبلاي ! ..

بعد ثلاثة أيام اندلعت الحرب شرق مدينة تركستان بين ميليشيات الجزء الكبير وجيش كوكاند الرئيس . ووقع عليم خان ذو المزاج الحاد والأهوج بسهولة في مصيدة المحاربين الكازاخ من ذوى الخبرة . لقد إتبعوا تكتيكات الرجل القديمة ، وسحبوا جيش كوكاند بعيداً في السهوب . سعى عليم خان لعلمه أن المليشيات الكازاخية أقل من جيشه عدداً ، أن يطارد في كل مرة كتائب سلاح الفرسان السهبية المتفلتة منه . وعلى الرغم من أن الأمير يردين الأكثر خبرة أقنعه بالعدول عن شن الهجوم القادم ، فقد هرع خان كوكاند إلى تركستان ...

في هذا الوقت ظهر أربعة آلاف من المحاربين المختارين بقيادة أبلاي على مشارف طشقند . لم يستطع المواطنون الخائفون والحامية الصغيرة التصدى لسلاح الفرسان الكازاخي الرهيب .



وقف جيش كوكاند الرئيس والذي تم استدعاء الجزء الأكبر منه ، وفقا لقانون الجهاد ، وتكون من أناس لم يحملوا السلاح في أيديهم من قبل ، تحت أسوار تركستان. قام الكوكانديون بالهجوم ورغم أن عددهم يفوق عدد المدافعين عن تركستان عدة مرات إلا أنهم لم يتمكنوا من اقتحام المدينة . وما إن تجمعوا في مكان واحد لشن الهجوم كما لو أنهم قد خرجوا من تحت الأرض حتى انطلق المئات من السهوب الكازاخية، وخرج من أبواب المدينة في مواجهتهم كتائب المحاربين التي ترتدى الدروع وتحمل الحراب . فقد الجنود الكوكانديين المضغوطين من كلا الجانبين اترانهم ، وأصيبوا بالارتباك. استمر هذا الوضع مدة ثلاثة أيام . وفي صباح اليوم الرابع سرى خبر بين المحاصرين «أبلاي في طشقند !»

أصيب الناس بالذعر . فقد سرت شائعات جديدة مفادها ، أن الشاعر العراف بوخار قد أقنع الكازاخ الذين يعيشون بالقرب من طشقند من عشيرة كانجلي بأن يدعموا أبلاي وأنه من سارى أركا يتحرك الآن جيش كازاخي كبير . صارت الكتائب غير المتجانسة التابعة للملاك الصغار ، التي انضمت إلى عليم خان بالهرب في اتجاهات مختلفة . حينئذ أرسل وزراء كوكاند المحنكين ممثلهم إلى أبلاي ، واقترحوا مستشهدين بقانون العقيدة خلال الحرب المقدسة (الغزوات) أن يعتبر الحرب الناشبة بين المؤمنين سوء فهم . وافق أبلاي على ذلك ، بعد أن حصل منهم على العديد من التنازلات.

ليس هناك شيء أكثر سعادة من العودة إلى السهوب بنصر تحقق بسهولة ودون تضحيات كبيرة ! هرولت الخيول الكازاخية قوية الأرجل ، ودوى الضجيج والضحك هنا وهناك . ودبت الحياة حتى في كبار السن المتجهمين قليلى الكلام . لكن كان هناك شخص واحد فقط بدا وكأنه غمرته سحابة سوداء . لقد كان البطل طويل القامة أسمر اللون ، الراكب في مقدمة كتيبة كونراد أسود من الليل ، وكانت عيونه المحتقنة بالدم تسترق النظر إلى الراكب تحت الراية البيضاء الخان أبلاي . أنه كانيبيك أحد الناجين من المجزرة التي إرتكبها أبلاي بحق أقارب الصغيرة سورشا - كيز «السمراء» .

لقد أبلى مع شقيقه أثناء الدفاع عن تركستان بلاء حسنا ، وأسر أحد القادة العسكريين من كوكاند .. في بداية الحصار جرح جانيبيك ، وأرسل في اليوم الأول إلى قريته أما كانيبيك فقد حارب حتى النهاية . لكن عيناه كانتا تبعثان بلاهودة في ساحة المعركة عن أبلاي ؛ لأنه لم يكن يعرف أن الخان ذهب إلى طشقند . لقد كانت



كلمات الصغيرة قندوز وهو اسم «سورشا - كينز» الحقيقي والتي توجد الآن بيورت الخان تدوي في أذنيه ، أكثر من ضواء وصيحات المحاربين .

لقد قالت له بعد أن نادى عليه معه شقيقه في إثر تخلص قدميهما من القيود الخشبية:

- لقد أنقذتك يا جانبيك !

قال دون أن يعرف بأية وسيلة استطاعت هذه الفتاة انقاذه ، والتي تواعد معها منذ أن كانوا أطفالاً أن يكونا معاً دائماً :

- إذن لنهرب معاً !

قالت بصوت غريب مبتعدة عنه :

- لا يا كانبيك ، سوف أكون زوجة الخان ! ...

بالإضافة إلى ذلك ، سمع اسمه بالقرب من تركستان وهو يمر من جانب إحدى نيران المخيمات ، والتي كان يجلس حولها كونراديون من فرع آخر . «نعم بالطبع إذا كان مصير البطل كانبيك يعتمد على حلاوة المكان الخفي في جسد الجميلة قندوز ...» مزق الضحك الجماعي قلب البطل .

«الموت لقندوز التي إشترت لي الحياة بهذا الثمن» ! .. الموت لي أنا الناجي من الموت بفضل العار ! .. والموت لك أيضاً يا خان أبلاي ! .. هكذا همس ثلاث مرات كانبيك باتير . لقد خرج بالفعل عدة مرات من التشكيل العام للجيش ، ليختار مكان إطلاق السهم في الخان ، ولكن في كل مرة كان شخص ما يحجب عنه هدفه .

ظهر على البعد عدد كبير من اليورتات والخيام المتنقلة ، وهذا ما يعنى أنه مقر الخان . ابتعدت عن القرية كتيبة كبيرة من الخيالة للقاء المنتصرين . وكانت في المقدمة جميلة لم يرمثلها على حصان أبيض كالثلج تغطي جسدها بالكامل بالحرير والفضة . إندفعت للأمام ، وتوجهت نحو الخان ، ثم قفزت على الأرض بسهولة ، وانحنت أمامه كما ينبغي على الزوجة أن تفعل . مدت كلتا يديها ، ولمست ركابه الذهبى ، وفجأة تجمدت . وبعد أن وقفت سورشا كيز كأنها في غيبوبة ترنحت ، وسقطت مثل برعم أبيض مائل على رمال الصحراء ...



انحنى أبلای في دهشة . لقد انغرز في قلب الكونرادية الصغيرة سهم طويل خارق للدروع .

سأل الخان بهدوء وهو ينظر إلى صفوف جيشه :

- من فعل هذا؟

- هذا قدرك أيها اللعين أبلای !

كان القوس الخوارزمي الثقيل لايزال مشدودا في أيدي كانيبك القوية . ولكن في نفس اللحظة تأوه الفارس الكونرادى بصوت خافت ، وبدأ في السقوط على ظهره . أرخى يده اليمنى ، وطار السهم الثانى خارق الدروع الموجه للخان في السماء الزرقاء . أما على الجناح الآخر من جيش الخان ، فقد ألقى كابان العجوز أشهرامي سهام في السهوب كلها خلف ظهره بهدوء ، قوسه البسيط المصنوع من خشب شجرة البتولا ...

حدث كل هذا بسرعة ، بحيث لم يفهم أحد في البداية أى شيء .

سأل أبلای بعد أن اقترب بفرسه من كانيبك المقتول :

- من هذا؟

قال رئيس الحرس الخانى :

- أنه قريبها الذي عفوت عنه !

ثم وصل الخان إلى سهم كابان وقال :

- لماذا رميته بالسهم؟

- لقد وجه سهمه نحوك يا أبلای !

ترجل أبلای عن حصانه ، وذهب إلى سورشا - كيز الراقدة على الرمال . كانت لاتزال كما في السابق تشبه البرعم الأبيض ، غير أنه كانت هناك بقعة حمراء صغيرة انتشرت على الحرير أمام القلب مباشرة .

نظر إليها الخان أبلای طويلا ، ثم رفع رأسه وقال بهدوء :



- فقط في عمر النبي جعلنى الله أعرف السعادة ، وعلى الفور إنتزعها مني ... ربما من أجل كشف خواء وحقارة هذا العالم !..

رأى الجميع فجأة أن الخان عجوز وذو شعر أشيب ... لكن عيناه كانت تشرق كشباب يافع .

صاح بصوت عال على السهوب كلها :

- أنتم هناك ! - إدفنوهما معا لأنهما يستحقان ذلك الجزاء !

دفنوا الجميلة الكونرادية قوندوز مع قاتلها الصغير البطل كانيبك . وبقي حتى الآن في السهوب تل بجوار تركستان حيث يرقدان ...

أقاموا وليمة كبيرة احتفالاً بالانتصار ، شاركت فيها جميع العشائر الكبرى من الجزء الكبير . وكان شيئاً لم يحدث أعطى الخان أبلاي وعائه الخاص الملىء بلبن الفرس المخمر لجانيبيك باتير شقيق البطل كانيبك ، وقريب أولئك الخمسة الذين ربطوا في ذيول الخيل في نفس المكان قبل أسبوعين ومزقوا إربا .

في هذه الأثناء التفت إلى الشاعر بوخار الذي كان في كامل يقظته رغم تخطيه التسعين ونيفاً وقال بهدوء :

- أترى يا شاعري أى نوع من الناس هؤلاء ... من الممكن أن تعول على حبهم فقط عندما تريق دماغهم وتسيل دموعهم .

قال الشاعر بوخار :

- قريباً سوف تحلم أحلاماً سيئة يا خان أبلاي !

كان هذا جدالاً قديماً بينهما ...

توجه الخان العجوز ومغنيه إلى الشمال إلى وطنهم السهبي بجوار جبل كوكشيتاو . لم يسافرا معاً منذ فترة طويلة . ومع كل سنة يصبح أبلاي أكثر قسوة ، ولم يرغب الشاعر



بوخار أن يشاركه الولائم الاحتفالية . كان الخان يأخذ برأي المغني فيما مضى ، ولكن لسنوات عديدة فعل كل شيء دون مشورته . أغضب أبلاي إيمان الشاعر بالكلمة الطيبة ، علاوة على ذلك تعامل مع الناس بقسوة .

قال أبلاي كما لو كان يكمل حديثه :

- نعم هكذا الناس . - خذ منهم روبلاً واحداً ، ثم إرم لهم كوبيكا (قرش) فلا يصير عندهم حاكم أطيب منك !..

حذق الشاعر بوخار في الخان وقال :

- لقد هرمت جدا يا أبلاي ..

- أنت أكبر سنا مني بكثير أيها الشاعر!

- إننى لا أتحدث عن سنوات عمرك أيها الخان ... الناس طيبون و مصدقون ، فلا تسخر من ذلك !

- أنت الذي هرمت وتنزل لعابك .

- لقد أصبحت أكثر حكمة يا أبلاي العزيز ...

- وأنا أيضا يا شاعري ..

نظر الشاعر بوخار حواليه . لم يكن هناك سوى بضع مئات من الجنود سافروا معهم . وانفصل الآخرون ، وذهبوا إلى مناطق ترحالهم بقيادة شيوخهم وقادتهم . تأخر أفراد حرس الخان الخاص ، ووقفوا على مسافة معتبرة .

- لا أحد يسمعنا يا أبلاي ... لماذا تصرفت بهذا الشكل مع البوجبانيين ؟ فأنا أعلم أنهم أقنعوهم ، لكنهم لم يذهبوا إلى الكوكانديين . فكروا فقط ، وقرر إرسال عدد قليل من الناس لعليم خان ؛ لاجراء محادثات . وبدلا من إقناعهم بالعدول عن ذلك انتظرهم رجالك في أحراش نبات الديس . ثم اتهمت جميع البوجبانيين بالخيانة.



- كيف أمكنك أن تعرف كل ذلك يا شاعري؟

- إنني أعرفك منذ نصف قرن يا خاني ..

- نعم تعرف. أنت قلت بنفسك «لقد فكروا فقط»، اليوم يفكرون ، وغدا يقررون .
لقد فعلت ذلك ليكون درسا لهم .

- هذا ليس درسا وإنما مصيبة ... وبسبب المصيبة يهرم الناس وتنحني هاماتهم .

ركبا في صمت لفترة طويلة. وفجأة التفت أبلاي بحدة إلى المغني وقال وعيناه
متقدتان كأنه شاب ، وصوته رنان وعال :

- قل لي أيها الشاعر إن الناس يعدونني خان الأجزاء الثلاثة على الرغم من أن المرأة
- الملكة لم تعتمدني في ذلك المنصب ؟!

قال الشاعر غير مدرك إلى ما يرمى الخان :

- نعم يعدونك آغا خان الكازاخ !

- ومن أجل ماذا سعيت لأكون هذا الخان؟

- قل هذا بنفسك !

- إذا كنت تعتقد أنني أصبحت خانا من أجل مطامع شخصية و فقط من أجل حكم
الناس فهذا يعنى أنك لم تعرفني بعد. لا ليس من أجل هذا أصبحت خانا ، وليس من أجل هذا
سفكت الكثير من الدماء ... وفجأة لوح أبلاي بيده ضجراً وقال : - حسنا سوف أحكي
لك عن هذا في وقت آخر ..

لمس الشاعر بوخار حصانه بهدوء . تحدث أبلاي مرة أخرى فقال :

- أرى أنه في كبرك قد أصابك الخوف فجأة يا شاعري الوفي . هل تندم أنك كنت
تساعدني طوال حياتك ؟ لا تحزن ومن الأفضل أن تجيبني على السؤال التالي ... أليس من
الأفضل للكازاخ بعد المحن الكبرى ، حين لم يبق نصفهم على وجه الأرض ، وبعد كل
الحروب وغزوات الأعداء أن يكون لديهم خان تخشاه وتطيعه جميع القبائل والعشائر
الكازاخية؟ هل يمكن للكازاخ البقاء على قيد الحياة في هذه الأوقات الصعبة دون أن



يكون لديهم شخص مثلي؟! أجبني يا شاعري!

كان الشاعر بوخار هادنا تماما حتى أنه لم يلتفت برأسه إلى الخان، ووجه كلامه إلى مكان ما في الفضاء قائلا :

- نعم لولم يكن هذا ، لم يروني بجانبك يا أبلاي ! لقد مجدتك في غنائي . ولكنني لست أتكلم عن هذا ، وأنت تعرف ذلك جيدا ...

- تكلم يا شاعري !

- بينما كنت تقاتل الجونغاريين والشورشوتيين وتنتصر على أمراء كوكاند لم تكن مضطرا كل ساعة للمشاجرة وقتل الناس . تذكر يا أبلاي كيف غفرك الناس حتى وفاة بوتاخان المقتول بسببك في الحفرة المقبرة التي وضعته فيها . لقد كنت حينذاك مجرد سلطان ، وجاء خمسة آلاف رجل لقتلك لخروجك على القانون . ولكن ليس لأنك وضعت الطعام في الأواني وحليب الفرس في الأكواب ، لم يمسه الناس . فقد رأوا أنك أول من سيقاتل الحاكم الجونغاري . لقد رأوا صدقك في ذلك الوقت . كان الناس في حاجة إلى زعيم قادر على جمعهم معا لصد العدو ...

سأل أبلاي بلامبالاة :

- وماذا حدث بعد ذلك؟

- ثم ... ثم مات بايان باتير ..

- ماذا تريد أن تقول أيها الشاعر؟

قال الشاعر بوخار ناظرا إلى مكان ما في السهوب :

- ليس صحيحا أنه لم يستطع أن يعيش أكثر من ذلك ؛ بسبب قتله لشقيقه الحبيب - لقد كان بايان يثق بك حتى النهاية ، ولكن عندما أصبح واضحا للجميع أن تغادر ألتين إيميل تاركا الإخوة الثائرين في سنجان من الجزء الكبير في وضع حرج ، لم يستطع أن يعيش أكثر من ذلك . في مثل هذه الحالات عادة يعتقد الحكام أنه لا أحد يعرف أي شيء ...



- لكنني لا أستطيع أن أحارب الصين!

- نعم ولكن على الأقل كنت تستطيع أن تنقذ العشائر الثائرة من الإبادة!

حقق أبلابي عيناه بمكر وقال :

- ألم تكن أنت أيها الشاعر من حمس المنسحبين حينذاك بالأغاني؟

- نعم لقد فعلت أخطاء كثيرة في حياتي ...

- حسنا تكلم أيها الشاعر!

- إنك غادرت «التين- إيميل» من أجل رغبتك في أن تصبح خانا . وهناك تباعدت طرقتك

مع الناس ومع المستقبل أيها الخان ! .

هزأبلابي رأسه متفكرا :

- «المستقبل» ... - ما هذا ؟ .. وماذا عن «الناس» ؟ .. إن هذه الكلمات لم يعرفها سلفي

جنكيز خان وغزا العالم؟!

- أين هذا العالم الذي غزاه يا أبلابي ! لم يبق منه سوى ياسنا ... ذلك هو الجواب على

السؤال ماذا تعني كلمة «المستقبل». أما «الناس» ... «الناس» لا تنسى أي شيء أبداً ...

يبدو لك ياخان أبلابي أنك قد خدعتهم !

- ولما خدعتهم؟

- هناك بالقرب من التين- إيميل حينئذ-... حدث هذا معك على نحو متزايد لأنك

لم تعمل فقط على إنشاء خانيتك . لم تعد الكتائب التي جمعتها تدافع بل تهاجم

الكاراكالباك و الباشكير ، والقيرغيز وعشائر ك المتمرتدة على نحو متزايد ...

- ولكن ألم يكن ذلك من أجل هيبة دولة الكازاخ ؟ ...

- لا أيها الخان ... هذه هيبة وهمية ... تذكر مذبحه جايل .



صمتا معا ، وأخذاً يتذكران جبالات من الجثث . هناك في الممر الضيق ، رقد الفرسان الكازاخ والقيرغيز واحداً فوق الآخر مختلطين ولمدة ثلاثة أيام وأصبح لون الماء في النهر الجبلى أحمر . عبر أبلاي مع فرسانه مشيراً إلى الغارات المتكررة وعمليات الانتقام التي قام بها الحكام القيرغيز في ممر شاتو ، وهجم على قرى عشيرة سولداتي القيرغيزية الواقعة على ضفة نهر تورو . هرب القيرغيز الذين أخذوا على حين غرة إلى وادي تشو ، وهناك على ضفاف نهرى كزىلسو وشامسى وقعت المجزرة الشهيرة . ويقال إنه قد بقى على قيد الحياة من عشيرة سولداتي البالغ عددهم أربعين ألف أسرة أربعين شخصاً فقط . لقد كانت مجزرة حقيقية ، أما من بقى على قيد الحياة من العشائر القيرغيزية المجاورة فقد نقلهم أبلاي إلى سارى أركا كعبيد . وحتى الآن هناك قرى تسمى باى - قيرغيز ، وجان - قيرغيز ...

قال أبلاي :

- بعد ذلك لم يتعرض لنا الباريماتشى القيرغيز لفترة طويلة ... - ألم أفكر في هدوء الحدود عندما مشيت على الجليد عبر ممر شاتو؟!

صاح الشاعر بوخار وهو يهز قبضته الجافة :

- اللعنة على هذا اليوم !

- لماذا؟

- لأن الكراهية زرعت في هذا الممر الضيق !

- ولكن ألم يهاجم حكامهم مراعيينا !

- نعم لقد أرسلوا رجالهم لشن غارة علينا ، وأنت سقت جيشك للهجوم عليهم . وأضاف الخان الكازاخى والحكام القيرغيز إلى أنفسهم مجداً ، وماشية وعبيداً . لكن النار والقنابل سقطت على أشخاص أبرياء . وقتلوا رجالاً بسطاء جداً . لقد أردت أن يتسرب سم الكراهية بين الشعبين إلى اللحم والدم . ونبتل إلى الله ألا تبقى هذه المذبحة في ذاكرة الناس . وكان من المفيد للخانات والسلطين أن ينتقل هذا السم من جيل لآخر . أقرب الإخوة لنا هم القيرغيز ، ولكن بقيت بيننا المذبحة التي إرتكبتها أنت ...



- هل سيتذكرونها أبداً ؟
- أعتقد أنهم سينسون سريعاً عندما ...
- تكلم أيها الشاعر!
- قال الشاعر بحزم :
- عندما لا يبقى خانات ومانابات (الحكام القرغيز) .
- ابتسم الخان أبلاي ابتسامة عريضة وقال :
- حسناً يسمح للشاعر العراف بالتحدث ليس فقط عن القصص الحقيقية ، ولكن أيضاً القصص الخرافية !
- إنك تعلم يا أبلاي أنها الحقيقة ، والتي لا تهم القيرغيز وحدهم ..!
- وفيما أنا مذنب أيضاً برأيك ؟
- وهل تعتقد أن العشيرة الكونرادية بوجبان ، سوف تنسى أن رجالك المخلصين من عشيرتي المجيدة أتيجاي - كاراؤول قد ربطوا محاربيهم بذيول الخيل ومزقوهم إربا ؟
- ولكنني ما زلت على قيد الحياة !
- إنك لست مخلداً يا أبلاي . ولسوف تتفتت خانيتك الضخمة بالدم وجسدك المسجى لا يزال دافئاً لم يبرد بعد .
- هذا ما كان يدور في خلدني عندما تحدثت عن المستقبل . عاجلاً أم آجلاً سوف يأتي الدم المسفوك . زرع الشر أسهل من القضاء عليه . وأنتم ما زلتهم تزرعونه أنت يا خان أبلاي وخان نورالي من الجزء الأصغر ، وأمراء كوكاند ، ومانابات القيرغيز والملوك والوجود يخانات !
- كان هكذا دائماً !
- ولكن هل سيكون هكذا دائماً ؟!
- يعني كل أغانيك عني كانت كذبا أيها الشاعر؟



- لقد غنيتهم عندما كنت أؤمن بعدلك . وصدقت فترة طويلة أطول من الآخرين . وهذا لن يغفره لى الأحفاد أيضا ، لأن الشاعر يجب أن يرى أفضل من الآخرين!

مرة أخرى ، ركبا في صمت مدة طويلة . وعندما غطت الخيوط الحمراء كل السماء في شمال شرق البلاد ، كبح أبلاي جماح فرسه ، وأشار بيده إلى المرح عند البحيرة السهبية حيث قضوا ليلتهم . ثم مشى بهدوء إلى الشاعر بوخار الذي كان يراقب نصب الخيمة ، وقال كعادته دائما جملا قصيرة متقطعة :

- الخير، الشر... ليسا من اهتمامات الخان . وأن خانيتي سوف تنهار فهذا ماتعتقد أنت ... وانبى أعلم بها منك . ولكن ليس لأن هذا الغراء الذي ربطت به العشائر والقبائل معا إختلط بالدم ...

- ولماذا ياخان أبلاي ؟

أصبح صوت الخان مختلف تماما ، هادئا ، ومتأملا :

- أنت تعلم أيها الشاعر أنني زرت أومسك ، ومدن روسية أخرى ...- وفي كل مرة أذهب إلى هناك ، كنت أترك أفراد حراستي على حين غرة ، وأسير عدة أيام ، وأشاهد . أنها ليست كمدن سمرقند وبخارى . لا فهي لا تزال أصغر منها بكثير ، ولكن هناك الشوارع مستوية ، والمنازل تقع على مسافة متساوية من بعضها البعض ...

اندهش الشاعر وقال :

- وماذا في ذلك؟ .. إذا كانت الشوارع في بخارى وكاشغر متشابكة ...

- هل تعرف فيما كانت قوة جيش جدى جنكيز خان ؟ إنه كان مقسما إلى تومينات (كتائب) وكل تومين يتكون من عشرة آلاف فارس . وفي كل تومين يعرف كل فارس مكانه . ويتحرك الجيش في هذا النسق ، وكل واحد منهم يكون مسئولا عن جاره برأسه . وكان الجيش يتحرك ، ويتحرك مادام حيا ، وعندما مات جنكيز خان أصبحت التومينات متشابكة ، وتعوق بعضها البعض ...

- وماذا في ذلك ؟



- الآن جميع تلك الشعوب التي زرعت الخبز، وكانت تخشى هذه التيومينات يبنون حياتهم على هذا النحو . لكنهم إنتهجوا حياة الاستقرار ، وفي هذا تكمن قوتهم الرهيبة، وكما تسميه أنت «مستقبلهم» .. أنهم يستقرون في نظام كامل كما لو أنهم يصطفون تومينات (كتائب) . ويسمى هذا عند الروس «أحياء». لقد قمت بعدهم ففي كل حي اثني عشر منزلا ... ولايستطيعون المغادرة أو الترحال . وفي الأرض يغرسون الأشجار ويزرعون القمح . ويذهبون عميقا تحت الأرض . لقد رأيت هذا في أوست ستون وفي جايك . ينقبون عن خام الحديد ويصنعون المدافع والمحارث . أما نحن فننطلق في السهوب ونفرح أنها كبيرة . ولكن من كلا الجانبين تضغطنا حياة مختلفة . وسوف نختفي ، إذا ... إذا لم نتعلم بناء مثل هذه الأحياء ، وزراعة الأشجار واستخراج خام الحديد ...

قال الشاعر بوخار :

- حدث كل هذا في زمن مضى في بلد الكازاخ . ثم جاءت تومينات جدك وكما الغبار على طرق الكون اختلطنا وسرنا ورائهم ...

- ربما يتسنى لي وأنا من نسله إعادة ما تم تدميره ...

- لهذا السبب كنت منذ فترة طويلة ، تنظر إلى المدن الروسية !

كانت في نظرة الشاعر العجوز إلى الخان الدهشة والخوف .

في يوم وصوله إلى منطقة كوكشيتاو ، علم الخان الفخور أبلاي أنه بناء على أوامر الحاكم العام لمدينة أومسك ، تم البدء في بناء حصنين جديدين على المراعي الخاصة بالخان عند بحيرة زيريندا وفي سانديكاتا و دون الاتفاق معه . وفي هذا الوقت بالذات انتشرت شائعات عن القلاقل في الإمبراطورية الروسية ، زاعمين أن القيصر الروسي بطرس الثالث ظهر ويخوض حربا من شواطئ جايك إلى بطرسبرج . وقرر الخان الاستفادة من هذا الوضع . وبناء على الإستدعاء الصادر منه بدأت تتجمع الميليشيات التي سرحت



منذ مدة قصيرة . وقرر أن يهاجم معه ، ويدمر حامية كوكشيتا و الروسية ، المكونة من ستة آلاف روسي والحصون المجاورة ، والاستيلاء على مدن جديدة . وبدوره بدأ الحاكم العام سحب القوات إلى حدود السهوب . وفي جميع القلاع كانت المدافع جاهزة للإطلاق ، لكنها كانت موجهة إلى اتجاهين نحو السهوب وفي الاتجاه المعاكس والذي من خلاله يمكن أن تظهر دوريات بوجاتشيف في أي وقت . وأصبح من المعلوم أنه باستثناء أورينبورج استولى المتمردون تقريبا على كل الحصون بنهر جايك أما التولينجوت الباشكيريون فقد انضموا بكل قراهم إلى الدجال .

نعم لقد كانت لحظة مناسبة ، كي يعيد بضربة واحدة جميع أراضيه ، ويحصل أيضا على غنيمة معتبرة . وكان من غير المحتمل أن تصمد الحاميات الروسية قليلة العدد أمام سلاح فرسان أبلاي الذي إشتد عوده في الحروب المستمرة . وبالإضافة إلى ذلك فإن الجنود في هذه الحاميات يهاجمون الملكة علانية . ومع كل يوم يهجرها الكثير من الجنود ، ويذهبون إلى بوجاتشيف . استعد أبلاي بالفعل لعقد مجلس خاني كبير والقيام بعمل عسكري . وكان الهدف الأول الذي وضعه نصب عينيه هو المطالبة بالإعتراف به خانا رئيساً للأجزاء الثلاثة .

ولكن فجأة تغير كل شيء ... لقد أخبروا الخان عن أحد التولينجوت (الحرس الخاني الخاص) والذي يحمل معه رسالة من قبل بعض المحاربين الكازاخ . وفي الرسالة تم دعوة الفرسان الكازاخ لمهاجمة الحصون الروسية ، والاستيلاء عليها ، وبعد ذلك يتوحدون في كتائب ويذهبون لنهر جايك إلى الملك الجديد الذي يعد الجميع بالحرية الروس ، والباشكير ، والكازاخ حتى وإن كانوا من أقنان الأرض أو من التولينجوت التابعين للخان . لم يجد حراس الخان الرسالة ، ولكن قادوا التولينجوت المتمرد إلى الخان نفسه .

سأل أبلاي وهو ينظر إلى وجه التولينجوت المشوه :

- من أنت؟

حتى دون أن يحيي التولينجوت رأسه نظرفي وجه أبلاي بتجهم . كانت فتحات أنفه ممزقة ، وعلى جبهته وسم بالنار الحرف الروسي «B» والذي يعني «لص» . هذا العلامات المميزة كانوا يضعونها في المناجم الروسية لأولئك الذين يخرقون النظام أو يحاولون الهرب .



- ألا تعرفني يا خان؟!

بدا الصوت مألوفاً لأبلابي .

- أين الرسالة التي أحضرتها من قبل الأبطال الأذعيا؟!

قال التولينجوت مظهراً أسنانه القوية البيضاء :

- إن لقب الباتير (البطل) يتم الحصول عليه في ساحة المعركة ، وليس إضافة إلى

قطعان والده !

وهنا عرفه الخان . كان كيري حفيد الحداد ناوان وحفيد البطلين من سلالة العبيد كياك وتوياك ، والذي كان يحب الشاعر بوخار أن يحكي عنهما . على أسوار ساوران قتل جده . ولعدم دفع الدين أصبح عبداً لأحد السلاطين . وأراد سيده أن يأخذه إلى فراشه ابنته الصغيرة فضربه بخنجر . وحكم عليهما حينذاك أبلابي ، وسلم القائل للسلطات القيصرية . وحكمت عليه المحكمة القيصرية بالأشغال الشاقة في المناجم ...

قال الخان أبلابي :

- لقد عرفتك أيها الراعي كيري ! . - وماذا عن ذلك الملك الروسى الجديد الذي يعمل

عنده القتلة؟!

ابتسم الراعى كيرى ابتسامة عريضة وقال :

- قتل سلطان يعنى التخلص من نصف الخطايا أمام الله !

- وكيف تتخلص من جميع الذنوب ؟

أجاب كيري بهدوء :

- أن أقتل خاناً !

رغم التعذيب لم يقل لمن سلم رسالة أبطال بوجاتشيف . وفي صباح اليوم التالى ، ربطوه في ذيول خيول الخان ومزقوه إربا . لكن في صباح ذلك اليوم غادر خمسمائة فارس من قرية التولينجوت الخانية إلى الدعي . وعندما لحقهم الخان مع ٥٠٠ شخص من حرسه الأوفياء



بعد يومين عند نهر صغير في السهوب ، ذوت طلقات ناريتة من جانب الفارين . اتضح أنه مع التولينجوت الكازاخ الفارين غادرت إلى بوجاتشيف سرية من الجنود الروس من حصن صغير بالقرب كوكشيتاو بعد أن قتلوا ضباطهم .

اضطروا إلى التراجع . وعندما عاد الخان أبلاي إلى مقره علم أن نصف الميليشيات من عشائر كاراؤول القاطنة بالقرى الحدودية لم ينصتوا لدعوته . وقال له البكوات إن أفقر الفرسان - «العظم الأسود» - أي جميع التولينجوت تقريبا من هذه القرى ذهبوا للمتمردين الروس . وهؤلاء البكوات الذين جاء معهم الشيوخ الأغنياء لم يريدوا العودة إلى قراهم . في كل يوم كان يفروا واحد أو اثنان ، ومئات من الفرسان من كوكشيتاو نفسها حيث تجمع الميليشيات . سيطر الذعر على كل الوجاهاء في السهوب . وذهب كثير من البايات مع أسرهم إلى القلاع الروسية ...

أسبوع كامل لم يخرج فيه الخان أبلاي من يورته (منزله) ذي الإثنى عشر جناحا . ثم أرسل الخان أبلاي رسله بمرافقة مئات الفرسان ، فذهب أحدهما إلى الحاكم العام لسيبيريا ، والثاني إلى مدينة أورينبورج المحاصرة من قبل بوجاتشيف ، والثالث لعدوه اللدود الخان نورالي . بعد ثلاثة أسابيع في قلعة صغيرة عند توبول إتقى الخان أبلاي الخان نورالي بحضور ضباط قياصرة من أومسك وأورينبورج .

بعد هذا اللقاء مباشرة أغلقت كتائب الخان نورالي والخان أبلاي السريعة جميع الطرق في السهوب . وتم القبض على الفارين إلى بوجاتشيف من فرسان السهوب ومن الجنود الروس . وأعدم الهاربين من فرسان السهوب على الفور ، في حين سلم الجنود الروس إلى من سيقومون بمعاقتهم . وشن الخانان بجهود مشتركة غارة وحشية ضد الباشكير المتمردين ، وتم تزويدهم بالقوزاق والأولان المواليين للحكومة .

حينذاك غنى الشاعر بوخار ، الذي كان يناهز المائة عام للخان أغنية مشهورة :

يا أبلاي لاتختق من الغضب

عند سماعك كلمة الحق

لقد وصلت ذروة الشهرة



ولكن لا يتسع المكان في قافلة واحدة

للبايات الذين سينفجرون من الدهون

وللعوام الذين يموتون من الجوع ! ..

كانوا يسمعون أغنية الشاعر العراف في المراعى وعند نيران المخيمات. وبعد أن رأى أفراد المليشيات الذين إنقطعوا عن العمل أنه ليس هناك أي عدو يهددهم من هذا الجانب، وقد جعلوا منهم جلادين تدمروا بصوت عال. بدأوا في مغادرة مقر الخان على نحو متزايد، وذهبوا إلى ديارهم. وفر معظمهم إلى ما وراء نهر جايك وانضموا للمحاربين الغامضين السائرين تحت راية بوجاتشيف. وكانت المشانق العالية التي ترى من عدة أميال تقف على طول الحدود. وكل يوم ترتوى السهوب بدم الفرسان المقبوض عليهم. ولكن ذلك لم يفلح. ففي كل ليلة توقد المشاعل عبر السهوب كلها، ويندفع الفرسان في ضوءها الخافت إلى ذلك الاتجاه حيث يسطع لهيب تمرد بوجاتشيف ...

أكثر من نصف قرن عرف الشاعر بوخار هذا الرجل. كان يتذكر السلطان الصغير الذي كان يتميز بالشجاعة الفائقة في المعارك مع الجونغاريين، ثم الرجل الناضج، الذي كابد الأسمرتين، ثم رجلاً مسناً فخوراً ومتغطراً يستطيع أن يتحرك بهدوء عبر النهر الذي يتدفق فيه الماء الممزوج بالدم البشري. والآن عندما بلغ المائة من عمره رأى أبلابي الحائر.

كانت عيون الخان أبلابي العجوز تتحرك بسرعة من شيء لآخر، ويده تضغط على السوط بفارغ الصبر ويقول:

- بسرعة... بسرعة ..

جمع حراسه الشخصيين، وخدمه التولينجوت الأوفياء العديد من يورتاته (منازله) البيضاء. وتوجهوا من جميع المراعى الخائبة نحو الجنوب جامعين معا كل قطعان الخان التي لاحصر لها. وركض رسله ليلاً ونهاراً إلى اتجاهات مختلفة. يحثون ويضربون بالسياط المتخلفين. قرر الخان أبلابي الانتقال إلى تركستان العاصمة القديمة للبلاد مع



كل قراه وأقاربه وأهل بيته . ولكن الأمر الآن ليس في قدم هذه العاصمة أو تلك ...

صاح أبلاي عندما رأى المغنى قائلاً :

- جئت أخيراً يا شاعري ! هل كانت طريقك إلينا سلسلة؟!

قال الشاعر بطريقتة غامضة :

- الكثير من الناس الآن على طرق السهوب ...

قال الخان بسرعة :

- نعم الكثير، الكثير! - لقد فسد الناس تماما !

- مع التقدم في السن يبدو كل شيء أسوأ !

لوح أبلاي بيده وهو الأمر الذي لم يحدث من قبل وقال :

- لا ليس الأمر كذلك ! - أنهم الروس فكل شيء قد كان بسببهم ..!

نظر بكرامية إلى شمال غرب البلاد حيث توجد أقرب قلعة روسية .

قال الشاعر مشيراً إلى الضباط الروس الذين يشاهدون تجمع قرية الخان :

- وهامم الروس عند منزلك !.. فهل هم يطاردونك ؟

- لقد جاءوا لإقناعي بالبقاء هنا . أنهم يعدوننى بكل شيء : الذهب، والجوائز

وحتى اقترب أبلاي من أذن الشاعر وقال .. حتى أن يجعلونى خاناً للأجزاء الثلاثة !

- ولماذا لا تريد يا أبلاي ؟

الآن لم ينظر أبلاي فقط حواليه ، بل وقف على قدميه ليعرف ما إذا كان هناك شخص

في التلة القريبة . فقط بعد ذلك وقال هامساً :

- إذا بقيت قرانا هنا ، فلن نبقى على قيد الحياة يا شاعري !

حينئذ فهم الشاعر بوخار .



- لكنك تريد أن تبني مدن مثل الروس يا خاني!

قال بغضب

- اللعنة على هذه المدن! - لقد اعتقدت أنه هناك حاكم وجنرالات وضباط . وفي مدينتهم الرئيسية ملكة مأكرة . كان يمكنني الإتفاق معهم عاجلاً أم آجلاً . ولكن هناك في هذه «الأحياء»، متمردون فقط . وكل مدينة ، وكل منجم تحت الأرض ، وكل قرية ، تعني متمردون جد في أرضنا . لهذا السبب أريد أن أذهب بقرانا بعيداً عنهم . ومثل الجوت تصدر منهم العدوى عبر السهوب ، ويمرض الرعاة ، والتولينجوت ، والعبيد . وتمتليء عيونهم بالدم عندما ينظرون إلى قطعاننا وماشيتنا . لم يكن ذلك من قبل عندما لم تبني عندنا المدن الروسية . أزقة بخاري أفضل! ..

قال الشاعر:

- نعم الآن أنت تقول الحقيقة يا خان!

سأل الخان :

- لماذا أنت وحدك أيها الشاعر؟ - أين مرافقيك؟ فنحن الآن نغادر!

- أنا سأبقى يا أبلاي ..

ارتفعت الشمس عالياً فوق السهوب . وانطفت ودخت نيران المخيمات المتروكة . وقف الشاعر العراف الذي بلغ المائة من عمره على تلة ، ونظر إلى الجنوب . هناك في الضباب الساخن إستقر الغبار وذابت من الحرارة في السماء المشرقة راية أبلاي البيضاء .

ومع ذلك التقى الخان الرهيب أبلاي الشاعر العراف بوخار قبل الوفاة . حدث ذلك في سنة التنين ، أو في عام ١٧٨١ م وفقاً لحساباتنا . وكان هذا العام هو الأسوأ في السهوب . في الربيع لم تسقط قطرة مطر واحدة ، وليلاً ونهاراً كانت تهب رياح جافة تقتل جميع الكائنات الحية . وتشققت الأرض من حرارة لا ترحم ، وتعلق الرمل الأبيض الناعم في السماء حاجباً الشمس ...



توفى أبلاي . عاش واحد وسبعون عاما في هذا العالم ، وبدا له الآن أن الطبيعة تعاقبه على خطاياها ، حيث لم يمض يوم واحد في حياته دون أن يتدفق فيه تيار الدم البشري . استنشق الخان العجوز بضمه الجاف هواء تركستان الساخن ، ولم يسمع من حوله أية تأوهات . انحنى جسده ، وتمزق قلبه وخرق الألم الحاد رثاه لكنه أبقى رأسه للأمام . مع كل يوم كان وجهه يصبح رماديا أكثر فأكثر مثل الرماد الداكن الذي يغطي الجمر المنطفيء ...

وقد بدأ هذا معه منذ ذلك اليوم الذي جلب فيه الشاعر أومبيتاي الخبر المحزن عن بوجيمباي باتير . في ذلك اليوم كان جالسا كالمعتاد في يورته المتنقل بجانب القصر ، ويمسح بتجهم على شاربه الطويل المتدلى . كان هناك الكثير ليفكر فيه . لقد مضت ثماني سنوات منذ أن أعلنه ممثلو الأجزاء الكازاخية الثلاثة خانا للقبيلة الكبيرة . وعلى الفور قام بإرسال سفارة إلى سانت بطرسبرج ، يرأسها ابنه توجوم بطلب إعماده في هذا المنصب نيابة عن الدولة الروسية . بالطبع كان لا يثق في الملكة ، وكانت شكوكه في محلها . لم تغير كاترين الثانية سياستها ، واعتمده فقط خانا على الجزء الأوسط . وعندما كان يفكر فيما سيفعل لاحقا ، جاءت من قرية بايان مجموعة من الشيوخ يلبسون أحذية برؤوس واسعة ، ومعاطف فرو ، وأحزمة فضية عريضة . على عتبة الباب غنى الشاعر أومبيتاي . بصوت أجش أغنية حزينة طويلة تعلن وفاة جوكتاو :

يا أبلاي يا أبلاي ! ..

خان أبلاي ماذا يحدث في هذا العالم الفاني؟

لاتغلق أذناك

خشية أن تسمع ما لا مفر منه .

فهل قليل من الأخبار السعيدة أو الحزينة

سمعت في حياتك الطويلة؟

كان أبلاي يجلس كما ينبغي للخان بوجه حجري غير أن وريدا أزرقا قديماً على خده كان ينبض بقوة أكثر . فكر أبلاي «من من أصحابي ترك هذا العالم» لكن كان لا ينبغي للشاعر العجوز المحنك أن يجيب فوراً على السؤال الأخرس للخان . بدأ



من بعيد وأحصى بالتفصيل متى وأي من الأبطال حارب جنبا إلى جنب مع أبلاي ومن هو من بينهم وبما اشتهر . ودعت الأغنية أن نتذكر أن حياة هؤلاء الناس لم تذهب سدى ، لذا لاداعى أن يكون الحداد عليه مؤثما . لكن فجأة إنخفض صوت المغني مثل بجعة ضربت بالنار في إرتفاع يصيب بالدوار ، واختفت الكلمات ، ولصقت بالحلق :

يا أبلاي يا أبلاي

إستمع إلى كلامي :

أنه أحد رفقائك الأكبر منك سنا

هو من كانت رأسه أحكم من رأسنا

هو من كنت تحترمه في سنواتك الأولى

هو من يساويك في العمر

لأنه بعد الستة والستين الجميع متساوون في العمر

لكن من هو مع ذلك الذي تجاوز الثمانين

توفي بطلنا

توفي بوجيمباي ! ..

حينئذ تعرض قلب الخان فجأة للطعن . وقف أمامه البطل الشعبي القوي بوجيمباي وكأنه حي . لم يخف أبداً أن يقول ما كان يعتقد . وعن ماذا تحدث معه في حين ما بوجيمباي ؟ .. عن ضرورة أن يكون حكيما ... ولن تحصل على الرخاء في خانايك بالحروب وحدها ... عن الإعتماد على القلاع الروسية ومواجهة الرياح الدموية التي تهب من قرن إلى قرن من البوابات الجونغارية ... ومن أجل قسوته وتعطشه للدم البشري لامة الباتير الذي كان يفهمه أفضل من أي شخص ، وعرف كل مزاياه وضعفه . والآن عندما توفي أدرك أبلاي أنه لم يكن هناك أحد أقرب إليه من البطل بوجيمباي . كان الألم في الصدر شديداً بحيث أنه سمع في المنام صوت الشاعر أومبيتاي يواصل الغناء :



سيكون من السعداء كل أولئك

الذين كانوا قريبين من بطلنا بوجيمباي ! ..

وليهبنا خالقنا الثبات في حزننا ! ..

ولتدخل روح الرجل الصالح إلى جنة عدن

لتشرق هناك أبد الأبدين !

على الرغم من أن بوجيمباي باتير توفى في قرية بايان فقد أقام الخان أبلاي ولائم جنازية ضخمة له في تركستان . ومنذ ذلك اليوم بدأ وجه الخان يتحول إلى اللون الرمادي . وكانت نوبات الألم تتكرر في الربيع والخريف، ولكن بعدها لم يستطع لمدة طويلة أن يتعافى .

هذه المرة أصبح أبلاي مدة ثلاثة أشهر طريح الفراش . ومن المعاناة التي لا تحتمل فقد وعيه لفترة طويلة غير أنه كرجل قضى عمره كله في السرج لم يخفض رأسه كما في السابق . وعندما عاد إلى وعيه وجد الشاعر بوخار عند موضع رأسه . أوماً أبلاي فقط برأسه كما لو كان يعرف أنه قبل وفاته حتما سيرى صاحبه القديم .

قال أبلاي بصوت خافت يسمع بالكاد كما لو كان يتعجل أن يقول كل شيء قبل وفاته :

- يا بوخار إيكي لقد طلبت من الله أن يأخذني إليه في ساحة المعركة فقط ... -
لكن لن يكون الأمر حسب رغبتى . لسنوات عديدة لم تدخل رصاصة واحدة إلى قلبي ، ولم ينفذ سهم إلى صدرى ، وها أنا أموت بسبب مرض داخلي تافه . لماذا لم يحقق الله لى هذا لطلب الصغير إذا كان قد حقق طوال عمري الكثير من رغباتي الأخرى !؟

نظر الشاعر بوخار بأسف عميق إلى الخان المحتضر . ورأى في عيون أبلاي الكبيرة بشكل غير طبيعي ، والنافذة إلى الأعماق آخر شرارات الحياة . كان المغني العراف يعلم أن المحتضر ليس واحداً من أولئك الذين في حاجة إلى مواساة حتى قبل وفاته .



قال بادئاً من بعيد :

- نعم يا أبلابي ... - لقد قضيت خمسين عاما على ظهور الخيل . وأريقت أنهار من الدماء من أجل الجلوس على العرش الخاني ! ثم ... ثم قبر حجري فقط ...

وفجأة رأى المحتضريبتسم . أو أن هذا فقط ما بدا له ؟ حرك أبلابي يده قليلا وقال .

- كنت أعرف ماستقول الآن تحدث بشكل أكثرهدوءا حتى أن بعضاً من الطمأنينه ظهرت على وجه هذا الرجل الرهيب . - نعم لقد أسلت كثيراً من الدم والدموع . أكثر أو أقل من الحكام الآخرين فهل هذا الأمر يمثل أى أهمية ؟ لقد أردت أن أصبح خانا منذ صباى . لقد أردت هذا بشدة . ومن من الرجال لا يريد هذا ... والآن قل لى أيها الشاعر أليس الإنسان خلق الله؟

نظر الشاعر بوخار إليه في دهشة وقال :

- كل شيء في يد الله .

- إذن لماذا تصدق أنه حتى شخص مثلي أراد شيئا واحدا فقط ، وهو السلطة على الناس؟

إن هذا قليل ! ..

- وماذا أردت أيضا يا خاني ..

- كنت أحلم بالمجد . نجم المجد سطع لى في ليل الحياة . اعتقدت دائما أن الكازاخ شعب صغير ، ويجب أن يكونوا مثل الذئاب . إنظر أنهم يضعون السم للذئاب ، ويريد كل من هب ودب أن يقتلهم ، ويضعون الفخاخ على جميع المسارات ، لكنها لا تختفي من على وجه الأرض ! .. ولكن سوف تأتي حقب جديدة ، وأرى قبل الموت أننى لم أفهم كل شيء في الحياة . كنت أسير دائما إلى هدفي بالطريقة الدموية فقط . والآن أرى أنه هناك طرق أخرى . ولكن ليحدها أولئك الذين سيأتون من بعدى ...

قال الشاعر بوخار بهدوء :

- نعم، إنك لم تقدر أن تكون شخصا آخر غير نفسك يا خانى . فهل من يتغذى على دم النسريشرب شيئا آخر؟ وهكذا لا يوجد خان دون عنف . وكنت أنت يا أبلابي



النسر الأسود ذي المخالب الحديدية . نعم فليس للبعجة القدرة على مواجهة التنين ...

بدا لأبلابي أنه يصرخ ولكن خرج من صدره العجوز الضعيف همسا أجش فقال :

- إنني أردت القوة والقدرة للأجيال القادمة. - فهل سيغفرون لي خطاياي الأليمة ...

والدم؟!!

- لا أستطيع الحكم على ذلك ...

- لماذا أتيت إذا؟

- كل من حكم السهوب ترك وصية.

- نعم... نعم.... جمع أبلابي آخر قواه ، ورفع يده اليمنى . اسمع أيها الشاعر العراف . على عتبة الموت أريد أن أعطى نصيحتين لخلفائي ، وأحفادي وأبناء أحفادي . ليسهل عليهم حكم الشعب ينغى عليهم أن يصهروهم في قالب واحد . ولا يعاقبون العصاة بالخيل مهما فعلوا ! . وأوصيهم بالوحدة . فمن أجل وحدة القبيلة البيضاء حاربت طوال حياتي .

- حسنا، وماهى النصيحة الثانية؟

- لقد حاربت نصف قرن من الزمان ولم أجعل التنين الصينى يقترب من حلقى . وقد فعلت كل ما في وسعى للتقارب مع القياصرة الروس . أنهم سندننا وليتذكر السلاطين ذلك دائما ! .. أنت تعرف أنه كان لدى مستشار روسى في كوكشيتاو وهو تيمافى إيجوروف . لقد ساعدني في إحضار فلاحين من روسيا إلى شورناندى وذيريندى ليعلّموا التولنجوت التابعين لى زراعة القمح . وقد سمحت لهم ببناء قلاع في السهوب . وهذه الحصون والمدن والطرق وهذا القمح ساعدونا على البقاء على قيد الحياة في سنوات اليأس . ولكن مع هذا القمح جلبوا إلى سهوبنا بذور الشقاق . وينبغي على السلاطين أن يكونوا قريبين من القياصرة . وللحقيقة فقد أغضبتنى الملكة أكثر من مرة . ولم توافق على اعتمادى خانا للأجزاء الثلاثة ، ولكن كما يقولون «لايرم الناس معطف الفرو في النار ، لمجرد أنهم مستأوون من القمل» . وعندما ثار الفلاحون ، والتولنجوت وذهبوا إلى بوجاتشيف أدركت أنه لا أحد أقرب إلينا من الملكة .



قالت الشاعر بوخار بصرامتة :

- أنت لا تستطيع أن تقول غير هذا يا أبلاي ! - حتى قبل الموت لا يغنى النسر للجمع ...
ولكن ماهي رغبتك الأخيرة ياخان أبلاي ؟

بدأت شفتا أبلاي تتحول إلى اللون الأبيض وقال :

- وهل هي قابلة للتحقق يا شاعري . أريد أن أعيش ... حسنا فماذا تقول عن ذلك .
سيكون من الأفضل ألا يخيف الناس أطفالهم باسمي .

نعم لم يكن أبداً يخاف ذلك . كان كل شيء هادئاً في يورت الخان . وبدلاً للشاعر
أن أبلاي نام ، ولكن فجأة فتح المحتضر عيناه ، وقال بصوت واضح وهادئ :

- لقد شاركت في معركتي الأولى هنا - وهنا في تركستان بجانب أسلافي إدفنوني !
- سنحقق رغبتك هذه يا خاني ...

أوماً «أبلاي» برأسه في إشارة إلى أنه سمع كلمات الشاعر ، ولكن فجأة تشوه وجهه
من فرط الألم ، ومرة أخرى تحدث بسرعة وهو يتلع الكلمات كأنه في حالة هذيان .
انحنى الشاعر بوخار إلى وجه المحتضر في محاولة لفهم مايقول . لكنها كانت عبارات
متقطعة وغير مترابطة مع بعضها البعض :

- تجمع الجميع هنا صغارا وكبارا من قطعت رؤسهم في المعركة ... وفي غير المعركة
... والعبد أوراها ، أتذكره ... ذلك الذي أخرجني من خوارزم ... والمذنبون وغير المذنبين -
كلهم يجذبونني بأيديهم ..

- ما هذا ؟ ملك الموت «منكرونيكبير» مع مقمعتة ... هل سيضربني بها على رأسي
كخاطيء كبير أمام الله والناس ؟! «يا بوخار - إيكي» إنك تعرف الله وجميع
ملائكته أفضل مني . قل كل الحقيقة لتهدئة نفسي !

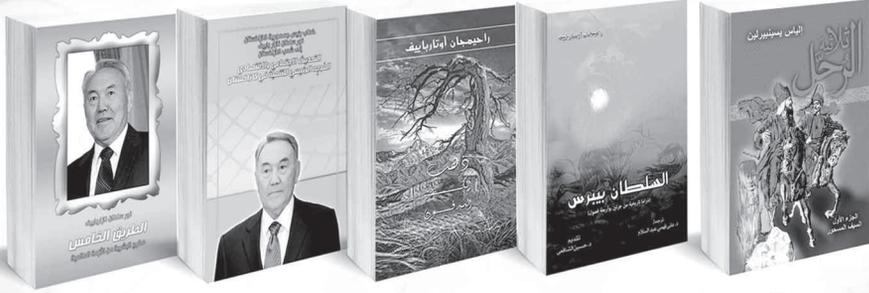
لم يكن لدى الشاعر بوخار الوقت الكافي للرد .



لم يبق المغني العراف في تركستان يوماً آخر. في صباح اليوم التالي بعد دفن أبلاي استوى على ظهر حصانه. وكما كان في صباه لم يكن هناك أحد يرافقه، لأن السهوب هي بيت الشاعر. جلس الرجل العجوز البالغ من العمر مائة في السرج مستويا كما هو الحال دائماً ...

اختفت خلف ظهره ملامح ضريح خودجا أحمد ياسافي العتيق، الذي دفن الخان أبلاي بجواره. لم ينظر الخان بوخار وراءه أبداً. وذهب إلى الشمال حيث تجمع في كتائب حرة الفارون إلى السهوب.

من إصداراتنا



رئيس مجلس الادارة و رئيس التحرير
د / حسين الشافعي
المراسلات
 جمهورية مصر العربية - القاهرة
 القاهرة - مدينة العبور - جمعية احمد عربي
 مكتب بريد - ص. ب. 72
 فاكس & تليفون : 8071 & 246981 70
 h.elshafie57@mail.ru

رقم الإيداع

23655 / 2016